بين يدي الكتاب

دراسة وتحليـــــل

اتصفت الحياة السياسية فى الفترة السابقة للحروب الصليبية ، وفى المراحل الأولى لهذه الحروب ، باضطراب داخلى شمل البلاد الإسلامية فى مجموعها . ففى الشرق خلافة عباسية خاضعة لسيطرة أسرة السلاجقة التى تدهور نفوذها وتفكك سلطانها ودب النزاع بين أمرائها حول السلطة العليا والكلمة النافذة . وفى مصر ، وما يتبعها ، خلافة فاطمية متداعية تنازع خلفاؤها ووزراؤها ورجال القصر فيها حول السلطة العليا والكلمة النافذة كذلك . ووقعت سوريا وفلسطين بصفة خاصة بين المطرقة والسندان ، تتجاذ بهما القوتان ، الشرقية والغربية ، أحيانا ، وتعجز كل منهما ، فى أحيان أخرى ، عن أن تقر فيهما نفوذها وسيطرتها بصورة دائمة أو فعالة .

وأتاح هذا الجو المضطرب الفرصة للأمراء المحليين بالشام والجزيرة العراقية ؛ فاستقل كل بما تحت يده ، وعمل على توسيع نفوذه وبسط سلطانه إلى ما وراء حدود إمارته ، إن استطاع ، على حساب جيرانه من أمثاله من الأمراء المحليين الطامعين الضعفاء . فتوزعت هذه المنطقة التى تقع فى مكان القلب من الدولة الإسلامية ، إلى إمارات عدة ، تركزت حول الموصل ، وأنطاكية ، والرها ، وحلب ، ودمشق ، والقدس ؛ وغيرها من الإمارات التى لم تكن لها حدود ثابتة دائمة ، والتى لم يجمع بينها ولاء واحد للخلافة العباسية أو للخلافة الفاطمية ؛ بل كان كل منها يتجه بالطاعة والخضوع نحو الجانب الذى ارتبطت به مصلحة الأمير المسيطر ، وإن كان هذا الارتباط مؤقتا فى كثير من الأحيان .

وحدث أن كانت الحياة السياسية فى أوربا تمر بمرحلة قلقة كذلك ، تنافرت فيها أطماع أمراء الإقطاع ورؤسائهم ، وتنافست فيها السلطات الدينية والمدنية ، وتدهورت الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وأصبح من الضرورى وضع حد لهذه الفوضى الشاملة بطريقة أو بأخرى .

وفى هذه الظروف المضطربة ، فى الشرق الإسلامى وفى الغرب المسيحى ، أخذت

رسالة من الإمبراطورية الرومانية الشرقية طريقها إلى أوربا تستنجد بها ضد الأتراك (السلاجقة) ، الذين تهددوا ممتلكاتها وقلموا أظفارها . ووجدت أوربا فى هذه الرسالة وسيلة الخلاص من المتاعب التى تعانيها ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ؛ ووجدت فيها الكنيسة الغربية ، بصفة خاصة ، فرصة مواتية للنشاط والسيطرة و بسط النفوذ ، وأملا عريضا فى توحيد المسيحية فى الشرق والغرب تحت نفوذها وسيطرتها .

ثم اندلعت نيران الحروب الصليبية فى بلاد الشام والجزيرة ؛ وهى الحروب التى توحدت فيها جهود أمراء الصليبيين لإصابة عدة عصافير بحجر واحد ؛ وعجز الأمراء المسلمون المتنافسون عن صد هذه القوى الهائلة التى كانت تتقدم إلى الأمام فى ثبات وعزم ، رغم ما ظهر بينها من بوادر الخلاف ، وفى آذانها تدوى صيحة البابا : « إنها إرادة الرب » ، وتدفعها عاطفتها الدينية الشعبية إلى الحرب لتخليص الأرض المقدسة من « الترك الكفرة المتعصبين » .

وتكونت الإمارات اللاتينية الأربعة ؛

وأدرك الأمراء المسلمون المتنافسون عظم النكبة التى حاقت بهم ؛

وتحرك الرأى العام المسلم فى الشام والجزيرة ، وفى غيرهما من البلاد الإسلامية التى أصابها الذهول لهذا الحادث الجلل ؛

وتطلع الناس فى هذه البلاد إلى قوة جديدة تنقذهم من الذلة التى أصابت بلادهم ؛

وتهيأت الظروف لظهور هذه القوة ومهدت لنجاحها ؛

وجاء عماد الدين زنكى ، الأمير الطموح ، إلى الشام يضم بعض أجزائها إلى سلطانه . ثم خلفه ابنه نور الدين محمود ، فبدأ من حيث انتهى أبوه ، ونجح فى اكتساب ثقة الناس ، وفى جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم ؛ فالتفوا حول رايته يباركون جهوده فى ميادين الحرب والسلام على السواء . ولبى نور الدين محمود نداء ربه ، فتسلم الراية بعده صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، فاتبع خطواته فى توحيد الكلمة وضم الصفوف ، وواصل حروبه فى مجاهدة الصليبيين ؛ فيجد الناس اسمه فى الجزيرة والشام ومصر والحجاز واليمن ، وقد أصبحت كلها دولة واحدة مترابطة يخفق عليها علمه الأصفر .

وسجل التاريخ هذه الجهود المتصلة التى نجحت فى تحقيق الوحدة ، وحفظها لتكون درساً وحافزاً لمن يجىء بعدُ من المجاهدين المكافحين .

وقد ساعدت الظروف السياسية التى مرت بها بلاد الشام والجزيرة ، والتى أشرنا إليها فى الفقرات السابقة ، على تكوين مجتمعات منعزلة إلى حدما ، نتيجة لضعف الرابطة السياسية بين الإمارات المحلية المختلفة ، واستقلال كل منها بمواجهة مشكلاته ومعالجة شئونه ، فأصبح لكل وحدة من هذه الوحدات السياسية الاجتماعية كيانها الخاص وذاتيتها المتميزة إلى حد كبير . وأصبح من الممكن أن يقال إن طلائع الشعور بالذاتية ، أو بالقومية بعبارة أخرى ، بدأت تجد طريقها الواضح إلى الظهور فى هذه المنطقة فى هذه المرحلة من مراحل التاريخ . فكان من مظاهر هذه العاطفة الجديدة تلك المؤلفات التاريخية التى اصطبغت بالصبغة المحلية ، أو إن شئت فقل ، التى تتميز بالطابع القومى .

فكتب حمزة بن أسد التميمى ، المعروف بأبى يعلى ، عن تاريخ دمشق ؛

وكتب أحمد بن يوسف بن على ، المعروف بابن الأزرق ، عن تاريخ ميّافارقين ؛

وكتب أبو القاسم على بن أبى محمد الحسن بن هبة الله ، المعروف بابن عساكر ، محدّث دمشق ، عن تاريخ دمشق ؛

وكتب أبو الحسن على بن محمد ، المعروف بابن الأثير ، عن تاريخ الموصل ؛

وكتب يحيى بن أبى طى عن تاريخ حلب ؛

وكتب أبو البركات مبارك بن أحمد ، المعروف بشرف الدين ابن المستوفى ، عن تاريخ إربل ؛

وكتب محمد بن سعيد ، المعروف بابن الدبيثى ، عن تاريخ واسط ؛

وكتب عمر بن هبة الله بن أبى جرادة ، المعروف بابن العديم ، عن تاريخ حلب ؛

وكتب عبد الرحمن بن إسماعيل ، المعروف بأبى شامة ، عن تاريخ دمشق .

أبو شامة : حياته وثقافته :

وأبو شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم المقدسى الشافعى ، من مواطنى دمشق ؛ بها ولد وشبّ واكتهل وأقام ، حتى وافاه أجله ؛ لم يبرحها إلا فى رحلات أربع قصيرة ، اثنتان منها لحج بيت الله ، وثالثة لزيارة بيت المقدس زيارة عابرة ، ورابعة وأخيرة لزيارة

مصر زيارة علمية دراسية ، استمع فيها إلى أساتذة دمياط ومصر والقاهرة والإسكندرية .

وفى حيّ متواضع من أحياء دمشق ، كان يعرف باسم درب الفواخير ، قريباً من الباب الشرقى ، ولد عبد الرحمن فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٩٩ هـ ، (وهو يوافق العاشر من يناير سنة ١٢٠٣م) ، فى أسرة متواضعة ، لا تكاد تتميز بتفوق خاص فى الحياة العلمية أو السياسية ، ولم تترك لنا كتب التراجم عنها شيئاً ذا غناء . وكل ما نعرفه عنها ، عن طريق أبى شامة ، أن مؤسس هذه الأسرة هو أبو بكر محمد بن أحمد بن أبى القاسم الطوسى ، المقرئ ، الصوفى ، إمام صخرة بيت المقدس . وقد هاجم الفرنج بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ واستولوا عليها ، ونكلوا بكثير من أهلها ، وفيهم جدّ أبى شامة الذى قتل وأصبح « من الشهداء الذين تزار قبورهم »(١)؛ فلم يبق أمام أسرته بعد هذا إلا الرحيل عن القدس ، فخرجوا منها إلى دمشق واستقروا فى بعض أحيائها قريباً من بابها الشرقى .

ولم يظهر لأحد من أفراد أسرة أبى شامة ، بعد هذا ، نشاط ذو شأن يحدثنا به أبوشامة أكثر من واحد منها ، هو عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد ، الذى اشتغل بتعليم الصبيان فى مكتب ، بباب الجامع الشامى ، حتى توفى سنة ٦٠٥ بعد أن عمّر تسعين عاماً(٢). أما إسماعيل والد أبى شامة ، الذى توفى سنة ٦٣٨ ، فقد أنجب ولدين : إبراهيم فى سنة ٥٩١ ، وعبد الرحمن ، أبا شامة ، سنة ٥٩٩ . ويبدو أن والد أبى شامة وأخاه إبراهيم لم يحظيا بدرجة عالية من الثقافة ، كما يتضح من رؤيا(٣) يقصها أبو شامة عن أخيه الذى رأى والده يقول له فى المنام : « عليك بالعلم . انظر إلى منزلة أخيك ! فنظر فإذا هو ، يعنى أبا شامة ، فى رأس جبل ، والوالد والرائى يمشيان فى أسفله »(٤)

وعندما بلغ أبو شامة العاشرة من عمره فاجأ أباه بقوله : « قد ختمت القرآن حفظاً »

---

(١) ويلاحظ أن أبا شامة يتشكك فى أن هذا الشهيد هو مؤسس أسرته ، ويظهر هذا من حديثه فى الذيل إذ قدم له بقوله : « ... ولعل محمداً الذى انتهى إليه النسب هو أبو بكر ... الخ » ويقرر أبو شامة أنه نقل هذه الحقيقة عن ابن عساكر . انظر الذيل : ٣٧ (وقد طبع خطأ باسم الذيل) .

(٢) الذيل : ٦٥ .

(٣) يورد أبو شامة فى الترجمة التى كتبها لنفسه كثيرا من الرؤى التى رآها بنفسه أو رآها غيره عنه ، ويستدل بها على كثير من تطورات حياته .

(٤) الذيل : ٣٨ — ٣٩ .

فيتعجب أبوه من ذلك كما كان يتعجب من ولع أبى شامة بالتردد على المكتب وسعيه فى طلب العلم ، وحرصه على القراءة « على خلاف المعروف من عادة الصبيان »[1] . ثم لم يلبث أبو شامة أن بدأ دراسة القراءات السبع ، والفقه ، والعربية ، والحديث . وبعد أن أتقن هذه الدراسات وفرغ منها رأى أن يصرف بعض عمره إلى الدراسة التاريخية حتى يستكمل ثقافته الدينية و « يحوز بذلك سنة العلم وفرضه » .

وتُقدم كتب التراجم أبا شامة إلى قرائها بأنه « شهاب الدين ، الإمام العلامة ، ذو الفنون ، الشافعى ، المقرئ ، النحوى » وتقول إنه « أتقن الفقه وبرع فى العربية » ، كما أنه « بلغ رتبة الجهاد » حتى عجب بعضهم منه « حيث قلد الشافعى » . ويزيد آخرون على هذا أنه « كان يكتب الخط المليح المتقن » ، ويقول آخر « وله نظم متوسط وفيه كثرة » .

ويدل هذا كله على تنوع ثقافة أبى شامة ، وعلى مشاركته فى كثير من الفنون والعلوم بقسط يضمه فى صفوف العلماء المبرزين . ويمدنا أبو شامة نفسه بقائمة الكتب التى ألفها ، وهى طويلة تؤيد ما ذهب إليه كتاب التراجم فى وصفهم لنشاطه العلمى فى فنون العربية ، والقراءات ، والحديث ، والفقه ، والتفسير ، واللغة ، والعروض . ومن هذه المؤلفات : نور المسرى فى تفسير آية الإسرا ؛ وشرح الحديث المقتفى فى مبعث النبى المصطفى ، وضوء السارى إلى معرفة رؤية البارى ؛ والواضح الجلى فى الرد على الحنبلى ؛ ومفردات القراء ؛ ومقدمة فى النحو ؛ والألفاظ المعرّبة ؛ ونظم مفصل الزمخشرى ؛ وشرح الشاطبية . ويضيف أبو شامة إلى هذا قائمة أخرى بالكتب التى شرع فى تأليفها ولم يتمكن من تكملتها ؛ ومنها : تقييد الأسماء المشكلة ؛ والمذهب فى علم المذهب ؛ وشرح لباب التهذيب ؛ والأرجوزة فى الفقه ؛ وشرح أحاديث الوسيط ؛ ومشكلات الآيات[2] .

وأبو شامة ، بهذه الثقافة المتنوعة ، لم يعدُ أن يكون صورة متكررة لرجال عصره من العلماء ، الذين أخذوا من كل علم بنصيب ، وذلك تأثرا بالنهج العام الذى تميزت به الحياة العلمية فى هذا العصر ، إذ كانت الدراسة سنّيّة الطابع ، تستند إلى أحد المذاهب الأربعة

(١) المذيل : ٣٧ .

(٢) المذيل : ٣٨ — ٣٩ .

الرئيسية ، وتعرض عن العلوم الفلسفية بل تقاومها . وكان اهتمام السلاطين والأمراء ورجال الدولة بالتعليم ، وتخصيصهم الأوقاف الكثيرة لطلاب العلم والمعلمين على السواء ، وتنافسهم فى إنشاء المدارس والمكاتب والزوايا ، وتقريبهم للعلماء — كل هذا كان من العوامل التى ساعدت على انتشار الثقافة وتنوعها ، وحفزت الطلاب على الإقبال على تلقى العلم والتمتع بالميزات التى كان الواقفون ييسرونها لهم ويختصونهم بها .

والمتتبع لحياة العلماء فى عصر هذه النهضة العلمية الميسرة يجد أن كثيرا منهم اعتمد اعتماداً كبيراً على هذه الأوقاف والمدارس فى تنظيم حياته ، مستفيدا بمواردها فى فترة طلب العلم ، ثم متقلدا منصب الأستاذية فى هذه المدارس ، أو قائماً بالإشراف على الأوقاف المخصصة لها بعد اجتياز مرحلة الطلب . بل إننا نجد كثيراً من هؤلاء العلماء يجمعون بين التدريس والإشراف على عدد كبير من الأوقاف يديرونها ويدبرون شئونها ؛ ووسيلة بعضهم إلى هذا ، التقرب من الأمراء الواقفين ، أو من السلاطين الحاكمين .

وإذا تتبعنا حياة أبى شامة فى مرحلة طلبه العلم ، ثم فيما أعقب هذه المرحلة ، لنتبين وضعه فى هذه الظروف الاجتماعية التى عاش فيها كثير من أنداده العلماء ، وجدنا الغموض يكتنف حياته فى جميع مراحلها ، اللهم إلا فى بعض الفترات القصيرة التى نجد عنها إشارات موجزة مختصرة ، يذكرها أبو شامة بين حين وآخر ، فتلقى قليلا من الضوء على حياته ، فى هذه الفترات القصيرة .

وأول هذه الإشارات يرجع إلى سنة ٦١٥ ؛ عندما كان فى السادسة عشرة من عمره ؛ ففى هذه السنة نجده مقيما فى المدرسة العزيزية بدمشق ، ثم لا نلبث أن نجد بعد هذا إشارة أخرى إلى أنه أتم دراسة علوم القراءات فى السنة التالية . وقد يفهم من هذا أن صلته بهذه المدرسة انقطعت منذ نجح فى إتمام دراسته لهذا الفرع من العلوم . ولا نجد بعد هذا شيئاً يذكر عن حياة أبى شامة إلا إشارة مقتضبة فى سنة ٦٣٤ ، وأخريات فى سنوات ٦٤٤ ، ٦٤٨ ، ٦٥٤ ، ٦٥٦ ؛ وكلها إشارات غير مباشرة وردت فى أثناء تسجيله لبعض الحوادث أو الوفيات . ومن الممكن الاستدلال بها على أنه كان يقيم فى هذه السنوات فى المدرسة العادلية بدمشق . ونحن لا ندرى إذا كان أبو شامة قد استمر مقيما فى هذه

المدرسة بعد سنة ٦٥٦ حتى انتقل منها ، سنة ٦٦٠ ، إلى المدرسة الركنية عندما عين مدرسا لها ؛ كما أنه من غير الممكن القطع بتاريخ انتقاله من المدرسة العزيزية التي كان مقيما بها حوالى سنة ٦١٥ إلى المدرسة العادلية التي ثبت استقراره بها سنة ٦٣٤ . ويبدو أن إقامة أبي شامة بهذه المدرسة الأخيرة بين سنتي ٦٣٤ ، ٦٥٦ كانت متصلة لم يقطعها إلا مدة انصرافه إلى بساتينه الخاصة .

وهذا الغموض الذي يحيط بحياة أبي شامة يمتد حتى يخفي عنا الوظائف التي كان يشغلها ويعتمد عليها في حياته . غير أننا نجده يشير إلى أن الاختيار وقع عليه ، سنة ٦٣٥ ، ليكون أحد المعدّلين بدمشق ؛ ويذكر أن نائبه في الصلاة بالمدرسة العادلية ، الشيخ شمس الدين محمود النابلسي ، توفي سنة ٦٥٦ . وقد ناب الشيخ النابلسي عن أبي شامة في مناسبتين لم يُحدَّد تاريخهما ، الأولى مدة مرضه ، والثانية في المدة التي انصرف فيها أبو شامة عن المدرسة إلى بساتينه الخاصة يفلحها ، ويعمل فيها بنفسه ، معرضاً عن الأوقاف متحرراً من قيودها .

وعند ما بلغ أبو شامة الستين من عمره تولى التدريس بالمدرسة الركنية ، سنة ٦٦٠ ، وبقي فيها حتى عين مدرسا للمدرسة الأشرفية سنة ٦٦٢ ، واستقر بهذه المدرسة ، ثم أضيفت إليه وظيفة الإقراء بالتربة الأشرفية ، واستمر يشغل هاتين الوظيفتين حتى توفي سنة ٦٦٥ .

من هذه الإشارات جميعها يمكن القطع بأن أبا شامة شغل منصب الأستاذية للمرة الأولى في سنة ٦٦٠ ؛ وهذه الوظيفة كانت تتيح لمتقلدها الإشراف على إدارة المدرسة إشرافا كاملا ، يشمل الأوقاف المخصصة لها . كما يمكن القطع بأنه كان يشغل وظيفة صغيرة في شبابه ، سنة ٦٣٥ ، عند ما اختير ليكون واحدا من عدول دمشق ؛ ثم أمّ الصلاة في المدرسة العادلية ، التي كان يقيم بها بدمشق ، مدة لا نستطيع تحديدها ، كما لا نعرف تاريخ بدئها أو نهايتها . ونستثني من هذه المدة الفترة التي انقطع فيها عن الإمامة ، عند ما خرج إلى بساتينه الخاصة يعمل فيها ويعتمد عليها في حياته .

وهذا الغموض الذي يحيط بالجانب المادي لحياة أبي شامة لا يعني أنه كان شخصية مغمورة في الحياة الحكومية ، كما لا يدل على نقص في كفاءته جعل رجال الدولة يصرفون

النظر عن إسناد بعض المناصب الهامة إليه ؛ بل إننا نجد فيما يتحدث به أبو شامة عن بعض أساتذته الأعلام الذين أعرضوا عن التزلف إلى ذوى السلطان ما يدل على أنه اتخذهم قدوة له ينهج نهجهم ويترسم خطاهم . فقد صحب أبو شامة أستاذه علم الدين السخاوى ما يقرب من ثلاثين سنة ، بين سنتى ٦١٤ — ٦٤٣ ؛ وقد كان السخاوى «متعففا زاهدا مقتنعا باليسير» . وكان للناس « فيه اعتقاد عظيم ... فكانوا يزدحمون عليه فى الجامع لأجل القراءة ، ولا يصح لواحد منهم نوبة إلا بعد زمان » . وكان السخاوى هذا « زاهداً فى صحبة رجال السلطة » ، ويدل على ذلك خروجه مرة مع أبى شامة لزيارة المقابر ، وفى هذه الزيارة لفت نظر أبى شامة إلى بيت كتب على قبر الفقيه ابن الشاغورى ، يقول :

ما كنت تقرب سلطانا لتخدمه　　لـكن غنيت بسلطان السلاطين

وتتلمذ أبو شامة كذلك على عز الدين ابن عبد السلام ، الذى أخرج من دمشق سنة ٦٣٩ لقوة شخصيته وخوف سلطانها منه ؛ فذهب إلى مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٦٦٠ . وكان عز الدين ابن عبد السلام هذا ، كما يقول السبكى فى طبقاته ، «شيخ الإسلام والمسلمين وسلطان العلماء . . . لم ير من رآه مثله علماً وورعاً ، وقياماً فى الحق ، وشجاعةً ، وسلاطة لسان » والسبب المباشر لإخراجه من دمشق أنه أسقط اسم الصالح إسماعيل ، أميرها ، من الخطبة ، عند ما استعان بالفرنج وأعطاهم مدينة صيدا . وقد ساعده فى هذه الخطوة الشيخ جمال الدين ابن الحاجب إمام المالـكية . وعندما وصل إلى مصر امتنع الفقيه عبد العظيم المنذرى ، إمام المالـكية ، عن الفتيا تقديراً له ، وقال ليس لها إلا عز الدّين . ولما أنشأ الظاهر بيبرس مدرسته بالقاهرة طلب منه أن يتولاها فقال : إن مبى الصالحية فلا أضيق على غيرى ؛ فطلب منه أن يشترط فى أوقافها لأولاده فقال : إن بالبلد من هو أحق منهم . وفى سـنة ٦٦٠ توفى ابن عبد السلام فى مصر فخرج السلطان بيبرس فى جنازته وحدّث خاصته قائلا « اليوم استقر ملـكى لى ، فلو أمر عز الدين الناس فى شأنى بما أراد لأطاعوه مبادرين » .

طالت صحبة أبى شامة لهذين العالمين الجليلين ، ولأمثالهما من أئمة الزاهدين ، فتأثر بهم ، واتخذهم قدوة ومثلا ؛ فعزف عن المناصب الحـكومية ، وترفع عن التكالب على أموال

الأوقاف ، وانصرف مدة إلى بساتينه الخاصة يفلحها بنفسه ، و يعتمد عليها وحدها فى حياته حتى «أغنى بيته ، وتمكن من إسعاد أهله وأقار به المحتاجين ، وصان وجهه عن الناس وأحس بالحرية والاستقلال » ، كما يقول فى المذيل . وقد سجل شعوره هـذا فى قصيدة أوردها فى المذيل فى عشرة ومائة من الأبيات ، وفيها يقول :

أيها العاذل الذى إن تحرّى قال خيراً ونال بالنصح أجرا
لا تلمنى على الفلاحة ، واعلم أنها من أحلّ كسب وأثرى
و بها صنت ماء وجهى عن النا س جميعاً ، وعشت فى القوم حرا
إذْ بهـا صار منزلى ذا غلال مع عيـال من بعد ما كان قفرا

وفى هـذه القصيدة يوجه حديثه إلى طالب العلم منددا بتكالب العلماء على التزلف إلى ذوى السلطان ، فيقول :

اِتخذ حرفة تعيّشْ بهـا يا طالب العلم ، إنّ للعـلم ذكرا
لا تُهِـنه بالا تكال على الوق ف ، فيمضى الزمان ذلاً وعسرا
إنما تحصـل الوقوف لشريـ ر ونذل من العـلوم مُبرّا
أو لمن يلزم الأكابر ، لا يبْ رح فى خدمة لهم ، ومدح وإطرا
طالبا جاههم ، مجيباً إلى كلّ (م) أمورٍ لهم ، عَكوفا ، مُصرّا
فترى قاضى القضاة ومن يذ كر درساً يرعاه سراً وجهرا
قاصداً قر به ، فيصغى إليـه فاعـلا ما يريد نفعاً وضرا

ونستطيع أن نسجل لأبى شامة من الصفات الطيبة ما تحدث به رجال التراجم من تواضعه وطيب خلقه ، فالإسنائى يقول عنه « وفيه تواضع واطّراح كثير » ؛ ويذكر السبكى أنه « كان متواضعاً مطرحا للتكلف » ؛ و يوضح ابن قاضى شهبة هذه القضية فيقول « وكان مع كثرة فضائله متواضعا ، مطّرحا للتكلف ، ور بمـا ركب الحمار بين المداوير » . و يقتدى جلال الدين السيوطى بأبى شامة ، و بغيره ، فيكتب لنفسه ترجمة يعرف بها بنفسه ، و يذكر أنه يتبع فى هـذا خطوات من سبقه من الكتاب المؤرخين

كلسان الدين ابن الخطيب فى تاريخ غرناطة ، وعبد الغفار الفارسى فى تاريخ نيسابور ، وابن حجر فى قضاة مصر ، وأبى شامة فى مذيل الروضتين « وهو » ، كما يقول السيوطى ، « أزهدهم وأورعهم » .

ولا نجد من مؤلفى التراجم من يشذ عن هذا الإجماع فى تقدير شخصية أبى شامة وطيب أخلاقه إلا قطب الدين اليونينى الذى يتخذ موقفاً آخر ، فيذكر أن أبا شامة « كان كثير الغض من العلماء ، والأكابر والصلحاء ، والطعن عليهم ، والتنقيص بهم ، وذكر مساوئ الناس وثلب أعراضهم . ولم يكن بمثابة من لا يقال فيه ، فقدح الناس فيه ، وتكلموا فى حقه ؛ وكان عند نفسه عظيما فسقط بذلك من أعين الناس » . وصدور هذا الطعن من معاصر لأبى شامة[1] يحملنا على الوقوف عند قوله لنتبين وجه الحق فيه ؛ وهذا يقتضينا أن نحاول معرفة نوع الصلة التى كانت بين الرجلين . وفى هذا نجد أن أبا شامة شافعى المذهب ، على حين كان اليونينى من قادة الحنابلة وابناً لإمام من أئمتهم ببعلبك ، وهو الشيخ محمد الحنبلى اليونينى الذى توفى سنة ٦٥٧ . وقد ذكر أبو شامة نبأ وفاته فى المذيل ضمن حوادث هذه السنة ، وعلق عليها ، مبينا أن الإمام اليونينى ألف كتابا فى الإسراء ، مليئاً بالخطأ الفاحش ؛ فحمل هذا أبا شامة على تأليف كتاب خاص يفند به مزاعم اليونينى ويصحح أخطاءه ، وسمى كتابه : الواضح الجلى فى الرد على الحنبلى . ولم يكن الحنابلة عندئذ على علاقة طيبة بأئمة المذاهب الأخرى فى الشام عامة وفى دمشق خاصة ، حتى إننا نرى أبا شامة يمدح أستاذه زين الأمناء ابن عساكر بأنه « كان لا يمر قرب صفوف الحنابلة حتى لا يأتموا بسبّهم له » ؛ ويعلل هذا صراحة بالبغض العنيف الذى يكنه الحنابلة للشافعية ، ذلك البغض الذى يكفينا فى التدليل عليه أن نذكر أن زكى الدين ابن رواحة أنشأ مدرستين فى دمشق وحلب ؛ وجعل من شروطه للدراسة فيهما « ألاّ يدخلهما مسيحىّ أو يهودىّ أو حنبلىّ »[2] .

(١) ولد اليونينى سنة ٦٤٠ ، فيكون قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره عند وفاة أبى شامة .

(٢) الصفدى : Ms. Brit. Mus., Add. 23359, f. 206v.

وهكذا نجد أن من المحتمل أن اليونيني تأثر في العبارات التي تحدث بها عن أبي شامة بعاملين متعاونين : أحدهما البغض التقليدي الذي شاع بين الحنابلة والشافعية ، واليونيني من أئمة الحنابلة وأبو شامة بلغ في فقه الشافعية رتبة الاجتهاد . وثانيهما البغض الشخصي الذي أحس به اليونيني نحو أبي شامة الذي ألف كتابا خاصاً يعدد فيه أخطاء اليونيني الكبير ويصححها .

وبهذا لا نكون مبالغين في موقفنا من اليونيني إذا قررنا أن العبارات التي أراد أن ينال بها من أبي شامة لا ترقى إلى درجة تجعلنا نعتمد عليها أو نقيم لها وزنا في تقديرنا لشخصية أبي شامة ومكانته بين علماء عصره .

ويبدو أن حياة أبي شامة ، في مجموعها ، كانت سهلة مطمئنة ، وأنه لم يعترضه من الصعوبات ما يعكر صفوها أو يخرج بها عن هدوئها واستقرارها . ومع هذا لا يفوتنا أن نشير إلى ما يحدثنا به في تقريره عن سنة ٦٥٨ ، وهي سنة دخول التتار دمشق ، إذ يقول إن نائب التتار بدمشق استدعاه وأهانه ، وهدده بضرب رقبته ، فاضطر أبو شامة « أن يوقع له بمبلغ كبير » حتى يطلق سراحه . وقد هزم التتار بعد هذه الحادثة بعشرة أيام في موقعة عين جالوت ، واعتبر بعض أهل دمشق الهزيمة كرامة لأبي شامة ، وسجلها بعضهم في شعر (١) .

وحادثة أخرى كان لها ، على ما يبدو ، أثر هام في صحة أبي شامة . تلك هي أنه تعرض لهجوم اثنين عليه وهو في منزله ، في جمادى الآخرة من سنة ٦٦٥ ، متظاهرين بأنهما إنما قدما في طلب الفتيا ؛ وقد اعتديا عليه وضرباه ضربا مبرحاً بعد أن اطمأنا إلى انفرادهما به ، وإلى غيبة من قد يحاول نجدته وإنقاذه من اعتدائهما ، وتركاه بعد ذلك مريضاً مجهداً ؛ فعرض عليه بعض أصحابه أن يتقدم بالشكوى إلى ولاة الأمر ، فقال « قد فوضت أمري إلى الله ، فما أغير ما عقدته مع الله ، وهو يكفينا سبحانه ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه » . ونظم في هذه المناسبة ثلاثة أبيات :

قلت لمن قال ألا تشتكي ما قد جرى ، فهو عظيم جليل

---

(١) الذيل : ٢٠٩ .

يقيض الله تعالى لنـــــا من يأخذ الحق ويشـــفى الغليل
إذا توكلنا عليــــــه كفى فحسبنا الله ونعم الوكيـــل

وتوفى أبو شامة ، رحمه الله ، بعد شهرين ونصف شهر من هـذا الحادث ، فى التاسع عشر من رمضان سنة ٦٦٥ هـ (١٣ من يونية سنة ١٢٦٧ م) .

كتاب الروضتين :

وإذا استعرضنا ترجمة أبى شامة فى كتب الطبقات وجدنا المترجمين جميعاً يقدمونه إلى القراء مستهلين حديثهم بأنه « العلامة ذو الفنون . . . الشافعى المقرئ النحوى » ؛ الذى « كان فقيها محدثاً مقرئاً نحوياً » ؛ وبأنه « أتقن الفقه وبرع فى العربية » حتى « بلغ رتبة الاجتهاد » ؛ « وكان يكتب الخط المليح المتقن » ؛ « وله نظم متوسط كثير » . ولكننا لا نجد بين هـذه العبارات التمهيدية التى يقدم بها المترجمون حديثهم عن أبى شامة ما يدل على نشاطه فى دراسة التاريخ والتأليف فيه ؛ وإنما يجىء الكلام عن هـذه النقطة عرضاً بعد ذلك عند تعداد مؤلفاته .

وأبو شامة نفسه ، فى مقدمة كتاب الروضتين ، يشعرنا بأن إهتمامه بالتاريخ لم يبدأ إلا فى مرحلة متأخرة من مراحل ثقافته ؛ فهو يقول : « . . . أما بعد ؛ فإنه بعد أن صرفت جلّ عمرى ومعظم فكرى فى اقتباس الفوائد الشرعية ، واقتناص الفرائد الأدبية ، عنّ لى أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه ، فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه ، اقتداء بسيرة من مضى ، من كل عالم مرتضى » . فهو لم يهتم بالتاريخ إلاّ بعد أن برع فى الدراسات الشرعية والأدبية ، وهو لم يقدم على هذه الدراسة إلا اقتداء بسيرة من مضى من كل عالم مرتضى ، وإلا ليحوز سنة العلم بعد أن حاز فرضه . ولا يكتفى أبو شامة بهذا فى شرح موقفه من دراسة التاريخ ، بل يحاول تبرير اهتمامه به فى هـذه المرحلة المتأخرة تبريراً دينياً : « فنى كتاب الله وسنة رسوله حديث الأمم الخالية » ، والإمام الشافعى درس « أيام الناس والأدب عشرين سنة » ، ولم يرد الشافعى بهذا « إلاّ الاستعانة على الفقة » .

ويبدو من هذا كله أن أبا شامة لم يرد بدراسته للتاريخ أن تشغل معظم وقته ، وإنما

أراد أن يستعين منها بما يكمل ثقافته ويمكّن للدراسات الرئيسية التي يهتم بها ، وهي الدراسات الشرعية واللغوية . وبرغم هذا نجد أبا شامة يدين بكثير مما اشتهر به في ميدان المعرفة إلى مؤلفاته التاريخية التي نذكر منها : تهذيب تاريخ دمشق ، وقد هذب به التاريخ الكبير الذي وضعه الحافظ هبة الله ابن عساكر ، فأخرجه أبو شامة في صورتين : كبرى في خمسة عشر مجلداً ، وصغرى في خمسة مجلدات ؛ وكشف حال بني عبيد ، وهو تاريخ للدولة الفاطمية ؛ وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ؛ ومختصره الذي سماه عَيون الروضتين ؛ وتكملته التي سماها الذيل على الروضتين . وإلى جانب هذه المؤلفات نجده يشرع في كتابة تواريخ أخرى لم يتمها ، ومنها : مختصر تاريخ بغداد ، وجامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس شرفهن الله تعالى .

ومن بين هذه الكتب التاريخية يظفر كتاب الروضتين ، في الحياة العلمية الحديثة ، بمكانة عظيمة تضعه في مقدمة المصادر التي يرجع إليها الباحثون في مرحلة هامة من مراحل تاريخ العصور الوسطى الإسلامية ، هي مرحلة النزاع الذي اصطُلح على تسميته باسم الحروب الصليبية .

ويدل عنوان « كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » على أنه يتعرض بموضوعه لزمن محدود بعصرى نور الدين وصلاح الدين ، ولأمكنة محدودة بدولتى هذين السلطانين ومنطقة نفوذهما . فما الذي حدا بأبي شامة ، الذي ولد سنة ٥٩٩ ، أي بعد وفاة صلاح الدين بعشر سنين ، إلى اختيار هذه الفترة لتكون موضوع كتابه ؟ !

تدل حوادث التاريخ على أن عوامل الضعف بدأت تدب في الدولة الأيوبية بعد وفاة مؤسسها وسلطانها الأول صلاح الدين ؛ فتحولت جهود خلفائه من بعده إلى كسب انتصارات محلية ينتزعون بها بعض الإمارات أو البلاد أو القرى من منافسيهم من الأمراء الأيوبيين . وبهذا انفرط العقد الذي نجح صلاح الدين ، بجهوده المتواصلة ، في نظمه حول رايته ، وتفككت وحدة الدولة التي جاهد حتى جعل علمها يرفرف في قوة وثبات على ربوع الجزيرة العراقية ، والشام ، ومصر ، واليمن ، والحجاز .

وقد استطاع بعض الأمراء الأيوبيين أن يجمع غالبية الصفوف ويوحد معظم القوى فى هذه الدولة ؛ ونعني بهذا البعض الملك العادل سيف الدين ، وابنه الملك الكامل . لكن الوسائل التى استخدمت لتحقيق هذه الوحدة فى عصريهما لم تكن جميعاً خالية من المآخذ . فلكى يستطيع العادل توحيد القوى تحت رايته هو عمد إلى إذكاء نار الفتنة بين الإخوة الثلاثة : العزيز صاحب مصر ، والأفضل صاحب دمشق ، والظاهر صاحب حلب ، وهم أولاد أخيه صلاح الدين ، حتى يتمكن من استغلال الاضطراب والقلق لتحقيق مطمعه . ولكى يتمكن الكامل من تجميع الصفوف حول عرشه ، اضطر ، فى بعض المناسبات إلى مواجهة جميع الأمراء الأيوبيين الذى اتحدوا ضده ليحدّوا من جبروته ؛ كما تحالف فى مناسبة أخرى مع فردريك ملك الفرنجة وسلمه بيت المقدس ، سنة ٦٢٦ ، دون قتال ، حتى يستطيع التفرغ لحصار دمشق وطرد الملك الناصر الأيوبى منها ، وضمها إلى منطقة نفوذه .

وبهذا لا يمكن أن نقول إن عصر هذين السلطانين ، العادل والكامل ، كان ، فى صبغته العامة ، امتداداً لعصرى نور الدين وصلاح الدين اللذين جاهدا لتحقيق وحدة هدفها المصلحة العامة لا المطامع الشخصية ، ووسيلتها تأييد الرأى العام لا التحالف مع الفرنجة أو إثارة الفتن والاضطرابات .

وفى هذا الجو المشبع بالقلاقل والانقسامات والحروب التى يصطلى بنارها الإخوة والأقربون ولد أبو شامة ، وشب ، واكتهل ؛ فتألم . وفى أثناء دراسته التكميلية للتاريخ استرعى عاطفته تلك الجهود العظيمة التى قام بها نور الدين وصلاح الدين لتخليص البلاد من الذلة التى شملتها والفوضى التى عمتها ، فأطربه ما قرأ ، وما سمع ؛ وقارن ذلك بالظروف التى تمر بها البلاد ، كما رآها وشهدها ؛ فعزم « على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف ، يتضمن التقريظ لهما والتعريف ؛ فلعله يقف عليه من الملوك ، من يسلك فى ولايته ذلك السلوك » .

ولكى نعرف إلى أى حد نجح أبو شامة فى تحقيق غرضه من تأليف هذا الكتاب وفى عرض صورة صادقة لعصرى نور الدين وصلاح الدين يحسن أن نحدد ، فى اختصار ، الموضوعات التى يتحدث عنها أو يتعرض لها .

حكم نور الدين محمود فى المدة بين سنتى ٥٤١ ، ٥٦٩ واتخذ مدينة حلب عاصمة لملكه

حتى سنة ٥٤٩، ثم شاركتها دمشق ، بعد أن فتحها فى هذه السنة ، فأصبحت عاصمة أخرى له حتى توفى سنة ٥٦٩ . وكان صلاح الدين قد استقر فى مصر منذ فتحت ، سنة ٥٦٤ ، فلم يلبث أن ضم دمشق إلى ممتلكاته ، بعد وفاة نور الدين مباشرة ، وترك حلب ، العاصمة الثانية لنور الدين ، وما تبعها ، تحت سيطرة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين السلطان الراحل ؛ لكنه أخذ يحدّ من نفوذ الملك الصغير تدريجياً حتى حصره فى حلب ؛ ثم لم يلبث ، بعد وفاة الصالح إسماعيل ، أن مدّ سلطانه إلى حلب نفسها ، فى سنة ٥٧٧ .

وعند ما ظهر نور الدين على مسرح الحوادث ، سنة ٥٤١ ، كانت البلاد الشامية والجزرية قد قطعت مرحلة كبيرة فى طريق التكتل والوحدة بفضل الجهود التى بذلها والده عماد الدين زنكى منذ ولى إمارة الموصل سنة ٥٢١ .

ففى مقدورنا ، إذاً ، أن نعتبر الجهود التى قام بها هؤلاء الرجال الثلاثة : عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين يوسف ، مجهوداً واحداً متصلا مؤدياً إلى هدف نهائى واحد ، هو وحدة المسلمين فى هذه المنطقة ، التى كانت تعتبر بحق قلب العالم الإسلامى عندئذ ، لمواجهة الخطر الأجنبى الذى انتهز فرصة الفوضى الشاملة واستقر بها فى الإمارات اللاتينية الأربعة ، ثم أخذ يواصل الرحلة إليها فى أعداد متكاثرة .

والمدة التى حكم فيها هؤلاء المجاهدون الثلاثة هى المجال الزمنى الذى يتعرض له كتاب الروضتين بالحديث والوصف .

ومن جهة أخرى نجد أن الحوادث التى يذكرها أبو شامة تبدأ بالمجال المكانى المحدود الذى شهد نشاط زنكى فى مراحله الأولى ، ثم تتدرج فى الشمول والاتساع مع امتداد سلطانه ، وسلطان خليفتيه من بعده ، حتى تنتهى ، فى أوسع مدى لها ، عند حدود الجزيرة ، والعراق ، وآسيا الصغرى ، والحجاز ، واليمن ، والنوبة ، وإفريقية المؤمنية ؛ أى عند حدود الإمبراطورية الضخمة التى رفرف عليها لواء صلاح الدين .

أما ما وراء هذا من الحوادث التى ظهرت فى جهات أخرى من العالم الإسلامى ، فلا مكان له فى الروضتين ؛ اللهم إلا فيما يتعلق بوفاة خليفة وارتقاء غيره ؛ ذلك لأن الخلافة

هى رمز الوحدة الإسلامية التى جاهد هؤلاء الأمراء الثلاثة فى سبيل تحقيقها . ويتحدث أبو شامة ، أحياناً ، عن وفيات بعض العلماء المبرزين ، خارج هذا المجال المكانى لكتاب الروضتين ، وذلك لاهتمامه بكل ما يتعلق بالعلم والعلماء . حقيقة نجد أبا شامة يتحدث فى إحدى المناسبات عن شمالى إفريقيا ، وذلك عندما توغل قراقوش ، مملوك تقى الدين عمر الأيوبى ، فى مقاطعة برقة ، لكنه حديث عَرَضى مختصر ، لم يقصد به شمالى إفريقيا لذاته ، بل أريد به الحديث عن شخص وثيق الصلة بالأسرة الأيوبية ؛ فهو داخل فى نطاق الموضوعات التى قصد أبو شامة بكتابه أن يتحدث عنها . أما الخطاب الذى أرسله صلاح الدين إلى يوسف بن عبد المؤمن صاحب إفريقيا ، فى أثناء معركة عكا ، فلا صلة له بإفريقيا إلا لأنه مرسل من صلاح الدين إلى ابن عبد المؤمن الذى أعلن نفسه خليفة فى المغرب ؛ وموضوع هذا الكتاب يدور حول معركة عكا ومتاعبها ، ويعرض رغبة صلاح الدين فى مساعدة ابن عبد المؤمن له . فهو داخل كذلك فى نطاق المجال المكانى الذى حدده أبو شامة لكتابه .

ونظرة فى الموضوعات التى يتحدث عنها كتاب الروضتين داخل هذين المجالين الزمنى والمكانى تدلنا على أنها تتعلق بتنقلات الجيوش ، وتفصيلات المعارك ، وأوصاف الأسلحة والحصون ، والسفن الحربية ، وتطورات القتال ، وغير ذلك من الموضوعات التى تتعلق بالحروب ، سواء منها ما كان بين الأمراء المحليين فى سبيل توحيد الجبهة الداخلية ؛ وما دار بينهم وبين الفرنجة ، المقيمين والوافدين . وفى هذا كله يستعين أبو شامة بالوثائق الحكومية أو بالأشعار ، المؤرخة فى كثير من الأحوال ، والتى تسجل المعارك وتهنئ السلطان ، وتصف الغنائم والأسلاب ، وتبشر بالنصر فيما يجد من حروب واشتباكات .

ومن جهة أخرى نجد أن نور الدين وصلاح الدين لم ينتزعا إعجاب أبى شامة ، المواطن الدمشقى ، لنشاطهما الحربى فحسب ، بل كان للعدالة التى أشاعاها بين الناس ، والمكوس الظالمة التى أزالاها ، والمدارس التى نشرا بها العلم بين المواطنين ، نصيب كبير فى تكوين الصورة الجميلة التى انتزعت إعجاب أبى شامة فأراد أن يكشف عنها لملوك عصره . وإذاً فليكن لهذا كله نصيب من حديثه فى الروضتين ، وإن اقتصر هذا الحديث على ضرب الأمثلة الموضحة ، كإنشاء دار الكشف ، أو دار العدل ، للنظر فى مظالم الرعية وشكاياتهم

من الأمراء والقادة ، وكالمنشورات التى تقرأ على المنابر وفى الأسواق معلنة تخفيف الضرائب وإزالة المكوس ، وكالمدارس والربط والزوايا التى تنشأ هنا وهناك لطلاب العلم أو للصوفية أو للعلماء المجاهدين .

وإلى جانب هذا لا يفوت أبا شامة أن يسجل قرارات تولية الأمراء والنواب والحكام فى الولايات المختلفة ، صغيرة أو كبيرة ، مؤيداً هذا التسجيل بمنشور حكومى أو مرسوم سلطانى .

وإلى هنا نجد الكتاب سجلا مفصلا لتاريخ الدولتين ، من الجانب الحكومى ، حرباً وسياسة وإدارة . أما الجانب الآخر ، وهو الجانب الشعبى ، فلا مجال له فى الكتاب اللهم إلا فيما يتعلق بمقدار تأييد الشعب ، والعلماء بصفة خاصة ، للخطوات الحربية التى اتخذها السلطان ، أو بذكر عدد الجنود الذين جمعهم أميرما من أمراء الإقطاع ليمد بهم سلطانه فى معاركه الحربية ، أو بغير ذلك من الأمور التى تجىء عرضاً وتكمل جانباً من جوانب التاريخ الحربى لأبطال الكتاب .

* * *

ويبدأ الكتاب ، فى تكوينه العام ، بمقدمة قصيرة وضح أبو شامة فيها البواعث التى دفعته إلى تأليفه بعد أن وجه بعض عنايته إلى دراسة التاريخ ، وذكر فى هذه المقدمة المصادر الرئيسية التى اعتمد عليها عند تدوينه . ثم عقد فصلا خاصا جعل موضوعه الدولة النورية ؛ ولكنه لم يتحدث فى هذا الفصل إلا عن قضايا عامة لها صلة مباشرة بنور الدين محمود وبصفاته الشخصية التى جعلت منه حاكما ممتازاً محبوباً جديراً بالتقدير ؛ ومن هذه الصفات : عدله ، ورحمته ، وجهاده ، وشجاعته ، وحزمه ، وسياسته . وفى الحديث عن هذه الصفات نجد الأمثلة الكثيرة التى تؤكد امتياز نور الدين بها . ثم يتبع أبو شامة هذا الفصل بفصل آخر يجمع فيه كثيراً من المدائح الشعرية التى أنشدها شعراء عصره : محمد بن نصر بن صغير القيسرانى ، وأحمد بن منير الطرابلسى ، والمسلم بن الخضر بن قسيم الحموى . وبانتهاء هذا الفصل ينتهى الحديث العام المجمل عن الدولة النورية ، وهو حديث يصطبغ فى مجموعه بصبغة عاطفية تميل إلى تمجيد نور الدين وإبراز مميزاته الخلقية ؛ ويبدأ بعد هذا

الحديث المفصل الذى يسوق الحوادث التى وقعت فى عهد نور الدين ويوضحها ويؤرخها . وهنا يجد أبو شامة نفسه مضطرا إلى الحديث عن أصل بيت نور الدين ونشأته ، فيسوق هذا الحديث فى فصول قصار ثلاثة ، يتبعها بالحديث عن عماد الدين زنكى ، والد نور الدين وعصره وجهاده الذى امتد عشرين عاما ، من سنة ٥٢١ إلى سنة ٥٤١ ، وانتهى باستشهاده عند قلعة جعبر ، ثم بتقسيم دولته بين ولديه سيف الدين غازى الذى استقر بالموصل ، ونور الدين محمود صاحب حلب . وبهذا التقسيم نجد أن عبء جهاد الفرنج وتوحيد كلمة الشام يقع على نور الدين الذى أثبت جدارته وتقديره لهذه المسئولية ، فأخلص فى جهاده وثابر ، حتى أصبح يعد من أبطال الإسلام المعدودين .

وبولاية نور الدين محمود ، فى حلب ، سنة ٥٤١ يتزايد اهتمام أبى شامة ، الذى كان من أهداف تأليفه كتاب الروضتين تمجيد هذه الشخصية العظيمة ؛ فيبدأ فى تفصيل الحديث عنه معتمداً على المصادر المعاصرة ، ومؤيداً حديثه بما استطاع الوصول إليه من الوثائق الحكومية ، أو من الأشعار والقصائد التى سجلت مراحل جهاده ، وتتبعت معاركه وحروبه بالتفصيل والتقريظ . ويلتزم أبو شامة فى هذه الحديث نظام الحوليات ، الذى اتبعه كثير من المؤرخين فى عصره ، مبتدئاً بسنة ٥٤٢ ، وهى السنة التالية لتاريخ استشهاد عماد الدين زنكى عند قلعة جعبر . لكنه لا ينسى أن يفرد فصولا خاصة ، طويلة أو قصيرة ، لبعض الحوادث التى تستحق هذا الإفراد ، وذلك داخل نطاق النظام الحولى ؛ بمعنى أن الحديث عن سنة بعينها قد يجىء فى فصول متتابعة يختص كل منها بحادثة أو بعدة حوادث ، غير أنه لا يتجاوز هذه السنة إلى السنة التالية لها . ويستمر أبو شامة فى حديثه ، بهذه الطريقة ، عن عصر نور الدين ، ثم عن عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى تلقى فى بلاط نور الدين دروس الجهاد ، ثم حمل الراية بعده عالية خفاقة حتى لبى نداء ربه ، سنة ٥٨٩ ، بعد انتهاء معركته مع جموع الصليبيين فى حملتهم الثالثة بشهور قليلة .

وهنا يعامل أبو شامة بطله الثانى صلاح الدين بنفس الطريقة التى عامل بها نور الدين

فى أول الكتاب ، فيعقد فصلا خاصاً يتحدث فيه عن صفات صلاح الدين التى تميز بها فوضعته فى صفوف الأبطال المجاهدين والحكام المشهود لهم بحسن السيرة وصدق العزيمة وجلال القصد . ويختم أبو شامة كتابه بفصول قصار متتابعة يتحدث فيها عن تطورات الأمور فى الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ، وبخاصة فى فترة النزاع بين أبنائه وبين عمهم العادل سيف الدين ؛ ولا يتقيد أبو شامة فى هذا الحديث بالتسلسل التاريخى إلا فيما يقتبسه من العماد الأصفهانى فى كتابه « خطفة البارق وعطفة الشارق » إذ أنه يعود إلى اتباع طريقة الحوليات فى اختصار شديد . وبهذا الاقتباس ينتهى كتاب الروضتين بعد أن سجل تاريخاً مفصلا لدولتى نور الدين محمود ، وصلاح الدين يوسف ، تتبع فيه مؤلفه نشاطهما ومجهودهما ، الذى جعل منهما فى المتأخرين مثلا يحتذى ، والذى رفع مكانهما حتى صارا فى زمانهما كالعُمَرين فى عصرهما ، عدلا وديانة وجهاداً .

مصادر الكتاب :

ويهمنا بعد هذا أن نستعرض المصادر التى اعتمد عليها أبو شامة فى كتابه لنتبين بهذا قيمته التاريخية ، ومبلغ صدقه ودقته فى تصوير العصر الذى تعرض له .

وأبو شامة نفسه يجعل هذه المهمة ميسرة إلى حد كبير . إذ يذكر فى مقدمته المصادر الرئيسية التى اعتمد عليها ، وهى : تاريخ دمشق لابن عساكر ؛ وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ؛ وتاريخ الأتابكة لابن الأثير ؛ والبرق الشامى ، والفتح القسى للعماد الأصفهانى ؛ والنوادر السلطانية لابن شداد ؛ ومجلدات الرسائل الفاضلية للقاضى الفاضل ؛ وبعض الأشعار من دواوين العماد الأصفهانى وغيره . ولا ينسى أبو شامة أن يعود إلى ذكر هذه المصادر مرة أخرى عندما كاد ينتهى من تسجيل حوادث كتابه ، بعد الفراغ من حديثه عن صلاح الدين ، إذ يقول : « واستوفينا ما فى كتابى البرق والفتح القدسى والتاريخ الأتابكى وكتاب القاضى أبى المحاسن ؛ وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من عدة مصنفات ودواوين ومراسلات » .

واستعراض الكتاب يؤكد ما ذكره أبو شامة عن مصادره ويوقفنا على مصادر أخرى ثانوية اقتبست مرة أو مرتين أو نحو ذلك ، وهى بذلك تدخل فى قوله «وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات ودواوين ومراسلات» . ولكننا نجد كذلك مصدرا هاما اعتمد عليه أبو شامة اعتمادا كبيرا فى الجزء الأول من الكتاب وكذلك فى الثلث الأول من الجزء الثانى . بل نلاحظ أن هذا المصدر يقتبس فى مناسبات أكثر عددا من المناسبات التى اقتبس فيها تاريخ ابن عساكر ، وفى موضوعات أعظم أهمية ، وفى عبارات أكثر طولا ؛ ومع هذا لا يذكر أبو شامة هذا المصدر فى المقدمة بين المصادر الرئيسية التى اعتمد عليها ، كما لا يشير إليه فى عبارته المجملة التى أوردها قريبا من ختام كتابه ؛ ذلكم المصدر هو كتاب السيرة الصلاحية ليحيى بن أبى طىّ الحلبى . حقيقةً إن أبا شامة أشار فى مناسبات الاقتباس إلى أنها منقولة عن ابن أبى طى ، كما فعل هذا ببقية المصادر الأخرى حتى ما اقتبس منها مرة واحدة ، لكن اعتماده اعتمادا كبيرا على هذا المصدر الهام ، كما سيتبين فيما بعد ، كان يقتضيه أن يشير إليه إشارة واضحة إلى جانب أنداده من المؤرخين الذين اعتمد عليهم ، كابن الأثير وابن شداد والقاضى الفاضل ، بدلا من الاكتفاء بتلك الإشارة المجملة التى تدل على عدم اهتمام عندما قال « وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات ودواوين ومراسلات » .

ومن المفيد أن نبحث هنا فى قيمة هذه المصادر الرئيسية من الناحية الموضوعية ، لنمهد بهذا البحث لتوضيح وجهة نظر أبى شامة فى اعتماده عليها واستمداده منها . وسنعالج فى الفقرات التالية هذه المصادر ، واحدا بعد آخر ، طبقا لأسبقيتها الزمنية .

* * *

أما ذيل تاريخ دمشق فكتاب وضعه صاحبه أبو يعلى ، حمزة بن أسد التميمى ، المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، ليذيل به على التاريخ العام الذى ألفه هلال الصابى والذى ينتهى بسنة ٤٤٧ . وينتهى ذيل تاريخ دمشق فى سنة ٥٥٥ ، وهى السنة التى توفى فيها مؤلفه ؛ أما بدايته فهى موضع اختلاف . فبينما يذكر ياقوت أنه يبدأ بسنة ٤٤١ يذكر ابن عساكر أن سنة ٤٤٨ هى مبدأ الذيل . وتاريخ أبى يعلى ، على كلا القولين ، يعالج فترة تزيد على القرن ببضع

سنوات تنتهى فى سنة ٥٥٥ . ويذكر أبو شامة فى مقدمة كتاب الروضتين سرّ اهتمامه بكتاب أبى يعلى حين يقول إنه « شمل قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية » . ونور الدين تولى حلب بعد وفاة والده عماد الدين زنكى فى سنة ٥٤١ وبهذا نجد أن كتاب أبى يعلى يشمل نحو أربعة عشر عاما من عهد نور الدين ، تبدأ بولايته حلب وتنتهى بنهاية الكتاب وفى الحديث عن هذه المدة يعتمد أبو شامة اعتمادا كبيرا على أبى يعلى فيبدأ اقتباسه من كتابه بعد وفاة زنكى مباشرة ، ويواصل الاعتماد عليه بعد ذلك ، حتى يصل عدد الاقتباسات منه سبعا وثلاثين مرة ، تنتهى بنهاية الذيل ، فى سنة ٥٥٥ .

وترجع أهمية هذا الكتاب كذلك إلى أن مؤلفه حين يتحدث عن دمشق إنما يتحدث حديث خبير ، يمدّ القارئ بمعلومات فى الدرجة الأولى من الأهمية . فأبو يعلى من مواطنى دمشق المقيمين بها ، وقد وكان إلى جانب هذا من رجالها الرسميين المسئولين ، فقد تولى رئاسة ديوانها مرتين ؛ فأتاحت له هذه الصفة الرسمية الاتصال المباشر بالتقلبات السياسية والاجتماعية والحربية التى حدثت فى دمشق أو التى كانت دمشق طرفا فيها . وبهذا يتبين أن هذا الكتاب الذى ألفه أبو يعلى مصدر معاصر محلى ، فليس هناك أولى منه فى معرفة تاريخ دمشق ، وما يتصل بها ، فى هذه الفترة من عصر نور الدين ، وهى تكوّن جزءا هاما من تاريخ الدولة النورية الذى تعرض له أبو شامة بالتأليف .

* * *

ويشبه أبا يعلى فى أهميته كمصدر رئيسى للروضتين القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى المتوفى سنة ٥٩٦ وترجع أهمية القاضى الفاضل إلى أنه عاصر فترة الانتقال التى مرت بها مصر عندما انتقلت مقاليد الحكم فيها من الفاطميين إلى الأيوبيين وكان الفاضل فى هذه الفترة من الرجال الرسميين فى حكومة مصر ، الفاطمية والأيوبية ، فمكنته هذه الصفة الرسمية من الوقوف على أدق التطورات التى مرت بها مصر ، ثم هيأت له صلته بالأيوبيين ، ككاتب لديوان الإنشاء فى عهد شيركوه ثم زمن صلاح الدين أن يمكن نفوذه ويثبت كفاءته ، حتى أصبح اليد اليمنى لصلاح الدين ، يستشيره ويعتمد عليه فى كل ما يتعلق بشئون دولته ، بل يستمد النصح فى أخص شئونه العائلية . وتزايدت أهمية القاضى الفاضل

فى دولة صلاح الدين أيام الحرب الصليبية الثالثة ، فأنابه عنه فى إدارة شئون مصر ، بين سنتى ٥٨٥ — ٥٨٨ ؛ ولم يكتف بهذا ، بل اعتمد عليه كذلك فى التصرف فى كثير من المشكلات التى سببها بعض قواد الجيش الأيوبى وأمرائه فى ميدان المعركة بالشام . وقد عبر صلاح الدين عن تقديره ، للقاضى الفاضل بقوله : « ما فتحت البلاد بالعساكر ، إنما فتحتها بكلام الفاضل »[١] .

فلا عجب أن يتخذ أبو شامة من رسائل القاضى الفاضل مادة غزيرة يعتمد عليها فى كثير من تقريراته عن تاريخ الدولة الصلاحية . وقد كثرت هذه الرسائل فى كتاب الروضتين حتى أصبح هذا الكتاب من أهم المصادر التى يُعتمد عليها لدراسة جهود القاضى الفاضل فى ميادين السياسة والحرب والأدب ، بعد أن ضاع معظم أصول رسائله ولم يبق منها إلا القليل[٢] .

وسنرجئ الحديث عن هذه الرسائل قليلا لندرسها مع بقية الوثائق التى وردت فى الروضتين . غير أنه يجب ألاّ نترك هذه الفرصة دون التعرض لنقطة أخرى ، لا يزال الغموض يكتنفها ، وهى مؤلفات القاضى الفاضل التاريخية ، وذلك لصلتها الوثيقة بالعصر الذى يتحدث عنه أبو شامة فى كتابه .

فأبو شامة يذكر أنه عثر على «مجلدات» من الرسائل الفاضلية فاقتبس بعضها فى التاريخ الذى تعرض للحديث عنه فى كتاب الروضتين ويذكر ابن خلكان فى ترجمة القاضى الفاضل أن مسودات رسائله فى « المجلدات » ، « والتعليقات » فى الأوراق إذا جمعت لم تنقص عن مائة مجلد[٣] . ويقول فى مناسبة أخرى : « ورأيت فى تاريخ القاضى الفاضل الذى رتبه على الأيام ، وهو بخطه ، يذكر فيه ما يتجدد فى كل يوم . . . . »[٤] . ويقتبس ابن قاضى شهبة ابن خلكان فى عبارته الأولى ويزيد عليها أن فى هذه المجلدات

---

(١) شذرات الذهب : ٤ : ٣٢٤ .

(٢) يوجد من هذه الرسائل مقتطفات بجامعة ليدن برقم Cod. Or. 994A ؛ وبمكتبة الجامعة بكمبردج برقم Qq. 3232 ؛ وبالمتحف البريطانى بلندن برقم Add. 7312 -Rich.

(٣) وفيات الأعيان : ١ : ٢٨٤ — ٢٨٦ .

(٤) نفس المصدر : ١ : ٧ بتلبر .

المائة تسجيلَ مجهودات القاضي الفاضل في عمله كرئيس لديوان صلاح الدين[1] . وإلى جانب هذا نجد في خطط المقريزى مقتبسات عدة ، مأخوذة عن القاضي الفاضل ، يصدرها المقريزى بكلمة : « متجددات » ، أو « مجلدات » ، أو « مياومات » .

ويرجح Becker[2] أن « رسائل » القاضي الفاضل شيء آخر غير « التعليقات » ويعتمد في هذا على عبارة صدّر المقريزى بها اقتباسه في مناسبتين ، تقول : « وقال الفاضل في تعليقاته على المتجددات » فهذه العبارة تدل على أن « التعليقات » إنما هي شرح للمتجددات أو استدراك عليها ، فلا بد أن تكون شيئاً آخر مستقلا عنها . ولكن Becker يكتفي بهذه الإشارة ولا يزيد الأمر شرحا أو توضيحاً .

ولعل المقارنة بين المقتبسات التي وردت في كتاب الروضتين على أنها « رسائل » وبين المقتبسات التي وردت في خطط المقريزى على أنها « متجددات » أو « مياومات » أو « تعليقات » تساعد في جلاء هذه النقطة .

فموضوع الرسائل ، كما نجدها في الروضتين وفي المخطوطات المختلفة ، حوادث محدودة ، سياسية أو حربية ، أو مكاتبات للأمراء أو للخليفة أو السلطان . وكل رسالة من هذه الرسائل وحدة مستقلة بذاتها وتتناول موضوعاً بعينه له مناسبته الخاصة . أما المتجددات ، كما نجدها في الخطط ، فتختلف في طبيعتها عن الرسائل فهي لا تتعلق بمناسبة خاصة أو بموضوع معيّن يعالجه الفاضل في شكل رسائل ؛ هذا إلى أنها تبدأ بذكر تاريخ معين ، فتقول مثلا : « في يوم الخميس الرابع عشر من رجب . . . » ثم تتحدث عن موضوعات لها ، في الكثير الغالب ، الصبغة الحكومية الإدارية .

وفي ضوء هذا نستطيع أن نرجح أن المياومات ، أو التعليقات ، أو المتجددات أسماء لمؤلَّف أو لمؤلفات غير « المجلدات » التي اقتبسها أبو شامة في كتابه ، وأن المياومات إنما هي كتاب في التاريخ سجل فيه القاضي الفاضل الأعمال التي قام بها أو أشرف عليها مدة

---

(١) ابن قاضي شهبه : طبقات الشافعية : مخطوطة بالمتحف البريطاني برقم Add. 23,861 .

(٢) Beitrage zur Geschichte Agyptens unter dem Islam.

رئاسته لديوان الإنشاء ، كما ذكر ابن قاضى شهبه ، وكما تدل على ذلك المقتبسات التى أوردها المقريزى فى خططه وكما يقول حاجى خليفة فى كشف الظنون .

* * *

ويشارك القاضى الفاضل فى أهميته كمصدر رئيسى لكتاب الروضتين العماد الأصفهانى والقاضى ابن شداد . ذلك أن هؤلاء الثلاثة قاموا فى أيام صلاح الدين على شئون الحكومة والإدارة ، على درجات مختلفة فى الأهمية ، وصاحبوه ، لمدد متفاوتة ، فى حروبه وفى إقامته وأسهموا فى النشاط الاجتماعى والعلمى بقدر كبير .

وهناك بعض الفروق التى يجدر بنا ملاحظتها عند تقييم كل من هؤلاء الرجال الثلاثة لتقدير أهميتهم فى الحكومة وفى الصلة بصلاح الدين . فالقاضى الفاضل أقدم الثلاثة صلة بصلاح الدين وبالأسرة الأيوبية ، بل إنه اتصل ، قبل خدمته صلاح الدين ، بأسد الدين شيركوه ، وتولى كتابة الإنشاء له عند ما وقع عليه اختيار الخليفة العاضد ليتولى الوزارة ، وذلك فى سنة ٥٦٤ ، عقب نجاح الحملة الأخيرة ضد مصر ؛ وكان ذلك ، بطبيعة الحال ، فى عهد سلطنة نور الدين بالشام . ومنذ ذلك التاريخ لم تنقطع صلة القاضى الفاضل بحكومة مصر الصلاحية فى المرحلة الأولى ، ثم بحكومة مصر والشام معا بعد ذلك ، حتى وفاة صلاح الدين فى سنة ٥٨٩ .

أما العماد الأصفهانى فقد قدم إلى الشام واتصل برجالها ، وفى مقدمتهم كمال الدين ابن الشهرزورى ، قاضى قضاة دمشق ، الذى قدمه إلى نور الدين محمود فعينه كاتبا بديوان الإنشاء ، سنة ٥٦٣ ، فبقى فيه حتى نقله إلى وظيفة أخرى ، فى سنة ٥٦٧ ، تتناسب مع نشاطه العلمى قبيل قدومه إلى الشام ، وهى وظيفة الأستاذية بالمدرسة العمادية . وتدهورت مكانة العماد بعد وفاة نور الدين حتى أزمع على الرحلة من الشام ، ثم خرج فعلا إلى الموصل ؛ لكنه لم يلبث أن عاد إلى الشام بعد تقدم جيوش صلاح الدين من مصر إليها ، واتصل بالقاضى الفاضل الذى توسط فى أمره عند صلاح الدين ، فعينه فى ديوان الإنشاء لينوب عن القاضى الفاضل وليحمل عنه بعض أعباء وظيفته . ومنذ ذلك التاريخ لازم العماد صلاح الدين فى رحلاته وإقامته ، وقام له بمثل ما كان القاضى الفاضل يقوم به من الأعمال ، وإن لم يصل إلى نفس المكانة العالية التى صارت للفاضل ، مشير صلاح الدين ويده اليمنى

فى جميع أعمال الإدارة والسياسة والحرب ، بل فى أخص الشئون العائلية للأسرة الأيوبية .

ويختلف ابن شداد عن العماد الأصفهانى فى الطريقة التى اتصل بها بصلاح الدين ذلك أنه مرّ بدمشق ، سنة ٥٨٣ ، فى طريقه إلى الحج ، فأعجب به صلاح الدين ؛ ثم مرّ بها مرة أخرى فى عودته فى السنة التالية ، فعرض عليه السلطان أن يولّيه قضاء العسكر ، فقبل . ولازم ابن شداد صلاح الدين منذئذ حتى تم فتح مدينة القدس فولاه قضاءها ؛ وبقى على صلته القوية بالسلطان الذى توفى سنة ٥٨٩ ، فاتصل بعد ذلك بابنه الملك الظاهر صاحب حلب . وهكذا نجد أن شخصية ابن شداد هى التى مهدت له ، بطريق مباشر ، سبيل التقدم لدى صلاح الدين الذى اختصه ، منذ اتصل بخدمته ، بكثير من الرعاية والتقدير .

ويدل هذا العرض السريع الذى أوضحنا به مقدار صلة كل من هؤلاء الرجال الثلاثة ، الفاضل والعماد وابن شداد ، بمسرح الحوادث على أهمية كل منهم فى الجهاز الحكومى ، وعلى أن العبء الأكبر والمكانة الأولى كانت للقاضى الفاضل ؛ أما ابن شداد فلم يتصل بصلاح الدين إلا فى سنيه الأخيرة وإن كانت هذه السنون الأخيرة حافلة بأقوى مراحل الجهاد ضد الصليبيين ؛ وكانت منزلة العماد بين المنزلتين ، وصلته بالجهاز الحكومى تزيد فى قوتها عن صلة ابن شداد ، وتقصر عن صلة القاضى الفاضل ، أهم الرجال الثلاثة بلا جدال .

وبهذا يشترك العماد وابن شداد مع القاضى الفاضل فى أن كلاً منهم كان من معاصرى الفترة التى يتحدث عنها أبو شامة فى كتاب الروضتين ، ومن ثَمّ تعتبر المؤلفات التى كتبها كلٌ منهم فى المرتبة الأولى من الأهمية ، كمصادر معاصرة محلية ، فى تصوير الحوادث وتسجيلها .

ويقتبس أبو شامة العماد الأصفهانى فى وثائقه التى كتبها باسم السلطان ، عندما كان يعمل فى ديوان الإنشاء ، إلى الجهات المختلفة ، وسنتعرض لهذا عند حديثنا عن الوثائق التى وردت فى الروضتين . ويقتبسه كذلك فى كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى ، وكتاب البرق الشامى ، وكتاب تاريخ دولة آل سلجوق ، وفى خريدة القصر وجريدة العصر وفى بعض رسائل أخرى قصيرة ، بالإضافة إلى بعض الأشعار التى نقلها من ديوانه .

أما كتاب الفتح القسى فهو تسجيل تاريخى منظم للنشاط الحربى الذى قام به صلاح الدين بين سنتى ٥٨٣ — ٥٨٩ ، وهى فترة الجهاد الأكبر الذى قام به صلاح الدين

لتطهير فلسطين و بلاد الشام عامة ، من جموع الفرنج . وقد استعاد صلاح الدين بهذه الحروب كثيرا من معاقل الفرنج ، وفى مقدمتها بيت المقدس ، كما واجه جموع الصليبيين فى حملتهم الثالثة ، بزعامة فيليب ملك فرنسا ور يتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ؛ وهى الحملة التى انتهت بمعاهدة الرملة قبيل وفاة صلاح الدين بشهور قليلة وفى مقدمة كتاب الفتح يتحدث العماد عن سبب اختياره سنة ٥٨٣ لتكون بداية للكتاب؟ فيقول عن خروج الجيوش للحرب : « إنها هجرة ثانية للإســلام ، ولـكنها إلى البيت المقدس ؛ وهى أبق المهجرتين وأعظم الفتحين » . ويزيد الأمر وضوحا حين يذكر أن الفتوح الأولى كانت من عهد النبى غير بعيد ، والسلاح لم يكن بهذا التنوع والضخامة التى كان عليها أيام الفتح الصلاحى ؛ « هذا إلى أنه فتحٌ للقدس بعد أن طغى عليها الـكفر وانحسر عنها الإسلام » .

أما الفترة التى يشملها كتاب البرق الشامى فتبدأ بسنة ٥٦٢ وتنتهى عند وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ . وهذا الـكتاب أكبر حجما من الفتح القدسى وأوسع مجالا . وقد بدأه بذكره انتقاله من العراق إلى الشام ، واتصاله بخدمة نور الدين عن طريق كمال الدين بن الشهرزورى الذى قدمه أيضاً لنجم الدين أيوب ، فساعد بهذا على تجديد صلة الأيوبيين بأسرة العماد ، تلك الصلة التى بدأت فى تكريت عند ما اتصل العزيز ، عم العماد ، بنجم الدين أيوب صاحب قلعة تكريت حينذاك .

والفتح القدسى موجود بكثرة مخطوطا ومطبوعا ، أما البرق فلا يوجد منه إلا مخطوطة للجزءين الثالث والخامس فى مكتبة بودليان بأكسفورد ، و إلا بعض أوراق ، لا نعرف عنها الـكثير ، فى مكتبة لينينجراد . ولنستطيع مقارنة الفتح بالبرق من حيث الحجم ، مقارنة تقريبية ، نذكر أن الفتح كتب المرة الأولى فى مجلدين بينما كتب البرق فى سبعة مجلدات . ولعل الفرق فى الحجم بين الـكتابين يرجع إلى الفرق فى الفترة الزمنية التى يتعرض لها كل منهما .

وأسلوب الـكتابين واحد تميز به العماد فى جميع ما كتب ، حتى فى شعره ، فهو يعتمد على الإكثار من استعمال المحسنات البديعيّة ، بدرجة مملة مرهقة ، تجعل استخلاص الحقائق التاريخية أمراً صعباً ومهمة شاقة . ولـكن صدق هذه المعلومات يستحق ما يصرف فى سبيل

استخلاصها من الغناء ؛ فالعماد يتحدث عما شاهده أو سمعه بنفسه ، أو عما وقف عليه في أثناء عمله بديوان الإنشاء . وهو يؤيد حديثه أحياناً بالوثائق التي كتبها بنفسه ، أو التي وصلت إليه ، ولم يقتبس العماد في « الفتح » وثيقة واحدة لرئيسه القاضي الفاضل ، على حين نجد في البرق الشامي بعضاً من هذه الوثائق الفاضلية وقد يكون السبب في هذا أن «الفتح» ، في أغلبه ، وصف للحوادث التي وقعت في فلسطين ، والشام عامة ، في فترة الفتوح العظيمة ، ثم في فترة الحرب الصليبية ، وقد شهدها العماد بنفسه . أما القاضي الفاضل فإنه لم ينزل إلى ميدان المعركة في هذه الفترة ، بل قضى بعضا منها بعيداً عنها ، في مصر ، نائباً عن صلاح الدين . وهذان الكتابان يتفقان في الطريقة إذ يتبعان نظام الحوليات ، ولا يتعرضان لترجمة الأعلام الراحلين من العلماء ، أو غيرهم ، إلا في القليل النادر .

وكتاب تاريخ دولة آل سلجوق ، أو كتاب السلجوقية ، يتعلق ، كما يظهر من عنوانه ، بتاريخ أسرة السلاجقة التي بدأ نجمها في الظهور على مسرح تاريخ الدولة العباسية حوالي منتصف القرن الخامس الهجري حينما خلفت الأسرة البويهية المنهارة ؛ ثم توزع سلطان هذه الأسرة بتأثير عامل المطامع الشخصية لأمرائها . وكان العماد الأصفهاني قد اتصل بهؤلاء السلاجقة قبيل قدومه إلى الشام ، وتولى التدريس ببعض المدارس التي أنشئوها ، كما تولى في ظلهم منصباً إدارياً في مدينة واسط بالعراق . وقد حملته صلته هذه على تدوين تاريخهم في مؤلف خاص ، اقتبسه أبو شامة في مناسبات قليلة جدا ، وهو لهذا لا يعتبر من المصادر الرئيسية لكتاب الروضتين الذي لا يهتم اهتماما مباشرا بتاريخ السلاجقة .

وخريدة القصر مؤلف آخر للعماد ، له طابع أدبي صرف ، ويتحدث عن أدباء مصر والشام والعراق والجزيرة وغيرهم في مجلدات مستقلة يختص واحد منها ، أو أكثر ، بجهة من الجهات . ولا يزال هذا الكتاب ، في معظمه ، في شكل مخطوط لم ينشر منه إلا جزءان عن أدباء مصر وجزء واحد عن أدباء الشام والجزيرة . وقد اقتبسه أبو شامة أيضاً في مناسبات قليلة عند الحديث عن بعض الشخصيات للتعريف بقيمتها الأدبية ، وذلك مثل الصالح طلائع بن رزيك ، أو الجليس بن الحباب ، أو ابن المهذب الزبيري ، من رجال الدولة الفاطمية .

أما كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، أو كتاب سيرة صلاح الدين ، للقاضي بهاء الدين ابن شداد ، فهو أيضاً من المصادر الرئيسية الهامة لكتاب الروضتين . وهو كتاب صغير الحجم نسبياً ، إذا قورن بالفتح القدسي أو بما تحت أيدينا من كتاب البرق الشامي ؛ لكنه خال من الزخرف والتزويق اللذين يميزان كتابة العماد الأصفهاني . فصغر حجمه ، إذاً ، لا يقلل من قيمته التاريخية ؛ بل إننا نجد هذا الكتاب حاويا لكثير من الحقائق التاريخية المسجلة في عبارات محددة . ويقع الكتاب في قسمين ، قصد ابن شداد أن يخصص أولهما للحديث عن صفات صلاح الدين بصفة عامة ، وأن يفصّل في الثاني ما جرى في أيامه من فتوحات وحروب . وقد جاء القسم الأول في فصول قصار يتحدث كل منها عن صفة خاصة من الصفات التي أعجبت ابن شداد من صلاح الدين ، مثل ، عدالته ، وقاره ، ديانته ؛ وصدّر كل فصل من هذه الفصول بآية من كتاب الله أو بحديث لرسوله ، صلى الله عليه وسلم ، كعنوان أو فاتحة للفصل . والواقع أن هذا القسم القصير لا يعدو أن يكون تمهيداً للغرض الأصلي الذي ألف الكتاب من أجله ، وهو تفصيل الحديث عن نشاط صلاح الدين وجهاده وحروبه التي جعلت منه بطلا من أبطال المجاهدين .

ولكي نقدر أهمية هذا الكتاب يجب أن نذكر أن ابن شداد لم يفارق صلاح الدين منذ التحق بخدمته في سنة ٥٨٤ ، بل كان يتنقل معه في ميادين القتال ويشترك في الحرب ، أو يقوم بالمراقبة لحركات العدو ، أو يبلغ رسالة من السلطان إلى صف من صفوف الجند ، أو يقرأ على السلطان ، بين الصفوف ، شيئاً من الحديث النبوي . وظل ابن شداد ملازماً للسلطان ، حتى بعد أن عين قاضياً لمدينة القدس ، وقد شهد وفاته ، رحمه الله ، سنة ٥٨٩ ، بعد توقيع معاهدة الرملة بشهور .

ويعلق ابن شداد أهمية كبرى على المشاهدة كأساس من أسس الكتابة التاريخية الصادقة ، ولذلك نجده يقول أثناء حديثه عن حوادث سنة ٥٨٤ ، وهي السنة التي التحق فيها بخدمة صلاح الدين : « ... ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبرا يقارب العيان » . كما نجده يقول في أثناء الحديث عن السنة السابقة لهذه السنة ، ٥٨٣ ، بعد رواية قصة مقتل البرنس أمير الكرك بيد السلطان صلاح الدين :

« هكذا بلغني عن ألسنة جماعة لأني لم أحضر هذه الواقعة[1] » وهكذا نجد أن كتاب النوادر السلطانية يعتبر مصدراً معاصراً هاماً فى المدة التى تقع بين سنتى ٥٨٤ — ٥٨٩ ، كما أنه يَرْقى ، باعتماده على الثقات فى رواية ما سبق هـذه الفترة ، إلى مرتبة المصادر الرئيسية الأولى التى اعتمد عليها أبو شامة فى كتاب الروضتين .

* * *

و يعتمد أبو شامة اعتماداً كبيراً فى حديثه عن تاريخ الجزيرة وحوادثها على ابن الأثير الذى ألف كتابا خاصا عن أسرة زنكى وسماه « تاريخ أتابكة الموصل » أو « الباهر فى تاريخ أتابكة الموصل » . وقد أهدى ابن الأثير كتابه هذا إلى الأمير القاهر مسعود ، الذى ولى الموصل سنة ٦٠٧ ، اعترافا بفضل أسلافه على أسرة ابن الأثير ، وتوجيها له ، حتى يتخذ من سلفه مُثُلا تحتذى فى حسن السيرة وعدالة الحكم . و يشمل هذا الكتاب المدة الواقعة بين سنتى ٤٧٧ — ٦٠٧ ، أى منذ ولاية آق سنقر صاحب الموصل ، والد عماد الدين زنكى حتى بدء ولاية القاهر مسعود الذى أهدى إليه الكتاب . وقد ولد ابن الأثير سنة ٥٥٥ ، و بهذا يمكن أن يعتبر مصدراً رئيسيا للحوادث التى يسجلها فى الخمسين سنة الأخيرة من الفترة التى يشملها الكتاب ؛ أما ما سبق هذه المدة فقد أخذه عن الثقات الذين يعتمد عليهم ، كما يقول ، وفى مقدمة هؤلاء والده الذى يتردد ذكره فى الكتاب ، كمصدر ، خمساً وعشرين مرة . و يذكر ابن الأثير أن والده حكى له معظم ما جاء فى هذا الكتاب ، و إن كان هو قد دوّنه ، من حفظه ، بعد وفاة والده ، مما أدى إلى نسيانه لكثير مما قصّه والده عليه . وقليلا ما يذكر ابن الأثير المصادر الأخرى التى استمد منها معلوماته التى سجلها فى هذا الكتاب ؛ ومن هذا القليل نجده يذكر ابن عساكر مرتين ، وأسامة بن منقذ مرة ، وكمال الدين ابن العديم مرة ، والعماد الأصفهانى مرة . وقد نجده يتعمد تعمية المصدر أحياناً و يشير إليه بقوله ، على سبيل المثال : « وذكر لى أعلم أهل زمانه بالأنساب » ، أو « وذكر لى من أثق فى صدوق روايته » .

وموضوع الكتاب ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، تاريخ أتابكة الموصل منذ سنة

---

(١) النوادر السلطانية : ٢٧ ، ٦٣ — ٦٤ .

٤٧٧ إلى سنة ٦٠٧ . وبهذا يقصر ابن الأثير حديثه على تاريخ هؤلاء الأتابكة ، لا يتعداه إلا إلى ذكر وفاة خليفة أو سلطان وولاية غيرهما وهو إذا ذكر شيئاً عن حملات شيركوه على مصر لا يعدو أن يكون مقرراً لحوادث لها صلة بقائد من قواد نور الدين محمود ، سار بأمره ينفذ تعليماته ؛ ونور الدين من أبرز أسماء الأتابكة الذين يتحدث عنهم ابن الأثير في هذا الكتاب . وقد يستطرد ابن الأثير في تقريره فيتحدث عن موضوعات أو أشياء لا تتصل اتصالا مباشراً بالأتابكة ، لكنه سرعان ما يتنبه إلى هـذا فيعرض عنه بصراحة قائلا : « وسنذكر هنا ما يتعلق منه بشئون الموصل معرضين عن غيره ، حتى لا يخرج بنا عن الغرض من الكتاب » .

ولابن الأثير كتاب آخر في التاريخ أكبر حجماً وأوسع مجالا ، من الناحيتين الزمانية والمكانية ، من كتاب الباهر ، ذلك هو كتاب الكامل في التاريخ . ويشمل هـذا الكتاب ، ضمن محتوياته ، الفترة التي اختصها بكتاب « الباهر » . وكثيراً ما نجد شبهاً بين الكتابين في العبارات والألفاظ والتقريرات ، مع بعض الزيادة في أحدهما بذكر حوادث جديدة أو بالتوسع في الحديث عن حادثة معينة . والسر في هذا أن ابن الأثير كتب أولاً كتابه « الكامل » الكبير في صورته الأولى ، ثم تقاعس عن إخراجه في صورته الأخيرة بعد تصحيحه ومراجعته . ثم جدت ظروف حملته على إخراج كتاب الأتابكة حوالي سنة ٦٠٧ ، فاعتمد في هذا على ما سجله في مسودات كتاب « الكامل » الذي لم يظهر في صورته الأخيرة إلا بعد سنة ٦١٩ .

* * *

أما ابن أبي طيّ ، وهو من أهم مصادر كتاب الروضتين ، فقد نشأ في حلب في وسط شيعيّ الصبغة ، وإن كان قد تلقى من الثقافة ما شاع منها في الأوساط العلمية عندئذ فقد درس القرآن على والده ، ودرس الموطأ في الحديث ، كما برع في دراسة علوم البلاغة والأدب والتصوف واللغويات . ويذكر عنه ياقوت « أنه جعل التصنيف حانوته ، ومنه مكسبه وقوته » ويبدو أن ميوله الشيعيّة ، التي أدت إلى نفي والده من حلب مرة في سنة ٥٤٣ ، جعلته مضطهدا من العلماء غير محبوب منهم ؛ ولعله ، لهذا السبب ، لم يجد الطريق

مفتوحا أمامه ليشغل أى منصب حكومى ، أو يقوم بالتدريس فى مدارس حلب ، أو فى مساجدها ، أو فى غيرها من أماكن التعليم والتثقيف .

وكتب ابن أبى طىّ كثيرة جدًّا ، تدل مراجعة أسمائها على تنوعها وشمولها . فقد ألف فى الفقه ، والقراءات ، والأدب ، والقواعد النحوية ، والبلاغة ، والنبات ، والتاريخ ، والتراجم . ومن مؤلفاته التاريخية : كتاب كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين ؛ وكتاب معادن الذهب فى تاريخ حلب ؛ وذيله ؛ وكتاب سيرة ملوك حلب ؛ وكتاب سلك النظام فى تاريخ الشام ؛ وكتاب تاريخ مصر ؛ وكتاب مختار تاريخ المغرب . ولا ندرى على وجه التحديد أىّ هذه الكتب اقتبسه أبو شامة فى الروضتين وذلك لتنوع المقتبسات التى أخذها عن ابن أبى طىّ . فمنها ما يتعلق بالشام عامة وبحلب خاصة ، ومنها ما يتعلق بالجزيرة ، ومصر ، والمغرب . ومما يجعل مهمة الحكم فى هذا الموضوع غير ميسرة ضياع جميع المؤلفات التى كتبها ابن أبى طىّ ، وعدم تحديد أبى شامة ، فى مقدمته ، للمصدر الذى اعتمد عليه منها ؛ بل إنه أهمل ذكر ابن أبى طى فى مقدمته بين مصادره إهمالا تاما ، مكتفيًا بالإشارة العامة فى عبارته التى تقول : « ... وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة من عدة مصنفات ودواوين ومراسلات » . ويبدو من تنوع الموضوعات التى يقتبسها أبو شامة من ابن أبى طىّ أنه يقتبسه فى كتبه التاريخية جميعًا ، إلاّ إذا كان كتاب سيرة صلاح الدين ، وقد اقتبسه مرة واحدة بالاسم ، قد احتوى على تفصيلات شاملة لجميع الجهات ، حتى بلاد المغرب .

وأسلوب ابن أبى طىّ ، كما نجده فى مقتبسات الروضتين ، وكذلك فى مقتبساته فى تاريخ ابن الفرات ، أسلوب سهل ، مجرد من الزخرف ، واقعىّ ، مختصر ، مباشر فى معالجته للموضوع ؛ وهو يشبه فى هذا كتابة ابن شداد . ونستطيع أن نرى من مقتبساته كذلك أنه يعتمد فى كثير من الأحيان على والده ولا ينسى ابن أبى طىّ أن يؤيد حديثه ، فى بعض الحالات ، بالوثائق التى كتب القاضى الفاضل بعضها .

* * *

وفى ختام هذه النقطة نذكر فى إشارة عابرة المصادر الثانوية الأخرى التى اعتمد عليها أبو شامة واقتبس كلاً منها مرة أو مرتين أو نحو ذلك . وهى : تاريخ إربل لابن المستوفى الإربلى ؛ تاريخ حلب لكمال الدين ابن العديم ؛ كتاب المعارف المتأخرة لمحمد بن عبد الملك الهمذانى ؛ ذيل تاريخ بغداد لأبى سعد السمعانى ؛ تذييل تاريخ ابن الجوزى لابن القادسى ؛ تاريخ الغرباء الذين دخلوا مصر لأبى سعيد بن يونس ؛ سيرة نور الدين لأبى الفتح ابن بنجه الأشترى ؛ النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمنى ؛ كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ؛ كتاب الوشى المرقوم لابن الأثير الجزرى ؛ كتاب الإفصاح ليحيى بن هبيرة . ثم ، من المصادر الشفوية ، نجده يذكر أبا الحسن السخاوى ، والأمير أبا الفتوح ابن العاضد ، والشيخ تاج الدين الكندى .

استخدام أبى شامة للمصادر :

ومن هذا العرض التفصيلى للمصادر الرئيسية التى اعتمد عليها أبو شامة يتبين أنه وضع لنفسه مبدأ هاما طبقه بكل دقة واتبعه دون انحراف ، ذلك هو مبدأ الاعتماد على المصدر المحلى ، المعاصر ، فى تفصيل الحوادث التى يتعرض لتسجيلها . فحمزة بن أسد التميمى المعروف بأبى يعلى ، أقدم هذه المصادر ، توفى سنة ٥٥٥ . وآخر الشخصيات التى استمدها واعتمد عليها ، هو ابن شداد وقد توفى سنة ٦٣٢ ، بعد أن عمر أكثر من تسعين سنة .

ويزيد هذا المبدأ وضوحاً من الناحية التطبيقية تتبع هذه المصادر فى كتاب الروضتين تتبعا نقديا . وهذا يقتضينا أن نقسم الكتاب أقساما سبعة واضحة ، يتميز كلّ منها بمجموعة خاصة من المصادر(١) .

ا — وأول هذه الأقسام يبدأ بأول الكتاب وينتهى عند تعيين عماد الدين زنكى بولاية الموصل وأعمالها ، سنة ٥٢١ . ويختص هذا القسم بتعديد مآثر نور الدين وتقدير صفاته التى جعلت منه شخصية لها مكانتها الممتازة فى تاريخ الإسلام . وهذا الحديث له

(١) انظر الشكل التوضيحى لهذه النقطة فى آخر هذا البحث .

صفة التعميم ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، يتعرض فيه أبو شامة لعدالة نور الدين ، وشجاعته ، وحزمه ، وديانته . . . وغيرذلك ؛ من غير اهتمام بتفصيل حوادث معينة . وفى هذا كله يعتمد أبو شامة على مصادر ثلاثة رئيسية هى ابن الأثير ، وابن شداد ، والعماد الكاتب ؛ فيقتبس ابن الأثير ثمانى عشرة مرة ويقتبس ابن شداد ثلاث مرات ، ويقتبس العماد مثلها . وهو إنما اعتمد على ابن الأثير أكثر من صاحبيه فى هذه الفترة لتخصصه فى تاريخ أتابكة الموصل ، فهو من جزيرة ابن عمر بالموصل ، ولأسرته صلة قوية بأسرة زنكى ، والد نور الدين ، وابن آق سنقر مؤسس هذه الأسرة الأتابكية .

ب — أما القسم الثانى فيبدأ بولاية زنكى إمارة الموصل ، فى سنة ٥٢١ ، وينتهى فى أثناء الحديث عن حوادث سنة ٥٥٥ . وهى مدة طويلة شهدت جهاد زنكى حتى وفاته عند قلعة جعبر فى سنة ٥٤١ ، ثم ما جرى بعد ذلك من تقسيم ولايته بين ولديه ، غازى الذى تولى الموصل ، ونور الدين الذى تولى حلب . وإنما اعتبرنا سنة ٥٥٥ نهاية لهذا القسم لأن أبا يعلى ، أهم المؤرخين الذين استمدهم أبو شامة فى هذه الفترة ، توفى فى هذه السنة ، فانتهى الاقتباس منه عند الحديث عنها . والموضوعات التى يتحدث عنها أبو شامة فى هذه الفترة الطويلة تخص الموصل ، ودمشق ، وحلب ، باعتبارها مراكز وعواصم للقوى الرئيسية الثلاثة فى هذه المنطقة ، أعنى الجزيرة ، وجنوبىّ الشام ، وشماليّه .

ويعتمد أبو شامة فى تقريراته عن الجزيرة على كتاب الأتابكة لابن الأثير ، وعن جنوبىّ الشام على أبى يعلى صاحب ذيل تاريخ دمشق ، وعن شمالىّ الشام على يحيى بن أبى طىّ المواطن الحلبى . فيقتبس الأول اثنين وخمسين مرة ، ويقتبس الثانى سبعا وثلاثين مرة ، ويقتبس الثالث خمس عشرة مرة . ويظهر بجانب هؤلاء مصادر ثانوية أخرى ، كالعماد الذى اقتبس ست مرات ، وعمارة اليمنى الذى اقتبس مرة ، وابن عساكر الذى اقتبس مرتين .

حـ — وينتهى القسم الثالث من هذا التقسيم عند سنة ٥٦٢ ، وهى السنة التى قدم فيها العماد الأصفهانى إلى الشام حيث اتصل بخدمة نور الدين . وتتركز مصادره الرئيسية فى شخصيتين : ابن الأثير الذى لا تزال له مكانته الممتازة ، ولذا يقتبسه أبو شامة أربع عشرة مرة ، إذ أن الحديث لا يزال عن منطقتى الجزيرة والشام ؛ والعماد الأصفهانى

الذى يبدأ فى الظهور فيقتبسه أبو شامة إحدى عشرة مرة . ولا يزال هناك مجال للمصادر الثانوية ، فيقتبس عمارة مرتين ، وأسامة بن منقذ مرة ، وابن عساكر مثلها ، وابن شداد أربع مرات ، وابن أبى طىّ ، الذى يتقهقر فى هذا القسم إلى الصفوف الخلفية ، فيقتبس مرة واحدة .

*

٤ — أما القسم الرابع فينتهى بنهاية الجزء الأول ، أى بنهاية الحديث عن حوادث سنة ٥٧٣ . ويشهد هذا القسم تطورات هامة فى تاريخ هذه المنطقة ؛ ذلك أن مجال نشاط نور الدين يتسع حتى يشمل فلسطين ، ثم يمتد إلى مصر ، بعد استنجاد وزيرها شاور به ، فيتدخل فى شئونها ثم يفتحها . وفى سنة ٥٦٩ ينتهى عهد نور الدين بوفاته ويخلفه ابنه الصالح إسماعيل . ويبدأ صلاح الدين ، قائد نور الدين ووزير الفاطميين فى نفس الوقت ، زحفه من مصر إلى الشام والجزيرة ، ضد أملاك الصالح إسماعيل وضد القوى الفرنجية معاً . أى أن مركز القوة انتقل من دمشق وحلب ، عاصمتى نور الدين ، إلى القاهرة عاصمة صلاح الدين عندئذ . ولهذا يتقهقر ابن الأثير عن مكان الصدارة كمصدر لأبى شامة فى حوادث هذه الفترة ، ليتقدم العماد الأصفهانى ، من رجال حكومة نور الدّين ، ثمّ ، من بعده ، من رجال صلاح الدين . ويشارك العماد فى الصدارة يحيى بن أبى طىّ على قدم المساواة رغم زيادة عدد المقتبسات التى يأخذها أبو شامة من العماد عنها من ابن أبى طىّ . وقد اقتبس العماد فى هـذه الفترة خمسا وعشرين ومائة مرة ، واقتبس ابن أبى طى ستا وثلاثين مرة ، وابن الأثير ثلاثين مرة . ويدل على أهمية ابن أبى طىّ فى هـذه الفترة أن أبا شامة يسوق الحديث عن الحملات التى قام بها شيركوه على مصر ، بعد استنجاد شاورَ بنور الدين ، معتمداً على ابن الأثير والعماد الكاتب ، ويواصل هذا الحديث ، معتمداً عليهما ، حتى يتولى صلاح الدين الأيوبى الوزارة للخليفة العاضد الفاطمى . ثم يعقب على هذا بقوله : « وهذا الذى ذكرناه من قصة شاور وما جرى بسببه فى الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملا على زيادات وفوائد فى كتاب ليحيى بن أبى طىّ فى السيرة الصلاحية ، فأحببت ذكره مختصراً » . ويتبع أبو شامة هذا بفصل كامل عن هذه القصة احتسبناه فى الإحصاء السابق اقتباساً واحداً لأنه جاء فى كتاب الروضتين متتابعاً متماسكا .

ولم يعامل أبو شامة أى مصدر من المصادر التى اعتمد عليها فى كتاب الروضتين بمثل هذه المعاملة المتميزة التى تدل على تقدير خاص ، اللهم إلا قريباً من نهاية الكتاب عند ما يعقب على وفاة صلاح الدين بإشارة مختصرة إلى ما تبعها من حوادث ، فى إمبراطوريته الواسعة ، معتمدا فى هذا على رسائل قصيرة للعماد الأصفهانى كاتب الإنشاء لصلاح الدين .

هـ — ويبدأ القسم التالى ببداية الجزء الثانى من الكتاب ، أى بحوادث سنة ٥٧٤ وينتهى ، طبقاً لتقسيمنا ، فى أثناء الحديث عن حوادث سنة ٥٨٤ ، وإن كان هذا القسم فى مجموعه امتدادا للقسم السابق وفى سنة ٥٨٤ يلتحق ابن شداد بخدمة صلاح الدين ويشاهد معه جميع معاركه ، ولهذا يزيد أبو شامة من اعتماده عليه مما يجعلنا نرضى بسنة ٥٨٤ نهاية للفترة التى نتحدث عنها فى هـذه الفقرة . وفى هذا القسم يتأكد مركز العماد كمصدر أول لأبى شامة الذى يقتبسه خمس عشرة ومائة مرة . ويبدأ ابن شداد فى شق طريقه ويحتل المكانة الثانية بين مصادر الروضتين فيقتبسه أبو شامة ست عشرة مرة ، ويزاحم بهـذا ابن أبى طىّ الذى يُقتبس عشرين مرة يتوارى بعدها نهائياً من بين مصادر الروضتين فلا يُقتبس بعد هذا مرة واحدة . أما ابن الأثير فيتضاءل شأنه وتقل مكانته حتى لا يتردد ذكره أكثر من أربع مرات ، وذلك لأن المجال لغيره والحديث بعيد عن الجزيرة موطن ابن الأثير .

و — وفى أثناء الحديث عن سنة ٥٨٤ يلتحق القاضى بهاء الدين ابن شداد بخدمة صلاح الدين ويلازمه منذ ذلك الوقت فى جميع معاركه الحربية ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ، ويسجل ابن شداد ما سبق هذا التاريخ ثم ما شاهده بعده فى كتاب خاص بسيرة صلاح الدين ولكنه يشير فى مقدمته وفى أثناء الحديث عن سنة ٥٨٤ ، إلى أنه يعتبرها حدا فاصلا بين نوعين من الكتابة التاريخية التى اشتمل عليها كتابه ، فيقول : « ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرنى به من أثق خبرا يقارب العيان » فيحمل هذا التقرير أبا شامة على اتخاذ ابن شداد مصدراً أوليا يعتمد عليه ، ويضعه على قدم المساواة مع العماد الأصفهانى . والواقع أن العماد وابن شداد لازما صلاح الدين فى حروبه وإقامته فى هذه الفترة ملازمة لا تكاد تنقطع ؛ وقد دوّنا ما شهداه بأعينهما من تطورات هذه المعارك

بطريقة تجعلنا لا نعدو الواقع إذا اعتبرناهما بمثابة المراسلين الحربيين فى عصرنا الحديث ، مع فارق واحد ، هو أن المراسلين الحربيين يدونون ما يشهدونه أولا بأول ، أما العماد وابن شداد فيبدو أنهما لم يدونا تاريخ صلاح الدين الحربى فى هذه الفترة إلا بعد استقرار الأمور وتوقيع معاهدة الرملة . وفى هذه الفترة اقتبس أبو شامة العماد الأصفهانى خمسا وتسعين مرة ، واقتبس ابن شداد تسعا وستين مرة . ويلاحظ هنا أن المقتبسات المنقولة عن العماد تتمثل فى مقتطفات من كتاب البرق الشامى ومن كتاب الفتح القسى ومن الوثائق التى صدرت عن ديوان صلاح الدين . أما ابن شداد فلم يكن له إلا كتاب واحد هو النوادر السلطانية .

ز — والقسم الأخير الذى يختم به أبو شامة الكتاب يتعرض فى اختصار شديد لما أصاب الامبراطورية الواسعة التى تركها صلاح الدين بعد وفاته . والمصدر الوحيد الذى يعتمد أبو شامة عليه فى الحديث عن هذا القسم هو العماد الأصفهانى ، كاتب الإنشاء لصلاح الدين ، الذى تضاءلت مكانته الحكومية وتدهورت حاله ، فقل نفوذه ، ثم ترك خدمة الحكومة ، فتأسى لما أصاب الدولة ، وتألم لما أصيب هو به ، وسجل شعوره ومشاهداته فى رسائل قصار اعتمد عليها أبو شامة فى تصوير الحال ، وهى : العتبى والعقبى ، ونحلة الرحلة ، وخطفة الشارق .

وبهذا يمكن فهم سياسة أبى شامة فى اختيار مصادره ؛ فهو يهتم باختيار المصدر الذى تتوفر له صفتان : المحلّية والمعاصَرة معاً . فابن الأثير مواطن موصلىّ من الجزيرة معاصر لكثير من حوادثها التى سجلها فى تاريخ أتابكة الموصل ، ولذا يقتبسه أبو شامة فى حوادث الموصل والجزيرة ؛ وأبو يعلى مواطن دمشقىّ وواحد من المسئولين الحكوميّين عن الشام ، وهو يتحدث عما شاهده ، فهو لهذا المصدر الرئيسى لتاريخ الشام ، وبخاصة ما يتعلق بدمشق وأعمالها ؛ وابن أبى طىّ من أهل حلب ، ولذا يعتمد عليه أبو شامة فى الحديث عن تاريخها وما يتصل بها ؛ والعماد كاتب الإنشاء لنور الدّين ثم لصلاح الدين ، وهو ملازم لهما ، متنقل معهما ؛ ولذا يصلح ما كتبه ليقتبسه أبو شامة عن أى مكان يكونان فيه . وينطبق هذا على جميع المصادر التى يستمدها أبو شامة فى كتابه فى ضوء الحديث المفصل الذى شرحنا فيه هذا المبدأ والذى حملنا على تقسيم الكتاب ، بالنسبة لاستعمال المصادر المختلفة ، إلى سبعة أقسام متميزة .

وبهذا اطمأن أبو شامة إلى أنه وفر لكتابه المصادر الثقة التي يُعتمد عليها ، فاقتبسها مطمئناً إلى صدقها ، ولم يتعرض لما يقتبسه منها بالنقد أو المناقشة أو التصحيح ؛ فكل مصدر منها معاصر للحوادث التي يرويها ، مشاهد لها ، أمّا أبو شامة فلم يعاصرها ولم يشهد شيئاً منها ؛ ولهذا لا يرضى بأن يتعرّض لها بالنقد أو المناقشة ، وإنما يكتفي بأن يصدّر مقتبساته عن الحوادث التي يسوقها و يسجلها باسم المرجع الذي اعتمد عليه ، محمّلا المسئولية كلّها لراوي الحادثة . ولا يشذّ أبو شامة عن طريقته هذه إلاّ في واحدة من حالتين : الأولى إذا كانت هنالك وثيقة رسمية تخالف تقريراً بعينه ؛ والثانية إذا هيأت له الدراسة التي تخصص بها في دراسة الحديث أو نحوه طريق الحكم القطعيّ الصادق على ما يورده في كتاب الروضتين، مما يرى أنه موضع اعتراض أو نقض .

ومن أمثلة الحالة الأولى ما أورده ابن الأثير في كتاب الأتابكة عن بعض الأعمال الخيرية التي قام بها نور الدّين محمود ، وذلك قوله : « إنّ أعظم البيمارستانات التي أنشاها ذلك الموجود بدمشق فإنه عظيم كثير الخرج . بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء فحسب ، بل على كافة المسلمين من غني وفقير » وقد اقتبس أبو شامة هذه العبارات في كتابه ، لكنه لم يسكت عما جاءت به ، بل حاول الحصول على وثيقة الوقف التي تحدث عنها ابن الأثير . وقد وجدها وقرأها ، ثم علّق على كلام ابن الأثير بقوله : « وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراً بذلك ، وإنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة ... وإنما صرّح بأن ما يعزّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء » . ويستمر أبو شامة في نقض كلام ابن الأثير مستنداً إلى دراسته لهذه الوثيقة ، فيقول : « وقد خص ذلك بذلك ، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره ، ولا سيّما وقد صرح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين » .

ومن أمثلة الحالة الثانية ما ذكره العماد في أثناء الحديث عن المعارك التي دارت قرب مدينة قيسارية ، بعد رحيل الفرنج إليها من عكا سنة ٥٨٧ ، في شعبان ، إذ يقول : وأصبح (يعني السلطان صلاح الدين) على تُبْنَى[1] وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام عليه

(١) تبنى بلدة بحوران من أعمال دمشق ، أو هي قرية من أرض البثنية لغسان ، وهي أيضاً من نواحي دمشق : معجم البلدان : ٢ : ٣٦٤ .

تبنى . . . وزرنا بتبنى قبر أبى هريرة رضوان الله عليه » فأبو شامة حين يقتبس العماد فى هذه الحادثة لا يرضى عن استطراده الذى ذكره عن وجود قبر أبى هريرة عند تبنى ، ويعقب على تقريره بقوله : « واعتمد العماد فى هذا على ما اشتهر عند العامة من ذلك . وأما أهل العلم المصنفون فى أخبار الصحابة رضوان الله عليهم ، كابن سعد وغيره ، فذكروا أن أبا هريرة توفى بالمدينة ولم يذكروا غيره » .

ونلاحظ فى كتاب الروضتين أن أبا شامة يتوخى الدقة فى اقتباسه من المصادر المختلفة ، وهو فى سبيل هذا يعمد إلى اقتباس هذه المصادر اقتباساً حرفياً ، فى الكثير الغالب ، فلا يتناولها بشىء من التغيير وفى الحالات القليلة التى يعمد فيها إلى الاختصار أو التلخيص أو الحذف لا يحيد عن هذه السياسة ، إذ يحافظ ، فيما أبقى عليه من الأصل ، على حرفية العبارات التى يقتبسها . ولا يشذ أبو شامة عن هذه القاعدة إلا عند ما يقتبس العماد الأصفهانى ذلك أنه يختصره اختصارا شديدا قد يُبقى على سطر واحد أو سطرين من صفحة كاملة من كتبه ، وهو لا يفعل هذا دون أن يكون هناك مبرر لما يفعل ، بل إنه يصرح بالدافع له على اتباع هذه السياسة مع العماد إذ يقول : « . . . . . . إلاّ أنّ العماد فى كتابيه طويل النفس فى السجع والوصف ، يمل الناظر فيه ، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه . فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلا منها استحسنتها فى مواضعها ، ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع . . وانتزعت المقصود من الأخبار ، من بين تلك الرسائل الطوال . . . . وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام » . .

وقد ذكرنا من قبل أن كتاب الروضتين يسير على نظام الحوليات فى المدة الواقعة بين سنتى ٥٤٢ — ٥٨٩ ، أى مدة ولايتى نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف بن أيوب . ونلاحظ هنا ، بعد مقارنة الكتاب بمصادره الأصلية ، أن أبا شامة لا يتقيد دائما بترتيب الحوادث كما جاءت فى المصدر الأصلى ومن أمثلة هذا الحوادث التى جرت بعد مقتل زنكى ، سنة ٥٤١ ، عند قلعة جعبر ؛ فأبو يعلى يسوق هذه الحوادث بالترتيب الآتى :

(ا) تفرّق أصحاب زنكى وتملك ولديه غازى ومحمود .

(ب) الفوضى التى قام بها الأتراك فى بعض الأطراف ، وقصيدة لأبى يعلى فى وصف الحال .

(حـ) فتح معين الدّين أنُر مدينة بعلبك وهى من أعمال زنكى .

(د) رحلة قاتل زنكى من جعبر إلى دمشق للاحتماء بصاحبها ، ثم القبض عليه وإرساله إلى حلب فالموصل حيث قتل .

(هـ) مهاجمة ابن جوسلين لمدينة الرّها ، من أعمال زنكى واسترداد نور الدين لها .

وقد وردت هذه الحوادث فى كتاب الروضتين ، مقتبسة من كتاب أبى يعلى ، بالترتيب الآتى : ب ، د ، ا ، حـ ، هـ[1] .

ومن المعروف أن نظام الحوليات يقضى بأن يتحدث المؤرخ عما يجرى فى نطاق سنة معينة من حوادث ، على أن يتوقف فى تقريره عنها إذا انتهت هذه السنة ليستأنف الحديث عن تطوراتها فى السنة التالية ، بعد الإشارة إلى بدئها وقد يبالغ بعض المؤرخين فى اتباع هذه الطريقة فى مجال السنة الواحدة فيتحدثون عن أخبارها شهراً فشهرا ، من غير ضرورة الإشعار ببدء شهر جديد أو مع الإشعار بذلك أحياناً . ومعنى هذا أن يقطع المؤرخ تقريره عن حادثة معينة بانتهاء الشهر الذى بدأت فيه ، وذلك ليتحدث عن أخرى حدثت فى نفس الشهر ، ثم يستأنف ما قطعه فى الشهر التالى وهذه هى الطريقة التى يلجأ إليها أبو يعلى ، فى بعض الحالات ، فى كتابه ذيل تاريخ دمشق . وأبو شامة لا يرضى عن هذه الطريقة عندما يقتبس مثل هذا المصدر ، بل إنه يتتبع الحادثة المعينة بجميع تطوراتها ، داخل نطاق السنة الواحدة ، فيجمع هذه التطورات بعضها إلى بعض فى تقرير متصل يقطعه أحياناً بالإشارة إلى المصدر فقط بمثل قوله : قال ، أو قال أبو يعلى ؛ وهو يعنى بذلك أنه إنما يبدأ فقرة جديدة من الاقتباس ، ولا شىء وراء هذا . فإذا انتهى من هذه الحادثة المعينة بدأ غيرها وعاملها بمثل هذه المعاملة ، حتى يقف عند بداية سنة جديدة . ويوضح هذه القضية

(١) قارن هذه الحوادث بما جاء فى كتاب ذيل تاريخ دمشق عن سنة ٥٤١ .

مثال واحد نسوقه هنا ، وهو تقرير أبي يعلى عن سنة ٥٤٨ ، واقتباس أبي شامة لهذا التقرير فالموضوعات التي وردت في هذه التقرير هي ، طبقاً لأبي شامة :

(ا) حصار الفرنج مدينة عسقلان ، وتحالف فاشل ، لمواجهة الموقف ، بين حلب ودمشق .

(ب) سقوط عسقلان في يد الفرنج .

(حـ) اضطرابات داخلية في دمشق .

(ء) تطورات هذه الاضطرابات .

(هـ) إعدام حيدرة وزير دمشق .

(و) اعتقال نائب الحاكم بدمشق ومقتله .

(ز) مقتل ابن السلار

(ح) وفاة الفقيه برهان الدين البلخي

(ط) وصول ابن القيسراني الشاعر إلى دمشق ووفاته .

وقد وردت هذه الموضوعات في ذيل تاريخ دمشق بالترتيب التالي :

ز ، ا ، حـ ، ب ، ط ، ح ، ء ، هـ ، و[1] .

وهكذا نجد أن أبا شامة يرتب الحوادث التي يتعرض لها في كتابه طبقاً لتقديره الخاص لأهميتها دون تقيّد بالترتيب الذي وردت به في الأصل الذي ينقل عنه ، وذلك داخل إطار النظام الحولي العام ، كما نلاحظ أنه لا يرضى عن المبالغة في اتباع هذا النظام الحولي داخل إطار السنة الواحدة ، بل يتتبع الحادثة المعينة بتطوراتها المختلفة حتى يقف بها عند بداية سنة جديدة ، ثم يعود إلى غيرها ليعالجها بنفس الطريقة .

وثائق الروضتين :

ومن المصادر الرئيسية التي يعتمد عليها أبو شامة الوثائق الرسمية ، وذلك لأهميتها في التعبير عن وجهة النظر الحكومية في الحوادث الجارية . وقد سبق أبا شامة إلى استعمال

---

(١) قارن حوادث سنة ٥٤٨ من هذا الكتاب بما جاء في كتاب ذيل تاريخ دمشق .

هـذه الوثائق من مؤرخي عصره . العماد الأصفهاني ، كاتب الإنشاء لصلاح الدين ، الذي كتب كثيراً من المراسيم والمنشورات والكتب السلطانية ، واقتبس شيئاً منها في كتابيه الفتح القسي والبرق الشامي . كما اعتمد ابن أبي طيّ ، وهو من مصادر الروضتين كذلك ، في مؤلفاته التاريخية على بعض الوثائق التي ينقلها عن العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل .

ودراسة الوثائق التي وردت في كتاب الروضتين دراسة إحصائية تدل على أنها جميعاً ترجع إلى عصري نور الدين وصلاح الدين ، أي ترجع في تاريخها إلى السنوات ٥٤١ — ٥٨٩ . ومع هـذا لا نجد منها أكثر من عشر وثائق تتحدث عن أمور حدثت في عصر نور الدين ، على حين يتعلق بقيتها بعصر صلاح الدين ، وهـذه تبلغ ستا وتسعين ومائة وثيقة وقد أورد أبو شامة في الجزء الأول من كتابه ، الذي ينتهي بنهاية سـنة ٥٧٣ ، أربعين وثيقة ، واقتبس الباقي في الجزء الثاني من الكتاب . وفي هذا الموقف نودّ أن نشير إلى أنّ صلاح الدين تولى وزارة مصر للخليفة الفاطمي ، إلى جانب قيادته لجيوش نور الدين بمصر ، سنة ٥٦٤ ؛ وأن نور الدين توفي سنة ٥٦٩ ؛ وأن الصالح إسماعيل ، ابن نور الدين ، توفي سنة ٥٧٧ ومقارنة هـذه التواريخ بعدد الوثائق التي يستخدمها أبو شامة في كتابه تدل على :

(ا) أن الوثائق التي تتعلق بعصر نور الدين قليلة العدد .

(ب) وأن عدد الوثائق يتزايد تدريجيا بعد وفاة نور الدين .

(حـ) وأنّ ما يتعلق منها بالقسم الأول من عصر صلاح الدين ، وهو القسم الذي يختص بفترة وزارته للعاضد ، أقل عدداً من الوثائق التي تتحدث عن بقية عصره .

ويفسر هذه الظاهرة أن معظم الوثائق التي يقتبسها أبو شامة مأخوذة من مجلدات الرسائل الفاضلية ، التي خلفها القاضي الفاضل ، ومن وثائق العماد الأصفهاني التي أوردها في كتابيه البرق الشامي والفتح القدسي . أما الفاضل فإنه لم يصبح شخصية هامة في الأوساط الحكومية ، رغم اتصاله المبكر بالأيوبيين عندما التحق بخدمة شيركوه في مصر ، إلّا بعد أن أكّد صلاح الدين سلطانه ونفوذه وشخصيته ، وذلك بعد أن قلّ اعتماده على نصحائه

من أقارب وخلصائه الذين كان يتزعمهم والده نجم الدين أيوب . ولم تكن للقاضى الفاضل صلة بنور الدين أو بحكومته فى يوم من الأيام . ولذا نجد أن الوثائق التى يكتبها القاضى الفاضل تتزايد عدداً وقيمة عندما يشتد اعتماد صلاح الدين عليه فى حكومته بينما يقل عددها فى الفترة السابقة . وقد برهن الفاضل ، فى خدمته لصلاح الدين ، على أنه جدير بالمكانة التى وصل إليها وبالثقة التى وضعت فيه .

أما العماد الأصفهانى فيختلف عن الفاضل فى أنه اتصل بخدمة نور الدين ، ثم بخدمة صلاح الدين ؛ ولكننا رغم هذا لا نجد له وثائق كثيرة عن عصر نور الدين ؛ وسرّ ذلك أنه لم يلتحق بديوان الإنشاء إلا كأحد الكتاب ، ولفترة قصيرة ، ثم انصرف عنه إلى العمل الذى كان يتقنه أكثر من غيره فى ذلك الحين وهو التدريس ؛ ثم ازدادت أهميته عندما عاد إلى ديوان الإنشاء مساعدا للقاضى الفاضل ونائباً عنه فى ملازمة السلطان صلاح الدّين فى تنقلاته وإقامته بالشام .

أما موضوعات هذه الوثائق فمتنوعة . فهى تتناول السياسة ، والحرب ، والإدارة ، وتنظيم الجيوش ، وتعيين الولاة ، والتبشير بفتح جديد أو انتصار حربى ، كما يؤكد بعضها ولاء السلطان للخلافة العباسية فى مناسبات عدة عند إبلاغها بأنباء الانتصارات أو عند التماس تأييدها فى بعض الإجراءات التى يتخذها السلطان ضد بعض الأمراء المحليين . ويختص بعض هذه الوثائق بإعادة توزيع الولايات الداخلية بين أفراد البيت الأيوبى ، أو بمعالجة بعض المشكلات العائلية الأيوبية ذات الصلة بالجهود الموحّد الذى يقوم به صلاح الدّين ؛ ويتعرض بعض منها للأوقاف أو للإخوانيات . وليس معنى هذا الحصر الموضوعى لوثائق الروضتين أن هذه الوثائق تنقسم انقساما محدّدا إلى مجموعات متميزة يعالج كل منها موضوعاً خاصا ؛ ذلك أن كثيراً من هذه الوثائق يعالج موضوعات متعددة فى وقت واحد ، وبخاصة ما يتعلق منها بالحرب ، إذ أن هذا النوع من الوثائق يعالج المشكلات السياسيّة ، فى كثير من الأحوال ، إلى جانب الموضوعات الحربية .

ويلفت نظرنا فى استعراض هذه الوثائق أن من النادر أن نجد بينها وثيقة كاملة .

ذلك أن أبا شامة لا يقتبس من هذه الوثائق إلا الأجزاء المتعلقة بالموضوعات التي يتحدث عنها ، ليعطى هذه التقريرات العادية قوة خاصة عند ما يؤكدها بوثيقة رسمية . ومن الحالات النادرة التي يقتبس فيها أبو شامة الوثيقة اقتباسا كاملا نستطيع أن نذكر الكتاب الذى أرسله صلاح الدين إلى ابن عبد المؤمن صاحب المغرب يستنصره على الفرنج ، وذلك عندما اشتدت الحرب بينه وبينهم في موقعة عكا التي استمرت سنتين قاسى فيهما جنوده ، مهاجمين أو محصورين ، الشيء الكثير . ففى هذه المناسبة ينقل أبو شامة خطاب صلاح الدين كاملا ، كما ينقل الخطاب الذى وجهه إلى رسوله يرشده فيه إلى السلوك الذى يجب عليه اتباعه عند لقاء ابن عبد المؤمن .

والدراسة الموضوعية لهذه الوثائق التي أوردها أبو شامة في كتابه تبين أنه يستخدمها لأغراض متعددة . فهو قد يسوق تقريرا معينا عن حادثة ما ، يقتبسه من ابن شداد أو من ابن الأثير أو غيرهما ، ثم يُتبع هذا التقرير بآخر يقتبسه من مصدر غير السابق . وعندئذ قد يجد من الوثائق ما يؤكد هذين التقريرين ، فيورد ما عثر عليه منها حتى يقوى جانب ما اقتبسه من تقريرات . وفى حالة أخرى قد يجد في الوثيقة ما يزيد الحادثة تفصيلا وتوضيحا ، أو ما يضيف بعض الحقائق التي أغفلها المصدر الذى اقتبس منه ، وحينئذ يورد هذه الوثيقة لتحقق الغرضين معاً ، فتقوى التقرير المقتبس ، وتكمله ، أو تزيده شرحا وتفصيلا وفى حالة ثالثة يقتبس وثيقة معينة لتصحيح تقرير اقتبسه في بعض وقائعه أو في جميع ما احتواه : ووجود مثل هذه الوثيقة في مثل هذه الحالة يشجع أبا شامة على التعرض للمصدر الذى يستمد منه تقريره بالنقد والاعتراض وهناك استعمال رابع للوثائق في كتاب الروضتين وذلك عند ما يعتمد المؤلف على الوثيقة وحدها للحديث عن موضوع خاص دون أن يسبقها تقرير أو اقتباس من مصدر آخر؛ فوظيفة الوثيقة عندئذ الإمداد بحقائق جديدة في موضوعات مستقلة غير موجودة في مصادر أخرى . ويطول بنا الحديث لو أردنا التمثيل لهذه الأحوال جميعا ، ولذا نكتفى بهذا التحديد ، محيلين القارئ إلى الاطلاع على الكتاب بنفسه ليجد فيه من الأمثلة القدر الكبير .

مخطوطات كتاب الروضتين :

ويمكن تصنيف المخطوطات الموجودة من كتاب الروضتين الذى كتبه مؤلفه فى جزءين ، إلى المجموعات الآتية :

(أ) مخطوطات كاملة للجزءين معاً وتوجد فى :

١ – مكتبة بودليان بأكسفورد . وهى فى مجلد واحد يشمل الجزءين معاً دون فاصل ورقمها : Bruce, 63 . وتاريخ الفراغ من كتابتها سنة خمس وألف من الهجرة .

٢ – المكتبة الأهلية بباريس . وتقع فى مجلد واحد يشمل الجزءين معاً مع الفصل بينهما بورقة فاصلة ، ومع الإشارة فى آخر الجزء الأول (١٤٨ ب) إلى نهايته بالعبارة الآتية : « آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه الذى هو بخط المؤلف » . وينتهى الجزء الثانى فى صفحة (٢٩٤ ب) بعد عبارات متعددة : « ... ووافق فراغه فى اليوم السابع من جمادى الأولى سنة ألف ومائة وواحد وعشرون (!) من الهجرة » ورقم هذه المخطوطة : Arabe 1700 .

٣ – مكتبة أياصوفيا باستانبول فى مجلدين أولها برقم : ٣٢١٤ ، وثانيهما برقم : ٣٢١٥ ويرجح « كلود كاهن » أنهما يرجعان إلى القرن السابع أو الثامن الهجرى[١] .

(ب) مخطوطات للجزء الأول فقط ؛ وتوجد فى :

١ – كوبنهاجن ورقمها : Arab. CLIV ؛ وقد كتبت بعد وفاة المؤلف بأحد عشر عاماً ، أى فى سنة ست وسبعين وستمائة .

٢ – مكتبة ليدن . ورقمها cod. 77 Jol. ؛ وتاريخ نسخها سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة .

٣ – مكتبة القاهرة ورقمها : ١٠٨ تاريخ (ج ١) ؛ وهى منسوخة سنة أربع وثلاثين

---

(١) انظر C. Cahen ; Les Chronique Arabes concernant la Syrie, l'Égypte et la Mésopotamie dans les Bibliothèques d'Istanbul, Revue des Études Islamiques, 1936:

وسبعمائة ، وقد قام على نسخها نفس الكاتب الذى نسخ مخطوطة ليدن ، عن نفس الأصل بعد فراغه من نسخة ليدن .

٤ — بودليان بأكسفورد . ورقمها : clark 7 ؛ وترجع إلى القرن السابع أو القرن الثامن الهجرى .

(حـ) مخطوطات للجزء الثانى فقط . وتوجد فى :

١ — بودليان بأكسفورد . ورقمها Marsh 383 ؛ وتاريخ نسخها سنة ثمان وسبعين وستمائة

٢ — برلين . ورقمها ٩٨١٢ . وتاريخ كتابتها سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة .

٣ — القاهرة . ورقمها ١٠٨ تاريخ (جـ ٢) . وقد تمّ نسخها سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف .

(ى) مخطوطات غير كاملة . وتوجد فى :

١ — كوبنهاجن ورقمها : Arab. CLV ؛ وتبدأ فى أثناء الحديث عن سنة ٥٧٧ وتنتهى بنهاية الكتاب . وترجع فى تاريخها إلى القرن السابع أو الثامن الهجرى .

٢ — المكتبة الأهلية بباريس ، ويرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى . ورقمها Arabe 1701 . وتشمل الجزء الأول من الكتاب و بعض الجزء الثانى حتى سنة ٥٧٨ ، وتقع فى مجلد واحد

٣ — برلين . ورقمها ١٣ر٣٣٥٠ وتقع فى سبع عشرة ورقة فقط ضمن مجموعة منوعة تحمل العنوان الآتى : « مجموع عجيب وكتاب غريب فيه فوائد لا تحصى ومهمات يجب أن تستقصى » . ولا يعلم بالضبط تاريخ نسخها و إن كان ناسخها قد ولد سنة ٨١٦ وتوفى سنة ٨٨٠ .

٤ — استانبول بمكتبة Koratelabizad برقم ٢٨٠ ، وتنتهى عند الحديث عن حوادث سنة ٥٦٩ . وتاريخها يرجع إلى القرن التاسع .

٥ — المكتبة الأهلية بباريس ، ورقمها : Arabe 5882 . وتنتهى فى أثناء الحديث عن حوادث سنة ٥٧٧ بعبارة تدل على أن لها جزءاً ثانياً إذ جاء فى آخرها : « هذا ما يسره

الله تعالى من كتابة هذا الجزء ، يتلوه فى الجزء الثانى : فصل فى ذكر وفاة الملك الصالح إسماعيل » . وقد جاء فى دليل المخطوطات المكتبة الأهلية أن هذه المخطوطة قد كتبت بخط القرن السادس عشر الميلادى (أى العاشر الهجرى) . ويبدو لى أنها أحدث تاريخا من هذا لخطها حديث دقيق ، وقد راعى ناسخها الدقة فى التنظيم واختيار المداد الأسود لكتابة المتن وإن استعمل المداد الأحمر فى مناسبات خاصة . هذا إلى أن نوع الورق لا يرجح نسبتها إلى القرن السادس عشر الميلادى .

٦ — المتحف البريطانى بلندن ، ورقمها Add. 24,015 . وقد كتبت سنة ١٠٧٤ . وتشمل بعض الجزء الثانى إذ تبدأ عند سنة ٥٧٧ وتنتهى بنهاية الكتاب .

٧ — برلين ، ورقمها ٩٩٧٨ ، وهى مجرد مقتبسات عن حياة السلطان نور الدين محمود ؛ ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٢٠٨ .

٨ — فينا ، ورقمها Arabisch 898 ، وتشمل بعض الجزء الأول فقط إذ تنتهى عند سنة ٥٤٥ .

٩ — المتحف البريطانى بلندن . وتبدأ بالحديث عن سنة ٥٦٩ ، وتنتهى بنهاية سنة ٥٨٠ ؛ فهى تشمل بعضاً من كلٍّ من الجزءين الأول والثانى للكتاب ، وذلك رغم ما جاء على صفحة الغلاف مما يشير إلى أن هذا المجلد يشمل « الجزء الثانى من كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » . وهذا المجلد يشمل نوعين من الورق والخط فهما ليسا لناسخ واحد . ويبدو أن أقدم النوعين يرجع فى تاريخه إلى القرن الثامن ذلك أنه يشبه فى خطه ونظامه وطريقته مخطوطتى ليدن والقاهرة . ورقم المخطوطة Add. 7312 Rich.

١٠ — مكتبة ميونخ ، ورقمها ٤٠٤ ؛ ويبدو أن تاريخ نسخها يرجع إلى القرن السابع عشر الميلادى .

ويطول بنا الحديث لو تعرضنا لهذه المخطوطات جميعاً واحدة بعد واحدة ندون ملاحظاتنا عنها ، تلك الملاحظات التى استمددناها من اطلاعنا على معظمها اطلاعا فاحصاً

مدققاً ، ومن المعلومات الموجودة فى دليل بعض المكتبات[1] . ولهذا سأكتفى هنا بإيراد بعض ما لاحظته من شذوذ يلفت النظر فى بعض هذه المخطوطات . ثم أعقب على هذا بالحديث عن المخطوطات التى اعتمدت عليها فى النشر .

* * *

وأكثر ما يلفت النظر من بين هذه المخطوطات تلك التى تحمل رقم Arabe 1701 بالمكتبة الأهلية فى باريس . وهى المخطوطة التى تقف عند نهاية حوادث سنة ٥٧٧ .

تبدأ مقدمة هذه المخطوطة بدءاً مخالفا تمام المخالفة للأصل الذى تتفق فيه جميع المخطوطات الأخرى . فقد جاء فى أولها : « الحمد لله الذى أوجد الخلق من العدم ، وقدر كل شىء بقدرته من أزل القدم . عمر الأكوان بخلق الإنسان ، وسلطه على المعدن والنبات والحيوان ، وميزه بالفصاحة والبلاغة والبيان . . . الخ » . ثم تقول : « وبعد ؛ فيقول الفقير عبد الرحمن بن إسماعيل بن شامة (!) لما كنت فى عنفوان الشباب ، وريعان الاكتساب ، اشتغلت بطلب الفنون والعلوم ، وعرفت المنطوق منها والمفهوم ؛ قدحت الفكرة فى المواد الفلسفية ، والفنون الحكمية ؛ ثم شرعت فى العلوم الآلية ، حتى آلت إليه . . . » الخ . وهذا الجزء من المقدمة يلفت النظر إذ يذكر اسم المؤلف على أنه ابن شامة ؛ والواقع أنه يلقب بأبى شامة . ومن جهة أخرى يسجل المؤلف ، كما تزعم هذه المقدمة ، أنه اهتم بدارسة « المواد الفلسفية ، والفنون الحكمية » على حين كان أبو شامة من مناهضى هذا النوع من الدراسة ومن مناصرى الاهتمام بدراسة الحديث ورجاله ؛ أو ، بعبارة أخرى ، على حين كان أبو شامة مهتما بالدراسة الدينية النقلية التقليدية ، متأثراً فى هذا بالصبغة العامة للحركة العلمية فى عصره ، وهى الحركة التى كانت تقوم على إحياء الدراسة الإسلامية السنية كرد فعل للدراسة الفلسفية والشيعية التى انهارت ، إلى حدّ ما ، بانهيار

(١) اطلعت اطلاعا فاحصاً ، انتهى بى إلى تدوين ملاحظاتى الشخصية التفصيلية ، على مخطوطات أكسفورد والمتحف البريطانى وباريس والقاهرة وليدن . ولم أتمكن من الاطلاع على مخطوطات برلين وفينا وتميونخ وهى غير كاملة ، واستانبول ؛ فاكتفيت بما كتب عنها فى فهارس هذه المكتبات وفى المقالات الناقدة لبعضها .

نفوذ البويهيين بالعراق وفارس ، و إلى حدّ كبير بتدهور حكم الفاطميين فى مصر والشام ، ثم بسقوط دولتهم .

ومظهر آخر من مظاهر شذوذ هذه المخطوطة أنها تعمد إلى الأصل بالاختصار الشديد فى كل ما يتعلق بالشام وحوادثها ، فتحذف الأشعار التى قيلت فى مدح عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وفى تسجيل مواقعهما الحربية ؛ وتختصر الكلام عن الحوادث التى حدثت فى الشام إلى درجة أنها تهمل بعض السنوات إهمالا تاماً ؛ ولا تعطى لشخصية نور الدين نفس الأهمية التى أعطاها له أبو شامة عند ما تحدث عنه فى أول الكتاب فى نحو إحدى وعشرين ورقة كاملة من مخطوطة كوبنهاجن ، إذ تختصر هذه المخطوطة البار يسية حديث أبى شامة هذا فى تسع عشرة صفحة . أما الحوادث التى تهتم بها هذه المخطوطة أكثر من غيرها فهى حوادث مصر ؛ و يبدو هذا واضحاً فى سنة ٥٥٩ ، وهى سنة مسير شيركوه إلى مصر المرة الأولى ، وكذلك فى سنة ٥٦٢ وهى السنة التى شهدت حملته الثانية ، ثم فى سنة ٥٦٤ وهى سنة إتمام فتح مصر . و يتعمّد ناسخ هذه المخطوطة تقريرات ابن أبى طىّ التى يقتبسها أبو شامة بالحذف فى أغلب الحالات ، ولا يستثنى من هذا تقريره المطول عن خطوات فتح شيركوه لمصر ، وهو التقرير الذى اهتم به أبو شامة اهتماماً خاصا فأورده فى فصل طويل مستقل ، جمع فيه تطورات الظروف التى بدأت بنزاع ضرغام وشاور على وزارة مصر وانتهت بسقوط دولة الفاطميين .

وفى نهاية المخطوطة ، بعد الفراغ من حوادث سنة ٥٧٧ ، نقرأ : « وانتهى بنا الكلام إلى هذا المحل المبشر ، وتركنا المنفر ، وتم كتاب رياض الجنتين فى أخبار الدولتين والحمد لله وحده » فاسم الكتاب كما نجده فى العبارة السابقة ، وكما نجده على غلاف هذه المخطوطة « رياض الجنتين فى أخبار الدولتين » وهو تحريف للاسم الذى وضعه له صاحبه .

ثم يجىء بعد النص السابق : « فرغت من تأليفه يوم الأحد السابع من رمضان المعظم قدره ، سنة خمسمائة وثمان وسبعين ، على يد منشئه عبد الرحمن بن إسماعيل بن شامة المؤرخ والحمد لله رب العالمين » . ويلاحظ فى هذا النصّ الإصرار على تسمية المؤلف باسم ابن شامة . كما يلاحظ تحديد سنة ٥٧٨ ، وهى السنة التالية لآخر ما جاء فى هذه المخطوطة ، تاريخاً لتأليف الكتاب ، مع أن أبا شامة لم يولد إلا فى سنة ٥٩٩ . وزيادة تحديد تاريخ

الفراغ منه بيوم الأحد السابع من رمضان مع مخالفة هذا للواقع ، ذلك أنه يقع فى هـذه السنة ، ٥٧٨ ، يوم ثلاثاء .

ويبدو من ملاحظة الطريقة التى تعمد بهما ناسخ هذه المخطوطة بعض ما جاء فى الأصل بالحذف ، بالإضافة إلى ما رسم على صفحة غلافها بخط مذهب من عبارة تحمل اسم « السلطان الملك الناصر قلاون ، عز نصره » ، أنها كتبت فى عهد هذا السلطان تقربا إليه ، أو أنها كتبت له خاصّـة ؛ ولهذا ركز الناسخ جهوده فى الحديث عن تاريخ مصر وحذف جلّ ما يتعلق بعماد الدين زنـكى وولده نور الدين محمود وببلاد الشام عامة . ويناسب هنا أن نذكر أن السابع من رمضان يقع فى يوم أحد فى سنتى ٧٣٠ ، ٧٣٨ ، فى الأوّل ؛ وقد توفى السلطان قلاون سنة ٧٤١ . فلعل الناسخ كان صادقا فى أنه فرغ من نسخ المخطوطة فى يوم الأحد السابع من رمضان ، وإن اضطر إلى تلفيق بقية التاريخ حين ادّعى أن ذلك كان فى سنة ٥٧٨ .

وهناك مخطوطة أخرى تلفت النظر بعض الشىء ، تلك هى مخطوطة المتحف البريطانى التى تحمل رقم Add. 24, 015 . فهذه المخطوطة تبدأ بالبسملة والصلاة على النبى محمد صلّى الله عليه وسلم فى سطر واحد . ثم تبدأ المتن بالحديث عن وفاة الملك الصالح إسماعيل ، أى أنها تبدأ فى أثناء حوادث سنة ٥٧٧ . وتاريخ الفراغ من نسخ هذه المخطوطة سنة أربع وسبعين بعد الألف .

وما يلاحظ فى هذه المخطوطة هو ما نجده فيها من تأخير أو تقديم لبعض العبارات فى كثير من مواضـعها ، وكذلك غيبة كثير من الحوادث التى وردت فى غيرها من المخطوطات ، ناقصها وكاملها على السواء . ويضاف إلى هذا الأخطاء التى لا حصر لها فى الهجاء والنقط ، تلك الأخطاء التى يرجع بعضها إلى الإهمال ، كما يرجع أكثرها ، على ما يبدو ، إلى جهل الناسخ وضعف ثقافته . وشىء آخر يلفت النظر فى هذه المخطوطة أنهـا كثيراً ما تتعمد حذف أسماء المصادر التى حرص أبو شامة على ذكرها عند الاقتباس منها ؛ وفى حالات أخرى تخلط بعض التقريرات ببعضها الآخر . وهذه الهنات الـكثيرة تفقد هذه المخطوطة قيمتها بالرغم من محاولة ناسخها إبرازها فى شكل منظم جميل راعى فيه أن

يجعل لكل صفحة من صفحاتها إطاراً بالمداد الأحمر ، وأن يحدد الأبيات الشعرية بطريقة مماثلة ، وأن يكتب أسماء المصادر ، التى أبقى عليها دون حذف ، بالمداد الأحمر كذلك .

* * *

وفى نشر هذا الجزء من كتاب الروضتين اعتمدت اعتماداً كلياً على نسختين رئيسيتين جعلت إحداهما أصلا للنشر ، وجعلت الثانية فى موقف النسخة المساعدة ، وإن كانت مساعدتها قوية فعالة لأهميتها وقوتها التى تجعلها تكاد تضارع النسخة الرئيسية إن لم تقف معها على قدم المساواة . أما النسخة الأولى فهى نسخة كوبنهاجن ، ورقمها Arab. CLIV ، وقد رمزت لها بالحرف ك . وأما النسخة المساعدة الرئيسية فهى نسخة القاهرة ، ورقمها ١٠٨ تاريخ (ج ١) ، وقد رمزت لها بالحرف ق . وهناك نسخة أخرى لجأت إليها من حين إلى آخر للاستعانة بها فى ضبط أو فى تصحيح ، وهى موجودة فى مكتبة بودليان ، ورقمها Bruce, 63 . ولأن اعتمادى على هذه النسخة الأخيرة لم يكن اعتماداً كبيراً اكتفيت بالإشارة إليها فى التعليقات ، عند الحاجة إلى ذلك ، برقمها ، دون أن أختار لها رمزاً خاصاً .

ولم يكن اختيار هذه المخطوطات الثلاث وليد الصدفة ، وإنما كان نتيجة لدراسة قمت بها لجميع المخطوطات التى استطعت الاطلاع عليها اطلاعا ناقداً فاحصا انتهى بى إلى هذا الاختيار ؛ ولم يفتنى فى هذه الدراسة النقدية أن أطّلع على النسخ الناقصة ، التى توصلت إليها ، أيضاً ، حتى أقدر قيمتها فى الأجزاء التى تشترك فيها مع المخطوطات الكاملة .

وأعتقد أن نشر مخطوطة ما لا يحتاج إلى مقارنة جميع الموجود من نسخها فى كل مرحلة من مراحل النشر وفى كل صفحة من صفحات الكتاب ؛ وإنما يجب أن يُمهَّد لهذا النشر بدراسة هذه المخطوطات وتقييمها ، والانتهاء من هذه الدراسة باختيار أصحها متنا وأكملها صورة وأقربها صلة بالأصل إذا لم يكن لهذا الأصل وجود . ولهذا اكتفيت بهذه النسخ الثلاث من مخطوطات الروضتين ، مع وجود نسخ أخرى تحت يدى كان من الممكن أن أعتمد عليها أيضاً ، واثقا فى صحة اختيارى المعتمد على الدراسة ، مطمئنا إلى سلامة المتن الذى أنشره اليوم بين القارئين .

وإنما جعلت مخطوطة كوبنهاجن أصلا لأنها أقرب عهداً إلى عصر المؤلف ، ذلك أن أبا شامة توفى سنة خمس وستين وستمائة ، وقد فرغ كاتب هـذه النسخة منها في سـنة ست وسبعين وستمائة . فقد جاء فى نهاية الجزء الأول من هذه المخطوطة (٢١٨ ب) النص التالى :

« ووافق الفراغ منه فى سابع شهر ذى الحجة من سنة ست وسبعين وستمائة ، غفر الله تعالى لمؤلفه وكاتبه وصاحبه والمنتفع به والمطالع عليه وجميع المسلمين ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين » .

ويقوى جانب هـذه النسخة أنها نقلت من نسخة كتبها المؤلف بنفسه نقلا مباشرا . ويدل على هذا عبارة أخرى جاءت فى الصفحة الأخيرة أيضاً . ونصها :

« آخر الجزء الأول من الأصـل المنقول منه الذى هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى . يتلوه إن شاء الله تعالى فى الجزء الثانى : ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسماية . قال العماد وكان شمس الدين بن المقدم من أكابر الأمراء » .

ومقارنة هذه النسخة بالنسخ الأخرى ، وبخاصة نسخة ليدن ونسخة القاهرة ، وهما منقولتان عن أصل منقول بدوره عن نسخة المؤلف ، تنتهى بنا إلى الثقة فى صحة هذين النصّين وإلى الاطمئنان إلى سلامة النقل عن نسخة المؤلف . ويؤكد هذا أيضاً نوع الورق وطريقة الـكتابة وقلة الأخطاء التى شابت هذه المخطوطة .

ولا يعيب هذه المخطوطة إلا الخرم البسيط الذى يستغرق ثلاث ورقات . ويبدأ هذا الخرم عند صفحة (١٣٠) وينتهى بنهاية صفحة (١٣٢ ب) . وقد استبدل بهذه الأوراق الثلاث غيرها مكتوبة بخط حديث أريد به تكملة النقص . ويلاحظ فى هذه التكملة أنها تكرر ، منذ السطر الرابع من أسفل صفحة (١٣٢) ما جاء فى صفحة (١٣٣) من أصل النسخة . وقد استعنّا على تلافى هـذا النقص بمخطوطة القاهرة واعتبرناها أصلا للنشر فى هذه الورقات الثلاث فقط ، واعتبرنا نسخة بودليان ، Bruce, 63 ، مساعدة لها فى التحقيق . ثم عدنا إلى اعتبار نسخة كوبنهاجن أصلا منذ صفحة (١٣٣)[1] .

---

(١) انظر صفحات ٨٤ — ٩٠ من هذا الـكتاب .

أما نسخة القاهرة ، ورقمها ١٠٨ تاريخ (ج ١) ، فتشترك مع نسخة ليدن فى كل خصائصها ، ولا عجب فى ذلك إذ أنهما منقولتان عن أصل واحد ، وقد قام على نسخهما نفس الكاتب . وقد وردت العبارة الآتية فى آخر مخطوطة القاهرة (١٢٢٥) :

« ووافق الفراغ من نسخه يوم الأربعاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، على يد أضعف الخلق وأحوجهم إلى عفو الله ، أحمد بن العلم ابن عبد الله ... » .

ويقابل هذه العبارة عبارة تشبهها فى مخطوطة ليدن (ص ٤٤٣) ولا تختلف عنها إلا فى تاريخ الفراغ من النسخ وهو « ضحى نهار الجمعة السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة » . وبهذا تسبق مخطوطة ليدن أختها القاهرية بنحو سنة .

وكنت قد اطلعت على نسخة ليدن عند زيارتى لهولندا ودوّنت ملاحظاتى التفصيلية عنها ، ونقلت عنها جميع التعليقات التى وردت بهوامشها ، وأيقنت أنها تساوى مخطوطة القاهرة فى كل تفصيلاتها . فاعتمدت على نسخة القاهرة لتكون نسخة مُساعدة لمخطوطة كوبنهاجن فى نشر هذا الجزء .

وهذه المخطوطة القاهرية جديرة بالثقة التى نضعها فيها فقد جاء فى آخر صفحة بها (١٢٢٥) العبارة الآتية : شاهدت على نسخة الأصل المنقول منها هذه النسخة ، وهى جميعها بخط قاضى القضاة نجم الدين ابن صصرى الشافعى ، رحمه الله ، ما صورته ، يقول :

شاهدت على آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه هذه النسخة ، بخط المؤلف : آخر المجلدة الأولى من كتاب الروضتين . فرغ منها مصنفها نسخا فى حادى عشر شهر رمضان المبارك سنة إحدى وخمسين وستمائة ؛ واشتملت هذه النسخة المبيضة على زيادات كثيرة فاتت النسخ المتقدمة على هذا التاريخ المنقولة من المسودة . وكل ما ينقل من هذه النسخة هو الأصل الذى يعتمد عليه ويركن إليه . وكتبه عبد الرحمن ابن إسماعيل بن إبراهيم الشافعى ، مصنفه ، عفا الله عنه » .

فهى إذن منقولة عن نسخة نقلت من خط المؤلف نفسه ، وقد اعتبر المؤلف نسخته هذه

« الأصل الذى يعتمد عليه و يركن إليه » ، وذلك قبل وفاته بنحو خمس عشرة سنة . وهذه المدة الطويلة لم تغير رأى المؤلف فى اعتبار نسخته هذه الأصل الذى يعتمد عليه ، كما يدلنا على ذلك عبارة أخرى وردت أيضاً فى آخر مخطوطة القاهرة بعد النص السابق . وهى :

« وشاهدت عليه (أى على الأصل الذى كتبه ابن صصرى) ما صورته مختصرا : سمع جميع هـذا المجلد على مؤلفه الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الشافعى ولده محيى الدين أبو الهدى أحمد ، وشهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرج الإشبيلى ، وزين الدين على بن أحمد بن يوسف القرطبى ، وشمس الدين إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم المالكى ، وابنه محمد ، وعفيف الدين محمد بن أبى بكر بن إبراهيم المؤذن الشاغورى ، ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الكنجى ؛ وسمع آخرون بفوات عينوا فى الأصل ؛ وصح ذلك بقراءة يوسف ابن محمد بن عبد الله الشافعى فى مجالس آخرها ثامن محرم سنة أربع وستين وستمائة بدار الحديث الأشرفية كتبه قارئه يوسف بن محمد حامداً الله مصليا على نبيه محمد ومسلما نقل ذلك كله مختصرا أحمد بن صصرى التغلبى الشافعى غفر الله له » .

ثم نجد بعد هذا العبارة الآتية أيضاً ، فى وضع جانبى :

« وشاهدت عليه أيضاً بخطه ما صورته مختصرا : قرأ على هذه المجلدة جميعها الإمام الفاضل مجد الدين محمد بن أحمد بن عمر الإربلى ، فسمعه بقراءته شهاب الدين أحمد ابن الإمام زين الدين أبى زكريا يحيى الحضرمى وآخرون بفوات ذكروا فى الأصل . وفرغ من ذلك يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة فى أربعة عشر مجلسا . كتبه مصنفه عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الشافعى ، عفا الله عنه » .

وبهـذا نستطيع أن نقول إن أبا شامة جعل نسخته هـذه ، التى نقلت عنها نسخة ابن صصرى ، الأصل الذى يعتمد عليه ، وذلك سنة ٦٥١ ، ثم أكد هـذا بالسماع الذى سجله عليها سنة ٦٥٥ ، ثم بالمطالعة التى حضرها طائفة من العلماء ، وفيهم ولده أحمد ، سنة ٦٦٤ ، قبل وفاته بسنتين .

وهذه النسخة ، مثل نسخة كوبنهاجن التى اعتمدناها أصلا ، دقيقة منظمة صحيحة ،

تحتوى على بعض التعليقات التى وردت بهوامش نسخة كوبنهاجن ، وتقل فيها الأخطاء ، كما قلت فى زميلتها . وبهذا نكون محقين فى اعتمادنا عليها اعتمادا كبيرا فى المساعدة على تحقيق المتن حتى كدنا نجعلها على قدم المساواة مع نسخة كوبنهاجن لولا سبق هذه فى تاريخ نسخها وقربها من عصر المؤلف .

* * *

أما وقد راعيت الدقة جهدى فى اختيار النسخ التى اعتمدت عليها فى نشر هذا الجزء فإنه لم يبق أمامى إلا أن أشير باختصار إلى بعض ماقمت به بعد هذا فى صدد تحقيق النص والاطمئنان إلى حسن استخدام أبى شامة لمصادره التى اعتمد عليها ، وإلى صحة النسخ ودقته فى ما اخترناه من المخطوطات فمن ذلك أننى تتبعت التقريرات التى اقتبسها أبو شامة فى مصادرها الأصلية ، وقارنت هذه المقتبسات بأصولها ، وأشرت فى كل مناسبة إلى المصادر التى أخذ أبو شامة عنها ؛ وإلى صفحاتها فى الأصول ، منبها إلى كيفية الاقتباس وطريقته ؛ فتارة يكون اقتباسا حرفيا ، وأخرى يكون اقتباسا حرفيا شابهُ شىء من الحذف ، وثالثة يكون اقتباسا متصرَّفا فيه . وقد أثبت كل هذا أسفل الصفحات . ولا يفوتنى هنا أن أذكر أنى لم أستطع تتبع المقتبسات التى أخذها أبو شامة عن يحيى بن أبى طىّ أو عن كتاب البرق الشامى ، وذلك لضياع كتب ابن أبى طىّ ومعظم أجزاء كتاب البرق الشامى[1] .

وشىء آخر أردت أن أساعد به على تفهم المتن ، ذلك أنى حاولت قدر طاقتى أن أشرح الألفاظ الاصطلاحية التى وردت فى الكتاب ، حتى أوفر على القارئ مهمة الرجوع إلى القواميس التى تتعرض لهذه المصطلحات بالتوضيح ، سواء أكانت مؤلفة باللغة العربية أم بغيرها . كما استعنت بالكتب الجغرافية ، وفى مقدمتها معجم البلدان لياقوت ، فى تبيان الأماكن المختلفة التى ورد ذكرها فى الكتاب . وأود أن أشير هنا إلى أنّ ياقوتا كان يحدد بُعد مكان معين من آخر بمقدار مسافة السفر بين المكانين مقدرة بالأيام ، فيقول إن هذا المكان يبعد عن مكان كذا مسيرة يومين أو ثلاثة أيام ، أو نحو ذلك . وقد رأيت أن هذه التقديرات وإن لم تعُد ذات قيمة فى عصرنا هذا إلا أنها عظيمة الأثر فى تقدير المسافات التى

(١) يقع هذا الكتاب فى سبعة أجزاء ، فقد منها خمسة وبقى اثنان فى مكتبة بودليان بأكسفورد .

كانت الجيوش المتحاربة أو رسل السلطان أو الأمير تقطعها فى ذلك العصر ؟ والوقوف على هذه المعلومات الزمنية يساعد القارئ على فهم تطورات الحوادث التى حدثت عندئذ فى جوّها الخاصّ . ولذا أثبتّ هذه التقريرات فى كثير من الحالات عند التعريف بهذه الأماكن . وسألحق بكل جزء ، فى نهايته ، من الخرائط ما يساعد على توضيح هذه الأماكن بالرسم إن شاء الله تعالى .

ولم أرد أن أثقل على القارئ بإثبات نتيجة المقابلة بين النسخ التى اعتمدت عليها فى النشر ، فى أسفل الصفحات ، إلا فى الحالات القليلة التى رأيت فى نشرها فائدة للقارئ . وهدفى من هـذا الاقتصاد فى إثبات الاختلاف بين النسخ ألاّ أقاطع القارئ لأشغله باختلاف النسخ فى نقطة أو فى حرف أو فى كلمة لا تؤثر فى تغيير المعنى أو الواقعة التاريخية ؛ كما أردت بذلك ألاّ أسمح للتعليقات بأن تطغى على المتن وتزيد من حجم الكتاب من غير حاجة إلى ذلك .

وقد وجهت عناية خاصة إلى الأشعار التى وردت فى الكتاب فحاولت ، جهدى ، تحقيقها وشرح غوامضها وذلك لسببين : أحدهما ، أهميتها الأدبية فى العصر الذى قيلت فيه ؛ وثانيهما ، أن معظم هذه الأشعار لم يردْ فى الروضتين لمجرد الاستمتاع الأدبى ، وإنما اقتبسها أبو شامة لأنها تسجل حوادث بعينها ، أو لأنها تساعد على تحقيق بعض الحوادث . ويدل على هذا أن كثيراً من هذه الأشعار قد قرن بالتاريخ الذى أنشد فيه وبالمكان الذى قيل فيه . وبهذا أصبحت هذه الأشعار جزءا رئيسيا من المادة التاريخية التى احتواها الكتاب ، يلجأ إليها أبو شامة فى كثير من الأحيان لتأكيد الحادثة وتحقيقها ، كما كان يفعل عند لجوئه إلى اقتباس الوثائق الحكومية تماما .

وقد وردت بعض الألفاظ فى المخطوطات برسم يخالف الرسم المتعارف عليه فى عصرنا هذا أو مخالفة لقاعدة نحوية ، فأبحت لنفسى أن أكتبها برسمها المتعارف عليه إملاء أو نحواً مُعرضا عن صورتها فى المخطوطة الأصلية أو المساعدة ، مشيراً إلى بعض الأمثلة فى التعليقات . فمن ذلك رسمت كلمة « هؤلاء » فى الأصل : « هؤلاى » ، كما رسمت كلمة « ملء » من غير همز ، وكلمة « الفرات » ، اسم النهر ، رسمت « الفراة » ، وكلمات : التُّقى ، وهُدَى ، والهواء

رسمت فى الأصل : التُّقا ، هُدًا ، الهوى . ومن هذا النوع أيضاً ما جاء فى الأفعال مثل : فتحامى ، يُدْعى ، فقد رسما فى المخطوطة : فتحاما ، يُدْعا ، وكذلك : فأعلى (خلف الخليج الزيينا) رسمت فأعلا ، وكلمة أوْفى (مما غرم عليه) رسمت أوفا . وواو الفعل المضارع مثل نرجو ، ندعو وردت فى المخطوطة نرجوا ، ندعوا . ويشبه هذا واو جمع المذكرين ، أو ما ألحق به ، مضافا ، مثل بنو عبد المطلب فقد رسمت بألف أمام الواو : بنوا عبد المطلب .

وقد اكتفيت بالإشارة إلى بعض هذه الأخطاء ، فى التعليقات ، وأعطيت لنفسى الحرية الكاملة فى تصحيحها من غير أن أرهق القارئ بالإشارة إليها جميعا فى مواضعها .

* * *

وليست هذه هى المحاولة الأولى لنشر هذا الكتاب ؛ فقد ظهرت ، فى سنة ١٨٧٩ ترجمة ألمانية لبعض الجزء الثانى منه ، قام بها Goergens وسمى هذه الترجمة Buch der beiden Gätren وأوضح المترجم فى تقديمه أنه لا يهتم إلا باختيار المادة العلمية التى لها صلة مهمة بتاريخ الحروب الصليبية . ومع هذا فقد عجز عن نقل هذه المادة فى صورة سليمة ، ذلك أنه لم يستطع أن يترجم كثيراً من الألفاظ والجمل والأساليب التى وردت فى الأصل من غير تصرف غيّر معناها وهدفها وأدّى إلى تشويه الصورة التى أرادها أبو شامة فى كتابه .

ثم ظهرت بعد ذلك محاولة أخرى لترجمة جزء كبير من « الروضتين » إلى الفرنسية . وقد نشرت هذه المحاولة ، مع ما يقابلها من النص العربى ، فى : Recueil des Historiens des Croisades, Hiatoriens Orientaux, Tom IV. وقد لوحظ فى هذه النشرة الاهتمام بحوادث الحروب الصليبية وببعض التطورات السياسية التى لها علاقة بهذه الحروب ، فى بلاد الشام والجزيرة . ولوحظ كذلك أن مقتبسات أبى شامة فى الروضتين من كتاب الأتابكة لابن الأثير قد حذفت فى هذه النشرة ، وذلك لأن كتاب الأتابكة نشر مستقلا فى جزء آخر من نفس المجموعة . وقد عوملت مقتبسات الروضتين من كتاب النوادر السلطانية لابن شداد نفس المعاملة ، وذلك لأن هذا الكتاب قد نشر أيضاً فى صورة مختصرة ، فى جزء آخر من المجموعة .

وبهذا لا يمكن أن يكون ما نشر من كتاب الروضتين فى هذه المجموعة صورة صحيحة للكتاب كما صنفه أبو شامة .

وفى القاهرة ظهرت نشرة كاملة للكتاب فى جزءين ، مأخوذة عن مخطوطة القاهرة ، وذلك فى سنة ١٢٨٧ — ١٢٨٨ . وقد سدت هذه النشرة فراغا هاما بإخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود ، وإن كانت قد أخرجته بالطريقة التى أخرجت بها الكتب القديمة جميعا ، أى من غير تحقيق أو مقارنة أو تعليق ؛ وقد احتوت الصفحة الواحدة منها سبعة وثلاثين سطرا ، يبلغ متوسط كلمات كل منها سبع عشرة كلمة .

* * *

وبعد فإنى أرجو أن أكون قد وفقت فى الجهد الذى بذلته لنشر هذا الكتاب فى صورته هذه التى أقدمها اليوم . وسيكون ترحيبى عظيما بما يوجّه إليه من نقد يهدف إلى البناء والإصلاح ، ويساعد فى إخراج الأقسام الباقية من الكتاب فى صورة قريبة إلى الكمال بعون من الله .

ولا يسعنى هنا إلا أن أتقدم بالشكر إلى « لجنة التأليف والترجمة والنشر » إذ وافقت على إخراج هذه الطبعة على نفقتها ، كما يسعدنى أن أقدر لأستاذى الجليل الدكتور محمد مصطفى زيادة ، رئيس قسم التاريخ بجامعة القاهرة ، فضله العظيم فى تزكية عملى وجهدى لدى اللجنة ، ثم فى مراجعة صفحات هذا القسم وإمدادى بإرشاداته النافعة وتوجيهاته القيمة .

وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ؟

القاهرة : جمادى الأولى سنة ١٣٧٦
ديسمبر سنة ١٩٥٦

محمد حلمى محمد أحمد

دليل الرسم البيانى المقابل

أولا : الأقسام السبعة فى الشكل تدل على الأقسام الآتية بالنسبة لاستعمال أبى شامة لمصادره :

(ا) من بدء الكتاب إلى ولاية عماد الدين زنكى الموصل سنة ٥٢١ هـ .

(ب) من ولاية زنكى الموصل إلى سنة ٥٥٥ هـ وهى سنة وفاة أبى يعلى .

(ج) من وفاة أبى يعلى إلى سنة ٥٦٢ هـ وهى سنة قدوم العماد الأصفهانى إلى الشام .

(د) من سنة ٥٦٢ هـ إلى نهاية الجزء الأول ، آخر سنة ٥٧٣ هـ .

(هـ) من بدء الجزء الثانى إلى سنة قدوم ابن شداد الشام ، وهى سنة ٥٨٤ هـ .

(و) من قدوم ابن شداد الشام إلى وفاة صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٩ هـ .

(ز) بعد وفاة صلاح الدين إلى نهاية الكتاب .

ثانياً : الأرقام الموضوعة أسفل الأقسام الطولية (١ — ٢٠) تدل على المؤلفين الذين اعتمد أبو شامة على كتبهم ، وهم :

١ — ابن شداد	٨ — السخاوى ؟	١٥ — ابن هبيرة
٢ — العماد الأصفهانى	٩ — ابن القادسى	١٦ — عمارة اليمنى
٣ — القليوبى	١٠ — الإربلى	١٧ — ابن بنجه الأشترى
٤ — ابن أبى طى	١١ — ابن العديم	١٨ — ابن الدبيثى
٥ — أبو يعلى	١٢ — الهمذانى	١٩ — أبو الفتوح الفاطمى
٦ — أسامة بن منقذ	١٣ — السمعانى	٢٠ — الكندى
٧ — ابن عساكر	١٤ — ابن الأثير	

ثالثاً : كل مربع صغير مسود ■ يدل على مرة واحدة من مرات الاقتباس .

المراجع التي استخدمت في تحقيق هذا القسم

أولا : المراجع العربية :

إحسان عباس : (بالتعاون مع أحمد أمين وشوقي ضيف) : خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب ؛ قسم شعراء مصر ؛ ج١ ، ج٢ ؛ القاهرة ؛ ١٣٧٠ (١٩٥١) .

أحمد أحمد بدوي : (بالتعاون مع حامد عبد المجيد) : ديوان أسامة بن منقذ ؛ القاهرة ١٩٥٣ .

أحمد أمين : انظر إحسان عباس .

أحمد بن علي المقريزي : انظر محمد مصطفى زيادة .

أحمد القلقشندي : (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩ .

أحمد بن خلكان : (شمس الدين أبو العباس) : وفيات الأعيان ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .

أسامة بن منقذ : انظر أحمد أحمد بدوي ؛ Derenbourg .

الفتح بن علي بن محمد البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق (مختصر لكتاب العماد الأصفهاني الكاتب) ؛ القاهرة ١٣١٨ (١٩٠٠) .

حامد عبد المجيد : انظر أحمد أحمد بدوي .

حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ؛ القاهرة ١٩٣٢ .

حمزة بن أسد التميمى	: (أبو يعلى ؛ ابن القلانسى) : ذيل تاريخ دمشق ؛ بيروت ، ١٩٠٨ .
شكرى فيصل	: خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهانى الكاتب قسم شعراء الشام ؛ دمشق ١٩٥٥ .
شوقى ضيف	: انظر إحسان عباس .
صلاح الدين المنجد	: خطط دمشق ؛ بيروت ١٩٤٩ .
عبد الحىّ بن أحمد	: (أبو الفلاح ؛ ابن العماد) : شذرات الذهب ؛ القاهرة ١٩٣١ .
عبد الرحمن بن إسماعيل	: (شهاب الدين المقدسى ؛ أبو شامة) : المذيّل على الروضتين ؛ (طبع فى مصر باسم : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين) ، القاهرة ١٩٤٧ .
عبد القادر بن محمد	: (النعيمى) : الدارس فى أنباء المدارس ؛ ج ١ ؛ دمشق ١٩٤٨ .
عبد الوهاب بن على السبكى	: (تاج الدين) : طبقات الشافعية الكبرى ؛ القاهرة ١٩٠٦ .
على بن محمد	: (عز الدين أبو الحسن المعروف بابن الأثير) : (١) الكامل فى التاريخ ؛ القاهرة ١٣٠٣ هـ . (٢) الباهر فى تاريخ أتابكة الموصل Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, Tom II, Paris .

عمارة بن أبى الحسن اليمنى	: (نجم الدين أبو محمد) : النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ؛ باريس ١٨٩٧ .
محمد بن أحمد	: (شمس الدين الذهبى) : تذكرة الحفاظ ؛ حيدر آباد ١٣١٥ (١٨٩٧ — ١٨٩٨) .
محمد بن شاكر	: (الكتبى) : فوات الوفيات ؛ القاهرة ١٢٩٩ .
محمد زاهد الكوثرى	: انظر عبد الرحمن بن إسماعيل .
محمد بن محمد الأصفهانى	: (العماد الكاتب) : انظر : (١) إحسان عباس ، وزميليه . (٢) الفتح بن على بن محمد البندارى . (٣) شكرى فيصل .
محمد مختار باشا	: التوفيقات الإلهامية : القاهرة — ١٣١١ .
محمد مصطفى زيادة	: السلوك لمعرفة دول الملوك لأحمد بن على المقريزى . القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٤٢ .
ياقوت بن عبد الله الحموى	: معجم البلدان القاهرة ١٩٠٦ .
يوسف بن رافع	: (بهاء الدين ، ابن شداد) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ؛ القاهرة ١٣١٧ .

ثانيا : المراجع الأوربية :

Ahmad, M.H.M. : Studies on the Works of Abu Shama; 1951. (*)

Barker : The Crusades; London, 1923.

Becker : Beitrage zur Geschichte Ägypten Unter dem Islam; Strassburg, 1902-3.

Derenbourg, H. : Ousâma Ibn Mounkidh, Un Émir Syrien au Premier Siècle des Croisades, (1095-1188), Paris, 1886.

Doyz : Supplément aux Dictionnaires Arabes.

Encyclopaedia of Islam; Leyden.

Gibb, H.A.R. : The Damascus Chronicle of the Crusades; London, 1932.

Goergens, E.P.; : Arabische Quellenbeiträge zur Geschichte der Kreuzzüge; Buch der beiden Gärten; Berlin, 1879.

Lane-Poole, S. : Muhammadan Dynasties; Paris, 1925.

Stevenson, W.B. : The Crusaders in the East; Cambridge, 1907.

(*) وهى الرسالة التى تقدم بها الناشر للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة لندن ؛ وبها قائمة ببعض المراجع الهامة التى استخدمت بصفة خاصة فى الدراسة التى قدم بها هذا الكتاب .

كتاب الروضتين

في أخبار الدولتين
النورية والصلاحية

الجزء الأول — القسم الأول

(٢ ب) بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقى إلاّ بالله رب العالمين

الحمد لله(١) الذى بلطفه تصلح الأعمال ، و بكرمه وجوده تدرك الآمال ، وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال ، و بإرادته تتغير الأحوال ؛ و إليه المصير والمرجع والمآل ، سبحانه هو الباقى بلا زوال ، المنزه(٢) ، عن الحلول والانتقال ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، ذو العرش والمعارج والطول والإكرام والجلال ؛ نحمده على ما أسبغ من الإنعام والأفضال ، ومَنّ به من الإحسان والنَّوال ، حمداً لا تُوازنه الجبال ، ملء(٣) السموات والأرض وعلى كل حال . ونصلى على رسوله ونبيّه وخيرته من خلقه وصفيّه وخليله ووليه وحبيبه المفضال ، سيدنا أبى القاسم محمد بن عبد الله ذى الشرف الباذخ ، والعلم الراسخ ، والفضل الشامخ(٤) ، والجمال والكمال ؛ صلىّ الله عليه وعلى الملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين ، وعترتهم الطيبين ، ما أفَلَ كوكب وطلع هلال ، وعلى آل محمد وصحبه خير صحب وأكرم آل ، وعلى تابعيهم بإحسان وجميع الأولياء والأبدال(٥) ، وعفا(٦) عن المُقصّرين من أمته أولى الكسل والملال ، وحشرنا فى زمرته ، متمسكين بشرعته ، مقتدين بسُنّته ، مُتّعِظين(٧) بما ضرب من الأمثال ، مزدحمين تحت لوائه ، فى جملة أوليائه ، يومَ لا بيعٌ فيه ولا خلال .

---

(١) مقدمة مخطوطة باريس (Arabe, 1701) تختلف عن هذه المقدمة تمام الاختلاف . راجع التقديم .

(٢) فى ق ١ ب : والمنزه . والموجود هنا أكثر مشابهة لسياق الجملة الحالية من أدوات العطف ، وإنما هى صفات متعددة .

(٣) فى الأصل غير مهموزة . راجع التقديم .

(٤) فى ق ١ ب اختلاف فى الترتيب : ذى الشرف الباذخ والفضل الشامخ والعلم الراسخ .

(٥) الأولياء والعباد سموا بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل بآخر . راجع تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ج : ١ ، ص : ٥٩ ، حاشية : ١ .

(٦) فى ق ١ ب : عفى ، بالياء وهو خطأ إملائى راجع المقدمة .

(٧) ما هنا من ق ١ ب ، وهو أكثر مناسبة ، وفى ك : مغتبطين .

أما بعد ، فإنه بعد أن صرفت جُلّ عمرى ومعظم فكرى فى اقتباس الفوائد الشرعية ، واقتناص الفرائد الأدبية ، عَنّ لى أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه ، فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه ؛ اقتداء بسيرة من مضى ، من كل عالم مرتضى . فَقَلّ إمام من الأئمة إلا ويحكى عنه من أخبار من سلف فوائد جمّة . منهم إمامنا أبو عبد الله الشافعى ، رضى الله عنه . قال مُصْعب الزُّبيرى « ما رأيت أحدا أعلمَ بأيام الناس من الشافعىّ » . . ويُروى عنه أنه أقام على تعلّم أيام الناس والأدب عشرين سنة ، وقال : « ما أردت بذلك إلا الاستعانة على الفقه » . قلت : وذلك عظيم الفائدة ، جليل العائدة . وفى كتاب الله تعالى وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الأمم السالفة ، وأنباء القرون الخالفة ما فيه عبرٌ لذوى البصائر ، واستعداد ليومَ تبلى السرائر . قال الله عزّ وجلّ وهو أصدق القائلين : « وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ »(١) . وقال سبحانه : « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِى النُّذُرُ »(٢) . وحدّث النبى صلى الله عليه وسلم بحديث أمّ زرع(٣) وغيره مما جرى فى الجاهلية والأيام الإسرائيلية (١٣) ، وحكى عجائب ما رآه ليلة أسرى به وعرج ، وقال : «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » . وفى صحيح مُسلم عن سماك بن حرب قال : قلت لجابر بن سمُرة : أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، كثيراً . كان لا يقوم من مصلاه الذى صلى فيه الصبح أو الغداة حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام . وكانوا يتحدثون فيأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون و يتبسّم (صلى الله عليه وسلم)(٤) . وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، قال : كان نبىّ الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن

---

(١) سورة هود : ١٢٠ .

(٢) سورة القمر : ٤ ، ٥ .

(٣) حديث أم زرع . فى ق حاشية بالهامش نصها : « النبى عليه السلام الذى حدث عائشة رضى الله عنها بحديث أم زرع وكثير من الناس يعتقدون عكس ذلك . والله أعلم » . وحديث أم زرع مناقشة بين إحدى عشرة امرأة حول أزواجهن وصفاتهم . وهن من اليمن أو من خثعم . وقيل . غير هـذا . راجع صحيح البخارى وشروحه المختلفة فى موضوع حديث أم زرع بباب النكاح ، فصل حسن معاشرة الأهل .

(٤) ساقطة من ق ٢ ا ويتكرر مثل هذا السقوط فى المخطوطات المختلفة .

بنى إسرائيل حتى نُصبح[1] مايقوم إلا إلى عُظم[2] صلاة . قلت : ولم يزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون فى حديث من مضى ، ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى ، ويستنشدون الأشعار ، ويتطلبون الآثار والأخبار ؛ وذلك بَيِّنٌ من أفعالهم لمن اطَّلع على أحوالهم ، وهم السادة القدوة ، فلنا بهم أسوة . فاعتنيت بذلك وتصفحته ، وبحثت عنه مدة وتَطَلَّبْته ؛ فوقفت والحمد لله على جملة كبيرة[2] من أحوال المتقدمين والمتأخرين ، من الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، والخلفاء والسلاطين ، والفقهاء والمحدِّثين ، والأولياء والصالحين ، والشعراء والنحويين ، وأصناف الخلق الباقين ؛ ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين ، كأنه قد عاصرهم أجمعين ، وأنه عند ما تفكر فى أحوالهم أو تذكرهم كأنه مُشاهدهم ومحاضرهم ؛ فهو قائم له مقام طول الحياة ، وإن كان متعجّل الوفاة . قال نُعيم بن حماد[3] : كان عبد الله بن المبارك[4] يكثر الجلوس فى بيته ، فقيل له ألا تستوحش ؟ قال : كيف أستوحش وأنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ! وفى رواية قال : قيل لابن المبارك : يا أبا عبد الرحمن تكثر القعود فى البيت وحدك ! فقال أأنا وحدى ؟ ! أنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه — يعنى النظر فى الحديث . وفى رواية أخرى : وأنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان . قلت وقد أنشدت لبعض الفضلاء :

كتاب أطالعـــه مؤنس   أحب إلىّ من الآنســـه
وأدرسه فيريني القرون   حضورا وأعظمُهم دارسه

وقد اختار الله سبحانه لنا أن نكون آخر الأمم ، وأطلعنا على أنباء من تقدم ، لنتّعظ

---

(١) فى ق ٢ ا : نصبح بالنون وهى غير منقوطة فى ك .

(٢) الضبط من ق ٢ ا .

(٣) نعيم بن حماد أبو عبد الله الخزاعى الفرضى الأعور نزيل مصر . سمع الحسين بن واقد وكأنه ما سمع منه . وهو مع إمامته منكر الحديث . تذكرة الحفاظ : ٢ : ٦ — ٧ .

(٤) أبو عبد الله الحنظلى عبد الله بن المبارك بن واضح ، الإمام الحافظ ، شيخ الإسلام ، قدوة المجتهدين الزاهدين ، صاحب التصانيف الناصعة والرحلات الشاسعة . أفنى عمره مسافراً ، مجاهداً ، حاجًا ، تاجرا ، قال بعض الثقات : الأئمة أربعة : مالك والثورى وحماد بن زيد وابن المبارك . ولد سنة ١١٨ أو سنة ١١٩ وتوفى سنة ١٨١ . تذكرة الحفاظ : ١ : ٢٥٣ — ٢٥٧ .

بما جرى على القرون الخالية ، وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَة ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ، ولنقتدى بمن تقدمنا من الأنبياء ، والأئمة الصلحاء ، ونرجو[1] بتوفيق الله عز وجل أن نجتمع بمن يدخل الجنة منهم ، ونذاكرهم بما نقل إلينا عنهم ، وذلك على رغم أنف من عَدِم الأدب ، ولم يكن له فى هذا العلم أرب ، بل أقام على غيّه وأكبّ ؛ والمرء مع من أحب .

هذا وإن الجاهل بعلم التاريخ (٣ ب) راكبٌ عمياء ، خابط خبط عشواء ؛ ينسب إلى من تقدم أخبار من تأخر ، ويعكس ذلك ولا يتدبر ، وإن رُدّ عليه وَهْمُهُ لا يتأثر ، وإن ذُكّر ما جهله لا يتذكر ؛ لا يفرّق بين صحابى وتابعى ، وحنفى ومالكى وشافعى ؛ ولا بين خليفة وأمير ، وسلطان ووزير ؛ ولا يعرف من سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم أكثر من أنه نبى مرسل ، فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصّدر الأوّل ، الذين بذكرهم ترتاح النفوس ، ويذهب البُوس[2] . ولقد رأيت مجلساً جمع ثلاثة عشر مدرسا ، وفيهم قاضى القضاة لذلك الزمان[3] ، وغيره من الأعيان ، فجرى بينهم — وأنا أسمع — ذكر من تحرم عليه الصدقة ، وهم ذوو القربى المذكورون فى القرآن ؛ فقال جميعهم : بنو[4] هاشم وبنو[4] عبد المطّلب ، وعدلوا بأجمعهم فى ذلك عما يجب . فتعجبت من جهلهم حيث لم يفرقوا بين عبد المطّلب والمطّلب ، ولم يهتدوا إلى أن المطّلب هو عمّ عبد المطلب ، وأن عبد المطلب هو ابن هاشم ، فما أحقهم بلوم كل لائم ، إذ[5] هذا أصل من أصول الشريعة قد أهملوه ، وباب من أبواب العلم جهلوه ؛ ولزم من قولهم إخراج بنى المطلب من هذه الفضيلة . فابتغيت إلى الله تعالى الوسيلة ، وأنفت لنفسى من ذلك المقام ، فأخذتها بعلم أخبار الأنام ، وتصحيح نسبتها ، وإيضاح محجّتها ؛ فإن كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها ، وإن نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها . وهو باب واسع

(١) فى الأصل وفى ق ٢ ا : ونرجوا ، وهو خطأ إملائى . انظر المقدمة .

(٢) هكذا من غير همز حتى تنسجم مع ما قبلها أسلوبا وبلاغة فتخضعا للأساليب البلاغية التى تميزت فى هذا العصر بكثرة استعمال المحسنات البديعية .

(٣) فى ق ٢ ب : قاضى قضاة ذلك الزمان ، ولم يسمه أبو شامة .

(٤) فى ق ٢ ب : وبنوا ، وهو خطأ إملائى راجع المقدمة .

(٥) فى ق ٢ ب : إن . وكل يناسب .

غزير الفوائد ، صعب المصادر والموارد ؛ زلت فيه قدم كثير من نقلة الأخبار ورواة الآثار .

ثم أردت أن أجمع من هذا العلم كتاباً يكون حاويا لما حصَّلته ، وأتقن فيه ما خبرته ، فعمدت إلى أكبر كتاب وضع فى هذا الفن على طريقة المحدِّثين ، وهو تاريخ مدينة دمشق — حماها الله عز وجل — الذى صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم على بن الحسن العساكرى رحمه الله[(١)] ، وهو ثمانمائة جزء فى ثمانين مجلدا ، فاختصرته ، وهذبته ، وزدته فوائد من كتب أخرى جليلة وأتقنته ، ووقف عليه العلماء ، وسمعه الشيوخ والفضلاء ومَرَّ بى فيه من الملوك المتأخرين ، ترجمة الملك العادل نور الدين ؛ فأطربنى ما رأيت من آثاره ، وسمعت من أخباره ، مع تأخر زمانه ، وتغيّر خِلاَّنه . ثم وقفت بعد ذلك فى غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده ، الملك الناصر صلاح الدين . فوجدتهما فى المتأخِّرين ، كالعُمَرَيْن رضى الله عنهما فى المتقدمين ؛ فإن كل ثانٍ من الفريقين حذا حذو من تقدَّمه فى العدل والجهاد ، واجتهد فى إعزاز دين الله أىّ اجتهاد . وهما ملكا بلدتنا ، وسلطانا خطّتنا ، خَصَّنا الله تعالى بهما (٤ ا) فوجب علينا القيام بذكر فضلهما . فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف ، يتضمن التقريظ لهما والتعريف . فلعله يقف عليه من الملوك ، من يسلك فى ولايته ذلك السلوك ، فلا أبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين ، وذكرى منه سبحانه فإن الذكرى تنفع المؤمنين . فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين ، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين ؛ ويقولون : نحن فى الزمن الأخير ، وما لأولئك من نظير . فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم ، بمن هو فى عصرهم ، من بعض ملوك دهرهم ، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد ، إن وفق الله تعالى الكريم وسدد . وأخذت ذلك من قول أبى صالح شعيب بن حرب المدائنى رحمه الله — وكان أحد السادة الأكابر

(١) الحافظ أبو القاسم على بن أبى محمد الحسن بن هبة الله ... من أعيان الشافعية ، غلب عليه الحديث فاشتهر به ، توفى سنة ٥٧١ . ألف تاريخ دمشق فى ثمانين مجلدا . ويقول عنه الحافظ زكى الدين أبو محمد ابن عبد العظيم المنذرى : « ما أظن هذا الرجل إلا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع فى الجمع من ذلك الوقت . وإلا فالعمر يقصر عن أن يجمع فيه الإنسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبيه » . ا هـ . ابن خلكان : ١ : ٣٣٥ . راجع تذكرة الحفاظ للذهبى : ٤ : ١٢٢ ، طبقات الشافعية للسبكى : ٤ : ٢٧٣ .

فى الحفظ والدين — قال : إنى لأحسب يجاء بسفيان الثورى[١] يوم القيامة حجة من الله تعالى على هذا الخلق ، يقال لهم إن لم تدركوا نبيكم فقد أدركتم سفيان ؛ ألا اقتديتم به ؟ ! وهكذا أقول هذان [الملكان[٢]] حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين . فَلِلّهِ دَرُّهما من ملكين تعاقبا على حَسن السيرة ، وجميل السريرة . وهما حنفى وشافعى ، شفى الله بهما كل غىّ[٣] ، وظهرت بهما من خالقهما العناية ، فتقاربا حتى فى العمر ومدة الولاية . وهذه نكتة قل من فطن لها ونبّه عليها ، ولطيفة هدانى الله بتوفيقه إليها . وذلك أن نور الدين رحمه الله ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة وتوفى سنة تسع وستين[٤] ، وولد صلاح الدين رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وتوفى سنة تسع وثمانين[٥] . فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنة واحدة و بعض أخرى ، وكلاهما لم يستكمل ستين سنة . فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة ، و بين مولديهما إحدى وعشرين سنة . وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين ، وملكها صلاح الدين سنة سبعين ؛ فبقيت دمشق فى المملكة النورية عشرين سنة ، وفى المملكة الصلاحية تسع عشرة[٦] سنة ، تمحى فيها السيئة وتكتب الحسنة ؛ وهذا من عجيب ما اتفق فى العمر ومدّة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين ؛ مع قرب الشبه بينهما فى سيرتهما ، والفضل للمتقدم ؛ فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله ، والإرشاد إلى عظم محله ، فإنه أصل ذلك الخير كله ، مهّد الأمور بعدله وجهاده وهيبته فى جميع بلاده ، مع شدة الفتق ، واتساع الخرق . وفتح من البلاد ما استعين به على

---

(١) سفيان الثورى أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق . . . الثورى الكوفى ؛ إمام فى الحديث وغيره من العلوم أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته . يقال : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى زمانه رأس الناس ، وبعده عبد الله بن عباس ، وبعده الشعبى ، وبعده سفيان الثورى . عينه المهدى العباسى على قضاء الكوفة بعد مناقشة بينهما ودفع إليه بكتاب التولية فأخذه سفيان وخرج ورمى به فى دجلة وهرب . ولادته سنة ٩٥ أو سنة ٩٦ أو سنة ٩٧ . وتوفى سنة ١٦١ بالبصرة . وفيات الأعيان : ١ : ٢٦٣ ، ٢٦٤ ؛ تذكرة الحفاظ : ١ : ١٩٠ — ١٩٣ .

(٢) الإضافة من ق ٣ ا .

(٣) غير منقوطة فى الأصل وفى ق ٣ ا .

(٤) فى ك أثبت رقم ٦٩ تحت هذه العبارة .

(٥) رقم ٨٩ مثبت تحت هذه العبارة فى ك .

(٦) فى الأصل وفى ق ٣ ا : تسعة عشر وهو خطأ نحوى .

مداومة الجهاد ، فهان على من بعده على الحقيقة ، سلوك تلك الطريقة ، لكن صلاح الدين أكثر جهاداً ، وأعم بلاداً ، صبر وصابر ، ورابط وثابر ، وذخر (٤ ب) له من الفتوح أنفسه ، وهو فتح الأرض المقدسة . فرضي الله عنهما فما أحقهما بقول الشاعر :

* كم ترك الأول للآخر *

وألبس الله هاتيك العظام ، وإن بلين تحت الثرى ، عفوا وغفرانا
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت مثوى قبورهم روحا وريحانا[1]

وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء ، والأكابر الفضلاء . فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي في تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زنكي رحمه الله ، ولأجله تم ذلك الكتاب وذكر اسمه في خطبته . وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة ابن أسد التميمي[2] في مذيل التاريخ الدمشقي قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة[3] . وصنف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري ، عرف بابن الأثير ، مجلدة في الأيام الأتابكية[4] كلها وما جرى فيها ، وفيه شيء من أخبار الدولة الصلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى لكونها متفرعة عنها . وصنف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي — عرف بابن شداد — قاضي حلب[5] مجلدة في الأيام الصلاحية وسياق ما تيسر فيها من الفتوح ، واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله تعالى . وصنف الإمام العالم

---

(١) في ق ٣ أ : حاشية : هذان البيتان من قصيدة لأسامة بن منقذ يأتي بعضها في أخبار سنة اثنتين وخمسين ، قالها في مرثية رهطه لما هلكوا بشيزر عام الزلازل المتتابعة . والله أعلم .

(٢) المعروف بابن القلانسي . نشر كتابه ذيل تاريخ دمشق في ليدن سنة ١٩٠٨ وترجم الأستاذ H.A.R.Gibb مقتبسات منه إلى الإنجليزية نشرت باسم : The Damascus Chronicle ofthe Cursades لندن سنة ١٩٣٢ .

(٣) وهي سنة وفاة ابن القلانسي .

(٤) Recueil des Histoires des Croisades, Historiens Orientaux, Tom II.

(٥) اتصل بخدمة صلاح الدين سنة ٥٨٤ ، وتوفي سنة ٦٣٢ . طبع كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية كاملا في مصر سنة ١٨٩٩ . وطبعت مقتبسات منه مع ترجمتها إلى الفرنسية في Recueil des Histories des Croisades, Historiens Orientaux.

عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى كتابين كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة والمعانى الصحيحة ؛ أحدهما الفتح القدسى [١] ، اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته ، فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . والثانى البرق الشامى [٢] ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق ، وهى سنة اثنتين وستين [٣] وخمسمائة إلى [سنة [٤]] وفاة صلاح الدين وهى سنة تسع وثمانين فاشتمل على قطعة كبيرة من أخبار أواخر الدولة النورية . إلا أن [٥] العماد فى كتابيه طويل النفس فى السجع والوصف ، يمل الناظر فيه ، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه . فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلا منها ، استحسنتها فى مواضعها ، ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع ، نحو ما ستراه فى أخبار فتح بيت المقدس شرفه الله تعالى وانتزعت المقصود من الأخبار ، من [بين [٦]] تلك الرسائل الطوال ، والأسجاع المفضية إلى الملال ، وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام . واخترت من تلك الأشعار الكثيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال ، وما فيه نكتة غريبة ، وفائدة لطيفة .

ووقفت (٥ ا) على مجلدات من الرسائل الفاضلية ، وعلى جملة من من الأشعار العمادية مما ذكره فى ديوانه دون برقه ؛ وعلى كتب أخر من دواوين وغيرها ، فالتقطت منها أشياء

(١) اسمه الكامل الفتح القسى فى الفتح القدسى ، طبع مرات فى مصر وأوربا ، ومرجعنا هنا هو طبعة ليدن فى سنة ١٨٨٨ .

(٢) فى سبعة أجزاء لا يوجد منها إلا الجزء الثالث فى Bodleian برقم : Bruce 11 والجزء الخامس بنفس المكتبة برقم : Marsh. 425 ويوجد من هذا الكتاب بعض مقتطفات فى ليننجراد بروسيا .

(٣) فى ق ٣ ب : وخمسين وصححت فى الهامش بما يطابق وهو ما ثبت هنا . والواقع أن العماد لم يأت إلى الشام إلا بعد وفاة الوزير ابن هبيرة التى كانت فى سنة ٥٦٠ . وقد تعرف بنجم الدين أيوب بدمشق سنة ٥٦٢ ، ثم زكاه القاضى كمال الدين الشهرزورى عند نور الدين ليعمل فى ديوان الإنشاء . ابن خلكان حـ ٢ ص : ٧٤ ، الإسناوى : Brit. Mus. Or. 3037 ورقة ١٤٠ ب .

(٤) ساقطة من ق ٣ ب .

(٥) فى الأصل : لأن وهو خطأ وما ثبت هنا من ق ٣ ب .

(٦) الزيادة من ق ٣ ب .

مما يتعلق بالدولتين أو بإحداهما ؛ و بعضه سمعته من أفواه الرجال الثقات ، من المدركين لتلك الأوقات . فاختصرت جميع ما فى ذلك من أخبار الدولتين ، وما حدث فى مدتهما من وفاة خليفة أو وزير ، أو أمير كبير ، أو ذى قدر خطير ، وغير ذلك . فجاء مجموعا لطيفا ، وكتابا طريفا ، يصلح لمطالعة الملوك والأكابر ، من ذوى المآثر والمفاخر . وسميته « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » . ولله درّ حبيب بن أوس[1] حيث يقول :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

فصل

أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أتابك وهو أبو سعيد زنكى بن قسيم الدولة آق سنقر التركى . و يلقب زنكى أيضاً بلقب والده قسيم الدولة ، ويقال لنور الدين ابن القسيم . وسنتكلم على أخبار أسلافه عند بسط أوصافه ؛ وقدمت من إجمال أحواله ما يستدل به على أفعاله .

ذكر الحافظ أبو القاسم فى تاريخه[2] أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة ؛ وأن جده آق سنقر ولى حلب وغيرها من بلاد الشام ، ونشأ أبوه زنكى بالعراق ثم ولى ديار الموصل والبلاد الشامية ؛ وظهرت كفايته فى مقابلة العدو عند نزوله على شيزر[3] حتى رجع خائبا ، وفتح الرها ، والمعرّة وكفر طاب ، وغيرها من الحصون الشامية[4] واستنقذها من أيدى الكفار . فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه ، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ؛ ثم قصد نور الدين حلب فملكها وخرج غازيا فى أعمال تل باشر ، فافتتح حصونا كثيرة من جملتها قلعة عزاز ، ومرعش ، وتل خالد[5] ؛ وكسر البرنس

(١) هو الشاعر المشهور أبو تمام . المتوفى سنة ٢٣١ هـ .
(٢) هو المحدث ابن عساكر ، وكتابه المذكور هنا هو تاريخ دمشق .
(٣) شيزر قلعة قرب المعرّة . ياقوت : ٥ : ٣٢٤ .
(٤) انظر الخريطة لهذه الأماكن ولما يجيء فيما بعد أيضاً من البلاد .
(٥) قلعة من نواحى حلب . ياقوت : ٢ : ٤٠٥ .

أنطاكية وقتله وثلاثة آلاف فرنجي معه ؛ وأظهر بحلب السنة وغيّر البدعة التي كانت لهم في التأذين[١] ، وقمع بها الرافضة ، وبنى بها المدارس ، ووقف الأوقاف ، وأظهر العدل ، وحاصر دمشق مرتين وفتحها في الثالثة[٢] ، فضبط أمورها وحصّن سورها ، وبنى بها المدارس والمساجد ، وأصلح طرقها ، ووسّع أسواقها ، ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ[٣] ، وسوق الغنم ، والكيالة ، وغيرها ، وعاقب على شرب الخمر ، واستنقذ من العدو ثغر بانياس والمنيطرة[٤] وغيرهما . وكان في الحرب ثابت القدم ، حسن الرمي ، صليب[٥] الضرب ، يقدم أصحابه ، ويتعرض للشهادة (٥ ب) وكان يسأل الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير . ووقف رحمه الله تعالى وقوفا على المرضى ومعلّمي الخط والقرآن وساكني الحرمين . وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج ، وأمر بإكمال سور المدينة واستخراج العين التي بأحد ، وبنى الربط والجسور والخانات ، وجدد كثيرا من قنى السبيل . وكذا [صنع[٦]] في غير دمشق من البلاد التي ملكها . ووقف كتبا كثيرة ، وحصل في أسره جماعة من أمراء الفرنج ، وكسر الروم والأرمن والفرنج على حارم[٧] وكان عدتهم ثلاثين ألفا ، ثم فتح حارم وأخذ قرى أنطاكية ، ثم فتح الديار المصرية وكان العدو قد أشرف على أخذها[٨] ، ثم أظهر بها السنة وانقمعت البدعة . وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية ، متبعاً للآثار النبوية ، مواظباً على الصلوات في الجماعات ، عاكفاً على تلاوة القرآن ، حريصاً على فعل الخير ، عفيف البطن والفرج ، مقتصداً في الإنفاق ،

(١) عبارات الشيعة التقليدية : حي على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر ... الخ .
(٢) الحصار الأول سنة ٥٤٥ ، والثاني سنة ٥٤٦ ، والفتح سنة ٥٤٩ .
(٣) ما هنا من ق ٤ أ . وفي ك : بطيخ .
(٤) المنيطرة : حصن قريب من طرابلس . ياقوت : ٨ : ١٨٦ .
(٥) أي شديد الضرب : القاموس المحيط .
(٦) الإضافة من ق ٤ أ .
(٧) حصن وكورة تجاه أنطاكية . وهما من أعمال حلب . ياقوت ، معجم البلدان : ٣ : ١٩٩ .
(٨) يعني بذلك المحاولات التي قام بها ملك بيت المقدس في نهاية حكم الفاطميين بعد أن استفحل النزاع بين ضرغام وشاور وتدخل فيه نور الدين وأموري . وقد سارت حملات نورية ثلاث بقيادة شيركوه في سنوات ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ وانتهت آخرها بإخضاع مصر الفاطمية جزئيا لنور الدين ثم بسقوط الخلافة الفاطمية .

متحريا فى المطاعم والملابس ، لم تسمع منه كلمة فحش فى رضاه ولا فى ضجره . وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها .

وقال أبو الحسن بن الأثير[١] : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر [فيها[٢]] بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز [ملكا[٢]] أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه . قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان يوليه وإنعام يسديه . ونحن نذكر ما يعلم[٣] به محله فى أمر دنياه وأخراه ؛ فلو كان فى أمة لافتخرت به ، فكيف بيت واحد .

أما زهده وعبادته وعلمه فإنه كان مع سعة ملكه ، وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين . أحضر الفقهاء واستفتاهم فى أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحله ، ولم يتعده إلى غيره ألبتة . ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حديد أو ذهب أو فضة . ومنع من شرب الخمر وبيعها فى جميع بلاده ومن إدخالها إلى بلد ما وكان يحد شاربها الحد الشرعى ، كل الناس عنده فيه سواء .

حدثنى صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين[٤] ، زوجة نور الدين ، ووزيرها ، قال : كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس فى المكان المختص به وتقوم فى خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن فى أخذ ثيابه عنه . ثم تعتزل عنه إلى المكان الذى يختص بها (٦ ا)

(١) ما يلى بالمتن مقتبس حرفيا من كتابه أتابكة الموصل : ٢٩٦ — ٣٠٠ .

(٢) ساقطة من ق ٤ ب .

(٣) غير منقوطة فى ك ولعلها كما أثبتها وإن كان من الجائز أن تكون بالنون كما جاء فى ق ٤ ب . وأفضل أن تكون بالياء .

(٤) هو معين الدين أنر ، تولى منصب الأسفهسلار بدمشق زمن البوريين سنة ٥٣٢ ثم ارتفع شأنه حتى حاصر نور الدين دمشق فتصالحا وتزوج نور الدين ابنته . وقد توفى أنر فى دمشق سنة ٥٤٤ ابن القلانسى : ٢٦٤ — ٣٠٦ .

وينفرد هو ، تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال ، أو فى مطالعة كتاب أتاه ويجيب عنهما . وكان يصلى فيطيل الصلاة ، وله أورادٌ فى النهار ؛ فإذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة فيظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة . قال : وإنها قلّت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قرره لها فأرسلتنى إليه أطلب منه زيادة فى وظيفتها . فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه(١)، ثم قال : من أين أعطيها ، أما يكفيها مالها ! والله لا أخوض نار جهنم فى هواها . إن كانت تظن أن الذى بيدى من الأموال هى(٢) لى فبئس الظن . إنما هى أموال المسلمين مُرَصَّدَةٌ(٣) لمصالحهم ومعدة لفتق إن كان من عدو الإسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها . ثم قال : لى بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها فلتأخذها . قال : وكان يحصل منها قدر قليل .

قال ابن الأثير(٤) : وكان رحمه الله لا يفعل فعلا إلا بنيّة حسنة . كان بالجزيرة رجل من الصالحين(٥) كثير العبادة والورع ، شديد الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله ويعتقد فيه اعتقاداً حسنا . فبلغه أن نور الدين يُدْمِنُ اللعب بالكرة . فكتب إليه يقول : ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية . فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول : والله ما يحملنى على اللعب بالكرة اللهو والبطر ، إنما نحن فى ثغر ، العدوّ قريب منا ، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب فى الطلب . ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً شتاء وصيفاً إذ لابد من الراحة للجند . ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على إدمان السير فى الطلب ، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف [فى الكر والفر فى المعركة . فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف](٦) والطاعة لراكبها فى الحرب . فهذا والله الذى بعثنى على اللعب

(١) فى ك فوق هذه الكلمة بخط دقيق : نور الدين .
(٢) هكذا فى ك وكذلك فى ٤ مه .
(٣) الضبط من ك .
(٤) بقية الاقتباس السابق من الأتابكة .
(٥) فى الأصل وفى ق ٥ ا بالهامش العبارة الآتية : حاشية : قال المؤلف اسم هذا الشيخ محمد بن العوام مسجده يلاصق الباب الجديد المعروف قديما بباب النوبية . والله أعلم . اهـ .
(٦) ما بين الحاصرتين ساقط من ق (٥ ا) .

بالكرة . قال ابن الأثير : فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير ، الذى يقل فى أصحاب الزوايا والمنقطعين إلى العبادة مثله ، فإن مَن يجىء إلى اللعب يفعله بنية صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات يقل فى العالم مثله ، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة ، وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين .

قال[١] : وحكى لى عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مُذَهَّبة ، فلم يحضرها عنده ، فوصفت له فلم يلتفت إليها . وبينا هم معه فى حديثها وإذا قد جاءه رجل صوفى فأمر بها له ؛ فقيل له إنها لا تصلح لهذا الرجل (٦ب) ولو أعطى غيرها كان أنفع له . فقال : أعطوها له فإنى أرجو أن أعوَّض[٢] عنها فى الآخرة . فسُلِّمت له ، فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أميرى أو سبعمائة دينار .

قلت : قرأت فى حاشية هذا المكان من كتاب ابن الأثير بخط ابن المعطى إياها قال : أعطاها لشيخ الصوفية عماد الدين أبى الفتح بن حمويه بغير طلب ولا رغبة ، فبعثها إلى همدان فبيعت بألف دينار .

قال ابن الأثير : وحكى لنا الأمير بهاء الدين على بن السكرى ، وكان خصيصاً بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه انبساط ، قال : كنت معه يوما فى الميدان بالرها والشمس فى ظهورنا ، فكلما سرنا تقدَّمنا الظل ؛ فلما عدنا صار الظل وراء ظهورنا ، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه ، وقال لى : أتدرى لأى شىء أجرى فرسى وألتفت ورائى ؟ قلت : لا . قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن يطلبها ، وتطلب من يهرب منها . قلت رضى الله عن ملك يفكر فى مثل هذا . وقد أنشدت بيتين فى هذا المعنى :

مثل الرزق الذى تطلبه ... مثل الظل الذى يمشى معك

أنت لا تدركه متَّبِعاً ... فإذا ولَّيت عنه تبعك

(١) لا يزال الاقتباس الحرفى من نفس الكتاب والصفحات .

(٢) فى ك بكسر الواو المشددة وهو خطأ . وفى ق ٥ ا الواو مشددة من غير شكل .

قال ابن الأثير(١) : وكان ، يعنى نور الدين رحمه الله ، يصلى كثيراً من الليل ويدعو ويستغفر ويقرأ ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب فى المحراب(٢)

قال : وكان عارفا بالفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة ، رضى الله عنه ، ليس عنده تعصب ، بل الإنصاف سجيته فى كل شىء . وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر . وعلى الحقيقة فهو الذى جدّد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ؛ فإنهم كانوا قبله كالجاهلية : هم(٣) أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكراً ، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك أتباعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه . ومَنْ سَنَّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . قال : فإن قال قائل كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة ، وتجبى إليه الأموال الكثيرة ؛ فليذكر نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام مع ملكه وهو سيد الزاهدين فى زمانه . ونبيّنا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق ، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين . قال : وإنما الزهد خلوّ القلب من محبة الدنيا لا خلوّ اليد عنها !

قال(٤) : وأما (١٧) عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة وأعدلهم حكما . فمن عدله أنه لم يترك فى بلد من بلاده ضريبة ولا مكسا ولا عشرا ، بل أطلقها رحمة الله جميعها فى بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه . وكان المكس فى مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً . [و](٥) هذا لم تتسع له نفس

(١) من الأتابكة : ٣٠٠ — ٣٠٣ .

(٢) المحراب الأولى صيغة مبالغة بمعنى كثير الحرب والثانية قبلة الصلاة .

(٣) فى ق ه ب : همة . وكل يناسب المعنى ، من غير مفاضلة .

(٤) الاقتباس مستمر من الصفحات المذكورة فى حاشية (١) .

(٥) السياق يقتضى الواو ، وهى غير موجودة فى ك ، أو فى ق ه ب .

غيره . وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان ، القوى والضعيف عنده فى الحق سواء . وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير . فلا جَرَمَ سار ذكره فى شرق الأرض وغربها .

قال : ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول نحن شِحَنٌ[1] لها نُمضى أوامرها . فمن اتباعه [أحكامها][2] أنه كان يلعب بدمشق بالكرة ، فرأى إنساناً يحدّث آخر ويومئ بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله . فقال : لى مع الملك العادل حكومة[3] ، وهذا غلام القاضى ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمنى على الملك الفلانى . فعاد إليه ولم يتجاسر [أن[4]] يعرّفه ما قال ذلك الرجل وعاد يكتمه ؛ فلم يقبل منه غير الحق ، فذكر له قوله . فألقى الجوكان[5] من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضى ، وهو حينئذ كمال الدين ابن الشهرزورى[6] ، وأرسل إلى القاضى يقول له إننى قد جئت محاكما فاسلك [معى مثل][7] ما تسلكه مع غيرى . فلما حضر ساوى خصمه [وخاصمه[8]] وحاكمه فلم يثبت عليه حق ؛ وثبت الملك لنور الدين . فقال نور الدين حينئذ للقاضى ولمن حضر : هل ثبت له عندى حق ؟ قالوا لا . فقال : اشهدوا أننى قد وهبت له هذا الملك الذى قد حاكمنى عليه ، وهوَ لهُ دُونى ؛ وقد كنت أعلم [أن][8] لا حق له عندى وإنما حضرت معه لئلا يظن [بى[8]] أنى ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لى وهبته له قال

---

(١) جمع شحنة ، وهى فى الأصل ما يقام للدواب من العلف الذى يكفيها يومها وليلتها ، وفى البلد من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان . انظر القاموس المحيط . والشحنكية رئاسة الشرطة أى قيادة البوليس ومتوليها يسمى صاحب الشحنة . انظر Dozy : Supp. Dict. Ar. .

(٢) الإضافة من ق ٥ ب .

(٣) أى خصومة ، ومجلس القضاء كان يسمى مجلس الحكم .

(٤) ساقطة من الأصل ، ومن ق ٦ ا والسياق يقتضيها .

(٥) المحجن الذى تضرب به الكرة فى ألعاب الفروسية . صبح الأعشى : ٥ : ٤٥٨ .

(٦) أبو الفضل محمد بن أبى محمد عبد الله الفقيه الشافعى . تولى القضاء فى الموصل أيام زنكى ، ثم انتقل إلى دمشق سنة ٥٥٠ ، وتولى قضاءها سنة ٥٥٥ . وتوفى سنة ٥٧٢ . طبقات الشافعية الكبرى .

(٧) الإضافة من ق ٦ ا .

(٨) ساقطة من ق ٦ ا .

ابن الأثير : وهذا غاية العدل والإنصاف ، بل غاية الإحسان ، وهي درجة وراء العدل . فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة ، المنقادة للحق ، الواقفة[1] معه .

قلت : وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرق الكلمة ؛ وإلا فقد انقاد إلى المضى إلى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر وعلى [ومعاوية[2]] رضى الله عنهم ، ثم حكى نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور . وقد نقلنا ذلك كله فى التاريخ الكبير[3] ، وفيه عن عبد الله بن طاهر قريب من هذا ، لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمض إليه . وقد بلغنى أن نور الدين رحمه الله تعالى استُدعى مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه ؛ فدخل حاجبه عليه متعجباً وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب ، فأنكر عليه تعجّبه وقام رحمه الله مسرعا ، ووجد فى أثناء طريقه ما منعه من العبور من حفر جب(٧ب) بعض الحشوش واستخراج ما فيه ؛ فوكّل من ثمّ وكيلا وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل ورجع .

قال ابن الأثير[4] : ومن وعدله أنه لم [يكن[5]] يعاقب العقوبة التى يعاقب بها الملوك فى هذه الأعصار على الظنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ، فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ . فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد فى غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة فى العقوبة والأخذ بالظنة ، وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر . قال : وحكى لى من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره ، فسأل عنه ، فقيل إن القاضى كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا . فقال : إن هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال فى هذه الجهة شيء . وأمر برده و إعادته إلى كمال الدين ليرده على صاحبه . فأرسله متولى الخزانة إلى

(١) فى ق ٦ ا : الموافقة .

(٢) ساقطة من ق ٦ ا

(٣) تاريخ دمشق الذى اختصره من تاريخ ابن عساكر ، وذلك أن أبا شامة اختصر كتاب ابن عساكر مرتين ، إحداهما فى خمسة عشر مجلدا ، والثانية فى خمس مجلدات .

(٤) الأتابكة : ٣٠٣ - ٣٠٥ — اقتباس طويل كسابقيه .

(٥) الإضافة من ق ٦ ا .

كمال الدين ، فرده إلى الخزانة وقال : إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عنى إنه له ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى ، [فرآه[1]] ، فأنكر على النواب ، وقال لهم : ألم أقل لكم يُعاد هذا المال على أصحابه ؟! فذكروا له قول كمال الدين ، فردّه إليه وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا ، وأما أنا فرقبتى دقيقة لا أطيق حمله ، والمخاصمة عليه بين يدى الله تعالى . يُعاد قولاً واحداً .

قال : ومن عدله أيضاً بعد موته — وهو من أعجب ما يحكى — أن إنساناً كان بدمشق غريباً ، استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله . فلما توفى تعدّى بعض الأجناد على هذا الرجل ، فشكاه ، فلم يُنصف . فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكى وقد شق ثوبه وهو يقول[2] : يانور الدين : لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا ؛ أين عدلك ! وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكى ويصيح . فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له : احفظ البلد والرعيّة وإلاّ خرج عن يدك . فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكى والناس معه فطيب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه ، فبكى أشد من الأول . فقال له صلاح الدين : لم تبكى ؟ قال : أبكى على سلطان عَدَل فينا بعد موته . فقال صلاح الدين : هذا هو الحق ، وكل[3] ما ترى فينا من عدل فمنه تعلمناه .

قلت : ومن عدله أن بنى دار العدل . قال ابن الأثير[4] : كان نور الدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف وسماها دار العدل . وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه ، وفيهم أسد الدين شيركوه — وهو أكبر أمير معه ، وقد عظم شأنه وعلا مكانه ، حتى صار كأنه شريك فى الملك — (١٨) واقتنوا الأموال وأكثروا ؛ تعدّى كل واحد منهم على من يجاوره فى قرية أو غيرها . فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم على الإنصاف من أسد الدين شيركوه . فأنهى الحال إلى نور الدين ، فأمر

(١) الإضافة من ق ٦ ا .

(٢) ما هنا من ق ٦ ب ، وفى ك : ويقول .

(٣) فى ك وكذلك فى ق ٦ ب : وكلما . وهو خطأ .

(٤) الأتابكة . اقتباس حرفى : ٣٠٥ — ٣١٠ .

حينئذ ببناء دار العدل . فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدى ؛ و إلا فمن هو الذى يمتنعُ على كمال الدين ؟ ووالله لئن أُحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه . فامْضوا إلى كل من بينكم و بينه منازعة فى مِلك فافصلوا الحال معه ، وأرضوه بأى شىء[1] أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدى . فقالوا له : إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا فى الطلب . فقال : خروج أملاكى عن يدى أسهل علىّ من أن يرانى نور الدين بعين أنى ظالم ، أو يساوى بينى و بين آحاد العامة فى الحكومة . فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصماءهم ، وأشهدوا عليهم . فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات . وكان يجلس فى الأسبوع يومين وعنده القاضى والفقهاء ؛ و بقى كذلك مدة فلم[2] يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين . فقال نور الدين لكمال الدين : ما أرى أحدا يشكو من شيركوه . فعرفه الحال ، فسجد شكراً لله تعالى ، وقال : الحمد لله الذى [جعل[3]] أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا . قال ابن الأثير : فانظر إلى هذه المعدلة ما أحسنها ، و إلى هذه الهيبة ما أعظمها ، و إلى هذه السياسة ما أسَدّها ؛ هذا مع أنه كان لا يريق دماً ، ولا يبالغ فى عقوبة ، و إنما كان يفعل هذا صدقُه فى عدله وحسنُ نيته .

قال[4] : وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما ، فإنه أصبر الناس فى الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا ، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، و به كان يضرب المثل فى ذلك . سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أحصيهم [يقولون[5]] إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه ، كأنه خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل . وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها ؛ لم ير جوكانه يعلو على رأسه . وكان ربما ضرب الكرة ويجرى

(١) فى ك أمر ، وماهنا من ق ٦ ب .

(٢) فى الأصل : فلما . والتصحيح من ق ٧ ا .

(٣) ساقطة من ك ، وكذلك من ق ٧ ا ، لكن السياق يقتضيها .

(٤) بقية الاقتباس السابق من الأتابكة .

(٥) ساقطة من ق ٧ ا .

الفرس ويتناولها بيده من الهواء[١] ويرميها إلى آخر الميدان . وكانت يده لا تُرى والجوكان فيها بل يكون فى كم قبائه استهانة باللعب . وكان إذا حضَرَ الحرب أخذ قوسين وتركاشين[٢] وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها . سمعه يوماً الإمام قطب الدين النيسابورى الفقيه الشافعى وهو يقول ذلك فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك (٨ ب) وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم ، ولئن أُصبت — والعياذ بالله — فى معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف وأُخذت البلاد . فقال : يا قطب الدين : ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلى من حفظ البلاد والإسلام ، ذلك الله الذى لا إله إلا هو . قال : وكان رحمه الله يكثر إعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، وأكثر ما ملكه من بلادهم به . ومن جيِّد الرأى ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب[٣] ، فإنه ما زال يخدعه ويستميله ، حتى جعله فى خدمته سفرا وحضرا ؛ وكان يقاتل به الإفرنج ، وكان يقول : إنما حملنى على استمالته أن بلاده حصينة وعرة[٤] المسالك ، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام ، فإذا طلب انحجر فيها فلا يُقدر عليه . فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الإقطاع على سبيل التألّف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج . قال : وحين[٥] توفى نور الدين رحمه الله وسلك غيره [غير[٦]] هذا الطريق ملك المتولى الأرمن بعد مليح كثيرا من بلاد الإسلام وحصونهم ، وصار منه ضرر عظيم ، وخرق واسع لا يمكن رقعه .

(١) فى ق ٧ ١ : الهوى . وهو خطأ .

(٢) فى ك ، وكذلك فى ق ٧ ١ : تركشين . والتركاش جعبة السهام وهى لفظة فارسية الأصل. Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٣) المقصود بذلك مملكة أرمنية الصغرى ، ومدنها الهامة أذنة والمصيصة وطرسوس فى عهد نور الدين . انظر النهج السديد لابن أبى الفضائل : ٢٣٠ .

(٤) ما هنا من ق ٧ ١ . وفى ك : وعسرة .

(٥) المثبت هنا من الأتابكة . وفى الأصل ، وكذلك فى ق ٧ ١ : وحيث .

(٦) ساقطة من (ك) والأضافة من ق ٧ ١ .

قال : ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده ؛ فإنه كان إذا توفى أحدهم وخلف ولدًا أقر الإقطاع عليه ، فإن كان الولد كبيرا استبد بنفسه ، وإن كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر . فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها ، وكان ذلك سببًا[١] عظيما من الأسباب الموجبة للصبر فى المشاهد والحروب . وكان أيضاً يثبت أسماء الأجناد ، كل أمير فى ديوانه[٢] ، وسلاحهم خوفاً ، من حرص بعض الأمراء وشُحّه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد ؛ ويقول : نحن كل وقت فى النّفير ، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملى العَدَد والعُدد دخل الوهن على الإسلام . قال : ولقد صدق رضى الله عنه فيما قال ، وأصاب فيما فعل ، فلقد رأينا ما خافه عياناً .

قال : وأما ما فعله فى بلاد الإسلام من المصالح[٣] مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم . من ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها ؛ فمنها حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، وبارين[٤] ، وشيزر ، ومنبج[٥] ، وغيرها من القلاع والحصون ، وحصنها وأحكم بناءها ، وأخرج عليها[٦] من الأموال ما لا تسمح به النفوس . وبنى أيضا المدارس بحلب ، وحماة ، ودمشق ، وغيرها للشافعية (١٩) والحنفية . وبنى الجوامع فى جميع البلاد ، فجامعه فى الموصل إليه النهاية فى الحسن والإتقان . ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملا رحمه الله ، وهو رجل من الصالحين ، فقيل له إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل . فقال : إذا وليت العمل بعض أصحابى من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم فى بعض الأوقات ، ولا يفى الجامع بظلم رجل مسلم ؛ وإذا ولّيت هذا الشيخ غلب على ظنى أنه لا يظلم ، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا علىّ . قال : وهذا هو

(١) فى ك : شيئاً . وما هنا من ق ٧ ب .

(٢) فى ق ٧ ب : يثبت أسماء أجناد كل أمير فى ديوانه .

(٣) المصالح هى ما يعرف فى الاصطلاح الحديث بالمنافع العامة أو ممتلكات الدولة .

(٤) والعامة تقول بعرين ؛ بين حلب وحماة من جهة الغرب . ياقوت : ٢ : ٣٤ — ٣٥ .

(٥) حاضرة العواصم أيام الرشيد . بينها وبين حلب يومان وبين الفرات يوم واحد . ياقوت : ٨ : ١٦٩ — ١٧١ .

(٦) يعنى حدد للإنفاق عليها .

الفقه فى الخلاص من الظلم . و بنى أيضاً بمدينة حماة جامعاً على نهر العاصى من أحسن الجوامع وأنزهها . وجدد فى غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم ، إما بزلزلة أو غيرها ، و بنى البيمارستانات فى البلاد ؛ ومن أعظمها البيمارستان الذى بناه بدمشق ، فإنه عظيم كثير الخرج[1] جدا . بلغنى أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب ، بل على كافة المسلمين من غنىّ وفقير . قلت[2] : وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعرا بذلك ، و إنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة ليقع[3] ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه ، والله المستعان . و إنما صرّح بأن ما يعزّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يُمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء ، فخصّ ذلك بذلك ، فلا ينبغى أن يتعدىَ إلى غيره ؛ لا سيّما وقد صرّح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين ، وقال بعد ذلك : من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطى . ورُوى أن نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان فيه ، وذلك موافق لقوله فى كتاب الوقف : من جاء إليه مستوصفا لمرضه أعطى . والله أعلم . و بلغنى فى أصل بنائه نادرة ، وهى أن نور الدين رحمه الله وقع فى أسره بعض أكابر الملوك من الفرنج[4] ، خذلهم الله تعالى ، فقطع على نفسه فى فدائه مالا عظيما ؛ فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين ، ومال نور الدين إلى الفداء[5] بعد ما استخار الله تعالى ، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه ، وتسلم المال . فلما بلغ الفرنجى مأمنه مات ، و بلغ نور الدين خبره ، فأعلم أصحابه فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع الحُسْنَيَيْن[6] ، وهما الفداء وموت ذلك اللعين . فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان ومنعَ المـال الأمراء ، لأنه لم يكن عن إرادتهم كان .

قال ابن الأثير[7] : [و بنى أيضا الخانات فى الطرق ، فأمن الناس وحفظت أموالهم ، و باتوا

(١) أى النفقة .

(٢) القائل هنا أبو شامة .

(٣) غير منقوطة فى الأصل . وفى ق ٧ ب : لنفع بنون بعدها فاء والصواب ما ثبت هنا .

(٤) فى ق ٨ ا : بعض أكابر ملوك الفرنج .

(٥) فى ق ٨ ا : الفدى .

(٦) فى ق ٨ ا : الحسنتين .

(٧) اقتباس حرفى من الأتابكة : ٣١١ — ٣١٦ .

فى الشتاء فى كِنٍّ من البرد والمطر[١]] . و بنى أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادى ؛ فإذا رأوا من العدوّ أحداً أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم ، (٩ ب) واحتاطوا لأنفسهم فلم يبلغ العدو منهم غرضا ؛ وكان هذا من ألطف الفِكَر وأكثرها نفعا . قال : و بنى الربط والخانقاهات[٢] فى جميع البلاد للصوفية ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأَدَرّ عليهم الإدْرارات الصالحة ، وكان يحضر مشايخهم عنده و يقربهم ، و يدنيهم و يبسطهم ؛ و يتواضع لهم ؛ و إذا أقبل أحدهم إليه ، يقوم له مُذْ تقع عينه عليه ، و يعتنقه و يجلس معه على سجادته ، و يقبل عليه بحديثه . وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام ، و يجمعهم عند البحث والنظر ، فقصدوه من البلاد الشاسعة ، من خراسان وغيرها . و بالجملة كان أهل الدين عنده فى أعلى محل وأعظمه ، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، وكانوا[٣] يقعون عنده فيهم فينهاهم ، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول : ومن المعصوم ؟! و إنما الكامل من تُعدّ ذنوبه . قال : و بلغنى أن بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابورى ، الفقيه الشافعى ، وكان قد استقدمه من خراسان ، و بالغ فى إكرامه والإحسان إليه ؛ فحسده ذلك الأمير فنال منه يوماً عند نور الدين . فقال له : يا هذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زَلّة تذكرها وهى العلم والدين . وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك ؛ وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا ، إن صحت ، مع وجود حسنته علىّ ؟! إنى والله لا أصدقك فيما تقول ، و إن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدبنك . فكف عنه . قال ابن الأثير : هذا والله هو الإحسان والفعل الذى ينبغى أن يكتب على العيون بماء الذهب .

---

(١) ما بين الحاصرتين من ق ٨ ا ، وفى ك قبالة جملة « قال ابن الأثير » أثبت النقص فى الهامش مع اختلاف فى ترتيب العبارة الأخيرة حيث جاءت : وباتوا فى البرد فى كن من الشتاء والمطر .

(٢) الرباط فى الأصل مكان تجمع المجاهدين المتطوعين لقتال العدو على الحدود . ثم صار فى أيام الأيوبيين مكانا يتفرغ فيه للعبادة . والخانقاه خاصة بالصوفية وهى فارسية الأصل . انظر رحلة ابن جبير ؛ وصبح الأعشى للقلقشندى ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar. .

(٣) ما هنا من ق ٨ ا . وهو أولى مما ورد فى ك إذ جاءت هناك هكذا : وكان .

و بنى بدمشق أيضاً دار الحديث[١] ، ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة ، وهو أول من بنى دارا للحديث فيما علمنا[٢] . و بنى أيضاً فى كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة ؛ و بنى أيضاً مساجد كثيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن . قال : وهذا فعل لم يسبق إليه . بلغنى من عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين فى وقتنا هذا ، وهو سنة ثمان وستمائة ، كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ، وليس فيها ملك غير صحيح شرعى[٣] ظاهرا و باطنا ، فإنه وقف ما انتقل إليه وورث عنه[٤] ، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه .

قال : وأما هيبته[٥] ووقاره فإليه النهاية فيهما . ولقد كان ، كما قيل : شديد (١٠ أ) فى غير عنف ، رقيق فى غير ضعف . واجتمع له ما لم يجتمع لغيره ، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها . وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير ، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف . وأما من عداه ، كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين ابن الداية ، وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالقعود . وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفى أو الفقير يقوم له ويمشى بين يديه ، ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه . وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول : إن هؤلاء لهم فى بيت المال حق ، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا . وكان مجلسه كما روى فى صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم ؛ وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين ، والمشاورة فى أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا . بلغنى أن الحافظ ابن عساكر الدمشقى ، رضى الله عنه ، حضر

---

(١) النعيمى ؛ الدارس فى تاريخ المدارس : ١ : ٩٩ .

(٢) بنى الحاكم بأمر الله فى مصر سنة ٤٥٠ مدرسة السنية عاش بها عالمان مالكيان درسا الفقه المالكى والحديث مدة ثلاث سنوات ، وأغلقت بعد ذلك . راجع Encyclopaedia of Islam مادة Masdjid .

(٣) فى ق : ليس فيها غير ملك صحيح شرعى .

(٤) فى ق ٨ ب : ووزن ثمنه . ولا معنى لها هنا . وما ثبت هنا من ك ، وقد وردت غير منقوطة .

(٥) ما هنا من ق ٨ ب . وفى ك : هيئته .

مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب من الجلوس فيه مالا حدّ عليه . فشرع يحدّث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المحدثين وقلة استماعهم . فقام و بقى مدة لا يحضر المجلس الصلاحيّ ؛ وتكرر من صلاح الدين الطلب له ، فحضر ، فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه ، فقال : نزّهت نفسى عن مجالسك فإننى رأيته كبعض مجالس السُّوقة ، لا يُستمع إلى قائل ، ولا يُرَدّ جواب متكلم . وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا ، كما قيل ، كأن على رءوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار ، فإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا . فتقدم صلاح الدّين إلى أصحابه أنه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ . قال ابن الأثير : فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله مضبوطة محفوظة .

وأما حفظ أصول الديانات فإنه كان مراعياً لها لا يهملها ، ولا يمكّن أحداً من الناس من إظهار ما يخالف الحق . ومتى أقدم مُقدم على ذلك أدّبه بما يناسب بدعته ؛ وكان يبالغ فى ذلك و يقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ؛ والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل ! قال : وحكى أن إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن (١٠ ب) آدم ، كان يظهر الزهد والنّسك وقد كثر أتباعه ، أظهر شيئاً من التشبيه ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حمارا وأمر بصفعه ، فطيف به فى البلد جميعه ونودى عليه : هذا جزاء من أظهر فى الدين البدع . ثم نفاه من دمشق ، فقصد حرّان وأقام بها إلى أن مات . قال و يسوق الله القصار الأعمار إلى البلاد الوخمة[١] .

قلت وذكر العماد الكاتب[٢] فى أول كتابه البرق الشامى أنه قدم دمشق فى شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة فى دولة الملك نور الدين محمود بن زنكى ؛ وأخذ فى وصفه بكلامه

---

(١) هذه القصة ساقطة مما نشر من كتاب الأتابكة . وتفسير هذا أن ما نشر فى هذه المجموعة ، سواء من كتاب الأتابكة أو من غيره ، لا يعدو أجزاء وجدها المشرفون على هذه المجموعة مفيدة من وجهة نظرهم . راجع : Recueil Hisortiens des Croisades, Historiens Orientaux .

(٢) أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى ، ويعرف بابن أخى العزيز . ولد سنة ٥١٩ وتوفى سنة ٥٩٧ . ومن أعماله التى تولاها ، غير التدريس ، كتابة الإنشاء لنور الدين ثم لصلاح الدين . ومن مؤلفاته التى يقتبسها أبو شامة فى كتابه : الفتح القدسى ، البرق الشامى ، كتاب السلجوقية .

المسجوع فقال : كان ملك بلاد الشام ومالكها ، والذى بيده ممالكها ، الملك العادل نور الدين ، أعفّ الملوك وأتقاهم وأثقبهم رأياً وأنقاهم ؛ وأعدلهم وأعبدهم ، وأزهدهم وأجهدهم ؛ وأظهرهم وأطهرهم ، وأقواهم وأقدرهم ؛ وأصلحهم[1] عملا ، وأنجحهم أملا ؛ وأرجحهم رايا[2] ، وأوضحهم آيا ؛ وأصدقهم قولا ، وأقصدهم طولا ؛ وكان عصره فاضلا ، ونصره واصلا ، وحكمه عادلا ، وفضله شاملا ؛ وزمانه طيباً ، وإحسانه صيِّباً ؛ والقلوب بمهابته ومحبته ممتلية[3] ، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية ؛ وأموره مقتبلة ، وأوامره ممتثلة ؛ وجده منزه عن الهزل ونوّابه فى أمن من العزل ؛ ودولته مأمولة مأمونة ، وروضته مصوّبة مصونة ؛ والرياسة كاملة ، والسياسة شاملة ؛ والزيادة زائدة ، والسعادة مساعدة ؛ والعيشة ناضرة ، والشيعة ناصرة ؛ والإنصاف صاف[4] ، والإسعاف عاف ؛ وأزر الدين قوىّ ، وظمأ الإسلام رَوِىّ ، وزند النجح وَرِىّ ؛ والشرع مشروع ، والحكم مسموع ؛ والعدل مُولًّى والظلم معزول ، والتوحيد منصور والشِّرك مخذول ؛ وللتُّقى شروق ، وما للفسوق سوق ؛ وهو الذى أعاد رونق الإسلام ، إلى بلاد الشام ؛ وقد غلب الكفر ، وبلغ الضر ؛ فاستفتح معاقلها ، واستخلص عقائلها ؛ وأشاع بها شعار الشرع فى جميع الحل والعقد ، والإبرام والنقض ، والبسط والقبض ، والوضع والرفع . وكانت للفرنج فى أيام غيره على بلاد الإسلام بالشام قطائع فقطعها ، وعفى رسومها ومنعها ؛ ونصره الله عليهم مراراً حتى أسر ملوكهم ، وبدد سلوكهم ؛ وصان الثغور منهم ، وحماها عنهم ؛ وأحيا معالم الدين الدوارس وبنى للأمة المدارس ؛ وأنشأ الخانقاهات للصوفية ، وكثرها فى كل بلد وكثر وقوفها ، وقرر معروفها ، وأدنى للوافدين من جنان جنابه قطوفها ؛ وأجدّ الأسوار والخنادق ، وأنمى المرافق ، وحمى الحقائق ؛ وأمر فى الطرقات ، ببناء الربط

(١) ما هنا من ق ٩ ا ، وفى ك : أصلحهمَ ، وهو سهو من الناسخ .

(٢) من غير همز لتنسجم مع السجعة التالية ، على أن تكون آيا ، جمع آية ، أو بالهمز لتنسجم أيضاً مع ما بعدها إذا فضلنا ضبط ق ٩ ا حيث جاءت : وأياً . والوأى هو الوعد كما جاء فى لسان العرب .

(٣) من غير همز لتنسجم مع السجعة التالية لها .

(٤) غير منقوطة ، ولعلها ضاف بمعنى شامل ؛ أو هى بالصاد المهملة ليكون بينها وبين الكلمة قبلها جناس ، مجاراة للأسلوب الشائع فى ذلك العصر ، وهو الأسلوب الذى يكثر من استخدام المحسنات البديعية ؛ ومن أقطابه العماد الكاتب صاحب هذه العبارات . ويدل على رجحان كونها بالضاد العبارة التى وردت بعدها ، وهى : والإسعاف عاف .

والخانات ؛ وضاقت ضيوف القضائل ، وفاضت فيوض (١١ ا) الأفاضل ؛ وهو الذى فتح مصر وأعمالها ، وأنشأ دولتها ورجالها .

ثم ذكر العماد فى أثناء حوادث سنة تسع وستين ، وهى السنة التى توفى فيها نور الدين ، قال[1] : وفى هذه السنة أكثر نور الدين من الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة ، وتعفية آثار الآثام ، وإسقاط كل ما يدخل فى شبهة الحرام ، فما أبقى سوى الجزية والخراج ، وما تحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج . قال وأمرنى بكتابة مناشير لجميع أهل البلاد فكتبت أكثر من ألف منشور ؛ وحسبنا ما تصدق به على الفقراء فى تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار . وكانت عادته فى الصدقة أن يحضر جماعة من أماثل البلد من كل محلة ، ويسألهم عمن[2] يعرفون فى جوارهم [من[3]] أهل الحاجة ، ثم يصرف إليهم صدقاتهم . وكان برسم نفقة الخاص فى كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفى قرطيس ، يصرفه فى كسوته ونفقته وحوائجه المهمة ، حتى أجرة خياطه ، وجامكية[4] طباخه ، ويستفضل منه ما يتصدق به فى آخر الشهر . وأما ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم فإنه كان لا يتصرف فى شىء منه ، لا قليل ولا كثير ، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضى يحصل ثمنه ، ويصرف فى عمارة المساجد المهجورة . وتقدم بإحصاء ما فى محالّ دمشق فأناف على مائة مسجد ، فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفاً . قال : ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته فى كل بلد لطال الكتاب ولم يبلغ إلى أمد . ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته تغنى عن خبرها بالعيان ، ويكفى أسوار البلدان عن الربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب ، وفى شرح طَوْلِه طُول ، وعمله لله مبرور مقبول[5] . وواظب على عقد مجالس الوعاظ ، ونصب الكرسى لهم فى القلعة للإنذار والاتعاظ ، وأكبرهم الفقيه قطب

(١) الاقتباس من كتاب البرق الشامى أيضاً ، وهو الذى تحدث فيه العماد عن مشاهداته فى الشام وفى غيرها ، منذ قدومه واتصاله بخدمه نور الدين .

(٢) من ق ٩ ب ، وفى ك : عن من .

(٣) الإضافة من ق ٩ ب .

(٤) الجامكية هى الراتب بصفة عامة . انظر Dozy :Supp. Dict. Ar. .

(٥) فى ك : وعمله لله ذلك مبرور مقبول ، بزيادة ذلك ، وهى حشو لا لزوم له .

الدين النيسابورى ، وهو مشغوف ببركة أنفاسه ، واغتنام كلامه واقتباسه . ووفد من بغداد ابن الشيخ أبى النجيب الأكبر ، وبسط له فى كل أسبوع المنبر ، وشاقه وعظه ، وراقه معناه ولفظه . وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شَوَرْوَه[1] ، وما أيمن تلك الأيام وأبرك تلك الشتوه .

قال : ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة ، والشبه المحذوره ، عزل الشِّحن ، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن ، وقال للقاضى كمال الدين ابن الشهرزورى : انظر أنت فى ذلك واحمل أمور الناس على الشريعة . قال : ولم يكن لمال المواريث الحشرية حاصل ، ولا (١١ ب) لديوانه طائل ، فجعل نور الدين ثلث ما يحصل فيه لكمال الدين الحاكم[2] ، فوفرّه نوابه وكثروه ، وما كان نور الدين يحاسب القاضى على شىء من الوقوف ، ويقول : أنا قلدته على أن يتصرف بالمعروف ؛ وما فضل من مصارفها وشروط واقفها يأمره بصرفه فى بناء الأسوار وحفظ الثغور ، وكانت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور .

قلت : وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن هبة الله[3] أنه حضر مع عمه الحافظ أبى القاسم رحمه الله مجلس نور الدين لسماع شىء من الحديث ، فمرّ فى أثناء الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج متقلداً سيفا ؛ فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يتقلد السيف ! يشير إلى التعجب من عادة الجند ، إذ هم على خلاف ذلك يربطونه بأوساطهم . قال : فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان . فوقفنا ننظر إليه معهم ، فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك . فرحمة الله على الملك الذى لم يفرط

(١) فى هامش ك العبارة الآتية : حاشية : قال المؤلف : هو عبد المؤمن بن هبة الله بن حمزة الأصفهانى الحنفى . ولقبه شوروه بشين معجمة مفتوحة وراء ساكنة بين واوين مفتوحتين وآخره هاء . والله أعلم . وتزيد مخطوطة باريس (Arabe, 1700) على هذا : كذا فى الأصل المنقول من خط مؤلفه .

(٢) القاضى . ومجلس القاضى كان يسمى مجلس الحكم .

(٣) زين الأمناء ابن عساكر . عرف بكثرة العبادة حتى كان يلقب بالسّجّاد . توفى سنة ٦٢٧ بدمشق وكان مولده سنة ٥٤٤ . انظر الأسناوى ورقة ١١٥ ب (Brit. Mus. : Or. 3037) ؛ والذيل على الروضتين . فى حوادث سنة ٦٢٧ .

فى الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الحالة ، [بل][1] لما بلغته رجع بنفسه وردّ جنده عن عوائدهم ، اتباعا لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فما الظن بغير ذلك من السنن . ولقد بلغنى أنه أمر بإسقاط ألقابه فى الدعاء على المنابر ، ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسرانى الشاعر فى منامه أنه يغسل ثيابه ، وقص ذلك عليه . ففكر ساعة ، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس ، وقال : هذا تفسير منامك ، وكان فى تهجده يقول : ارحم العشار المكاس . و بعد أن أبطل ذلك استجعل[2] من الناس فى حلّ وقال : والله ما أخرجناها إلا فى جهاد عدو الإسلام ، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم . وعلى الجملة كان نور الدين رحمه الله تعالى فرداً فى زمانه من بين سائر الملوك . ولو لم يكن إلا استماعه الموعظة وانقياده لها ، وإن اشتملت على ألفاظ قد أغلظ له فيها[3] . قرأت فى تاريخ إربل لشرف الدين ابن المستوفى[4] رحمه الله قال : المنتجب الواعظ ، هو أبو عثمان المنتجب بن أبى محمد البحترى الواسطى ، ورد إِرْبِلَ[5] ووعظ بها وكان له قبول عظيم ، وسافر إلى نور الدين محمود بن زنكى ابن آق سنقر إلى الشام بسبب الغزاة ، وأنفذ له نور الدين جملة من مال فلم يقبلها وردها عليه . أنشدنى له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدة عملها فى نور الدين وحلف أنه سمعها من لفظه :

مثّل وقوفك أيها المغرور يوم القيامة والسماء تمور
(١١٢) إن قيل نور الدين رحت مسلما فاحذر بأن[6] تبقى ومالك نور
أَنَهَيْتَ عن شرب الخمور ، وأنت من كأس المظالم طافح مخمور

---

(١) ساقطة من ق ١٠ ب .

(٢) حدّ عليهم جعلا أى نصيبا فى أموالهم ، أى ضريبة . لسان العرب .

(٣) جواب « لو » غير موجود .

(٤) أبو البركات المبارك بن أبى الفتح أحمد اللخمى ، ألف تاريخا لمدينة أربل فى أربعة مجلدات ، استعمله ابن خلكان فى مواضع عديدة . تولى الاستيفاء ثم الوزارة بمدينة إربل . وعندما قدم التتار اعتصم بالقلعة ولما عادوا انتقل إلى الموصل وأقام بها حتى مات سنة ٦٣٧ . وفيات الأعيان : ١ : ٤٤٢ .

(٥) إربل مدينة وقلعة على تل عال فى وسط سهل فسيح بين الزابين . يقول ياقوت إنها كانت تعد من أعمال الموصل ، ياقوت : معجم البلدان : ١ : ١٧٢ — ١٧٦ .

(٦) من ق ١٠ ب . وفى ك : وإن . وهو غير مناسب .

عطلّت كاسات المـــدام تعففا وعليك كاســات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نُقلت إلى البــلى فرداً ، وجاءك منكر ونـكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت فى يوم الحســاب مُسَحَّبٌ مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت فى ضيق اللُّحود مُوَسَّـــدٌ مقبور
وودِدتَ أنك ما وليت ولاية يوما ، ولا قال الأنامُ : أمـــير
و بقيتَ بعـــد العزّ رَهْن حُفيرة فى عالم الموتى وأنت حقـــير
وحشرت عريانا ، حزينــا ، باكيا قلقا ، ومالَكَ فى الأنام مجـــير
أرضيت أن تحيا وقلبك دارس عافى الخراب وجسـمُك المعمور
أرضيت أن يحظى[١] سواك بقربه أبداً وأنت مبعّــد مهجور
مهِّد لنفسك حجة تنجو بهـــا يوم المعاد لعلك المعـــذور

قلت : ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحركة إلى إبطال تلك المظالم[٢] . والخلاص من تلك المآثم . رضى الله عن الواعظ والمتعظ بسببه ، ووفق من رام الاقتداء به .

ونقلت من خط الصاحب العالم كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة[٣] فى كتاب تاريخ حلب الذى صنفه ، وسمعت من لفظه ، أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب ، فلما حاصر أبوه قلعة جعبر[٤] وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وملـكها فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وأحسن إلى الرعية وبثّ العدل ورفع الجور، وأبطل البدع واشتغل بالغزو ، وفتح قلاعا كثيرة من عمل حلب كانت بيد الفرنج ،

(١) من ق ١٠ ب . وفى ك : يحضى .

(٢) فى ق (١٠ ب — ١١ أ) : المحركة إلى السلطان فى إبطال تلك المظالم .

(٣) ويعرف بابن العديم توفى بالقاهرة سنة ٦٦٦ هـ . وكان محدثا مؤرخا فقيها مفتيا منشئا ، سأله ياقوت : لم تسميتم ببنى العديم ؟ فقال سألت عن ذلك جماعة من أهلى فلم يعرفوه . فوات الوفيات : ٢ : ١٢٦ — ١٢٨ .

(٤) بلدة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين واسمها القديم دوسر ، ملـكها رجل أعمى من بنى قشير يسمى جعبر بن مالك ، كان يخيف منها السبل بمعاونة أولاده ، وبقى بها حتى طرده منها ملـكشاه السلطان السلجوقى . معجم البلدان : ٣ : ١٠٨ .

وحدّث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له ، منهم أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدى المصرى ، روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبى الفضل أحمد وأبى البركات الحسن وأبى منصور عبد الرحمن بن أبى عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعى . قال : ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر ابن القيسرانى كتبها إلى نور الدين ، وجوابها من نور الدين على رأس الورقة و بين السطور ؛ فنقلت جميع ما فيها من خطيهما . قال : وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسرانى أن يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه ، و يصونه عن الكذب وعما هو مخالف لحاله . (١٢ب) ونسخة الورقة بخط خالد : « أعلى الله قدر المولى فى الدارين ، و بلغه آماله فى نفسه وذريته ، وختم له بخير فى العاجلة والآجلة ، بمنّه وجوده ، وفضله وحمده . وقف المملوك على الرقعة ، وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه وعن والديه ، وأن يسهل له السلوك إلى رضاه والقرب منه والفوز عنده ، إنه على كل شىء قدير . وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الأشرف ، زاده [الله[1]] شرفا ، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى : اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد فى سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين . فإن هذا جميعه لا يدخله كذب ولا تزيّد ؛ والرأى أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى » . فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما هذا صورته : « مقصودى ألاّ يكذب على المنبر ، أنا بخلاف كل ما يقال . أفرح بما لا أعمل ، قلة عقل عظيم ، الذى كتبت جيد هو ، ا كتب به نسخ حتى نسيره إلى جميع البلاد » . وكتب فى آخر الرقعة : «ثم يبدءوا بالدعاء : اللهم أره الحق حقاً ، اللهم أسعده ، اللهم انصره ، الله وفقه ، من هذا الجنس[2] » .

---

(١) ما بين الحاصرتين من ق ١١ ا .

(٢) العبارة ركيكة وفيها أخطاء لغوية ، وهى هكذا فى المخطوطات المختلفة مما يدل على أن أبا شامة نقلها كما هى نقلا أمينا من المصدر الذى اعتمد عليه ، وهو الرقعة التى احتوت خطاب الوزير وتعليق نور الدين عليه .

قال : وحدثنى والدى قال : استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم وشرف الدين ابن أبى عصرون[1] إلى الميدان الأخضر وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص . فلما شهدنا عليه التفت إلينا وقال : بالله انظروا أى شىء علمتموه من أبواب البر والخير ، دلّونا عليه وأشركونا فى الثواب . فقال شرف الدين ابن أبى عصرون : والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله ، ولم يترك لأحد بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه . وقال : قال لى والدى : دخل فى أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر فمات بها وخلّف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً . فكتب بعض مَن بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات ههنا[2] رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين . وحسّن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير ويُرضى منه بشىء ويمسك الباقى للخزانة . فكتب على رقعته : أما الميت فرحمه الله ، وأما الولد فأنشأه الله ، وأما المال فثمّره الله ، وأما الساعى فلعنه الله . وبلغتنى هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضاً . وحدثنى الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذبخت النورى قال : سمعت الطواشى شاذ بخت الخادم يحكى لنا قال : كنت يوماً أنا وسنقرجا واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر (١١٣) فكراً عظيما ، وجعل ينكث بأصبعه فى الأرض . فتعجبنا من فكره وقلنا ترى فى أى شىء يفكر ، فى عائلته أو فى وفاء دينه ؟ فكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال : ما تقولان ؟ فقلنا : ما قلنا شيئاً . فقال بحياتى قولا لى . فقلنا : عجبنا من إفراط مولانا فى الفكر وقلنا يفكر فى عائلته أو فى نفسه . فقال . والله إننى أفكر فى وال ولّيته أمرا من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم ، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابى وأعوانى ، وأخاف المطالبة بذلك . فبالله عليكم . وإلاّ فخبزى عليكم حُرام لا تريان قصة ترفع إلىّ أو تعلمان مظلمة إلا وأعلمانى بها وارفعاها إلىّ .

---

(١) عبد الله بن محمد بن هبة الله ... ابن أبى عصرون ، أبو سعد التميمى الموصلى ، قاضى قضاة دمشق وعالمها ورئيسها . تنقل بين بغداد والموصل وسنجار وواسط وحلب وغيرها للدرس والتدريس ، ودخل دمشق سنة ٥٤٩ مع نور الدين ، وولى قضاءها بعد تنقله فى مناصب عدة . ولد سنة ٤٩٢ أو سنة ٤٩٣ وتوفى سنة ٥٨٥ بعد أن كف بصره بعشر سنوات . طبقات الشافعية الكبرى : ج ٤ : ٢٣٧ — ٢٤١ . انظر أيضاً الوافى بالوفيات للصفدى وشذرات الذهب لابن العماد .

(٢) فى ك : هاهنا .

وسمعت قاضى القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم[١] قال : كان نور الدين ينفذ كل سنة فى شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملا شيئاً يفطر عليه ، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك ، فكان نور الدين يفطر عليه . وكان إذا قدم الموصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملا . قال : وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين[٢] شحنة الموصل ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضى به ، وألا يعمل القاضى والنواب كلهم شيئاً إلا بأمر الشيخ عمر الملا . قال : فكان لا يُعمل بالسياسة ، و بطلت الشحنكية[٣] . فجاء أكابر الدولة وقالوا لكمشتكين قد كثر الدّعار وأرباب الفساد ، ولا يجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصلب ؛ فلو كتبت إلى نور الدين وقلت له فى ذلك . فقال لهم أنا لا أكتب إليه فى هذا المعنى ولا أجسر على ذلك ؛ فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه . فحضروا عنده وذكروا له ذلك ، فكتب إلى نور الدين وقال له : إن الدّعارّ والمفسدين وقطاع الطريق قد كثروا ويُحتاج إلى نوع سياسة ، فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب ، و إذا أخذ مال إنسان فى البّرية من يشهد له ؟ قال : فقلب نور الدين كتابه وكَتب على ظهره : إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بما يصلحهم ، و إن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن على الشريعة زيادة فى المصلحة لشرعه ، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى . قال : فجمع الشيخ عمر الملا أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال : انظروا فى كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد !

وسمعت صقر المعدل[٤] يقول : سمعت مقلداً — يعنى الدولعى — يقول : لما مات الحافظ

(١) ابن شداد ، صاحب النوادر السلطانية . وهكذا يعتمد أبو شامة على السماع أيضاً كمصدر ولكنه لا يلجأ إليه كثيراً .

(٢) هرب من الموصل بعد وفاة نور الدين ولجأ إلى ابن الداية وصى الصالح إسماعيل بن نور الدين ، ثم قبض على ابن الداية واستبد بالأمر . وبعد ذلك هرب إلى حارم ، وكانت إقطاعا له من نور الدين ، فأقام بها حتى علق منكوسا تحت حصنها . وسيجيء تفصيل هذا عند الحديث عن عصر الصالح إسماعيل .

(٣) أى لم يكن لرئيس الشرطة أن يعالج الجرائم بما يناسبها من عقاب رادع تقتضيه السياسة ، وإنما كان عليه أن يتبع العقوبات التى حددها الشرع ولا يزيد عليها .

(٤) فى ق ١٢ ا : صقر بن يحيى بن صقر المعدل . والمعدل هو من يعتبره القاضى من العدول المقبولى الشهادة .

المرادى ، وكنا جماعة الفقهاء قسمين : العرب والأكراد ؛ فمنا من مال إلى المذهب ، وأردنا أن نستدعى الشيخ شرف الدين ابن أبى عصرون ، وكان بالموصل ، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف ، وأراد أن يستدعى القطب النيسابورى ، وكان قد جاء وزار البيت المقدّس ثم عاد إلى بلاد العجم ؛ فوقع (١٣ب) بيننا كلام بسبب ذلك ووقعت فتنة بين الفقهاء . فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب وخرج إليهم مجد الدين — يعنى ابن الداية — عن لسانه وقال : نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة و إظهار الدين ، وهــذا الذى جرى بينكم لا يحسن ولا يليق . وقد قال المولى نور الدين : نحن نرضى الطائفتين ونستدعى شرف الدين ابن أبى عصرون وقطب الدين النيسابورى . فاستدعاهما جميعاً ، وولى مدرسة ابن أبى عصرون لشرف الدين ومدرسة النفرى لقطب الدين . [قال(١)] وعلقت أيضاً من خط فقيه كان معيدا بالنظامية يقال له أبو الفتح بنجه بن أبى الحسن بنجه(٢) الأشترى ، وكان ورد دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة ، قال : كان نور الدين يقعد فى الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام فى دار العدل للنظر فى أمور الرعية وكشف الظلامة ، لا يطلب بذلك درهما ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته ، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وطلباً للثواب والزلفى فى الآخرة ، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوى ، والفقير والغنى(٣) ، ويكلمهم بأحسن الـكلام ، ويستفهم منهم بأبلغ النظام ، حتى لا يطمع الغنى فى دفع الفقير بالمال ، ولا القوى فى دفع الضعيف بالقال . ويحضر فى مجلسه العجوز الضعيفة التى لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المـكالمة معه فيأمر بمساواتها له فتغلب خصمها طمعا فى عدله ، ويعجز الخصم عن دفعها خوفا من عدله . فيظهر الحق عنده فيجرى الله على لسانه ما هو موافق للشريعة ، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجرى فى مجلسه إلا محض الشريعة .

(١) الإضافة من ق ١٢ ا .

(٢) فى ق ١٢ ا : ابن أبى الحسن بن بنجه الأشترى .

(٣) ما هنا من ق ١٢ ا . وفى ك : الضعيف والفقير ، والقوى والغنى .

قال : وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالح الناس ، [و(١)] النظر فى أمور الرعية ، والشفقة عليهم ، وأما فكره ففى إظهار شعار الإسلام وتأسيس قاعدة الدين من بناء الربط والمساجد حتى إن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله ، وفى زمانه صارت مقرًّا للعلماء والفقهاء والصوفية ، لصرف همته إلى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم ، والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم . ولو لم يكن من هذه الخصال إلا ما علم منه وشاع أنه إذا وعد وفى ، وإذا أوعد عفا ؛ وإذا تحدث بشىء يقف عليه ولا يخالف قوله ، ولا يرجع عن لفظه ومنطقه ، لكفى . ولا يجرى فى مجلسه الفسق والفجور ، والشتم والغيبة ، والقدح فى الناس والكلام فى أعراضهم ، كما يجرى فى مجالس سائر الملوك ؛ ولا يطمع فى أخذ أموال الناس ، ولا يرضى بأن يأخذ أحد من أموال الشريعة (١٤ ا) شيئاً بغير حق .

قال : وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه أكثر الليالى يصلى ويناجى ربه مقبلا بوجهه عليه ، ويؤدى الصلوات الخمس فى أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها ، وركوعها وسجودها . قال : وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار أنهم يقولون : ابن القسيم له مع الله سر ، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره ، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، فإنه يصلى بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو ، والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله ، وما يردّ يده خائبة ، فيظفر علينا . قال : فهذا كلام الكفار فى حقه . قال : وحدّثنا الشيخ داود القدسى خادم قبر شعيب ، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، قال : حضرت فى دار العدل فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ؛ فقام رجل وادعى على نور الدين الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق ، قال : وأنا مطالب لك بذلك : فقال نور الدين أنا ما أعلم ذلك ، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وأنا أردّ إليك ما يخصنى ، فإنى ما ورثت جميع ماله ، كان هناك وارث غيرى . فمضى الرجل ليحضر البينة ، فقلت فى نفسى هذا هو العدل . قال : وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالسّداد والصلاح ، فسألت عنه ، فقالوا : أخو الشيخ أبى البيان . وكان قد أودع عند أخيه أبى البيان وديعة ، وقد

---

(١) الإضافة من ق ١٢ ا .

توفى ، فادعى المودِع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة ، وطالبه بالرد عليه ؛ فأنكر هذا الرجل علمه بالوديعة ؛ فأوجب عليه القاضى كمال الدين حكم الشرع أن يحلف أنه لاعلم له بهذه الوديعة ، فحلف على ذلك . فجعل المودِع يشنع عليه يقول : إنه حلف كاذبا ، ويتكلم فى عرضه ، ويقول فى حقه من التنمّس وغيره . فحضر[1] عند الملك العادل شاكيًا منه وذاكرا سيرته وطريقته ، ومَنْ الذى يقدر أن يقول فى حق هذا ؛ ويتعرض بالتماسه من الملك العادل التقدم بإحضاره والإنكار عليه فيما يقول فى حقه . فلما فرغ من الكلام ورمى بما كان فى جعبته من دعوى للحقيقة والطريقة ، وكان حاصله التماس الإنكار عليه . فقال الملك العادل أليس أن الله تعالى يقول فى كتابه : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » . فإذا كان هو يجهل عليك ويقول فى حقك بالجهل ما لا يجوز فيجب عليك ألاّ تعمل معه مثل معاملته فتكون مثله ، فكأنك قابلت الإساءة بالإساءة ، ومن حقك أن تقابل الإساءة بالإحسان[2] . فقلت فى نفسى : الحق ما قال الملك العادل ؛ إمّا قرأ هذا فى كتب التفاسير فثبت فى قلبه ، أو أجراه الله على لسانه وأنطقه به . (١٤ ب) قال : وحضر جماعة من التجار وشكوا أن القراطيس كان ستون منها بدينار ، فصار سبعة وستون بدينار ، وتزيد وتنقص ، فيخسرون . فسأل الملك العادل عن كيفية الحال فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار ، ولا يرى الدينار فى الوسط ، وإنما يعدون القراطيس بالسّعر ، تارة ستين بدينار ، وتارة سبعة وستين بدينار[3] . وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير الملكية ، وتبطل القراطيس بالكلية . فسكت ساعة وقال : إذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأنى خربت بيوت الرعية ، فإن كل واحد من

(١، ٢) يبدو فى العبارة الواردة بين الرقمين شىء غير قليل من ضعف الأسلوب . وتتفق المخطوطات جميعاً فى ألفاظ هذا النص . وهذا يؤيد ما وجدنا من أن أبا شامة يحافظ على حرفية الاقتباس ما دامت العبارات تصور الحقائق التاريخية من غير إخلال أو إملال . انظر المقدمة .

(٣) يشبه هذا إلى حد ما ما يجرى فى عصرنا هذا فى أسواق الأوراق المالية والذهب وغيرها ، عندما تعقد الصفقات بيعا وشراء ومضاربة ، فتهبط الأسعار أو ترتفع ، والبضاعة غير موجودة وقت التعامل .

السوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس . « إيش يعمل به »[١] فيكون سببا لخراب بيته . قال : فأى شفقة تكون أعظم من هذا على الرعية !

قال : وحضر صبي و بكى عند الملك العادل وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف . فسأل عن حاله . فقالوا : هذا الصبى ابن الشيخ أبي سعد الصوفى ، وهو رجل زاهد قاعد فى حجرة الوقف وليس له قدرة على الأجرة ؛ وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة . قال الملك العادل : كم أجرة السنة ؟ فقالوا : مائة وخمسون قرطاسا ، وذكروا سيرته وطريقته وفقره . فرَقّ له وأنعم عليه وقال : نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة و يقعد فيها . وتقدم بذلك و بإخراجه من الحبس ، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الإنعام كان فى حقه . أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب [بن الفضل بن عبد المطلب[٢]] الهاشمى قال : كان عند القاضى تاج الدين عبد الغفور بن لقمان السكردى قاضى حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعى[٣] سويداً يحضر الخصوم إلى مجلس الحكم . فحضر بعض التجار وادعى أن له على نور الدين دعوى . فقال السكردى لسويد المذكور : امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم وعرّفه أنه حضر شخص يطلب حضوره ؛ وكان نور الدين فى الميدان ، فجاء سويد إلى باب الميدان ، فخرج إسماعيل الخازندار فوجدهُ ، فتقدم سويد إليه وقال : قد سيرنى تاج الدين القاضى وذكر أنه حضر تاجر وذكر أن له دعوى على المولى نور الدين ؛ وقد أنفذنى تاج الدين وقال لى كذا وكذا . فضحك إسماعيل الخازندار ودخل على نور الدين ضاحكا وقال له مستهزئا : يقوم المولى إلى مجلس الحكم ! فأنكر نورالدين على إسماعيل استهزاءه وقال : تستهزئ بطلبى إلى مجلس الحكم ! وقال نورالدين : يحضر فرسى حتى نركب إليه ، السمع والطاعة . قال الله تعالى « إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ (١١٥) أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا[٤] » .

(١) هكذا وردت بصيغتها العامية فى ك وفى ق .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ١٣ ب . وهى ساقطة من ك .

(٣) فى ك : يدعا . وهو خطأ إملائى .

(٤) سورة النور : ٥١ .

ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة ، فاستدعى سويدا وقال له : امض إلى القاضى تاج الدين وسلّم عليه وقل له : إنى جئت إلى ههنا امتثالا لأمر الشرع ، وأحتاج فى الحضور إلى مجلسه إلى سلوك هذه الأزقة وفيها الأطيان ؛ وهذا وكيلى يسمع الدعوى و إن توجهت علىّ يمين أحضر إن شاء الله قال فحضر الوكيل وسمع الدعوى ، وتوجهت اليمين ؛ فقال الكردى : قد توجهت اليمين فليحضر . فلما بلغ نور الدين ذلك وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر وأصلح الأمر فيما بينه و بينه وأرضاه .

سمعت قاضى القضاة بهاء الدين(١) يقول : حكى لى السلطان الملك الناصر صلاح الدين قال : أرسلنى الملك العادل نور الدين إلى عمى أسد الدين شيركوه ، وكان لا يفعل شيئاً إلا بمشورته ، فقال : امض وقل لأسد الدين قد خطر فى بالى أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس ، وخذ رأيه فى ذلك . قال : فجئت إليه وأنهيت إليه ما قال لى . فقال : امض وقل له يا مولانا إذا فعلت ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم ، ونحتاج إليهم للغزاة وخَرْج(٢) العساكر . فقال السلطان صلاح الدين : فقلت لعمى هذا أمر قد ألهمه الله إياه فساعده عليه . فصاح فىّ وقال : امض إليه وقل له ما أقول لك . فعدت إلى نور الدين فأنهيت إليه ما قال لى عمى ، فقال امض إليه [وقل له(٣)] إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولا نخرج . قال فعدت إلى عمى وقلت له ما قال . فقال قل له : إن تركوك تقعد فجيد هو . فراجعته فى ألّا يثبطه فى ذلك . فصاح فىّ وقال : امض إليه وقل له ما أقول لك . قال فجئت إليه وقلت له ذلك . فترك ذلك مدة ثم أمضى ما كان عزم عليه . قال لى صقر بن يحيى : بلغنى أن موفّق الدين خالدا رأى فى النوم كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها ، فقص منامه على نور الدين ، فتمعّر(٤) وجه نور الدين ؛ فخجل موفق الدين و بقى أياما على غاية من الخجل . فاستدعاه يوماً نور الدين وقال : تعال ، قد آن لك أن تغسل ثيابى . اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس

(١) هو يوسف بن رافع بن تميم بن شداد ، صاحب النوادر السلطانية .

(٢) المقصود بذلك المصروفات ، وتشمل المرتبات والنفقات .

(٣) ما بين الحاصرتين من ق .

(٤) تمعر الوجه احمر . انظر لسان العرب .

والأعشار واكتب للمسلمين : إننى قد رفعت عنكم مارفعه الله عنكم وأثبتُّ عليكم ما أثبته الله عليكم . قال فكتب موفق الدين توقيعاً[1] . سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه يقول : سمعت أبى يقول لما كسر نور الدين ، يعنى كسرة البقيعة[2] ، تكلم البرهان البلخى فقال : أتريدون أن تنصروا وفى عسكركم الخمور والطبول والزمور ! كلاً وكلاً ، تمام هذا . فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك ،وعاهد الله تعالى (١٠ ب) على التوبة وشرع فى إبطال المكوس ، إلى أن خرج فى نوبة حارم وكسر الإفرنج . وسمعت صديقنا شمس الدين إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النورى ، وكان أبوه أحد مماليك نور الدين وعتيقه ، يقول : سمعت والدى يقول : كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس فى الليل مسحا ويقوم يصلى فيه قطعة من الليل . قال : وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكى ويتضرع ويقول : ارحم العشار المكاس . قال لى قاضى القضاة بهاء الدين : سيّر نور الدين إلى بغداد كتاباً يُعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق ، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ بأن يستجعلوا[3] من التجار ومن جميع المسلمين له فى حل مما كان قد وصل إليه ، يعنى من أموالهم ، فتقدم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك . حدثنى رضى الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر أن نور الدين حين خرج لأخذ شيزر خرج أبو غانم بن المنذر صحبته ، فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحران وسنجار والرحبة وعزاز وتل باشر وعداد العرب فكتب عنه توقيعاً نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقرب به إلى الله تعالى سبحانه صافحا وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا ، رعاهم الله ، لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدى الكفار ، أبادهم الله تعالى ، عند استيلائهم على البلاد

(١) قبالة هذا فى ك العبارة الآتية : « حاشية : قال الكاتب وقفت أنا على هذا التوقيع بخط موفق الدين ورأيته » .

(٢) فى هامش ك هنا ما يأتى : « حاشية : قال المؤلف لم تكن هذه كسرة البقيعة فإنها كانت سنة ثمان وخمسين على ما يأتى ، ومات البلخى قبلها بعشر سنين . وإنما هذه كسرة أخرى متقدمة ستأتى فى أخبار سنة ثلاث وأربعين . وكان البلخى تلك السنة بحلب ينشر السنة بها على ما ذكرناه فى ترجمته فى التاريخ فتكلم بهذا الكلام . والله أعلم » .

(٣) فى ق ١١٤ ا . وفى ك : يستحلوا .

وظهور كلمتهم فى العباد ، رأفة بالمسلمين المثاغرين[1] ، ولطفا بالضعفاء المرابطين ، الذين خصهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد ، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد اختبارا لصبرهم ، و إعظاما لأجرهم ، فصبروا احتسابا ، وأجزل الله لهم أجرا وثوابا ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ؛ وأعاد عليهم ما اغتُصبوا عليه من أملاكهم التى أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمرية ؛ وأقرها فى الدولة الإسلامية بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين ، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين ، فطمس عنهم بذلك معالم الجور ، وهدم أركان التعدى ، وأقر الحق مقره . لقوله تعالى : « مَنْ جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »[2] ، «وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاء »[3] .

ثم لما أعانه الله بعونه وأيده بنصره ، وقمع به عادية الكفر ، وأظهر بهمته شعائر الإسلام وأظفره بالفئة الطاغية ، وأمكنه من ملوكها الباغية فجعلهم بين قتيل غير مُقاد ، وهارب ممنوع الرقاد ، « وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ[4] » . علم أن الدنيا فانية ، فاستخدمها للآخرة الباقية ، واستبقى ملكه الزائل بأن قدّمه أمامه وجعله ذخرا للمعاد ، فالتقوى مادة (١٦ ا) دارّة إذا انقطعت المواد ، وجادة واضحة حين تلتبس الجواد «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ[5] » . فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه ، وحرمها على كل متطاول إليها ، ومتهافت عليها ، تجنبا لإثمها واكتسابا لثوابها . فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه ، اتباعا لكتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم ، فى كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار . جهة ذلك[6] :

(١) المقيمين بالثغور لجهاد العدو ورده عن البلاد الإسلامية . عن الثغور انظر معجم البلدان : ٣ : ١٦ — ١٨ مادة : الثغر .

(٢) سورة الأنعام : ١٦٠ .

(٣) سورة البقرة : ٢٦١ .

(٤) سورة ص : ٣٨ — ٤٠ .

(٥) سورة الانفطار : ١٩ .

(٦) يعنى تفصيل ذلك . والعبارة بعد هذا خالية من حروف العطف مما يفيد أنه من المحتمل أن تكون الأرقام قد رتبت فى الوثيقة فى جدول أو نحوه .

حلب خمسون ألف دينار ، عزاز ، عن مكس جدّدته الفرنج ، خذلهم الله ، على المسافرين ، عشرة آلاف دينار ، تل باشر واحد وعشرون[1] ألف دينار ، المعرة ثلاثة آلاف دينار ، دمشق المحروسة ، لما استنجد به أهلها واستصرخ من فيها خوفاً على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدو ، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم فى كل سنة ، وهو رسم يسمونه القشة[2] ، عشرون ألف دينار ، حمص ستة وعشرون ألف دينار ، حران خمسة آلاف دينار ، سنجار ألف دينار ، الرحبة عشرة آلاف دينار ، عداد العرب عشرة آلاف دينار .

وما وقفه وتصدق به وأجراه فى سبل الخيرات ووجوه البر والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه[3] فى كل سنة ثلاثون ألف دينار . من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرسيها وفقهائها ، (وما وقفه على آدر[4] الصوفية والربط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار[5]) وما وقفه على السبيل فى طريق الحجاز ، وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الأيتام ومقر الغرباء وفقراء المسلمين ، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين ، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين . هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها الله تعالى من أملاكهم التى تقدم ذكرها فإنه يضاهى هذا المبلغ وزيادة عليه ، جعل ذلك ذريعة عند الله تعالى وتقربا إليه ، مضافا إلى ما أنفقه فى الغزاة والجهاد ، واستئصال شأفة الكفر والعناد ، من خزائنه المعمورة ، وأمواله الموروثة المذخورة ، طالباً لما عند الله ، والله عنده حسن الثواب . فالواجب على كل إمام عادل وسلطان قادر أن يُمِدّه ويَوَدّه ، ويشد عضده ، (١٦ب) ويقوى عزمه ، وينفذ حكمه . وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء ، آناء الليل وأطراف النهار . وكتب خادم دولته وغذىّ نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبى ، غفر الله له ورحمه ورضى عنه ، إلى كل من يصل إليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين ،

(١) فى ك : أحد وعشرون ، وفى ق ١٤ ب أحد وعشرين .

(٢) هكذا فى ك . وفى ق ١٤ ب القسه ؟ وكذلك فى الأتابكة .

(٣) أى من دخله .

(٤) أى دور الصوفية .

(٥) ما بين القوسين ساقط من صميم المتن فى ق ١٥ ا ومثبت بالهامش .

وأصحاب الزوايا المتعبدين ، وكافة التجار والمسافرين ، أحسن الله توفيقهم ، وسدد إلى أغراض الخير تفويقهم ، ليُشعروا بذلك من حضرهم من التجار ، والمترددين إليهم من السفار ، ليعرفوا قدرما أنعم الله به عليه وعليهم ، «وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ »[١]، ويمدوه بأدعيتهم ويبرئوا ذمته مما سبق من أخذ مؤنتهم ، فإنه لم يصرف ذلك إلا فى وجه برّ ، وتجهيز جيش ، ومعونة مجاهد ، وردع كافر ومعاند ، فهم شركاؤه فى الثواب» . قال لى رضى الدين أبو سالم ابن المنذر : فلما وقف نور الدين على قوله : ويبرئوا ذمته مما سبق . استحسن ذلك كثيراً ووعده بإقطاع حسن ، واتفق موته بعد ذلك[٢] .

قلت : ونقلت من خط الشيخ الأمين أبى القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الخضر ابن الحسين بن عبدان الأزدى الدمشقى : وقف المولى نور الدين بستان الميدان سوى الغيضة التى من قبليه بعد عمارته وإصلاح ما يحتاج إليه على تطييب المساجد التى يأتى ذكرها[٣] ، وهى: جامع دمشق المحروسة ، جامع قلعة دمشق ، مدرسة الحنفية التى جددها نور الدين ، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية ، مسجد ابن لبيد بالفسقار ، مسجد سوق الرماحين ؛ المسجد المعلق بسوق الصاغة ، مسجد دار البطيخ[٤] المعلق ، مسجد العباسى بسوق الأحد ، مسجد (جدده[٥]) نور الدين جوار بيعة اليهود ، جامع الصالحيين بجبل قاسيون . يبتاع بذلك طيب وعود ويفرق على هذه الأماكن : النصف للجامع بدمشق والنصف الثانى ينقسم على أحد عشر جزءاً ، جزءان للمدرسة وتسعة أجزاء لتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزء واحد ؛ تطييب هذه الأماكن فى الأوقات الشريفة ومواسم الاجتماعات وليالى شهر رمضان والأعياد وأيام الجمع وقت عقد الجمعة فى الجوامع ، وليالى الجمعة والخميس والاثنين . ونقلت من خطه أيضاً أن نور الدين رحمه الله تعالى حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضى زكى الدين أبو الحسن على بن محمد بن يحيى القرشى

(١) سورة التوبة : ١٢٢ .

(٢) قبالة هذا فى ك ، وكذلك ق ، ونسخة ليدن أيضا العبارة الآتية : « حاشية الى هنا انتهى ما نقله المولف من خط ابن العديم . والله اعلم » .

(٣) عن مساجد دمشق راجع خطط دمشق نشر وتعليق الدكتور صلاح الدين المنجد .

(٤) فى ك : بطيخ ، والتصحيح من ق ١٥ ا .

(٥) ساقطة من ق ١٥ ا .

والفقهاء الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد[1] ، والإمام عز الدين أبو القاسم على بن الحسن (١١٧) بن الماسح الشافعيون ، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكى ، وشرف الإسلام محمد بن عبد الوهاب الحنبلى ورضى الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد بن أسدّ التميمى رئيس دمشق ، ونظام الدين أبو الكرام المحسن ابن أبي المضاء متولى الوزارة بدمشق ، والأعيان من شهود العدالة بدمشق وهم : عبد الصمد بن تميم ، وعبد الواحد بن هلال ، والصائن أبو الحسين ، وغيرهم . فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التى ليست وقفا عليه ، وأن يظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به و يقع الاعتماد عليه ، وقال لهم : ليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلا و يذكره ، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلا و ينكره ، والساكت منكم مصدق للناطق ومصوّب لقوله ، وليس العمل إلا على ما تتفقون عليه وتشهدون به ؛ وعلى هذا كان الصحابة رضى الله عنهم يجتمعون و يتشاورون فى مصالح المسلمين . فكل من الحاضرين شكره على ما قصده وأثنى عليه ودعاله بالبقاء . ثم أمر نور الدين متولى أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقنى[2] السبيل وما يجرى مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعا موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه المصالح[3] دون الوقف . فافتتح بالسوق المستجد تحت المئذنة الغربية جوار البيمارستان ، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال : هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لأنه أحدث فى طريق المسلمين ، وقد صرف فى الجامع من أجوره أوفى[4] بما غرم على عمارته من وقفه . فصدقهم الحاضرون على ما شهدوا به ، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة . ثم عين المصالح أيضاً ما فى زيادة الجامع القبلية وزيادة باب البريد فى الصف القبلى والشامى من العضائد والحوانيت والحُجر التى طباقها وطباق الطريق بحضرتها وجميع

(١) هكذا فى ك ، ق .

(٢) جمع قناة . راجع القاموس المحيط .

(٣) يعنى المصالح العامة أو المنافع العامة بالاصطلاح الحديث .

(٤) وردت بالألف فى ك ، وهو خطأ إملائى . راجع المقدمة .

بيوت الخضراء من قبلة الجامع والفرن المستجد بها ، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل ، وحانوت فى الخواصين فى الصف الغربى واثنا عشر حانوتا متلاصقات فى الصف الشرقى تعرف بالمعتصميات ، ونصف حانوت والفرجة المستجدة بحضرة دار الوكالة إلى سوق على وعدتها ثلاثة عشر حانوتا ، ومصطبة وثلاثة حوانيت فى الصف الشامى من سوق على بلصق الفرجة من شرقها ، وحانوت بالفسقار فى الصف القبلى يعرف بسكنى ثعلب الفقاعى ، وحوانيت اللبادين ، والتى بحضرة الفوارة ، (١٧ ب) وتحت الابادين ، وقيسارية العقيقى بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة ، وحانوتان فى الصف الشرقى بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين ، وحانوت بقنطرة الشماعين فى الصف الشامى بحضرة البياطرة ، وقطعة جوار المأمونية من غربها ، والعضائد التى فى الصف الشامى من سوق الأحد وهى خمس عشرة عضادة ، وستة أسهم من طاحونة السقيفة . وذلك كله بعضه ميراث عن بنى أمية كالخضراء ودار الخيل ، وبعضه اشترى بمال الوقف والمصالح ، وبعضه أخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم ولم يكن له مال وبعضه أحدث فى الطريق . قال فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر وأن منافع ذلك وأجوره جارية فى المصالح قال نور الدين : إن أهم المصالح سد ثغور المسلمين و بناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم : فصوبوا ما أشار إليه وشكروه . ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها فى عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين فأفتى شرف الدين ابن عبد الوهاب المالكى بجواز ذلك ، ومنهم من روّى فى مهلة النظر ، وقال الشيخ شرف الدين ابن أبى عصرون الشافعى لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة ، وإذا لم يكن بدٌّ من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه من إليه الأمر فى بيت مال المسلمين فيصرفه فى المصالح ويكون القضاء واجبا من بيت المال . فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك . ثم سأل ابن أبى عصرون نور الدين : هل أنفق شىء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء الكلاسة من شام الجامع وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامى من الجامع وسائر العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا وهل كان إلا مبلغا للأمر العالى فى عمل ذلك . فقال نور الدين : لم ينفق ذلك ولا شىء منه إلا بإذنى

وأنا أمرت به و بفتح المشهدين[1] من غربى الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين ، وكتب مبلغاً عنى ومؤديا بأمرى .

قلت : هذا مختصر المحضر الذى كتب فيه صورة ماجرى فى ذلك المجلس وهو مشتمل على فوائد حسنة وتأكيد لما نقل من سيرة هذا الملك فى وقوفه مع أوامر الشريعة . وفى ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين . وصورة ما كتبه المالكى المفتى : «حضرت المجلس المذكور عمره الله وزينه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه ، وشهدت على (١١٨) ما تضمنه من المشورة المباركة وما نسب إلى الجماعة الشهادة به من المواضع المشهورة كما نسب إليهم ، وقد أخل بذكر دار الحجارة وقد ذكروها فى المصالح [المشهورة[2]] ، وما نسب إلىّ من الفتوى فقد كنت قيدته بالحاجة وفراغ بيت المال أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهماتهم الدينية . كتبه عبد الوهاب بن عيسى بن محمد المالكى » .

فصـــــل

وقد مُدح نور الدين رحمه الله بأشعار كثيرة ، وأوصافه فوق ما مُدح به . وكان فى أول دولته شاعرا زمانه أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير[3] ، وأبو الحسن أحمد بن منير[4] ؛ ولهما فيه أشعار فائقة سيأتى جملة منها فى مواضعها . وقد رأيت أن أقدم منها شيئاً هنا .

قرأت فى ديوان محمد بن نصر القيسرانى : كتب إلى نور الدين سلام الله وحنانه ، ورأفته وامتنانه ، وروحه وريحانه ، على من عصم بعزه[5] العواصم ، وخصم بحجته الدهر .

---

(١) كذا فى ق ١٦ ا . وفى ك : المشهد . وهو خطأ بدليل اتفاقها مع ق فى بقية العبارة .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق .

(٣) كان من الفضلاء فى الأدب وعلم الهيئة ، ويدل على قيمته العلمية أن ابن عساكر سمع منه وأثبته ضمن شيوخه ، وجرت بينه وبين ابن منير الطرابلسى مساجلات وملح ونوادر . كانت ولادته سنة ٤٧٨ وتوفى سنة ٥٤٨ ، والقيسرانى نسبة إلى قيسارية بالشام على ساحله . وفيات الأعيان : ٢ : ١٦ — ١٧ .

(٤) مهذب الدين عين الزمان . كان فى أول أمره رافضياً خبيث اللسان هجّاء ، وكاد يسجن فى دمشق بسبب ذلك ، ومولده سنة ٤٧٣ ووفاته سنة ٥٤٧ وقيل سنة ٥٤٨ . وفيات : ١ : ٦١ .

(٥) فى ك وكذلك فى ق : بعز العواصم . والإضافة يقتضيها انسجام الأسلوب ومناسبة العبارات التالية .

المخاصم وأنجم بهيبته العائب والواصم ؛ الذى انتضى فى سبيل الله سيوف الجهاد ، وارتضى بعز سلطانه شعار العُبَّاد والزُّهّاد ، واهتدى إلى طاعة الله وليس غير الله من هاد ؛ ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطا لمملكته ، ومعاقل الكفار فى عقال ملكته ، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته ؛ ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر ، وممالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر ، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزمة القهر ؛ ومن رأى الحِكَمَ دراسة فبنى مدارسها ، والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها ، والمنابر شامسة[1] فأمكن من صهواتها فوارسها ؛ ومن عمر ربع السنن بعدما عفا ، وأنقذ من الفتن مَن[2] كان منها على شفا ؛ ومن نشر أعلام الفضل ، وأنشر بعدالوفاة أيام العدل ؛ ومن أنار بوجهه الإيمان ، وأخذ الناس[3] به من الزمان توقيع الأمان .

ذو الجهادين من عدوّ ونفس فهو طول الحياة فى هيجاء
أيها المالك الذى ألزم النا س سلوك المحجة البيضاء
قد فضحت الملوك بالعدل لما سرت فى الناس سيرة الخلفاء
قاسماً ما ملكت فى الناس حتى لقسمت التقى[4] على الأتقياء
شيم الصالحين فى جُبَّة التر ك وكم من سكينة فى قباء
أنت حينا تقاس بالأسد الور د وحينا تعد فى الأولياء
صاغك الله من صميم المعالى حيث لا نسبة سوى الآلاء
(١٨ ب) وكأن القباء منك لما ضم (م) من الطهر مسجد لقُباء

(١) شامسة أى جامحة لانتقاد لراكبها بسهولة : القاموس المحيط .

(٢) فى ك : ما . وما هنا من ق : ١٦ ب .

(٣) فى ك : الزمان . وبهامشها تصحيح بما أثبتناه هنا وهو يطابق ما جاء فى ق : ١٦ ب .

(٤) فى ك : التقا بالألف . وهو خطأ إملائى يتردد فى كل من ك ، ق . وإن كانت فى هذه المرة قد وردت صحيحة فى ق : ١٦ ب . انظر المقدمة .

أنت إلاّ[1] تكن نبياً فما فا ... تك إلاّ[2] خلائق الأنبياء
رأفة في شهامة ، وعفاف ... في اقتدار ، وسطوة في حياء
وجمال ممنطق بجلال ... وكمال متوج ببهاء
وإذا ما الملوك خافت سهام الذّ ... مّ زرت عليك درع الثناء
عجب الناس منك أنك في الحر ... ب شهاب ، الكتيبة الشهباء
وكأن السيوف من عزمك الما ... ضي أفادت ما عندها من مضاء
ولعمري لو استطاع فَدَاك الـ ... ـقومُ بالأمهات والآباء

وله فيه :

لله عزمك أي سيف وغى ... طبعت مضاربه على القهر
ما زفت الحرب العوان به ... إلا انجلت عن معقل بكر
هل وجه نور الدين غير سنا[3] ... صدع الدجى عن غرة البدر
ملك مهابته طليعته ... أبدا أمام جيوشه تسرى
كم فل كيدهم بصاعقة ... شغلت قلوبهم عن الفكر
تركت حصونهم سجونهم ... فالقوم قبل الأسر في أسر
عصم العواصم فهي ضاحكة ... تجلو الظبي ثغرا على الثغر
وإذا سرايا خيله قفلت ... نهضت سرايا الخوف والذعر
ورمى القلاع بمثل جندلها ... حتى استكان الصخر بالصخر
يا سائلي عن نهج سيرته ... هل غيرُ مفرق هامِه الفجر

(١) في ك وكذلك في ق : إن لا . وهو خطأ إملائي سيتكرر مثله في مناسبات أخرى مشابهة .
(٢) بالهامش في ك العبارة الآتية : حاشية : إلا أي قسما . وفي القاموس : الإلّ العهد والحلف .
(٣) في ك : سني وكذلك في ق : ١٧ أ .

عدلٌ(١) حقيقٌ من تأمّلَه أن يُحْيِيَ العُمَرَيْن بالذكر
وشهامة فى الله خالصـــة عقدت عليـــه تمائم الأجر
وندًى يدٍ ماضٍ واردها ألا(٢) يبيت مجاور البحر
هــذا الخيم فى ذرا حلبٍ وثناؤه(٣) أبداً على ظهر

وله وقد وصف داره :

دار تغار الشمس فى أفقها من حسنها والشمس مغيار
يزأر فيهـــا ضيغم ماله غير ســيوف الهند أظفار
تمسى وتضحى وهو جارٌ لها والله ذو العرش له جار
لســيفه الباتر من دهره الـ جائر ما يهوى ويختــار
قد ملأ الأسفار من ذكره نشرٌ له فى الروض إسفار
(١١٩) حمد يضوع الجوّ من نَشْره(٤) كأنما راويه عطـــار
إن خطرت فى قلبه خطرة أجابها ماض وخطار(٥)
وإن دعا داعيه يومَ الوغى ســيوفَه لبَّته أقدار
كأنما صارمه مُرسَــلٌ له من التأييد أنصـــار
يا مالك الدنيـــا ولكنها دنيا لهـــا فى الدين آثار
ويا جـــواداً ما لآلائه غير قضـــاء الحمد مضمار

(١) فى ق ١٧ ا : عال . وهى لاتنسجم مع سائر البيت .
(٢) فى ك : ان لا يبيت . وهو خطأ إملائى . انظر المقدمة .
(٣) فى ك : وبناءه . والمثبت هنا من ق١٧ ا
(٤) فى ق ١٧ ا : طيبه ، وهما بمعنى واحد .
(٥) طعان بالرمح . القاموس المحيط .

وله فيه :

تدارك ملة العربى ذبًّا إلى أن عده[1] منـــه معد
وحل ذرا العواصم وهى نُهْبَى فأجلى الشرك حتى ليس ضِدُّ
ثنى يده عن الدنيـــا عفافا ومال بها عن الأموال زهد
رأى حط المكوس عن الرعايا فأهدر قبل ما أنشاه بعـــد
ومدّلها رواق العدل شِرْعًا[2] وقد طُوِى الرِّواقُ ومن يمد
وبات وعند باب العرش منها لدولتـــه دعاء لا يرد

وله فيه :

ملك أشبه الملائك فضـــلا وشبيه بمالك الأمر جندُه
عم إحســـانه فأصبح يُتْلى شكرهُ فى الورى ويُدْرس حمدهُ
فســـقى الله ذكره أينماحلّ (م) ولا فاته من النصر رفده

وله :

ضحكت تباشير الصباح كأنها قسَماتُ نور الدين خيرِ الناس
المشترِى العُقبىَ بأنْفَسِ قيمةٍ والبائع الدنيا بغير مِكاس
وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه إن الدعاء يعد فى الحراس
راض الخطوب الصُّمّ بعد جماحها وألان من قلب الزمان القاسى
وأعاد نورِ الحق فى مشكاته وأقام وزن العدل بالقسطاس
واختار مجد الدين[3] سائس ملكه تحمى الرياسة منه طود راسى

(١) فى ق ١٧ ا : أعده . وهو خطأ معنوى وعروضى .

(٢) طريقا . القاموس المحيط .

(٣) يوجد قبالة هذا البيت فى ك عبارة : يعنى ابن الداية . وفى ق ١٧ ب : يعنى مجد الدين ابن الداية . وهو من رجال عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود . توفى سنة ٥٦٥ .

فهو الخبير بكل داء معظل[1] يأسو جراح زماننا ويواسي
وأذل سلطان النفاق بعزة خضعت لها الآساد في الأخياس[2]
وعرته أقران الخطوب فصدها ألوى يمارسها أشـد مراس
ولوان[3] فيض النيل فائض فضله[4] لم تفتقر مصر إلى مقياس
سكنت شعب الدهر بعد تحمط وألنت من عطفيه بعد شماس
وفتحت باب الحظ بعد رتاجه وأذنت للأطماع بعد الياس
حتى منحت الخلق كل مسرة فالناس في عرس من الأعراس

وله :

سام الشآم ويالها من صفقة لولاه ماعنت على يد سائم
ولشمرت عنها الثغور وأصبحت فيها العواصم وهي غير عواصم[5]
(١٩ب) تلك التي جمحت على من راضها ودعوت فانقادت بغير شكائم
وإذا سعادتك احتبت في دولة قام الزمان لها مقام الخادم
حصن بلادك هيبة لا رهبة فالدرع من عدد الشجاع الحازم
هيهات يطمع في محلك طامع طال البناء على يمين الهادم
كلفت همتك الثغور فحلقت فكأنما هي دعـوة في ظالم
وأظن أن النـاس لما لم يروا عدلاً لعدلك أرجفوا بالقائم

(١) في ق ١٧ ب : معضل . وأعضل الأمر إذا صعب الاهتداء إلى حل صعوبته ، وعظل إذا اجتمع وتراكب . انظر لسان العرب .
(٢) الأخياس مواضع الأسد ، وهي أيضاً الشجر الملتف . لسان العرب .
(٣) بتسهيل الهمزة .
(٤) في ق ١٧ ب : نيله .
(٥) الثغور هي المدن الواقعة على الأطراف الإسلامية في آسيا الصغرى وأرمينية ، حيث استقر المرابطون للجهاد ، وفيها عاش كثير من الصوفية والعلماء لجهاد الروم . وفقدت هذه الثغور كثيراً من أهميتها بعد أن سقطت آسيا الصغرى في يد السلاجقة . أما العواصم فتشبه الثغور في وظيفتها ولكنها اقتصرت على البلاد التي تقع في إقليمي قنسرين وأنطاكية . ومن مدن الثغور ملطية ومرعش وطرسوس . وكانت حاضرة العواصم أحياناً في منبج ، وأحياناً أخرى في أنطاكية .

وله :

قلتُ تقــولُ[1] اللهُ لا خائفاً مع حِكم القرآن حُكم القِران[2]
لا راقِبَ[3] النجم ولا سـائلا ما فعل السعدان والنيران
بل غِرْتَ للإسلام حتى لقد دان له من بالطواغيت دان
رُعْتَ نواميس نواقيسها بجلبة الآذان وقت الأذان
تمحو تصاويرَ الدُّمَى عن يدٍ تبنى المحاريبَ خلال المحان
هـذا ، وكم أنشأت من منبر فارسُه فارس سَحر البيان
من مال بالإخلاص ما مِلْتَهُ[4] كان من الله مكين المكان
يا شائماً بالشام صوب الحيا[5] ودانيا من كل قاص ودان
هذى سجوف الملك مرفوعة عن ملك أخباره كالعيان
أوضح سُبْلَ العدل مفتنّة فللبرايا بالدعاء افتتان
ألغى حقوقاً كلُّها باطلٌ إلى ضمان خط مال الضمان
عطفاً ورفقاً بالرعايا وإن أصبح تأديب ملوك الزمان
كم بين من نام على نشوة وساهد فى صهوة من حصان
فى كل يوم ينثنى سيفه ببلدة بكر وأخرى عوان

وقرأت فى ديوان أحمد بن منير الطرابلسى من قصائد يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى :

يا محيى العدل ويا مُنْشِرهُ من بين أطباق البلى وقد همد

---

(١) فى ك غير منقوطة ، وفى ق ١٧ ب بالياء المثناة التحتية ، والراجح ما أثبتناه لأنه خطاب لنور الدين .

(٢) أى اجتماع النجوم فى الأبراج .

(٣) رَقَبَ النَّجْمَ أى انتظره . لسان العرب .

(٤) فى ق ١٨ ا : من نال بالإخلاص ما نلته ، وهو أقل بلاغة ومعنى .

(٥) فى ك : الجياد . وما هنا من ق ١٨ ا .

وركن الإسـلام الذى وطده   طال وأرسى العزفيه ووطد
وشارع المعروف إذ لا سـفه   يجنح للقول ولا تسمح يد
محوت ما أثبته الجور مضى   عليه إخلاد الليـالى فخلد
من كل مكاس يظل قاعداً   لما يسوء المسلمين بالرصد
كانت لأرجاس اليهود دولة   أزالها منك المصور ذو اللبد
الملك العادل لفظ طابق الـ   ـمعنى وفى الوصف معاد مستَرد
خير النعوت ما جرى الوصف على   صفحته جرى النسيم فى الومد[(١)]
عدل جنيت اليوم حلو ريعه   وسوف يجنى لك أحلى منه غد
(١٢٠ أ) لا زال للإسـلام منك عدّة   تقيم منـه كل زيغ وأود
الناس [أنت[(٢)]] والملوك شرط   تعـد ليثا ويعدون نَقَد
مثلك لا يسـخو به زمانه   ومثل ما أوتيت لم يؤتَ أحد

وله :

أيا نور دين خبـا نوره   ومذ شاع عدلك فيـه اتقد
رآك الصليب صليب القنا   ة أمين المثارمتين العمد
تهم فتسـلبه ما اقتنى   وتدأى فتشكله ما احتشـد
ز بنتهم أمس عن صرخد[(٣)]   ففضـوا كأن نعاما شرد
ويوم العُرَيْمَة[(٤)] أقبلتهم   عراما تثعلب منه الأسـد

(١) الومد ندى يجىء فى صميم الحر من ناحية البحر مع سكون الريح ، وقيل هو الحر أيا كان مع سكون الريح : لسان العرب .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ١٨ ا .

(٣) صرخد بلد ملاصق لحوران من أعمال دمشق ، وهى حسب ما جاء فى معجم البلدان : ٥ : ٣٤٩ — ٣٥٠ ، مدينة كبيرة ذات قلعة عظيمة .

(٤) بلد تتاخم الدهناء . معجم البلدان : ٦ : ١٥٧ .

حبيت مليكهم فى الصفاد … وعفوك عنه أعم الصفد
وقبل أزرتهم فى الرها … موازق مزقن جرد الجرد
بقيت ترقع خرق الزمان … قياما لأبنائه إن قعد
تثقف من زيغه ما التوى … وتصلح من طبعه ما فسد

وله :

أيا ملك الدنيا الحلاحل[1] والذى … له الأرض دار والبرية أعبد
وليست بدعوى لا يقوم دليلها … ولكنها الحق الذى ليس يجحد
أخو غزوات كالعقود تناسقت … تحل بأجياد الجياد وتعقد
لسان بذكر الله يكسو نهاره … بهاء وحتى فى الدجى ليس يرقد
وبذل وعدل أعرقا[2] وتألقا … فلا الورد مثمود[3] ولا الباب موصد
مرام سمائى وحزم مسدد … ورأى شهابى وعزم مؤيد

وله :

أبداً تنكب عن ضلال سادرا … بثقوب زندك أو تدل على هدى[4]
سدت الكهول من الملوك مراهقا … وشأوت شيبتهم البوازل أمردا
إن شيدوا صرحا أناف مناره … أو أسجدوا للكأس جدد مسجدا
وإذا استهزتهم قلائد معبد … هزته موعظة فعرف معبدا
قسما لشام[5] الشام منك مهند[6] … أرضاه مشهوراً وراع مقلدا

(١) الحلاحل صفة للسيد الشجاع . لسان العرب .
(٢) غير منقوطة فى ك ، وفى ق ١٨ ا : أغرقا ، بالغين المعجمة . والأول أرجح للدلالة على تأصل الصفتين فيه .
(٣) ثمد الماء نفد ، وبخاصة إذا كثر الزحام عليه . لسان العرب .
(٤) فى ك وكذلك ق : هدا ، بالألف . وهو خطأ إملائى . انظر المقدمة .
(٥) النقط من ق . وهى هناك : بشام .
(٦) فى ك وكذلك ق : مهندا .

وتمسك الإسلام منك بعروة ... الله أبرم حبلها فاستحصدا
أشفى فكنت شفاءه[1] من حادث ... غاداه عارضه مُرَدًّى بالردا
كنت الصباح لليله لما دجا ... والغوثَ كفَّ لظاه حين توقدا
لله يوم أطلعتك به النوى ... يجتاب من مهج الأصافر مجسدا
نشوان غنّتك الظبي مفاولة ... وأمال عطفيك الوشيج مقصدا
في معرك ما قام بأسك دونه ... إلا أقام المشركين وأقعدا
ولكم مكرّ قمت فيه معلماً ... أرضى إلهك والمسيح وأجهدا
يوم العريمة والخطيم[2] وحارم[3] ... وشماب باسوطاوهاب[4] وصرخدا
لا يعدم الإشراك حدك إنه ... ما سل فيهم حاكما إلا اعتدى[5]
(٢٠ ب) أهمدتهم من بعد ما ملأوا البلا ... رجلا فهل كانت سيوفك مرقدا
طلعت نجوم الحق من آفاقها ... وأعاد ها كرّ العصور كما بدا
وهوى الصليب وحزبه وتبختر الـ ... إسلام من بعد التساقف أعيدا
سبق المجلى للخطى فرفعه ... نسق بهم وفد رُفعت بالابتدا

وله :

محمود المربى على أسلافه ... إن زاد فى حسب الحسيب نجار
ملك إذا تليت مآثر قومه ... كسد اللطيم وهجّن النوار[6]

(١) فى ق : شفاؤه ، وهو خطأ إملائى .
(٢) فى ق ١٨ ب : الخطيم بالخاء المعجمة ولم أجدها فى ياقوت بالحاء أو بالخاء إلا عن حطيم مكة .
(٣) حارم : حصن وكورة تجاه أنطاكية ، ثم صارت أيام ياقوت من أعمال حلب . معجم البلدان : ٣ : ١٩٩ .
(٤) وصف ياقوت (معجم البلدان : ٨ : ٤٣٨) هذه البلدة بأنها قلعة عظيمة من إقليم العواصم .
(٥) فى ك و ق : اعتداء بالألف .
(٦) اللطيم جمع لطيمة وهى وعاء المسك ، أو اللطيم كل طيب يوضع على الصدغ . والتهجين التقبيح . القاموس المحيط .

ملأ الفرنجة جور سيفك فيهم ... فلهم على سيف المحيط جؤار
يوما يزيرك جوف عِرْقة[1] معلما ... جون[2] له خلف الدروب أوار
ويجر فى الأردن فضلة ذيله ... نقع بأكناف الأرنط[3] مثار
إما تبيح حريم أنطاكية ... أو يفجأ الداروم[4] منك دمار
عنّى[5] جهادك رسم كل مخوفة ... وعفت بصفوة عدلك الأكدار
ومحا المظالم منك نظرة راحم ... لله فى خطراته أسرار
غضبان للإسلام مال عموده ... فلنوره مما عراه نوار
وجذمت كل يد تسور على يد ... فأحلت ذاك السُّور وهو سوار
لم يبق ماكس مسلم سلعا ولا ... ساع لمظلمة ولا عشّار
هدوا كما هدت ثمود ، وقادهم ... لخسارهم مما أتوه قدار
العار فى الدنيا شقوا بلباسه ... ولباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة أحييتها عمرية ... رُفعت لها فى الخافقين منار
ونوافل صيرتهن لوازما ... بأقلها تستعبد الأحرار
لا زلت تقفو الصالحين مسابقا ... لهمُ وتطلع خلفك الأبرار
نفس السيادة زهد مثلك فى الذى ... فيه تفانت يعربٌ ونزار
ومتى أدعى ما تدعيه محكّمٌ ... أوْهَى مَعَاقِد دِينِه دينار
لله ما ظفرت به منك المنى ... وتكشفت من ركنك الأستار

(١) بلدة شرق طرابلس ، وبينهما أربعة فراسخ ، وهى من العواصم وعلى جبلها قلعة . ياقوت : معجم البلدان : ٦ : ١٥٥ .

(٢) فى ك : جوف ، وما هنا من ق ١٨ ب .

(٣) فى ك بالهامش : حاشية : الأرنط الشهير المسمى بالعاصى ، وفى ق ١٨ ب : الأنط .

(٤) قلعة بعد غزة لقاصد مصر ، بينها وبين البحر فرسخ . معجم البلدان : ٤ : ١٣ .

(٥) فى ك : عفا . وهو خطأ . وكذلك فى ق ١٨ ب .

وسقى الغمام ثرى أبيك فإنه   أزكى ثرى قطرت عليه قطار
شهدت نضارة عودك الغضِّ الجَنى   أن الذى استخلصت منه نضار
أما نهارك فهو لَيْلُ مجاهد   والليل من طول القيام نهار
فلذلك النصر العزيز أدلة[1]   كيف اتجهت وللفتوح أمار[2]

وله أيضاً فيه رحمه الله تعالى :

رأينا المـلوك وقد ساجلوك   تمنـوا مَنُونا وغروا غرورا
أبى لك أن يدركوها أب   يزير فينسى الأسـود الزئيرا
وجد إذا جـد يوم الرها   ن أبقى لتاليه جـدًا عثورا
تصب عصاك على من عصا   ك يوما عبوسا بها قمطريرا
(١٢١) لقد ألبس الشام هذا الإباء   لبوسا من الأمن لينا وثيرا
تداركت أرماقه والقـلوب   توافر أن يستجن الصدورا
أقمت جثاثا وكانت جثا   وشدت قصوراً وكانت قبورا
وكم لك من غضبة للهوى   تميت الهوى وتجب الذكورا
إذا قَطَّبَ البأْسُ كانت ردى   وإن ضحك العفو عادت نشورا
كملت فوُفيت عين الكمال   تبيد السنين وتفنى العصورا
وجادَ لَنَا (بكَ)[3] رَبٌّ برا   ك للكفر نارا وللدين نورا
إذا ما خدمت فولى كريما   وإما عبدت فعبدا شكورا
أمام المحاريب برا حصـوراً   وتحت الحروب هزبرا هصورا

(١) فى ك أذلة .. وما هنا من ق ١٩ ا ، وهو يتفق مع ما جاء فى آخر البيت إذ قال : وللفتوح أمار . والأمار جمع أمارة أوأمرة وهى العلامة . لسان العرب .

(٢) قبالة هذا البيت فى ك : أنى ، وهى بمعنى كيف .

(٣) ساقطة من ق ١٩ ا .

تبارك من شاد هذى[1] الخلا ل فى ظُلّة الملك طودا وقورا
وألّف فى مَعْقِد التاج منك (م) سطوا ســـميرا وعفوا نميرا

وله :

عقل الحق ألسن المدعينـــا أنت خير المـــلوك دنيا ودِينا
وأســـدُّ الأنام قولا وأفعا لا ونفسا ونية ويقينـــا
أنت أســـناهم أبا وإباء وامرأ حيا وأمرع حينـــا
بسط الرزق فى البسيطة كَفّا ك فكلتا يديك تُلفى يمينا
فيد تحسم النوائب عنـــا ويد تقسم الرغائب فينـــا
أيها البحر لو تساجلك الأبـ ـحر عامت فى ساحليك سفينا
ولكان المحيط منها محاطا مثل نون الهجاء أو خيلَ نونا
مشرعا مترعا ومنًّا مهنا ورباعا فيحا وكفا لبـــونا
ومحيًّا طلقًا ومالاً طليقًا وابتهاجاً قصداً وحبلاً متينا
بين ذَبٍّ يميت عادية الشّر ك وهبٍ يحيا به المسلمونا
تتبدى من الفتـــوح ألوفا أنت أعلى من أن تعد المئينا
كلما احتزت ثوب نصر عزيز من مرام أقبلت فتحا مبينا
صرف الله عنك صرف زمان أنت علمت صرفه أن يهونا
يابن من طبق البسيطة آثا را وعلّ المنا بذيه الأجُونا[2]
وغدت حصنه على سرح هذا الد (م) ين من شكة الأعادى حصونا[3]

(١) فى ك : هذا . وهو خطأ ، التصحيح من ق ١٩ ا .
(٢) علّ : سقى . وأجن الماء إذا تغير لونه وطعمه . لسان العرب .
(٣) فى ك : حصوراً وهو خطأ ، فالقافية نونية ، وما هنا من ق ١٩ ب .

كم تعالى صهيلها فى ربا الشا م فأعلى[1] خلف الخليج الرنينا
كان صنو الرشيد أبقاك للحكـ ـمة والبأس بعـــده المأمونا
سمع الله فيك دعوة سكْن[2] أوطنوا من حماك حصنا حصينا
عرّقتهم[3] مدى الخطوب فأحييـ ـت زفاتا من التراب دفينا
ألبسوا عدلك المدبَّج فاختـــالوا بنات فى وشيه وبنينا
سهرت عينك الكلوء وناموا تحت أكناف رعيها آمنينا

(٢١ ب) قلت : فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه ، مع أنهما ماتا فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، قبل أن يفتح نور الدين دمشق ؛ وبقى نور الدين حيا بعدهما إحدى وعشرين سنة يترقى كل عام فى ازدياد ، من جهاد واجتهاد ؛ ولو كانا أدركا ذلك لأتيا فى وصفه بعجائب مع أنه قد تولى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما .

ولأبى المجد المسلم بن إلخضر بن قسيم الحموى[4] من قصيدة فيه :

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه كالرمح دل على القساوة لينه
[و][5] وراء يقظته أناة مجرب لله سطوة بأســـه وسكونه
هذا الذى فى الله صح جهاده هـــذا الذى بالله صح يقينه
هذا الذى بخل الزمان بمثله والمشمخرّ إلى العـــلا عرنينه
ملك الورى ملك أغرّ متوّج لا غـــدره يخشى ولا تلوينه
إن حل فالشرف التليد أنيسه أو سار فالظفر الطريف قرينـه
فالدهر خاذل من أراد عناده أبدا وجبـــار السماء معينه

(١) فى ك : فاعلا ، وما هنا من ق ١٩ ب .
(٢) سكن البلد هم سكانه وأهله .
(٣) فى ق ١٩ ب : غرقتهم ، والأولى عرقتهم بالراء المهملة ، أى أزالت لحمهم عن عظمهم .
(٤) ترجم له ابن عساكر فى تاريخ دمشق ، والصفدى فى الوافى بالوفيات . توفى سنة ٥٤٢ .
(٥) الواو ساقطة من ك . وما هنا من ق ١٩ ب .

والدين يشهـــــد إنه لَمُعِزُّهُ . والشرك يعــــــلم أنه لمهينه
ما زال يقسم أن يبدد شمله والله يكره أن تمـــين يمينه
فتح الرها بالأمس فانفتحت له أبواب ملك لا يزال مصونه(١)

وبمادح(٢) نور الدين كثيرة رحمه الله تعالى . وذكر الحافظ أبو القاسم(٣) أنه كان قليل الابتهاج بالشعر . ومات حادى عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل إلى قبته بمدرسته جوار الخواصين . قلت وقد جرب استجابة الدعاء عند قبره .

وهذا ذكر طرف من مناقبه جملة ، ونحن بعد ذلك نأتى بأخباره وأخبار سلفه مفصلة مرتبة وما جرى فى زمانهم على سبيل الاختصار إن شاء الله تعالى .

فصـــــل

أصل البيت الأتابكى هو قسيم الدولة آق سنقر(٤) جد نور الدين ، رحمه الله ، فنذكره وما تم فى أيامه ، ثم نذكر ولده زنكى وما تم فى أيامه ، ثم نذكر ولده محمود بن زنكى ، ثم نذكر ما بعده وهى الدولة الصلاحية الأيوبية وما تم فى أيامها فنقول :

كان آق سنقر تركيا من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان ، وهو عم دُقَاق بن تُتُش بن ألب أرسلان الذى كان سلطان دمشق ، وقبره بقبة الطواويس بها ، (٢٢ ا) بنته(٥) والمشهد والدته . وكان السلطان ملكشاه من جملة الملوك السلجوقية المتغلبين على البلاد بعد بنى بويه بالعراق ؛ فكان قسيم الدولة من أصحابه وأترابه وممن ربى معه فى صغره ، واستمر فى صحبته إلى حين كبره . فلما أفضت السلطنة إليه بعد أبيه جعله من أعيان أمرائه وأخص أوليائه ، واعتمد عليه فى مهمّاته ، وزاد قدره علوا إلى أن صار يتقيه

(١) هكذا فى ك ، وكذلك فى ق ١٩ ب ، ولعلها : يصونه .
(٢) ما هنا من ق ١٩ ب ، وفى ك : ومداح .
(٣) هو ابن عساكر الكبير المحدث وصاحب تاريخ دمشق ، سبق هنا شىء من ترجمته . انظر ص : ٥
(٤) يحمل هذا الاسم قائدان من قادة السلاجقة فى هذه الحقبة . أولهما المذكور هنا ، وقد قتل عند تل السلطان سنة ٤٨٧ وهو يحارب تاج الدولة تتش قرب حلب . والثانى قتله الباطنية سنة ٥٢٠ .
(٥) ما هنا منقول من ق ٢٠ ا . وهو فى ك : بيته بالباء ثم بالياء المثناة التحتية .

مثل نظام الملك الوزير مع تحكمه على السلطان وتمكنه من المملكة . فأشار نظام الملك على السلطان أن يولى آق سنقر مدينة حلب وأعمالها ، وأراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان ويتخذ عنده بذلك يدا . قال ابن الأثير[(١)] : من الدليل على علو مرتبته تلقبه قسيم الدولة ، وكانت الألقاب حينئذ مصونة لا تعطى إلا لمستحقها [(٢)] . وفى سنة سبع وسبعين وأربعمائه سيّر السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة ابن جهير [وزير الخليفة إلى ديار بكر لتملكها ، وسيّر عميد الدولة ابن فخر الدولة ابن جهير[(٣)]]— وكان زوج ابنة نظام الملك — إلى الموصل ، وسيّر معه جيشاً عظيما وجعل المقدم على الجيش قسيم الدولة آق سنقر . فساروا نحو الموصل ، ولقيهم فى الطريق الأمير أرتق التركمانى[(٤)] ، جد ملوك الحصن وماردين ، فاستصحبوه معهم ، فحصروا الموصل وصالحوا[(٥)] من بها وتسلموها ، وسار صاحبها إلى السلطان فردها عليه ، وكانت حينئذ[(٦)] لأحد أمراء بنى عقيل ، وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلى . وكان ملكه من السِّنْدية[(٧)] بالعراق على نهر عيسى[(٨)] إلى منبج[(٩)] وما بينهما من البلاد الفراتية كهيت[(١٠)] والأنبار[(١١)] وغيرها ، وملك الموصل وديار بكر والجزيرة بأسرها ، وملك

(١ — ٢) ما بين الرقمين وارد حرفياً فى الأتابكة : ١٢ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من ق ٢٠ ا .

(٤) من مماليك السلطان السلجوقى ملكشاه ، وابنه سقمان الأرتقى هو الذى أسس الدولة الأرتقية سنة ٤٩٤ فى حصن كيفا : الكامل : ١٠ : ١١٩ .

(٥) فى ق ٢٠ ا : وحاربوا .

(٦) فى ق ٢٠ ا : يومئذ .

(٧) قرية من قرى بغداد على نهر عيسى بين بغداد والأنبار . معجم البلدان : ٥ : ١٥٣ .

(٨) سمى هذا النهر باسم عيسى بن على بن عبد الله بن العباس ، وهو يأخذ من الفرات ثم يتفرع وتصب فروعه جميعاً فى دجلة . معجم البلدان : ٨ : ٣٤٢ — ٣٤٣ .

(٩) من العواصم بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة . معجم البلدان : ٨ : ١٦٩ : ١٧١ .

(١٠) على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار : معجم البلدان : ٨ : ٤٨٦ — ٤٨٧ .

(١١) على الفرات غربى بغداد وبينهما عشرة فراسخ واسمها القديم فيروز سابور . والأنبار أيضاً اسم لمدينة قرب بلخ : معجم البلدان : ١ : ٣٤٠ — ٣٤٢

مدينة حلب ؛ وكان عادلا حسن السيرة عظيم السياسة . واتفق أن وقع بينه و بين صاحب أنطاكية خلاف ، وذلك أن أنطاكية كان الروم قد استولوا عليها سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ولم يزالوا بها إلى هذه السنة ، ففتحها سليمان بن قتلمش وهو جد الملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وغيرها . وكان لشرف الدولة صاحب حلب على صاحب أنطاكية الرومى جزية يأخذها كل سنة ، فانقطعت عنه بسبب أخذ سليمان البلد . فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم و يهدده . فقال[1] : أنا فى طاعتك ، وهذا الفتح بسعادتك والخطبة والسكة لك ، ولست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم . فلجّ شرف الدولة فى طلب المال ، فالتقيا وقتل شرف الدولة وانهزم عسكره ، وسار سليمان إلى حلب فحصرها ، وسار إليها من دمشق تاج الدولة تتش[2] بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه . (٢٢ ب) فالتقى عسكر تتش وسليمان فقتل سليمان وانهزم عسكره ، وملك تتش مدينة حلب دون القلعة . فأرسل أهل القلعة إلى ملكشاه ليسلموها إليه ، وهو يومئذ بالرها . وكان سبب مسيره إليها أن ابن عطية النميرى كان قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار وسلمها[3] ، فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها . فسار ملكشاه إليها فى هذه السنة فحصرها وفتحها وأقطعها للأمير بزان . فلما أتاه[4] رسل قلعة حلب بالتسليم[5] سار إليهم . فلما بلغ مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق ، ووصل السلطان إلى حلب و بالقلعة سالم بن بدران العقيلى ، وهو ابن عم شرف الدولة ، فسلمها إلى السلطان بعد قتال ،

---

(١) فى ق ٢٠ ب : وقال . وهو خطأ لأنه يؤدى إلى تغيير المعنى فيكون القائل عندئذ شرف الدولة .

(٢) من أوائل أمراء السلاجقة بالشام ، قدم دمشق لنجدة أميرها أتسز ضد الجيوش المصرية ، ثم تغلب عليه وقتله سنة ٤٧٢ . وبعد موت أخيه ملكشاه طمع فى السلطنة لنفسه وتقدم لحرب بركياروق ابن ملكشاه . وأخيراً قتل فى معركة ضد بركياروق قرب الرى سنة ٤٨٧ . تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣ : ٣٤٠ ؛ Encyclopaedia of Islam

(٣) فى ق ٢٠ ب : وسلمها إليهم .

(٤) الضمير هنا يعود على ملكشاه .

(٥) فى ق ٢٠ ب : فلما أتاه رسل أهل القلعة بحلب بالتسليم .

وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر[١] ، وكان قد ملكها فى هذه السفرة من صاحبها جعبر النميرى ، وكان شيخاً كبيراً أعمى . فبقيت بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما يأتى .

فلما ملك السلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بن على بن المقلد بن منقذ الكنانى صاحب شيزر[٢] ودخل فى طاعته وسلم إليه اللاذقية[٣] ، وفامية[٤] ، وكفر طاب[٥] .

ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم حلب[٦] وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر ، فأقطعه الجميع ؛ وبقيت فى يده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة كما سيأتى[٧] . وأقطع السلطان مدينة أنطاكية للأمير ياغى سيان . ولما استقر قسيم الدولة فى الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته فى جميع بلاده . ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق فقدم إليه فى تجمل عظيم لم يكن فى عسكر السلطان من يقاربه ؛ فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده ؛ ثم أمره بالعود إلى حلب فعاد إليها . فلما مات السلطان ملكشاه سيّر قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت فملكها . وفى سنة إحدى وثمانين قصد قسيم الدولة شيزرَ فنهبها وعاد إلى حلب . وفى سنة ثلاث وثمانين اجتمع قسيم الدولة

---

(١) قال ياقوت ، معجم البلدان : ٣ : ١٠٨ : هى على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين ، واسمها القديم دوسر . وجعبر النميرى صاحبها من بنى قشير ، كان يخرج منها ليخيف السبل ثم يعود إليها ، وبقى كذلك هو وأولاده حتى أخذها ملكشاه .

(٢) قلعة وكورة قرب المعرة ، يخترقها نهر الأردن . معجم البلدان : ٥ : ٣٢٤ — ٣٢٥ .

(٣) اللاذقية فى ساحل بحر الشام ، وكانت تعد فى أعمال حمص أحيانا ومن أعمال حلب أحيانا أخرى . وهى غربى جبلة وبينهما ستة فراسخ . معجم البلدان : ٧ : ٣١٢ — ٣١٣ .

(٤) فامية مدينة وكورة من سواحل حمص ؛ وهى أفامية أيضا . نفس المصدر : ٦ : ٣٣٤ — ٣٣٥

(٥) بين المعرة وحلب مياهها من الأمطار وتجمع فى صهاريج . نفس المصدر ٧ : ٢٢٥ — ٢٢٦

(٦) فى ق : قلعة حلب .

(٧) كان مقتله فى حرب ضد تتش الذى طمع فى السلطنة بعد وفاة ملكشاه إذ وقع آق سنقر أسيراً فى يد تتش الذى قتله صبرا .

وبزان وحصروا[١] مدينة حمص فملكوها[١] ومضى ابن ملاعب[٢] إلى مصر . وفى سنة أربع وثمانين ملك قسيم الدولة حصون فامية من الشام وملك الرحبة[٣] .

فصــــل

وفى عاشر رمضان سنة خمس وثمانين قتل الوزير نظام الملك أبو على الحسن بن على ابن اسحق ، قتله صبى ديلمى بعد الإفطار وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس ؛ وحمل فى محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم فلقيه صبى ديلمى مستغيثا به فقرب منه ليسمع شكواه فقتله ، وقُتِل (١٢٣) الصبى أيضاً . فعدمت الدنيا واحدها الذى لم تر مثله . وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام كأنه أتاه وأخذه من محفته فتبعه ؛ فاستبشر نظام الملك بذلك وأظهر السرور به وقال : هذا أبغى و إياه أطالب . وبلغ من الدنيا مبلغا عظيما لم ينله غيره . وكان عالماً فقيهاً ديِّناً خيرًّا متواضعاً عادلا ، يحب أهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم . وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء ؛ وكان يناظرهم فى المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه فى حال حداثته مدة . وأما صدقاته ووقوفه فلا حدّ عليها ، ومدارسه فى العالم مشهورة لم يخل بلد منها ، حتى جزيرة ابن عمر[٤] التى هى فى زاوية من الأرض لا يؤبه لها بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وهى التى تعرف الآن بمدرسة رضى الدين . وأعماله الحسنة وصنائعه الجميلة مذكورة فى التواريخ ، لم يسبقه من كان قبله ، ولا أدركه

---

(١) هكذا فى ك وكذلك فى ق ١٢١ ا والصحيح بألف التثنية .

(٢) فى ك وكذلك فى ق ١٢١ ا بالهامش : حاشية : قال المؤلف هو خلف بن ملاعب الأشهبى . قتل ليلا فى سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وكان قبيح السيرة والاعتقاد . والله علم .

(٣) لعلها رحبة مالك بن طوق ، بينها وبين دمشق ثمانية أيام ومنها إلى حلب خمسة أيام بتقدير ياقوت أما رحبة دمشق فقرية من قراها . وقد كان لنشاط تتش وتعاونه مع قسيم الدولة عندئذ ، فى نواحى حمص وما يقرب منها ، بينما كانت دمشق وأعمالها فى يد تتش .

(٤) بلدة فوق الموصل ، تحيط بها دجلة على شكل هلال وأحاط الماء بها بعد حفر خندق يصل بين طرفى الهلال . وبهذه الجزيرة عاش بنو الأثير : مجد الدين المبارك ، وضياء الدين نصرالله ، وعز الدين أبو الحسن صاحب الكامل وتاريخ الأتابكة . معجم البلدان : ٣ : ١٠٢ — ١٠٣ .

من كان بعده . وكان من جملة عباداته أنه لم يُحدث إلا توضأ ولا توضأ إلا صلى . وكان يقرأ القرآن حفظا ويحافظ على أوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة ، حتى إنه كان إذا غفل المؤذن أمره بالأذان ؛ وإذا سمع الأذان أمسك عن كل ما هو فيه واشتغل بإجابته ثم بالصلاة . وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة ألب أرسلان والد ملكشاه قبل أن يلى السلطنة ، فى حياة عمه السلطان طغرلبك أول الملوك السلجوقية ببغداد . فلما توفى طغرلبك سعى نظام الملك فى أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان ، وقام المقام الذى تعجز عنه الجيوش الكثيرة ، واستقرت السلطنة له وبقى معه إلى أن توفى ، ثم وزر بعده لولده السلطان ملكشاه إلى أن قتل . وكان قد تحكم عليه إلى حد لا يقدر السلطان على خلافه لكثرة مماليكه ومحبة العساكر له والأمراء ، وميل العامة والخاصة إليه لحسن سيرته وعدله . هذا كلام أبى الحسن ابن الأثير[1] .

وقرأت فى كتاب المعارف المتأخرة — ويسمى عنوان السير — لمحمد بن عبد الملك ابن إبراهيم الهمدانى قال : وزر نظام الملك أبو على الحسن بن على بن اسحق الطوسى للسلطان ألب أرسلان ولولده السلطان ملكشاه أربعا وثلاثين سنة ، وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوما ؛ اغتاله أحد الباطنية وقد فرغ من فطوره . قال : وقيل إن السلطان ملكشاه ولّف عليه من قتله لأنه سئم طول عمره . ومات بعده بشهر وخمسة أيام . وقد تقدم نظام الملك فى الدنيا التقدم العظيم ، وأفضل على الخلق الإفضال الكريم[2] ، وعمّ (٢٣ ب) الناس بمعروفه ، وبنى المدارس لأصحاب الشافعى (رضى الله عنه[3]) ووقف عليهم الوقوف ، وزاد فى الحلم والدين على من تقدمه من الوزراء ، ولم يبلغ أحد منهم منزلته فى جميع أموره . وعبر جيحون فوقّع على العامل

(١) فى كتاب الأتابكة .

(٢) فى ق ٢١ب : الكثير . وما فى ك أولى لإكمال السجع ، وهو من المحسنات البديعية التى يكثر استخدامها فى كتابات هذا العصر .

(٣) ساقطة من ق ٢١ ب .

بأنطاكية بما يصرف إلى الملاحين ، وملك من الغلمان الأتراك ألوفا ؛ وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتاكهم[(١)] من مماليكه .

قلت : وأنشد أبو سعد السمعانى فى ذيل تاريخ بغداد وقال : أنشدنى عمى الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السمعانى غير مرة من لفظه للأمير شبل الدولة ، يعنى مقاتل ابن عطية بن مقاتل التكريتى[(٢)] :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ثمينة صاغها الرحمن من شرف
عزّت ولم تعرف الأيام قيمتها فردّها غيرةً منه إلى الصّدف

فصـــل

عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثين يوما ، ومات فى منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاما ونصف عام . وكانت مملكته قد اتسعت (اتساعا[(٣)]) عظيما وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام ، وأطاعه اليمن والحجاز . وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية ، وأطاعه صاحب طراز[(٤)] واسبيجاب[(٥)] وكاشغر[(٦)] و بلاسغون[(٧)] وغيرها من الممالك البعيدة ، وملك سمرقند وجميع ما وراء النهر . ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه ، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار فى طلبه ، ولم يزل حتى ظفر به وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان ،

---

(١) فى ك ، وكذلك فى ق ٢١ ب : وفتاكه .

(٢) فى ق ٢١ ب : البكرى

(٣) ساقطة من ق ، وكذلك ك ، والسياق يقتضيها .

(٤) ثغر من ثغور الترك بأواسط آسيا ، ومن هذه الثغور كذلك اسبيجاب الواردة هنا . انظر الحاشية التالية . وطراز أيضاً محلة بأصبهان وهى غير مقصودة هنا . معجم البلدان : ٦ : ٣٧

(٥) ماثبت هنا من ق ، وهى فى ك : استيجاب والأول أصح . راجع معجم البلدان : ٦ : ٣٧

(٦) مدينة وقرى ورساتيق وسط بلاد الترك يرحل إليها عن طريق سمرقند . معجم البلدان : ٧ : ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٧) هى أيضاً بلاساغون . وهى ثغر تركى عظيم وراء نهر سيحون قريبا من كاشغر . نفس المصدر : ٢ : ٢٥٨ .

وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر كثيراً ، منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة وحفره من الآبار ، و بنى مدرسة عند قبر الإمام أبى حنيفة رحمة الله عليه ، و بنى الجامع الذى بظاهر بغداد عند دار السلطنة . وهو الذى بنى منارة القرون فى طرف البر مما يلى السكوفة بمكان يعرف بالسبعى ، و بنى مثلها بسمرقند أيضاً . قيل إنه خرج سنة من السكوفة لتوديع الحجيج ، فجاوز العذيب و بلغ السبعية بقرب الواقصة[1] ، و بنى هنالك منارة أنزل فى أثنائها قرون الظبى وحوافر الحمر الوحشية التى اصطادها فى طريقه .

و بعد موته تنازع ابناه بكياروق[2] ومحمد ودامت الحروب بينهما نحو ثنتى عشرة سنة إلى أن توفى بكياروق واستقرت السلطنة لمحمد . وفى مدة تلك الحروب ظهرت الفرنج بالساحل وملكوا أنطاكية أولا ثم غيرها من البلاد . وكان السلطان قد أقطع أخاه تتش تاج الدولة مدينة دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس ، (١٢٤) فلما توفى ملكشاه طمع تاج الدولة فى السلطنة ، فسار إلى حلب ، وبها قسيم الدولة ، فصالحه ، وراسل بوزان[3] صاحب حرّان[4] و ياغى سيان صاحب أنطاكية فسارا معه نحو الرحبة ونصيبين فأخذها . وراسل صاحب الموصل إبراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد فامتنع ، فالتقيا ، فهزم صاحب الموصل وقتل وأخذت بلاده . وسار إلى ميافارقين[5] فملكها وسائر ديار بكر . ثم سار إلى أذربيجان فالتقى هو وابن أخيه بكياروق بن ملكشاه ، فانتقل قسيم الدولة و بوزان إلى بكياروق ، فرجع تاج الدولة إلى الشام ورجعا إلى بلادهما بأمر بكياروق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد إن قصدها . فجمع تاج

(١) منزل فى طريق مكة ، وهى واقصة الحزون أيضاً . معجم البلدان : ٨ : ٣٨٨ .

(٢) فى ك ، وكذلك ق بكياروق أحياناً ، وتكياروق أحياناً أخرى ، وهو فى كثير من كتب التاريخ الأخرى بركياروق بواو بعد الراء الثانية وبغيرها . انظر الكامل ، وذيل تاريخ دمشق .

(٣) بالواو وبدونها فى ك ، ق معاً فى عدة مناسبات .

(٤) قصبة ديار مضر ، وهى على طريق الموصل والشام والروم : ياقوت معجم البلدان : ٣ : ٢٤٢ .

(٥) مدينة بديار بكر قرب آمد وهى أقوى تحصيناً منها . نفس المصدر : ٨ : ٢١٤ — ٢١٨ .

الدولة العساكر وسار عن دمشق نحو حلب ، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدين بكياروق بالأمير كربوقا ، وهو الذى صار فيما بعد صاحب الموصل ، فالتقوا بالقرب من تل السلطان ، وبينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ ؛ فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيراً ، فقتله تاج الدولة صبراً . ودخل بوزان وكربوقا حلب ، فحصرهما تاج الدولة حتى فتحها وأخذهما أسيرين . وأرسل إلى حران والرها ، وكانتا لبوزان ، فامتنع من بهما من التسليم ؛ فقتل بوزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين . وأما كربوقا فإنه سجنه بحمص ، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة .

قال ابن الأثير[١] : وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظالهم . وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل وأمن واسع . وكان قد شرط على أهل كل قرية فى بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير . فكانت السيارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا . فأمنت الطرق وتحدث الركبان بحسن سيرته[٢] .

وفى المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائه توفى الخليفة المقتدى بأمر الله فجأة . وهو أبو القاسم عبد الله ابن الأمير محمد ابن القائم بأمر الله ، وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام . وكانت خلافته تسع عشرة[٣] سنة وخمسة أشهر ، وأمه تركية . وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد . ويلقب محمد ابن القائم والد المقتدى بالله الذخيرة ، مات فى حياة أبيه فلم يل الخلافة .

(١ و ٢) ما بين الرقمين مقتبس حرفياً من الأتابكة : ٢٩ — ٣٠ .

(٣) فى ك . تسعة عشر . وهو خطأ نحوى والتصحيح من ق ٢٢ ب .

ذكر أخبار زنكي

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على طريق الاختصار في فصول إلى حين وفاته. ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين.

لما قتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الأولاد غير واحد هو عماد الدين زنكي والد نور الدين؛ وكان حينئذ صبياً له من العمر نحو عشر سنين؛ فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي، وهو (٢٤ ب) صبي أيضاً. ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمائة[1]، وتوجه إلى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فملكها. ثم سار إلى نصيبين فملكها، ثم إلى الموصل فملكها وزال عنها على ابن شرف الدولة العقيلي، وسار نحو ماردين فملكها، وعظم شأنه وهو في طاعة ركن الدولة بكيارق. فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكي وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته. فأحضروه عنده[2] فأقطعهم الإقطاعات السنية، وجعلهم على عماد الدين زنكي، واستعان بهم في حروبه؛ وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها. فلم يزالوا معه فتوجه بهم إلى آمد، وصاحبها من أمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين سقمان بن أرتق جد صاحب الحصن، فكسرهم قوام الدولة كربوقا. وهو أول مصاف حضره زنكي بعد قتل والده. ولم يزل كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة. وملك بعده موسى التركماني فلم تطل مدته وقتل. وملك الموصل شمس الدولة جكرمش، وهو أيضاً من مماليك السلطان ملكشاه، فأخذ زنكي وقربه وأحبه واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسمائة. فلا جرم أن زنكي رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري فأكرمه

(١) كان مقتل تاج الدولة تتش سنة ٤٨٨ هـ، وبقي كربوقا في الأسر عند رضوان بن تتش بحلب حتى أمر بركيارق السلطان السلجوقي بإطلاقه فأطلق سنة ٤٨٩ وسار إلى حران وتسلمها. انظر أيضاً الكامل لابن الأثير: ١٠ : ٨٩.

(٢) في ك: عندهم. والتصحيح من ق ٢٢ ب

وقدمه وأقطعه إقطاعا كثيراً ، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده ، واتخذه صهراً . ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولى سقاوه فاتصل به عماد الدين زنكى وقد كبر وظهرت عليه أمارات السعادة والشهامة ، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد . وكان جاولى قد عبر إلى الشام ليملكه من الملك فخر الملك رضوان[1] ، فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودودا وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمسمائة . فلما اتصل الخبر بجاولى فارقه زنكى وغيره من الأمراء . فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكى أكرمه وشهد معه حروبه ؛ فسار مودود إلى الغزاة بالشام ، ففتح فى طريقه قلاعا لهم منها شبختان كانت للفرنج وقتل من كان بها منهم . ثم سار إلى الرها فحصرها ، [ولم يفتحها ، فرحل وعبر الفرات ، فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوما ؛ ثم سار إلى معرة النعمان فحصرها ، ثم حضر عنده[2]] أتابك طغتكين صاحب دمشق فسارا[3] إلى طبرية وحاصراها وقاتلاها[4] قتالا شديداً ، وظهر من أتابك زنكى شجاعة لم يسمع بمثلها . منها أنه كان فى نفر وقد خرج الفرنج من البلد ، فحمل عليهم هو ومن معه ، وهو يظن أنهم يتبعونه ، فتخلفوا عنه وتقدم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ، ووصل رمحه إلى الباب فأثر فيه وقاتلهم عليه (٢٥ ا) ، وبقى ينتظر وصول من كان معه ، فحيث لم ير أحدا حمى نفسه وعاد سالما ؛ فعجب الناس من إقدامه أولا ومن سلامته آخرا . ثم التقى الجمعان فهزم الفرنج ، لعنهم الله ، ووصلوا إلى مضيق دون طبرية فاحتموا به ، وجاءتهم نجدة فأذن الأمير مودود العسكر فى الرجوع إلى بلادهم والاجتماع إليه فى الربيع . فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها . فخرج يوما يصلى الجمعة ؛ فلما صلاها وخرج إلى صحن الجامع ويده بيد طغتكين وثب عليه إنسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات ، وكان صائما ، فحمل إلى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل ،

(١) هو ابن تاج الدولة تتش . تولى القسم الشمالى من ممتلكات أبيه بعد مقتله ، وكان مقره حلب ؛ أما القسم الجنوبى فقد وليه دقاق ، ابن آخر لتتش ، ومقره دمشق . وقد طمع رضوان فى أملاك أخيه ولكن الأتابك طغتكين رده عنها باسم دقاق ، ثم خلع دقاق وتولى دمشق بنفسه وقاوم رضوان . وتوفى رضوان سنة ٥٠٧ .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ١٣ ا .

(٣) فى ك : فسار والتصحيح من ق ٢٣ ا .

(٤) فى ك ، وكذلك فى ق : وحاصروها وقاتلوها وهو خطأ .

وقال : لا لقيت الله إلا صائما ، فإننى ميت لا محالة سواء[1] أفطرت أو صمت . وتوفى فى بقية يومه رحمه الله ؛ فقيل إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه ، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من يقتله[2] . وكان خيراً عادلا حسن السيرة . قال ابن الأثير[3] : فحدثنى والدى رحمه الله قال : كتب ملك الفرنج إلى طغتكين : إن أمة قتلت عميدها فى يوم عيدها فى بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها .

فلما قتل الأمير مودود أقطع السلطان البلاد ، الموصل وغيرها ، للأمير جيوش بك وسير معه ولده الملك مسعود إلى الموصل . ثم إنه جهز آق سنقر البرسقى فى العساكر وسيره إلى قتال الفرنج ، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه فساروا ، وفيهم عماد الدين زنكى ، وكان يعرف فى عساكر العجم بزنكى[4] الشامى . فسار البرسقى إلى الرها فى خمسة عشر ألف فارس ، فحصرها وقاتل من بها من الفرنج والأرمن ، وضاقت الميرة عن العسكر فرحل[5] إلى سميساط[6] ، وهى أيضاً للفرنج ، فأخرب بلدها و بلد سروج وعاد إلى شبختان فأخرب ما فيه للفرنج . وأبلى زنكى فى هذه المواقف كلها بلاء حسنا ؛ ثم عادت العساكر تتحدث بما فعله ، وعاد البرسقى إلى بغداد ، وأقام زنكى بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وقد علا قدره وظهر اسمه .

فصـــل

وفى[7] سنة إحدى عشرة وخمسمائة ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله

(١) فى ق ٢٣ ا : سوى ولعلها أقرب إلى ما قاله مودود .

(٢) وكان مقتله سنة ٥٠٧ . راجع ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى : ١٨٧ .

(٣) اقتباس حرفى من الأتابكة : ٣٦ — ٣٧ ؛ وينتهى هذا الاقتباس بنهاية هذا الفصل .

(٤) ما هنا من ق ٢٣ ب ، وفى ك : زنكى .

(٥) فى ك : فدخل . وما هنا من ق ٢٣ ب .

(٦) على شاطئ الفرات من الجهة الغربية : معجم البلدان : ٥ : ١٣٨ — ١٣٩ .

(٧) اقتباس حرفى من الأتابكة : ٣٧ — ٤١ ، مع حذف بعض الكلمات أو العبارات التى لا تؤثر فى الحقائق .

تعالى . وفيها غرقت سنجار[1] من سيل المطر وهلك منها خلق كثير . ومن أعجب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيه طفل فعلق المهد فى شجرة ونقص الماء فسلم ذلك الطفل وغرق غيره من الماهرين بالسباحة . وفيها أيضاً زلزلت إربل[2] وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة . وفيها فى الرابع والعشرين من ذى الحجة توفى السلطان غياث الدين محمد ابن ملكشاه وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام . وأول ما خطب له ببغداد فى ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عدة مرار[3] ، ولقى (٢٥ ب) من المشاق والأخطار ما لم يلقه أحد إلى أن توفى أخوه بكياروق ، فحينئذ صفت له السلطنة واستقرت له ، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته . وكان اجتماع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتى عشرة[4] سنة وستة أشهر . وكان عادلاً حسن السيرة شجاعا ، وأطلق المكوس والضرائب فى جميع البلاد . ومن عدله أنه اشترى عدة مماليك من بعض التجار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خوزستان ، فأوصل إليه البعض ومطل بالباقى . فحضر التاجر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان واستغاث إليه ، فأمر من يستعلم عن حاله ، فعاد الحاجب وأعلم السلطانَ حاله ، فَعَظُم عليه وضاق صدره وأمر فى الحال أن يحضر عامل خوزستان ويلزم بمال التاجر . ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم . وكان يقول كثيراً : لقد ندمت على تركى حضور مجلس الحكم ولو فعلته لا قتدى بى غيرى ولم يمتنع أحد عن أداء الحق . قال ابن الأثير[5] : وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى لهذا البيت الأتابكى ، فإن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى فعل ما ندم السلطان محمد على تركه[6] . وقد تقدم

---

(١) من نواحى الجزيرة تبعد عن كل من الموصل ونصيبين بمسافة قدرها ياقوت بثلاثة أيام . معجم البلدان : ٥ : ١٤٤ — ١٤٦ .

(٢) إربل : قلعة حصينة ومدينة كبيرة فى فضاء منبسط واسع بين الزابين ، وتعد من أعمال الموصل . نفس المصدر : ١ : ١٧٢ — ١٧٦ .

(٣) فى ك : عدة مراراً ، والتصحيح من ق ٢٣ ب .

(٤) فى ك : اثنتى عشر ، من غير تاء ، وهو خطأ نحوى والتصحيح من ق ٢٣ ب .

(٥) بقية الاقتباس الذى بدأ ببداية الفصل .

(٦) فى ك : ما ندم عليه السلطان محمد على تركه ، فزيادة « عليه » حشو يفسد العبارة ، والتصحيح من ق ٢٤ ا .

ذلك[١] . ولما علم الأمراء وغيرهم من أخلاق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به ، فأمن الناس وظهر العدل .

وولي بعد السلطان محمد ولده محمود ، وعمره يومئذ أربع عشرة سنة ، فقام بالسلطنة وجرى بينه و بين عمه سنجر حرب انهزم فيها محمود وعاد إلى عمه بغير عهد فأكرمه وأقطعه من البلاد من حد خراسان إلى الداروم بأقصى الشام . وهي من الممالك همدان وأصبهان وبلد الجبال جميعه و بلاد فارس وكرمان وخوزستان والعراق وآذربيجان وأرمينية وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مضر وديار ربيعة والشام وبلد الروم الذي بيد قليج أرسلان وما بين هذه الممالك من البلاد . قال ابن الأثير : ورأيت منشوره بذلك .

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله . وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام[٢] ، وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً ، ومضى في أيامه ثلاث سلاطين خطب لهم ببغداد من السلجوقية ، وهم أخو ملكشاه تاج الدولة تتش[٣] وركن الدولة بكياروق بن ملكشاه وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه . وكان المستظهر رحمه الله كريم الأخلاق ، لين الجانب ، مشكور المساعي ، يحب العلم (٢٦ ا) والعلماء ؛ وصنفت له التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرهما . وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات ، حسن الخط ، جيد التوقيعات . ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله ، ودفن في حجرة كانت له يألفها[٤] . وفي أيامه توفي جماعة من العلماء . ففي شعبان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المظفر الشامي[٥] . وفي ذي القعدة منها توفي

(١) هذه الجملة القصيرة لأبي شامة ، يشير إلى ما تقدم في مناقب نور الدين محمود عن اهتمامه بحضور مجلس الحكم .

(٢) انظر الكامل لابن الأثير : ١٠ : ١٨٨ ، أما في الأتابكة فهي : وسبعة أيام .

(٣) في النزاع الذي نشب بين تتش وابن أخيه بركياروق على السلطنة بعد مقتل ملكشاه استطاع تتش أن يدخل بغداد فطلب من الخليفة أن يخطب باسمه ففعل ؛ ثم تجاوزها بعد ذلك إلى ناحية الري لمداومة الحرب ضد بركياروق وهناك قتل في المعركة سنة ٤٨٨ .

(٤) إلى هنا ينتهي هذا الاقتباس من الأتابكة .

(٥) يذكر ابن الأثير أنه لم يأخذ على القضاء أجراً : الكامل : ١٠ : ٨٨ .

القاضى عبد السلام بن محمد القزوينى المعتزلى[١] ، مصنف « حدائق ذات بهجة » فى تفسير القرآن يزيد على ثلثمائة مجلد . قال ابن الأثير رأيت منه تفسير الفاتحة فى مجلد كبير . وفى ذى الحجة منها توفى الإمام أبو نصر الحميدى[٢] مصنف الجمع بين الصحيحين . وفى شوال سنة إحدى وتسعين توفى الكامل نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبى وله نحو تسعين سنة[٣] . وفى سنة اثنتين وخمسمائة توفى أبو زكريا التبريزى اللغوى[٤] . وفى الحجة منها توفى أبو الفوارس الحسين بن على الخازن[٥] صاحب الخط (الحسن[٦]) المشهور . وفى سنة خمس وخمسمائة توفى الإمام أبو حامد الغزالى . وفى سنة سبع وخمسمائة توفى الإمام أبو بكر محمد ابن أحمد الشاشى الفقيه[٧] رحمهم الله أجمعين .

فصـــل

لما ولى السلطان محمود السلطنة أقر أخاه مسعودا على الموصل مع أتابكه جيوش بك ، فبقى مطيعا لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة فحسن له الخروج عن طاعته وطلب السلطنة ، فأظهر العصيان وخطب الملك مسعود بالسلطنة . وكان زنكى يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه ، ويحذرهم عاقبة العصيان ، فلم ينفع . فالتقى الأخوان فى عسكريهما فهزم عسكر مسعود وأسر جماعة من الأمراء والأعيان ، منهم الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن إسماعيل الطغرائى وزير مسعود فقتله السلطان محمود وقال قد صح عندى فساد اعتقاده ودينه ، وكان قد جاوز

(١) مولده سنة ٤١١ ، وكان مغالياً فى الاعتزال . وقيل كان زيدى المذهب . الكامل : ١٠ : ٨٨

(٢) محمد بن أبى نصر الأندلسى . سمع الحديث بالأندلس ومصر والحجاز والعراق . نفس المصدر .

(٣) كان نقيباً للعباسيين ، وهو من رجال الحديث . وولى النقابة بعده ابنه شرف الدين على بن طراد : الكامل : ١٠ : ٩٧ .

(٤) يحيى بن على التبريزى الشيبانى عالم باللغة وله فيها تصانيف مشهورة . وشعره غير جيد . نفس المصدر : ١٠ ج ١٦٧ .

(٥) فى ق ٢٤ ب : على بن الخازن . وهو الحسين بن على بن الحسين بن الخازن قيل إنه كتب بخطه خمسمائة ختمة . وقيل إنه توفى سنة ٤٩٩ : الكامل : ١٠ : ١٤٥ ، ١٦٧ .

(٦) ساقطة من ق ٢٤ ب :

(٧) فقيه شافعى ، مولده سنة ٤٢٧ ، ومن شيوخه أبو إسحاق الشيرازى ببغداد وأبو عبد الله محمد الكازرونى بديار بكر : نفس المصدر : ١٠ : ١٧٦ .

ستين سنة ، وكان حسن الكتابة جيد الشعر . قلت وقيل إنه قتل سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثماني عشرة وخمسمائة . وقيل إن الذى قتله هو السلطان طغرل بن محمد ابن ملكشاه . ذكر ذلك كله أبو سعد السمعانى فى تاريخه وسماه الحسين بن على بن عبد الصمد الديلمى[(١)] ، وأنشد له أشعاراً حسانا . منها :

إذا ما لم تكن ملكا مطاعا … فكن عبدا لمالكه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعاً … كما تهواه فاتركها جميعاً
هما شيئان من ملك ونسك … ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
(٢٦ ب) ومن يقنع من الدنيا بشىء … سوى هذين يحيَ بها وضيعا

ثم استأمن مسعود وأتابكه جيوش بك فأمنهما السلطان وأخذ الموصل منهما فأقطعها آق سنقر البرسقى مع أعمالها، كالجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرها، فى صفر سنة خمس عشرة وسيره إليها وأمره بحفظ عماد الدين زنكى وتقديمه والوقوف عند إشارته ، ففعل البرسقى ذلك وزاد عليه ، لمكان زنكى من العقل والشجاعة وتقدم والده فى الأيام الركنية[(٢)] وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة ، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته .

وفى سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع أتابك زنكى مدينة واسط وشحنكية البصرة ، وظهر من كفايته فى البلدين ما لم يظنه أحد ، فازداد شأنه عظما . وهاب الأمير دبيس ابن صدقة الأسدى صاحب الحلة[(٣)] ناحيته ، وجرت بينه وبين البرسقى حروب ومواقفات ، وهم دبيس بقصد بغداد فسار البرسقى إليه ، وتبعه الخليفة المسترشد بالله بنفسه . فانهزم عسكر

(١) وسماه ابن الأثير فى الكامل الحسين بن على الأصبهانى ، أبو اسماعيل ، وذكر أنه اشتهر بصنعة الكيمياء وله فيها مؤلفات ضيعت من الناس أموالا لا تحصى . وقد تولى الوزارة لمسعود سنة ٥١٣ فتجمعه على مخالفة أخيه والخروج عليه . الكامل : ١٠ : ١٩٩ .

(٢) أى أيام السلطان السلجوقى ركن الدين ملكشاه .

(٣) مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، وأول من عمرها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس ابن على بن مزيد الأسدى سنة ٤٩٥ . والحلة أيضاً موضع بين واسط البصرة . وهناك حلة ثالثة هى حلة بنى دبيس بن عفيف بين واسط والبصرة والأهواز . معجم البلدان : ٣ : ٣٢٧ — ٣٢٨ .

دبيس وقتل منهم وأسر خلق كثير . وكان لعماد الدين زنكى أثر حسن فى هـذه الوقعة أيضاً بين يدى الخليفة ، وذلك فى أول المحرم سنة سبع عشرة . وأما دبيس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وصار معه من خواص أصحابه ، وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود . وأمر السلطان محمود[١] البرسقى أن يرجع إلى الموصل ، فعاد واستدعى زنكى من البصرة ليسير معه إلى الموصل ؛ فقال زنكى لأصحابه : قد ضجرنا مما نحن فيه ؛ كل يوم قد ملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته . ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشام . فسار من البصرة إلى السلطان محمود فأقام عنده . وكان يقف إلى جانب تخت السلطان عن يمينه لا يتقدم عليه أحد ، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله ، وبقى لولده من بعده .

ثم أتى السلطان الخبر أن العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة ، فأمر زنكى بالمسير إليها وأقطعه إياها لما بلغه عنه من الحماية لها فى العام الماضى وقت اختلاف العساكر والحروب . ففعل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله . وكان قد جرى بين برتقش الزكوى شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة ، فتهدده المسترشد ، فسار عن بغداد إلى السلطان فى رجب سنة تسع عشرة شاكيا من المسترشد ، وحذر السلطان جانبه ، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازما على منعه من العراق . فسار السلطان إلى بغداد وجرى بينه وبين المسترشد حروب ووقائع ، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه ؛ وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر[٢] ، ونظر فيمن يصلح أن يلى شحنكية بغداد ، والعراق يأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور . فولى ذلك زنكى مضافا إلى ما بيده من الإقطاع[٣] وسار السلطان (١٢٧ ا) عن بغداد[٤] .

وفى سنة عشرين وخمسمائة قتل آق سنقر البرسقى بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة

(١) فى ك وكذلك ق ١٢٥ ا : محمد ، وصحتها محمود ، لأنه هو الذى أمره بالسير إلى الموصل سنة ٥١٨ ، بطلب من الخليفة المسترشد : انظر الكامل : ١٠ : ٢٢١ .

(٢) من سنة ٥٢١ ، وذلك لأن النزاع استمر حتى تم الصلح عندئذ .

(٣) وهو البصرة ، بعد أن انفصل زنكى عن البرسقى . الكامل : ١٠ : ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٤) بسبب ذلك إشارة الأطباء عليه بمبارحة بغداد ، فرحل عنها إلى همذان حيث استرد عافيته . نفس المصدر .

يوم الجمعة ، ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيده منهم ثلاثة ، وقتل رحمه الله . وكان عادلا لين الأخلاق حسن العشرة ، وكان يصلى كل ليلة صلاة كثيرة ولا يستعين فى وضوئه بأحد . فقرر السلطان ولده عز الدين مسعوداً على ما كان لأبيه من الأعمال ، وهى الموصل وديار الجزيرة وحلب وحماة وجزيرة ابن عمر وغيرها . وكان شابا عاقلا فضبط البلاد ، ولم تطل أيامه ؛ وتوفى سنة إحدى وعشرين ، وولى الأمر بعده أخوه الصغير . وقام بتدبير دولتيهما الأمير جاولى ، وهو مملوك تركى من مماليك أبيهما ، فجرت الأمور على أحسن نظام .

فصـــل

فى ولاية زنكى الموصل وغيرها من البلاد التى كانت بيد البرسقى

وذلك فى شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين . وسبب ذلك أن عز الدين البرسقى لما توفى وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير وتولى أمره جاولى أرسل إلى السلطان محمود [يطلب](١) أن يقر البلاد عليه ؛ وكان المرسل بذلك القاضى بهاء الدين أبو الحسن على بن الشهرزوى وصلاح الدين محمد الباغيسانى . فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان فى ذلك ، وكانا(٢) يخافان جاولى ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه . وكان بين الصلاح و بين نصير الدين جقر(٣) مصاهرة ، فأشار عليهما أن يطلبا البلاد لعماد الدين زنكى ؛ ففعلا وقالا للوزير : قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم ، وكان البرسقى يكف بعض عاديتهم ، فمنذ قتل ازداد طمعهم . وهذا ولده طفل صغير ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمى حوزتها ؛ وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجرى خلل أووهن على الإسلام والمسلمين فنحصل نحن بالإثم من الله تعالى واللوم من السلطان . فأنهى الوزير ذلك إلى السلطان فأعجبه وقال : من تريان يصلح لهذه البلاد ؟

---

(١) ما بين الحاصرتين من ق ٢٥ ب .

(٢) فى ك وكذلك فى ق ٢٥ ب : وكان .

(٣) وهو الذى صار بعد ذلك نائباً عن عماد الدين زنكى بالموصل . الكامل : ١٠ ، ٢٢٩ .

فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكى ، وعظَّما محله أكثر من غيره . فأجاب السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته ؛ فولى البلاد جميعها ، وكتب منشوره بها وسار من بغداد إلى البوازيج[(١)] ليملكها و يتقوى بها و يجعلها ظهره إن منعه جاولى عن البلاد . فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل ، فخرج جاولى إلى لقائه وعاد فى خدمته إلى الموصل ، فسيَّره[(٢)] إلى الرحبة وأعمالها ، وأقام[(٣)] بالموصل يصلح أمورها و يقرر قواعدها . فولى نصير الدين دزدارية[(٤)] قلعة الموصل وفوض إليه أمر الولاية جميعها ، وجعل الدزدارية فى البلاد جميعها له ، وجعل الصلاح محمد الياغبسانى أمير حاجب الدولة ، وجعل بهاء الدين قاضى (٢٧ ب) قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد ، ووفى لهم بما وعدهم . وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكرمهم عليه ، وأكثرهم انبساطاً معه وقربا منه ، ورتب الأمور على أحسن نظام وأحكم قاعدة .

وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم ، وعظمت هيبتهم ، وزادت صولتهم ، وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم ، وضعف أهلها عن كف عاديهم ، وتتابعت غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء العذاب[(٥)] ، واستطار فى البلاد شرر شرهم ، وامتدت مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان إلى عريش مصر لم يتخللها من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحمص ودمشق . وكانت سراياهم (تبلغ)[(٦)] من ديار بكر إلى آمد ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين ورأس عين[(٧)] ؛ أما أهل الرّقة وحرّان فقد كانوا معهم فى ذل وهوان . وانقطعت

(١) بلدة قرب تكريت على فم الزاب الأسفل عند مصبه فى دجلة . وهذا الضبط من معجم البلدان : ٢ : ٢٩٧ . وقد جاءت فى ك وكذلك فى ق : البوازيج .

(٢) فى ك : فسير . وما هنا من ق ٢٥ ب .

(٣) فى ق ٢٥ ب : وأقام هو .

(٤) دزدار القلعة حافظها . وهو لفظ أعجمى مركب من كلمتين : دز = قلعة ، دار = حافظ . وهو الوالى . Dozy , Supp. Dict. Ar.

(٥) ما هنا من ق ٢٦ ا . وفى ك : وساموا المسلمين فى العذاب .

(٦) ساقطة من ق ٢٦ ا .

(٧) مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر تبعد عن نصيبين خمسة عشر فرسخا وعن حران نحو ذلك وعن دنيسر عشرة فراسخ . معجم البلدان : ٤ : ٢٠٥ — ٢٠٧ .

الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر ؛ ثم زاد الأمر وعظم الشر ، حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجاً و إتاوة ، يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم . ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم ؛ فمن اختار المقام تركوه ومن آثر العود إلى أهله أخذوه ؛ وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً . وأما أهل حلب فإن الفرنج أخذوا منها مناصفة أعمالها حتى فى الرحا التى على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة . وأما باقى بلاد الشام فكان حال أهلها أشد من حال هذين البلدين . فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين ولاها[1] عماد الدين زنكى فغزا الفرنج فى عقر ديارهم وأخذ للموحدين منهم بثأرهم ، واستنقذ منهم حصوناً ومعاقل . وسيأتى تفصيل ذلك وما فتحه من البلاد الإسلامية هو وابنه من بعده إن شاء الله تعالى .

فصـــل

ثم شرع زنكى رحمه الله فى أخذ البلاد ؛ فافتتح جزيرة ابن عمر ثم مدينة إربل فى رمضان سنة اثنتين وعشرين ، ثم عاد إلى الموصل . وسار فى جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين إلى سنجار فتسلمها وسيَّر منها الشحن إلى الخابور[2] فملكه ، ثم قصد الرحبة فملكت قسرا ، ثم افتتح نصيبين وسار إلى حرّان . وكانت الرها وسروج[3] وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنج ، لعنهم الله ، وأهل حرّان معهم فى ضيق عظيم ؛ فراسلوا زنكى بالطاعة واستحثوه على الوصول إليهم ففعل ، وهادن الفرنج مدة يسيرة يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقى له من البلاد الشامية والجزرية[4] . وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات[5] ، وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية (١٢٨) . فلما عبر الفرات ملك مدينة منبج

(١) فى ك : وولاها بزيادة واو العطف وكذلك فى ق ٢٦ ا ، وهو حشو مخل .

(٢) ولاية واسعة وبلدان كثيرة غلب عليها اسم النهر الذى يجرى بها بين رأس عين والفرات : معجم البلدان : ٣ : ٣٨٣ — ٣٨٤ .

(٣) قرية من حران وهى من ديار مضر . نفس المصدر : ٥ : ٧٧ .

(٤) فى ك : والجزيرة . وما أثبتناه عن ق ٢٦ ا وهو أولى .

(٥) فى ك وكذلك فى ق : الفراة . ويتكرر هذا عدة مرات .

وحصن بزاعة[1]، وحاصر حلب ثم فتحت له فرتب أمورها ، وسار عنها إلى حماة فملكها وقبض على صاحب حمص وحصرها ، وذلك سنة ثلاث وعشرين . وفى سنة أربع وعشرين اتفق صاحب آمد مع صاحب حصن كيفا وغيرهما من الملوك وجمعوا عساكر نحو عشرين ألفاً وقصدوا زنكى فلقيهم فهزمهم وملك سَرْجَة[2] ودارا . ثم صمم على الجهاد فنازل حصن الأثارب[3] ، وكان أضر شىء على أهل حلب ، فجمع الفرنج جمعاً عظيما فهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة (و)[4] بقيت عظام القتلى بتلك الأرض مدة طويلة . ثم رجع إلى الحصن فملكه عنوة فأخربه ومحا أثره ، وأزال من تلك الأرض ضرره . ثم رحل إلى حصن حارم لحصره ، فأنفذ من لم يحضر المعركة من الفرنج ومن مجامنها يسألون الصلح ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم ، فأجابهم إلى ذلك لأن عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل فأراد أن يستريحوا[5] ، [فهادنهم][6]وعاد عنهم وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر ، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك . وفيها استولى زنكى على مدينة حماة وما فيها ، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بورى ، فأخذه ورجاله[7] ثم طلب فى إطلاقهم خمسين ألف دينار ، فاتفق حضور دبيس بن صدقة بن مزيد أمير العراق بدمشق منهزماً فطلبه زنكى وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه . ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى[8] .

(١) بضم الباء ويكسرها ، وبزاعا بالقصر ،من أعمال حلب بينها وبين منبج على مسافة مرحلة من كل منهما . معجم البلدان : ٢ : ١٦٢ .

(٢) حصن بين نصيبين ودنيسر ودارا : وسرجة أيضاً موضع قرب سميساط على الفرات . نفس المصدر : ٥ : ٦٣ — ٦٤ .

(٣) بين حلب وأنطاكية على ثلاثة فراسخ من حلب : نفس المصدر : ١ : ١٠٥ — ١٠٦ .

(٤) يقتضيها السياق ولا وجود لها فى ك أو فى ق .

(٥) فى ق ٢٦ ب : فأراد أن يستريحوا وهو ما ثبت هنا . وفى ك : فأراد أن يستريحوا ويريحوا .

(٦) ماهنا من ق ٢٦ ب وهى ساقطة من ك .

(٧) فى ق ٢٦ ب : فأخذه رجاله ، بإسقاط الواو وما ثبت هنا هو الأصح كما تدل عليه بقية العبارة .

(٨) فى ذيل تاريخ دمشق : ٢٢٧ — ٢٣١ ، وأبو يعلى هو حمزة بين أسد التميمى المعروف بابن القلانسى توفى سنة ٥٥٥ .

وفى[1] سـنة خمس وعشرين وخمسمائة توفى السلطان محمود بهمذان ، وكان عمره نحو ثمانى وعشرين سنة ، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة ؛ وكان حليما كريما عاقلا عادلا كثير الاحتمال . وطلب السلطنة بعد وفاته ابنه داود بن محمود ، وأخواه[2] مسعود وسلجوق شاه ابنا محمد ، وعمهما سنجر بن ملـكشاه ومعه طغرل ابن السلطان محمد . فجرت بينهم حروب واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر[3] وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة فى همذان وأصفهان والرى وسائر بلاد الجبل . وفى سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى الموصل فى ثلاثين ألف فارس فحاصرها ثلاثة أشهر ، ثم عاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضا . وفى سنة تسع وعشرين استولى زنكى على سائر قلاع الحميدية وولاياتهم ، منها قلعة العقير[4] وقلعة شوش[5] ، وحاصر مدينة آمد ثم مدينة دمشق . وفيها توفيت[6] والدته بالموصل . وفى المحرم سنة تسع وعشرين توفى السلطان طغرل بن محمد بن ملـكشاه ، فخرج السلطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد فى عسكرين عظيمين عاشر رمضان ، فهزم عسكر الخليفة وقبض عليه وعلى خواصه ، وأنفذ السلطان شحنة إلى بغداد فقبض (٢٨ب) جميع أملاك الخليفة ، وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد وهو فى الخيمة فقتلوه . وكتب السلطان إلى شحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبى جعفر المنصور بن المسترشد ، فبايعه فى السادس والعشرين من ذى القعدة ولقب بالراشد . وكان عمر المسترشد ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام ، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر . وكان شهما شجاعا ، مقداما فصيحا ،

---

(١) بدء اقتباس من الأتابكة بضغط شديد وبعض تصرف وإن احتفظ أبو شامة فيما اقتبسه بعبارات ابن الأثير وألفاظه . انظر الأتابكة : ٧٦ — ٧٧ .

(٢) ماأثبتناه من ق ٢٦ ب . وفى ك : وأخوه ، وهو خطأ لأنهما اثنان .

(٣) فى ق ٢٦ ب زيادة نصها : ظفر فيها سنجر (بن ملـكشاه ومعه طغرل ابن السلطان) .

(٤) هكذا فى ك وكذلك فى ق ٢٦ ب . وفى معجم البلدان هى : العقر وهى قلعة حصينة فى جبال الموصل وتقع شرقيها ، أهلها أكراد وتعرف بعقر الحميدية : انظر معجم البلدان مادة العقر : ٦ : ١٥٠ ومادة العقير : ٦ : ١٩٨ .

(٥) قرب جزيرة ابن عمر من نواحى الجزيرة . أو هى قلعة عظيمة عالية جدا قرب عقر الحميدية من أعمال المدائن وهى المقصودة هنا . معجم البلدان : ٥ : ٣٠٧ .

(٦) ماهنا من ق ٢٦ ب . وفى ك : توفت .

وتمكن فى خلافته تمكناً عظيما لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته ، إلا أن يكون المعتضد والمكتفى ، لأن المماليك كانوا قديماً يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم ؛ ولم يزالوا كذلك إلى مُلْك[١] الديلم واستيلائهم على العراق ، فزالت هيبة الخلافة بالمرة إلى انقراض دولة الديلم . فلما ملك السلجوقية[٢] جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس ، لا سيما فى وزارة نظام الملك فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها ، إلا[٣] أن الحكم والشحن بالعراق كان إلى السلطان ، وكذلك العهد وضمان البلاد ، ولم يكن للخلفاء إلا إقطاع يأخذون دخله . وأما المسترشد فإنه استبد بالعراق بعد السلطان محمود ، ولم يكن للسلطان معه فى كثير من الأوقات سوى الخطبة ، واجتمعت عليه العساكر ، وقاد الجيوش وباشر الحروب .

وفى[٤] سنة ثلاثين وخمسمائة سار الراشد إلى الموصل صحبة زنكى ملتجئا إليه . وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود فأجابهم إلى ذلك ، وظهر منه تنقل فى الأحوال وتلون فى الآراء ، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه وخافه الباقون ، وتقدم السلطان مسعود وحصر بغداد واستظهر عليها . فخرج الراشد ملتجئا إلى زنكى فسار به إلى الموصل ، ودخل مسعود بغداد وأمر بخلع الراشد ومبايعة عمه أبى عبد الله محمد ابن المستظهر بالله ، ففعل ذلك ولقب المقتفى لأمر الله . وأما الراشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك يأمره بإخراجه عن بلده ، فسار إلى أذربيجان ثم إلى همدان ، فاجتمع إليه ملوك وعساكر كثيرة وسار السلطان إليهم فتصافوا فانهزم الراشد وقصد أصبهان ، فقتله الباطنية بها فى السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ودفن بأصبهان . وفى سنة اثنتين وثلاثين أيضاً تزوج زنكى بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولى أم شمس

---

(١) الضبط من ق ٢٧ ا . وفى ك : إلى أن ملك الديلم . وهى لا تنسجم مع بقية العبارة . والديلم هم البويهيون .

(٢) فى ك . السلجقية . وما ثبت هنا من ق ٢٧ ا .

(٣) فى ق ٢٧ ا . الى . وهو خطأ .

(٤) يستخدم أبو شامة كتاب الأتابكة فيما أورده من هنا الى نهاية الفصل ولكنه لايقتبسه حرفيا . راجع الأتابكة : ٩٢ — ٩٨ .

الملوك إسماعيل[١] وإخوته بنى تاج الملوك[٢] بن طغتكين أتابك ؛ وهى أخت الملك دقاق (لأمه)[٣] . وإليها ينسب مسجد خاتون الذى هو مدرسة لأصحاب أبى حنيفة بأعلى الشرف القبلى بأرض دمشق بأرض صنعاء . وتسلم قلعة حمص[٤] .

فصــــل
فى جهاد (١٢٩) زنكى للفرنج

لما[٥] كان فى[٦] سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى ، فقصد[٧] الشام ، فخافه الناس خوفا عظيما . وكان زنكى مشغولا بما تقدم ذكره لا يمكنه مفارقة الموصل . فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها ، وهى على مرحلة من حلب ، وفتحها عنوة وقتل المقاتلة وسبى الذرية فى شعبان . ثم سار عنها إلى شيزر ، وهى حصن منيع على مرحلة من حماة ، فحصرها منتصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا . وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان بن منقذ إلى زنكى يستنجده ، فنزل على حماة ، وكان يركب كل يوم فى عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ، ثم يعود آخر النهار . وكان الروم والافرنج قد نزلوا على شرقى شيزر ، فأرسل إليهم زنكى يقول لهم : إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقى ، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها ، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم . ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم ،

(١) أبو الفتح شمس الملوك إسماعيل بن بورى ، ولى دمشق سنة ٥٢٦ بعد مقتل أبيه بيد الباطنية ، وبقى فى ولايته حتى تآمرت أمه على قتله سنة ٥٢٩ . ذيل تاريخ دمشق : ٢٣٤ — ٢٤٦ .

(٢) تاج الملوك بورى بن طغتكين الأتابك الذى أسس الدولة البورية فى دمشق . حكم بورى بين سنتى ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، وحاول الباطنية اغتياله أواخر سنة ٥٢٥ ، ومات فى السنة التالية . راجع ذيل تاريخ دمشق : ٢١٨ — ٢٣٤ .

(٣) ساقطة من ق ٢٧ ب .

(٤) من شهاب الدين محمود بن بورى صاحب دمشق وتزوج أمه على أمل أن يتحكم فى دمشق أيضاً . راجع ذيل تاريخ دمشق : ٢٦٦ .

(٥) ساقطة من ق ٢٧ ب .

(٦) بدء اقتباس حرفى من الأتابكة : ٩٨ — ١٠١ ، بحذف بعض التفصيلات .

(٧) فى ك : فقصدوا . وما أثبتناه أولى . وهو من ق ٢٧ ب :

وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم . فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره ، فقال لهم الملك أتظنون أن معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة ! وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له ، فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم . وكان أتابك زنكى مع هذا يراسل فرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصنا واحدا أخذ البلاد التى بأيديهم منهم . وكان يراسل ملك الروم يتهدده ويوهمه أن الفرنج معه . فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه ، فرحل ملك الروم عنها فى رمضان ، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوما ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها . فسار زنكى خلفهم فظفر بطائفة منهم فى ساقة العسكر فغنم منهم وقتل وأسر ، وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه إلى قلعة حلب ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر لا يبقى لمسلم معهم مقام ، لاسيما حماة لقربها .

ولما يسر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا . منهم أبو المجد المسلم ابن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموى ، له قصيدة ، قد ذكرتها فى ترجمته فى التاريخ[1] ، أولها :

بعزمك أيها الملك العظيم ... تذل لك الصعاب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لما ... تبين أنك[2] الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلا ... كأن الجحفل الليل البهيم
(٢٩ ب) وقد نزل الزمان على رضاه ... فكان لخطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك فى خميس ... تيقن أن ذلك لا يدوم
وأبصر فى المفاضة منك جيشا ... فأحزن[3] لا يسير ولا يقيم
كأنك فى العجاج شهاب نور ... توقد وهو شيطان رجيم

(١) ما بين الفاصلتين فقط من كلام أبى شامة . والتاريخ هو تاريخ دمشق الذى اختصره من تاريخ ابن عساكر الذى يحمل نفس الاسم . انظر المقدمة .
(٢) فى ك وكذلك فى ق ٢٨ : أنه .
(٣) من ق ٢٨ ا . وفى ك : وأحزن .

أراد بقاء[١] مهجته فولّى   وليس سوى الحمام له حميم[٢]

يؤمل أن تجود بها عليـــه   وأنت بهـــا وبالدنيا كريم

أيلتمس الفرنج لديك عفوا   وأنت بقطع دابرها زعيم

وكم جرعتها غصص المنـــايا   بيوم فيـــه يكتهل الفطيم

ولمـــا أن طلبتهم تمنى الْـ   ـمنية « جوسلينهم »[٣] اللئيم

أقام يطوّف الآفاق حينـــا   وأنت على معاقله مقيم

فسار وما يعادله مليـــك   وعاد وما يعادله ســـــقيم

إذا خطرت سيوفك فى نفوس   فأول ما يفارقها الجســـوم

وله أيضاً من قصيدة يمدح بهـا صـلاح الدين محمد بن أيوب العمادى التوتان صاحب حماة :

وما جاء كلب الروم إلا ليحتوى   حماة ، وما يسطو على الأسْد الكلب

أراد بها أن يملك الشام عنوة   وقد غُلبت عنه الضراغمة الغلب

وما ذمّ فيها العيش حتى صدمته   فمال جناح الجيش وانكسر القلب

فولّى وأطراف الرماح كأنها   نجوم عليـــه بالمنية تنصب

ولابن منير من قصيدة فى مدح أتابك زنكي رحمه الله ستأتى عند فتحه لمدينة الرها إن شاء الله تعالى[٤] :

وما يوم كلب الروم إلا أخو الذى   أزحت به ما فى الجناجن من نبل[٥]

أتاك بمثل الروم حشداً ، وإنه   ليفضل أضعافا كثيراً عن الرمل

---

(١) فى ك : لقاء ، وما أثبتناه عن ق ٢٨ ا وهو أولى .

(٢) إلى هنا ينتهى هذا الاقتباس من الأتابكة . ويكمل أبو شامة القصيدة من مصدر آخر .

(٣) هو جوسلين الثانى Joscelin II صاحب الرها ، وكان عندئذ صغير السن تحت وصاية أمه .

(٤) فى ق ٢٨ ا : سيأتى بعضها عند ذكر فتحه مدينة الرها .

(٥) فى هامش ك : حاشية : قال المؤلف : الجناجن بجيمين ونونين عظام الصدر . والله أعلم . وهى موجودة أيضاً فى نسخة ليدن ، وكذلك فى ق ٢٨ ا .

فقاتلته بالله ثم بعـــــزمة   تصك قلوب العاشقين بما تسلى
توهم أن الشام مرعى ، وما درى   بأنك أمضى منه فى الشزر والسجل[(١)]
فطار وخير المغنمين ذماؤه   إذا رد عنه مغنم المال والأهل

قال ابن الأثير[(٢)] : ومن عجيب ما يحكى فى هـذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر قام الأمير مرشد بن على ، أخو صاحبها ، وهو ينسخ مصحفا ، فرفعه بيده وقال : اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجىء الروم فاقبضنى إليك ؛ فتوفى بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته . ولما عاد الروم إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عرقه ، وهو من أعمال طرابلس ، فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه وأسر مَن به من الفرنج وأخربه وعاد سالما غانما . وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين تمرتاش[(٣)] . وفيها توفى (٥٣٠)[(٤)] ، (ق : ٢٨ ب) بهاء الدين على بن القاسم الشهرزورى قاضى الممالك الأتابكية ، وكان أعظم الناس منزلة عنده . وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بتكريت .

فصـــــل

فى فتح شهرزور و بعلبك وحصار دمشق

قال ابن الأثير[(٥)] : كانت شهرزور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال فى يد قفجق ابن أرسلان تاش التركمانى ، وكان ملكها نافذ الحكم على قاصى التركمان ودانيهم ، يرون

---

(١) فى هامش ك : حاشية : قال المؤلف : الشزر إحكام القتل وإبرامه والسجل دون ذلك . أى أمضى منه فى الأمور الكبار وفى الصغار . والذماء بقية الروح . والله أعلم . وهى مثبتة أيضاً بنسخة ليدن ، وكذلك فى ق ٢٨ ا .

(٢) اقتباس حرفى من الأتابكة : ١٠١ — ١٠٢ .

(٣) هذا الخبر غير موجود فى الأتابكة .

(٤) فى المخطوطة التى اعتبرناها أساسا للنشر خرم يستغرق ثلاث ورقات يبدأ هنا وينتهى بنهاية لوحة ٣٢ ب ، وسنعتمد على نسخة القاهرة مع الإشارة إلى أرقام لوحاتها فى مناسباتها مصدرة بحرف ق ، وذلك لأن الأوراق الثلاثة التى جاءت فى أصلنا مكتوبة بخط حديث وعلى ورق حديث . ويلاحظ أن اللوحة ٣٣ ا من أصلنا تبـدأ بجزء سبق تكراره فى لوحة ٣٢ ا منذ السطر الرابع من أسفل الصفحة وفى لوحة ٣٢ ب . ولهذا سنعود إلى الأصل عند لوحة ٣٣ ا ونصرف النظر عن التكرار .

(٥) اقتباس حرفى من الأتابكة ، بحذف بعض تفصيلاته : ١٠٢ — ١٠٥ .

طاعته فرضا حتما . فتحامى[1] الملوك قصد ولايته ولم يتعرضوا لها لحصانتها ، فعظم شأنه وازداد جمعه . فلما كانت سنة أربع وثلاثين بلغ الشهيد أتابك عنه ما اقتضى أن يقصد بلاده ؛ فهزم عسكره وملك بلاد شهرزور وغيرها ، فأضافها إلى بلاده وأصلح أحوال أهلها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان . وعاد إلى الموصل عازما على المسير إلى الشام ، فإنه كان لا يرى المقام ، بل لا يزال ظاعنا ، إمّا لردّ عدو يقصده ، و إمّا لقصد بلاد عدوّ ، و إمّا لغزو الفرنج وسدّ الثغور . وكانت مياثر السروج آثر عنده من وثير المهاد ، والسهر فى حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد ، وأصوات السلاح ألذّ فى مسمعه من الغناء ، لا يجد لذلك كله عناء . وفى هذه السنة ، وهى سنة أربع وثلاثين ، ولد تقى الدّين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب بن شاذى . وفيها سار الشهيد فى جنوده بعد ملك شَهْرَزُوْرَ إلى مدينة دمشق لحصرها ، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بوزى بن طغتكين ، وكان محكوما عليه ، والغالب على أمره معين الدّين أُنُر[2] مملوكُ جدّه طغتكين . وكان أتابك قد أمر كمال الدّين أبا الفضل بن الشّهرزَوْرى[3] بمكاتبة جماعة من مقدمى أحداثها[4] وزناطرتها[5] واستمالتهم و إطماعهم فى الرغائب والصلات ؛ ففعل ذلك فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد ، وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين ، وجدد عليهم العهود ، وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشّهيد إلى البلد ليفتحوا له الباب و يسلّموا البلد إليه . فأعلم كمال الدين (ق : ٢٩ ا) الشهيد أتابك بذلك ، فقال : لا أرى هذا رأياً ، فإنّ البلد ضيّق الطّرُق والشّوارع ، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكّنون من القتال فيه لضيقه ، وربما كثُر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم

(١) فى ق ٢٨ ب : فتحاما . وهو خطأ أملائى .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ١١ حاشية ٤ .

(٣) انظ ما سبق ، ص ١٥ حاشية ٦ .

(٤) الأحداث رجال الشرطة المكافون بإخماد الفتن والاضطرابات وعقاب مثيرى الشغب : أو هم رجال الحرس الإقليمى فى العصور الوسطى : Reinaud, J. A., 1848, . Dozy, Supp. Dict. Ar. II, 281.

(٥) الزناطرة طبقة معينة من سكان المدن مولعة بتحريك الفتن والقلاقل : Dozy, Supp. Dict. Ar.

لأنّهم يقاتلون على الأرض والسطوحات ، و إذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرُّق لضيق المسالك فيطمع فينا أهلُه . وعاد (٣٠ ب) عن ذلك العزْم بحزمه وحذره .

ومن العجب أن محمد بن بورى صاحب دمشق توفى[1] وأتابكُ يحصره ، فضبط أُنُر الأمور وساس البلد ، فلم يتغيّر بالنّاس حال . وأرسل إلى بعلبك فأحضر ولده مجير الدين آبق بن محمد بن بورى[2] ، ورتبه فى الملك مكان أبيه ، فمشى الحال بتمكين معين الدين أُنُر وحسن تدبيره . وهـذا مجير الدين آبق هو الذى منه أخذ نورُ الدين محمود بن زنكى دمشق كما سيأتى . ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بعلبك مُعين الدين أُنُر ؛ فأرسل إليها نائبه وتسلمها . فلما علم الشهيد ذلك سار إلى بعلبك ، وحصرها عدة شهور ، فملكها عنوة ، وترك بها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين دزداراً ، وعزم على العَوْد عنها إلى دمشق ، فجاءته رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة ، فأجابه إلى ذلك ، وعاد عن قصد دمشق ، وقد خُطب له فيها وصار أصحابها فى طاعته وتحت حكمه[3] .

قال يحيى بن أبى طىّ الحلبى : واتّفق أن الأمراء لمّا نزلوا من بعلبك أفسدوا ذخائرها ، فقبض عليهم أتابك زنكى وقتل بعضهم وصلبهم ، وكان ولّى قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبسانى . فحكى أنه أحضر إليه فى جملة الأمراء شيخ مليح الشيبة ، ومعه ولده أمرد كأنه فلقة قمر فقال الشيخ لصلاح الدين : سألتك بحياة المولى أتابك إلا صلبتنى قبل ولدى لئلا أراه يعالج سكرات الموت ! و بكى . وكان نجم الدين أيّوب واقفا ، فرحم الشيخ و بكى ، وسأل صلاح الدّين فى إطلاقه فقال : ما أفعل خوفا من المولى أتابك . فذهب نجم الدين إلى أتابك وسأله فى الشّيخ وولده ، وقصّ عليه ما قاله ؛ فأذن بإطلاقه و إطلاق من بقى من

(١) سنة ٥٣٤ . ذيل تاريخ دمشق : ٢٧١ .

(٢) ولى دمشق بعد أبيه سنة ٥٣٤ وكان صغير السن ؛ واستطاع أن يظهر سطوته بعض الشىء بعد وفاة معين الدين أنر سنة ٥٤٤ ، وبقى فى دمشق حتى فتحها نور الدين سنة ٥٤٩ ، فسقطت الأسرة البورية وانتقل آبق الى حمص إقطاعاً له من نور الدين ، ثم إلى بالس ناحية الفرات ، ثم إلى بغداد فى أيام الخليفة المقتفى ، وبها مات بعد سنة ٥٧٢ . انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٧ — ٣٢٩ ؛ تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر : ٢ : ٣١٧ .

(٣) إلى هنا ينتهى هذا الاقتباس من الأتابكة .

الجماعة ، ووهبه نصف بعلبك . وقيل إنّ نجم الدين ورد على أتابك وهو قد مَلَك بعلبك فسأله فى الأمراء فأطلقهم له ، وولاّه بعلبك ، وكتب له ثلثها ملـكا ، واستقرّ فيها هو وأهله ؛ ولم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زنكى ، فأخرجه منها على ما سنذكره .

ثم إن أتابك بعد ملـكه بعلبك سار إلى دمشق ، فنزل البقاع[١]. فوردت هدية صاحب دمشق ، ويطلب العود ويعطيه خمسين ألف دينار ، ويعطيه حمص . فأشار نجم الدين على زنكى بقبول ذلك ، وقال هذا مال كثير ، وقد حصل بلا تعب ، و بلد كبير بلا عناء ، ودمشق (ق : ٢٩ ب) بلد عظيم ، وقد ألف أهله هذا البيت وتمرّنوا على سياستهم وقد بلغتهم الأحوال التى جرت ببعلبك . (١٣١) فامتنع زنكى من قبول ما أشار به ؛ ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه

فصـــل

ثم[٢] سار أتابك الشهيد فى هـذه السنة ، وهى سنة أربع وثلاثين ، إلى بلاد الفرنج فأغار عليها . واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه ، فلقيهم بالقرب من حصن بارين[٣]، وهو للفرنج ؛ فصبر الفريقان صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير . ونصر الله المسلمين ، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم ، فدخلوا حصن بارين ، وفيهم ملك القدس ، لأنه كان أقرب حصونهم ، وأسلموا عدتهم وعتادهم ، وكثر فيهم الجراح . ثم سار الشهيد إلى حصن بارين فحصره حصرا شديدا ؛ فراسلوه فى طلب الأمان ليَسْلَموا و يُسَلِّموا الحصن ، فأبى إلا أخذهم قهرا . فبلغه أنّ مَنْ بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم ، و يُنْهُون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر ؛ فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل ، ومن بالحصن لا يعلمون بشىء من ذلك لقوة الحصر عليهم . فأعادوا مراسلته فى طلب الإمان ، فأجابهم وتسلّم الحصن

(١) المقصود هنا أرض البقاع ، ويقول عنها ياقوت : هى أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق . معجم البلدان : ٢ : ٢٠٠ .

(٢) لا يزال الاقتباس من ابن أبى طى .

(٣) يطلق العامة على هذه البلدة اسم بعرين ، وهى بين حلب وحماة من جهة الغرب . معجم البلدان ٢ : ٣٤ — ٣٥ .

وساروا ، فلقيتهم أمداد النصرانية ، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن . فلاموهم وقالوا عجزتم عن حفظه يوما أو يومين ! فحلفوا لهم إنا لم نعلم بوصولكم ، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا إلى الآن . فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا ، فحقنّا دماءنا بتسليم الحصن .

قال ابن الأثير(١) : وكان حصن بارين من أضرّ بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها ، وتقطعت السبل ؛ فأزال الله تعالى بالشهيد ، رحمه الله هذا الضرر العظيم . وفى مدة مقامه على حصن بارين سيّر جنده إلى المعرة وكفرطاب(٢) وتلك الولاية جميعها ، فاستولى عليها وملكها ، وهى بلاد كبيرة وقرايا عظيمة .

قلت : وقد قال القيسرانى يذكر هزيمة الفرنج ويمدح زنكى قصيدة أولها :

حَذار مِنّا ، وأنّى ينفعُ الحذر ، وهى الصوارم لا تُبقى ولا تَذَر
وأيْن ينجو ملوكُ الشِّرك من ملك مَنْ خيلُه النَّصر ، لا بلْ جُندُه القَدر
سلّوا سيوفا كأغماد السيوف بها صالوا فما غمدوا نصْلاً ولا شهروا
(٣١ب) حتى إذا ما عمادُ الدِّين أرهقهم فى مأزق من سناه يبرق البصر
وَلَّوْا تضيقُ بهم ذرعاً مسالكُهم والموتُ لا ملجأٌ منه ولا وَزَرُ
وفى المسافة من دون النَّجاة لهم طُولٌ وإن كان فى أقطارها قصر
وأصبح الدين لا عينا ولا أثراً يخاف والكفر لا عين ولا أثر
(ق : ١٣٠) فلا تخفْ بعدها الإفرنج قاطبة فالقوم إن نفروا ألْوَى بهم نفر
إن قاتلوا قُتِلوا أو حاربوا حُرِبوا أو طاردوا طُرِدوا أو حاصروا حُصِروا

(١) فى كتاب الأتابكة : ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) بين المعرة وحلب فى برية معطشة تجمع مياه أمطارها فى صهاريج . معجم البلدان : ٧ : ٢٦٥ — ٢٦٦ .

وطالما استفحل الخَطْبُ البهيمُ بهم   حتّى أتى مَلكٌ آراؤه غُرر
والسيف مُفْترِعٌ أبكار أنفسهم   ومَنْ هنالك ؟ قيل الصارم الذّكر
لا فارقت ظِلّ محيي العدل لامعة   كالصبح تطوى من الأعداء مانشروا
ولاَ انثنى النّصْرُ عن أنصار دولته   بحيثُ كان وإن كانوا به نُصروا
حتّى تعود ثُغورُ الشّام ضاحكةً   كأنما حلّ فى أكنـــــافها عمر

وقال ابن منير :

فدتك المـــــلوكُ وأيّامُها   ودام لنقضـــــك إبرامها
وزلّت لِعَيْنيك أقْدَامُهـــــا   وزال لبطشـــــك إقْدَامُهَا
ولو لم تُسلّمِ إليـــــك القلوب   هواها لمـــــا صحّ إسلامها
أيَا مُحييَ العـــــدل لمّا نعاهُ   أيامَى البرايا وأيتامُهـــــا
ومُسْتَنْقِذَ الدّين من أمّـــــة   أذال المحاريب أصنامهـــــا
دلِفْتَ لهـــــا تقتفيك الأسُو   دُوَالْبِيض والسُّمر آجامهـــــا
جزرت جزيرتها بالسُّيـــــو   فِ حتى تشاءمها شامُهـــــا
وصـــــارت عوارىَ أكنافه   متى شئت أرخص مستامهـــــا

قال ابن الأثير[1] : ولما وصل الرّوم والفرنج إلى الشام ورأوا الأمر قد فات ، أرادوا جَبْرَ مُصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين . فنازلوا حلب وحصروها ، فلم يرَ الشّهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم ، لأنهم كانوا فى جمع عظيم . فانحاز عنهم ، ونزل قريبا منهم ، يمنع عنهم الميرة ، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدوّ (١٣٢) فيها ، والإغارة عليها . وأرسل القاضى كمال الدين ابن الشّهْرَزَوْرى إلى السّلطان مسعود ينهى إليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدوّ ، ويطلب منه النّجدةَ وإرسال العساكر . فقال له كمال الدين : أخاف أن تخرج

(١) اقتباس حرفى طويل من الأتابكة ، حذف أبو شامة بعضه . انظر الأتابكة : ١١٠ — ١١٥ .

البلاد من أيدينا و يجعل السلطان هذا حجة و يُنْفذ العساكر ، فإذا توسطوا البلاد ملكوها . فقال الشّهيد : إن هذا العدوّ قد طمع فىّ ، و إن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ؛ وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار . قال : فلمّا وصلت إلى بغداد وأدّيت الرسالة ، وعدنى السلطان بإنفاذ العساكر ، ثم أهمل ذلك ولم يتحرّك فيه بشيء ؛ وكُتُبُ الشّهيد إلى متّصلة يحثنى على المبادرة بإنفاذ العساكر ، وأنا أخاطِب فلا أُزادُ على الوعد . قال : فلما رأيت (عدم)[1] اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرت فلانا ، وهو فقيه كان ينوب عنه فى القضاء ، فقلت : خذ هذه الدنانير وفرقها فى جماعة من أوْباش بغداد والأعاجم ، و إذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا ، وأنت معهم ، واستغاثوا بصوت واحد : وَا إسْلاماه ! وَا دِينَ مُحمّدَاه ! و يخرجون من الجامع و يقصدون دار السلطنة مستغيثين . ثم وضعت إنسانا (ق : ٣٠ ب) آخر يفعل مثل ذلك فى جامع السلطان . فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر ، قام ذلك الفقيه ومشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه ، وصاح ، وتبعه أولئك النّفر بالصّياح والبكاء . فلم يبق بالجامع إلاّ مَن قام يبكى ؛ و بطلت الجمعة ، وسار الناس كلّهم إلى دار السلطان . وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم . فاجتمع أهل بغداد وكلّ من بالعسكر عند دار السلطان ، يبكون و يصرخون و يستغيثون ، وخرج الأمراء عن الضّبط ، وخاف السلطان فى داره وقال ما الخبر ؟ فقيل له : إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغَزَاة . فقال : (٣٣ ا)[2] أحضروا ابن الشّهرزَوْرى . قال : فحضرت عنده وأنا خائف منه ، إلاّ أنّى قد عزمت على صِدْقه وقول الحق . فلما دخلت عليه قال : يا قاضى : ما هذه الفتنة ؟ فقلت : إن الناس قد فعلوا هذا خوفا من الفتنة والشر ، ولا شك أن السلطان ما يعلم كم بينه و بين العدو ، و إنما بينكم نحو أسبوع . ولئن أخذوا حلب انحدروا إليك فى الفرات وفى البر ، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد . وعظمت الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم فقال : اردُدْ هؤلاء[3] العامة عنا ، وخُذْ من العساكر

(١) ساقطة من ق ٣٠ ا ، والسياق يستدعيها .

(٢) من هنا نعود إلى اعتبار المخطوطة ك أصلا للنشر .

(٣) رسمت فى الأصل وكذلك فى ق ٣٠ ب : هؤلاى .

ماشئت، وسرْ بهم والأمداد تلحقك . قال فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم [فأخبرتهم](١) وعرّفتهم الحال ، وأمرتهم بالعَوْد ، فعادوا وتفرقوا . وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس ، وكتبت إلى الشّهيد أُعرِّفُه الخبر وأنّه لم يبق غيرُ المسير ، وأُجدِّدُ استئذانه فى ذلك ، فأمرنى بتسييرهم والحث على ذلك ، فعَبَرت العساكر الجانب الغربى . فبينما نحن نتجهز للحركة وَإذَا قد وصل نجّابٌ من الشّهيد يخبر بأن الروم والفرنج قد رحـــلوا عن حلب خائبين ، لم ينالوا منها غرضا ؛ ويأمرنى بترك استصحاب العساكر . فلما خوطب السلطان فى ذلك أصرّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها ؛ وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها . (قال)(٢) : فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتّى أعَدْتُ العساكر إلى الجانب الشرقى وسرت إلى الشّهيد . قال ابن الأثير : فانظُروا إلى هذا الرجل الذى هو خير من عشرة آلاف فارس ، يعنى كمال الدين . رحم الله الشهيد فلقد كان ذاهمة عالية ، ورغبة فى الرجال ذوى الرأى والعقل ، يرغبهم ويخطبهم من البلاد ، ويُوفّر لهم العطاء .

حكى لى والدى (٣) قال : قيل للشهيد : إنّ هذا كمال الدّين يحصل له فى كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية ، وغيره يقنعُ منك بخمسمائة دينار . فقال لهم : بهذا العقل والرّأى تدبِّرون دولتى ! إن كمال الدين يَقِلُّ له هذا القدرُ ، وغيره يكثُر له خمسمائة دينار ! فإنّ شغلا واحداً يقوم فيه كمال الدين خيرٌ من مائة ألف دينار . وكان كما قال رحمه الله تعالى .

فصـــــل

قال(٤) : وفى سنة سبع وثلاثين سار الشهيد إلى بلد الْهَكّارية(٥) ، وكان بيد الأكراد ،

(١) ما بين الحاصرتين من ق ٣٠ ب .
(٢) ساقطة من ق ٣٠ ب .
(٣) أى والد ابن الأثير .
(٤) ابن الأثير . وهو استمرار للاقتباس السابق من الأتابكة .
(٥) بلدة وناحية وقرى فوق الموصل فى جزيرة ابن عمر يسكنها قوم من الأكراد يقال لهم الهكارية . معجم البلدان : ٨ : ٤٦٩ .

وقد أكثروا فى البلاد الفساد ، إلا أن نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم . فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعبانى ، وهى من أعظم قلاعهم وأحصنها ، فملكها وأخربها ، وأمر ببناء قلعة العمادية عوضاً عنها . وكانت هذه العمادية حصناً كبيراً (٣٣ ب) عظيما فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره . فلما ملك أتابك الشهيد البلاد التى لهم قال : إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول الله لا أعجز عنه . فأمر ببنائه ، وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر ، فبُنى وسماه القلعة العمادية ، نسبة إلى لقبه [عماد الدين][1] وفى هذه السنة خُطب لأتابك بآمِد[2] ، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته والخطبة له ؛ فأجابه إلى ذلك وفيها [ملك الشهيد مدينة عانة][3] . وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها فى شوال ؛ [وقصد][4] ولاية دمشق فشق بها .

وفى[5] سنة ثمان وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعساكره ؛ وكان قد وقع بينه و بين الشهيد وحشة[6] . فترددت الرسل بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار أمامية يحملها الشهيد إلى السلطان ؛ وطلب أن يحضر الشهيد فى خدمته ، فامتنع ، واعتذر باشتغاله بالفرنج ، فعذره وشرط عليه فتح الرُّها . وكان من أعظم [الأسباب][7]

---

(١) ما بين الحاصرتين من ق ٣١ ا .

(٢) أعظم مدن ديار بكر وأجلها . تحيط بها دجلة كالهلال وبها عيون قريبة يتناول ماؤها باليد . معجم البلدان : ١ : ٦١ — ٦٣ .

(٣) هذه العبارة ساقطة من متن الأصل ومثبتة فى هامشها مع تصديرها بلفظة « حصر » بدلا من ملك . والمثبت هنا من ق ٣١ ا وعانة مدينة بين الرقة وهيت ، وكانت تعد من أعمال الجزيرة ، وتشرف على الفرات ، وبها قلعة حصينة . معجم البلدان : ٦ : ١٠٢ — ١٠٣ .

(٤) ساقطة من متن الأصل ومثبتة فى هامشه .

(٥) بداية اقتباس حرفى جديد من الأتابكة ، وإن كان أبو شامة قد ضغط بعض أجزائه ضغطاً شديداً أو أجلها . الأتابكة : ١١٥ — ١٢٤ .

(٦) من ق ٣١ ا ، وفى ك : وحشية .

(٧) ما بين الحاصرتين من ق ٣١ ا ، وهى مثبتة فى هامش ك .

فى تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له إن تلك[1] البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين ، فإنها قد وليها قبله مثل جاولى سقاوه ، ومودود ، وجيوش بك ، والبرسقى ، وغيرهم من الأكابر . وكان السلاطين يُمدونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها ؛ ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك ، فلم يُمده أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال ، ومع هذا فقد فتح من بلاد العدو عدة حصون وولايات ، وهزمهم غير مرة ، واستضعفهم ، وعز الإسلام به . ومن الأسباب المانعة له أيضاً أن الشهيد كان لا يزال ولده الأكبر سيف الدين غازى فى خدمة السلطان مسعود بأمر والده ، وكان السلطان يحبه ويُقربه ، ويعتمد عليه ويثق به . فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجئ إلى الموصل ؛ وأرسل إلى نائبه بالموصل يأمره أن يمنعه من دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً . ففعل ذلك ، وقال له : ترسل إلى والدك تستأذنه فى الذى تفعله . فأرسل إليه ، فعاد الجواب : إننى لا أريدك منهما السلطان ساخط عليك . وألزمه بالعَوْد إليه ، فعاد ومعه رسولٌ إلى السلطان يقولُ له : إننى لما بلغنى أن ولدى فارق الخدمة بغير إذن لم أجتمع به ورَدَدْتُه إلى بابك . فحلّ هذا عند السلطان محلا كبيراً ، وأجاب إلى ما أراد الشهيد . ولما استقر المال [حمل][2] منه نحو عشرين ألف دينار . ثم إن الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان ، فاحتاج إلى مداراة الشهيد ، وأطلق له الباقى استمالة له .

وفى هذه السنة سار الشهيد إلى ديار بكر ففتح عدة بلاد منها (٣٤ ا) طنزة[3] ، وإسعرد[4] ، وملك مدينة المعدن الذى يعمل منه النحاس من أرمينية ، ومدينة حيزان ، وأخذ من أعمال ماردين[5] عدة مواضع ، ورتب أمور الجميع ، وملك مدينة حانى[6] ، وحاصر

(١) فى ق ٣١ ا : ملك .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ٣١ ب .

(٣) من بلاد جزيرة ابن عمر بديار بكر . معجم البلدان : ٦ : ٦٢ — ٦٣ .

(٤) يذكرها ياقوت بالتاء بدل الدال ويقول إنها قرب حيزان ، وهما من بلاد ديار بكر أيضاً . معجم البلدان : ٣ : ٢٨١ .

(٥) قلعة على قنة جبل الجزيرة ، وتشرف على دنيسر ودارا ونصيبين . معجم البلدان : ٧ : ٣٦١ .

(٦) من مدن ديار بكر اشتهرت بوجود الحديد بها ، ومنها كان يجلب إلى سائر البلاد . معجم البلدان : ٣ : ٢٠٢ — ٢٠٣ .

آمد ، وأرسل عسكراً إلى مدينة عانة ، فملكها له ، وقد تقدم ذكرها فى السنة قبلها .

فصـــل

فى[1] فتح الشهيد الرها فى جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . وكانت لجوسلين ، وهو عاتى الفرنج وشيطانهم ، والمقدّم على رجالهم وفرسانهم . وكانت مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً ، وأعادها إلى حكم الإسلام . وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلا ، وهى أحد الكراسىّ عندهم ؛ فأشرفها[2] البيت المقدس ، ثم أنطاكية ، ثم رومية ثم[3] قسطنطينية والرها . وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شر عظيم . وملكوا من نواحى ماردين إلى الفرات على طريق سِنْجار عدة حصون كسروج[4] ، والبيرة[5] ، وجملين ، والمُوَزَّر[6] . وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وماردين ، ونصيبين ، ورأس عين[7] ، والرّقة . وأما حرّان[8] فكانت معهم فى الخزى كل يوم قد صبحوها بالغارة . فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم ، وعلم أنه لا ينال منها غرضاً ما دام جوسلين بها . فأخذ فى إعمال الحيل والخداع ، لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع . فتشاغل عنها يقصد ما جاورها من ديار بكر التى بيد الإسلام كحانى وجبل

(١) استمرار للاقتباس السابق من الأتابكة .

(٢) المثبت هنا من ق ٣١ ب ومن الأتابكة : ١١٨ ، وفى ك : وأشرفها .

(٣) فى ق ٣١ ب : ثم وفى الأتابكة : ١١٨ : ثم رومية وقسطنطينية والرها . وبهذا تكون الثلاثة الأخيرة فى درجة واحدة من الشرف .

(٤) قريبة من حران من ديار مضر . معجم البلدان : ٥ : ٧٧ .

(٥) قرب سميساط بين حلب والثغور الواقعة على حدود الروم . وهناك مدينة أخرى بهذا الاسم بين القدس ونابلس . والأولى هى المقصودة هنا . معجم البلدان : ٢ : ٣٣٠ .

(٦) كورة بالجزيرة ، وتعد منها نصيبين الروم . معجم البلدان : ٨ : ١٩٣ .

(٧) من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر ، وهى من دنيسر أقرب . نفس المصدر : ٤ : ٢٠٥ — ٢٠٧ .

(٨) قصبة ديار مضر ، يقدر ياقوت المسافة بينها وبين الرها بيوم وبينها وبين الرقة بيومين ، وهى على طريق الموصل والشام والروم . نفس المصدر : ٣ : ٢٤١ — ٢٤٣ .

جور(١) وآمد ؛ فكان يقاتل من بها قتالا فيه إبقاء ، وهو يُسِرُّ حشواً فى ارتغاء ، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ، ويطلبها وسواها يروم . ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده ، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده . فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظن أنه لا فراغ له إليه ، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه . ففارق الرها إلى بلاده الشاميّة ، ليلاحظ أعماله ، ويتعهد ذخائره وأمواله . فأقبل الشهيد مسرعا بعساكره إلى الرُّها .

ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد :

بجيشٍ جاش بالفرسان حتى ظننت البر بحراً من سلاحِ
وألسنةٍ من العذبات حمر تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروعَ جيشُه ليلٌ بهيم وغُرَّته عمود للصباح
صَفوحٌ عند قدرته ولكن قليلُ الصفح ما بين الصِّفاح
وكان ثباتُه للقلبِ قلباً وهيبتُه جناحاً للجناح

(٣٤ ب) وألَحَّ(٢) الشهيد فى حصارها فملكها عنوةً ، فاستباحها ، ونكس صلبانها ، وأباد قُسُوسها ورُهبانها ، وقتل شجعانها وفرسانها ، وملأ الناس أيْدِيَهم من النَّهب والسَّبْىْ . ثم إنه دخل البلد فراقه ، فأنف لمثله من الخراب . فأمر بإعادة ما أُخذ من أثاث ومال وسبىْ ورجال ، وجوار وأطفال ، فَرُدُّوا عن آخرهم ، لم يُفْقَد منهم إلا الشاذّ والنّادر ؛ فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً . ثم رتب البلد وأصلح من شأنه ، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا ، كسروج وغيرها ، وأخْلَى ديار الجزيرة من

(١) كورة كبيرة من أرمينيا متصلة بديار بكر ، وبها قلاع وقرى ، وأهلها من نصارى الأرمن . نفس المصدر : ٣ : ٤٩ .

(٢) يبالغ أبو شامة فى اختصار هذه الفقرة من الأتابكة ، وعذره أنها كلها مزخرفة مزوقة ، كتبت بأسلوب ذلك العصر الذى يميل الى المبالغة فى استعمال المحسنات البديعية . وبهذا يطبق أبو شامة على هذه العبارة قاعدته التى طبقها على كتب العماد الكاتب عند اقتباسه لها ، وهى القاعدة التى تحدث عنها فى صدر كتابه . انظر ما تقدم فى هذا الكتاب ص : ٨ .

معرة الفرنج وشرهم ، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين . وكان فتحا عظيما طار فى الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وشهده خَلْقٌ كثيرٌ من الصالحين والأولياء .

قال ابن الأثير[1] : حكى لى جماعة أعرف صلاحهم أنّهم رأَوْا يوم فتح الرّها الشّيخ أبا عبدالله بن على بن مهران الفقيه الشافعى ، وكان من العلماء العاملين ، والزّاهدين فى الدّنيا ، المنقطعين عنها ، وله الكرامات الظاهرة . ذكروا عنه أنّه غاب عنهم فى زاويته يومه ذلك ثم خرج عليهم وهو مُسْتَبْشِرٌ مسرور ، عنده من الارتياح ما لم يروه أبداً . فلمّا قعد معهم قال : حدثنى بعض إخواننا أن أتابك زنكى فتح مدينة الرّها ، وأنّه شهد معه فتحها يومنا هذا . ثم قال ما يضرُّك يا زنكى ما فعلت بعد اليوم ؛ يُردّد هذا القول مراراً ؛ فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح . ثم إن نفرا من الأجناد حضروا عند هذا الشّيخ وقالوا له : منذُ رأيناك على السّور تكبّر أيْقنّا بالفتح ؛ وهو ينكر حضوره ، وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً .

قال : وحكى لى بعضُ العلماء بالأخبار والأنساب ، وهو أعلم من رأيت بها ، قال : كان ملك جزيرة صقلّية من الفرنج لما فتحت الرّها ، وكان بها بعض الصّالحين من المغاربة المسلمين ، وكان الملك يُحضره ويكرمه ، ويرجع إلى قوله ، ويقدمه على مَن عنده من الرهبان والقسيسين . فلما كان الوقتُ الذى فُتحت فيه الرُّها سيّر هذا ملكُ الفرنج[2] جيشاً فى البحر إلى إفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا ، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالسٌ وعنده هذا العالم المغربى وقد نعس وهو شبيه النائم . فأيقظه الملك وقال : يا فقيه : قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيْت وكيْت ؛ أين كان محمد عن نصرهم[3] ؟ فقال له : كان قد حضر فتح الرُّها . فتضاحك مَنْ عنده من الفرنج ؛ فقال لهم الملك : لا تضحكوا فوا الله ما قال عن غير علم . واشتد هذا [على][4] الملك ؛ فلم يمض غير قليل حتّى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين ، فأنساهم شدةُ هذا الوهن رخاء ذلك الخبر ، لعلو منزلة الرها عند النّصرانية . قال : وحكى لى أيضاً غيرُ واحد ممن أثق إليهم ، أن رجلا من الصالحين قال : رأيت الشّهيد بعد قتله فى المنام

(١) استمرار للاقتباس السابق من الأتابكة .
(٢) هكذا وردت فى ك وكذلك فى ق ٣٢ ب .
(٣) فى ق ٣٢ ب : نصرتهم .
(٤) ما بين الحاصرتين من ق ٣٢ ب .

(١٣٥) في أحسن حال ، فقلت له ما فعل الله بك ؟ فقال غفر لي ، فقلت بماذا ؟ قال بفتح الرّها .

قلت وهنأه القيسراني عند فتح الرها بقصيدة أولها :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده ... وهل طوّق الأملاك إلا نجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا ... سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الإسلام فخراً بطوله ... ولم يك يسمو الدينُ لولا عماده
وذاد قسيم الدولة ابنُ قسيمها ... عن الله ما لا يستطاع ذِياده
لِيهنِ بنى الإيمان أمن ترفّعت ... رواسيه عزًّا واطمأن مِهاده
وفتحٌ حديثٌ في السماع ، حديثُه ... شهىٌّ إلى يوم المَعادِ مُعادُه
أراح قلوباً طِرن من[1] وُكُناتِها ... عليها فوافى كلَّ صدر فؤاده
لقد كان في فتح الرُّهاء دلالة ... على غير ما عند العُلُوج اعتقاده
يُرجُّون ميلاد ابن مريم نُصرةً ... ولم يُغن عند القوم عنه ولاده
مدينةُ إفْك منذ خمسين[2] حجة ... يفلّ حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الأبصار حتى لوانّها ... ترقّت إليه خانَ طرْفاً سواده
وجامحةٍ عَزّ الملوكَ قيادُها ... إلى أن ثناها من يَعِزُّ قياده
فأوسعها حربَ القِراع مؤيَّدٌ ... بصيرٌ بتمرين الألدّ لداده
كأن سنا لمع الأسنّة حوله ... شرار ولكن في يديه زناده
فأضرمها نارين : حرباً وخُدْعةً ... فما راعَ إلاّ سورُها وانهداده
فصدّت صُدُودَ البكر عندافتضاضها ... وهيهات كان السيف حتماً سِفاده
فيا ظفراً عمَّ البلادَ صلاحُه ... بمن كان قد عمَّ البلادَ فساده

(١) في ق ٣٢ ب : عن .

(٢) في ك ، وكذلك ق ٣٢ ب : خمسون .

فلا مطلقٌ إلا وشُـــدّ وثاقُه ولا موثقٌ إلاّ وحُـلّ صِفاده
ولا منـــبرٌ إلا ترنّح عودُه ولا مصحفٌ إلا أنار مـــداده
فإن يشكل « الابرنز » فيها حياته[1] وإلا فقلْ للنجم كيف سُهاده
و باتت سرايا «القمص» تقمص دونها كما تتنزّى عن حريق حراده
إلى أين يا أسْرى الضـلالة بعدها لقـد ذل غاويكم وعـزّ رشاده
رويدَكم لا مانـعٌ من مُظفَّر يعاند أسـباب القضاء عنـاده
مُصيبٌ سهام الرأى لو أنّ عزمه رمى سدّ ذى القرنين أصمى سداده
وقل لملوك الـكفر تُسلِمُ بعدها ممالـكَها ، إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح أيتها الدُّجى فيا طالمـا غال الظلامَ امتداده
ومن كان أملاكُ السّموات جنده فأية أرض لم ترضْها جيـاده
ولله عزم ماء سيحان[2] ورده وروضـــة قسطنطينية[3] مُستراده

وله من قصيدة هنّأ بها القاضى كمال الدين ابن الشهر زورى أولها :

(٣٥ ب) هى جنة المأوى فهل مِن خاطب .

يقول فيها :

إن الصـــفائح يوم صالحت الرها عطفت عليها كل أشرس ناكب
فتـــح الفُتوح مبشراً بتمامه كالفجر فى صدر النهار الآيب
لله أيةُ وقفـــةٍ بدريّةٍ نُصرت صحائبها بأيمـن صاحب
ظفرٌ كمالَ الدّين كنتَ لقاحـه كم ناهض بالحرب غـير محارب

(١) رسمت هكذا فى ك : حيوته .

(٢) نهر كبير بالثغر من نواحى المصيصــة يسمى نهر أذنة ، بين أنطاكية والروم ، ويمر بأذنة ثم ينفصل عنها نحو ستة أميال ، فيصب فى البحر الأبيض المتوسط . معجم البلدان : ٥ : ١٩١ — ١٩٢ .

(٣) بهاء ساكنة حتى يستقيم وزن البيت .

وأمدَّكم جيشُ الملائك نُصرةً ... بكتائبٍ محفوفة[1] بكتائب
جنبوا الدّبور وقدّتم ريحَ الصَّبا ... جندُ النبوة هل لها من غالب !
أترى الرها [الورهاء][2] يوم تمنعت ... ظنّت وجوب السور سورة لاعب
لا أين يا أسرى المهالك بعدها ... ضاق الفضاء على نجاة الهارب
شدًّا إلى أرضِ الفرنجة بعدها ... إن الدُّرُوب على الطّريق اللاّحب
أفغرَّكم والثّارُ رهنُ دمائكم ... ما كان من إطراق لحظ الطّالب ؟!
وإذا رأيت اللّيث يجمع نفسَه ... دونَ الفريسة فهو عينُ الواثب !

وقال ابن منير :

صفات مجدك لفظٌ جلّ معناه ... فلا استردَّ الذى أعطاكهُ الله
يا صارماً بيمين الله قائمُهُ ... وفى أعالى أعادى الله حدّاه
أصبحتَ دُون ملوك الأرض مُنفرداً ... بلاَ شبيهٍ إذِ الأملاكُ أشباه
فداك من حاولتْ مسعاك همّتُه ... جهلاً ، وقصّر عن مسعاك مسعاه
قل للأعادى : ألاَ موتوابه كمداً ... فاللهُ خيّبكُم واللهُ أعطاه
ملْك تنام عن الفحشاء همّتُهُ ... تُقًى وتَسهرُ للمعروف عيناه
ما زال يَسْمُك والأيام تخدمه ... فيما ابتلاه وتُدْنى ما توخّاه
حتى تعالت عن الشِّعرى مشاعره ... قدْراً ، وجاوزت الجوزاء نعلاه
وقدْروى النّاس أخبار الكرام مَضوْا ... وأين مِمّا رَوَوْه ما رأيناه
أين الخلائف عن فتح أتيح له ... مظلّلٌ أفُقَ الدُّنيا جناحاه
على المنابر[3] من انبائه أرَجٌ ... مقطوبةٌ بفتيق المسك ريّاه

(١) فى ق ٣٣ ا : محثوثة .
(٢) مابين الحاصرتين من ق ٣٣ ا ، وهى ساقطة من ك .
(٣) جار ومجرور ، وقد تكون فعلا ومفعولا به ، على أن الألف اللينة فى الفعل رسمت ياء خطأ كما هو الحال فى كثير من الأفعال المعتلة التى أخطأ الناسخ فى رسمها . انظر المقدمة .

فتحٌ أعاد على الإسلام بهجته ... فافترّ مبسمُه واهتزّ عِطفاه

يهدى بمعتصمٍ بالله فتكته ... حديثها نَسَخَ الماضى وأنساه

إنّ الرّها غير عمّوريّةٍ[1]، وكذا ... مَنْ رامها ليس مَغْزَاهُ كمغزاه

أخت الكواكب عزًّا ما بغى أحدٌ ... من الملوك لها وقتا فواتاه

حتّى دَلَفتَ لها بالعزم يشحذُه ... رأىٌ يبيت فُوَيْقَ النّجم مسراه

مشمّراً وبنو الإسلام فى شُغُل ... عن بدء غرسٍ لهم أثمارُ عُقباه

يا مُحيى العدل إذ قامت نَوَادِبُهُ ... وعامرَ الجود لما مَحّ مغناه

يا نعمة الله يستصْفى المزيد بها ... للشاكرين ويستقنى صفاياه

أبقاك للدّين والدّنيا تحوطهما ... من لمْ يُتوّجك هذا التّاجَ إلاّ هُو

(١٣٦) ولابْن منير أيضاً من قصيدة تقدّم بعضها :

أيا ملِكاً ألقى على الشِّرك كلكلا ... أناخ على أماته كلكل الثّكل

جمعتَ إلى فتح الرّها سدّ بابه ... بجمعك بين النّهب والأسر والقتل

هو الفتح أنسى كلّ فتح حديثُه ... وتوّج مسطورَ الرّواية والنّقل

فضضت به نقش الخواتم بعده ... جُزيت جزاء الصّدق عن خاتم الرّسْل

تجرّدت للإسلام دُون ملوكه ... تُبَتِّكُ أسباب المذلّةِ والخذْل

أخو الحرب غذّته القراع مفطّما ... يشوب بإقدام الفتى حنكة الكهل

وله من قصيدة أخرى :

بعماد الدّين أضحت عُروة الدّ(م)ين معصوباً بها الفتحُ المبين

---

(١) هى المدينة البيزنطية التى غزاها الخليفة المعتصم العباسى فى سنة ٢٢٣ ، وهى التى عناها أبو تمام بقوله :

يايوم وقعة عمّوريّة انصرفت ... عنك المنى حُفّلاً معسولة الحلب

وهناك عمورية أخرى على شاطئ العاصى بين فامية وشيزر . انظر معجم البلدان : ٦ : ٢٢٦ — ٢٢٧ .

واستزادت بقسيم الدولة الْـ ـقسم من إدْحاض كيدْ المارقين

ملكٌ أسْهَرَ عينــــا لم تزل همُّهـــا تشريدُهمٌ الرّاقدين

لا خَلَتْ من كَحَل النصر فقد فقأت[1] غيظاً عيونَ الحاســدين

كلُّ يوم (مرّ)[2] مِنْ أيامــه فهو عيدٌ عائد للمســلمين

لو جرى الإنصاف فى أوصافه كان أولاهـــا أمير المؤمنين

ما روى الرّاوُون بل ما سطّروا مثل ما خطت له أيدى السنين

إذْ أناخ الشركُ فى أكنافه بمثى ألفٍ ثناهـــا[3] بمئين

وقْعة طاحت بكلب الرّوم من قطعة البين إلى قطع الوتين

إن حمت مصرٌ فقد قام لهـــا واضح البرهان أن الصّين صين

درج الدّهر عليهـــا معصراً لم يدنَّس برام اللاّمين[4]

والرّها لولم تكن إلاّ الرّها لـكفت حَسْماً لشكّ الممترين

همّ « قسطنطين » أن يفرعها ومضى لم يحْوِ منها قِيسْطَ طِينْ

ولـكم مِنْ مَلِكٍ حاولهـــا فتحلى الحين وسماً فى الجبين

هى أختُ النّجم إلاّ أنّهـــا منه كالنّجم لرأى المُبْصرين

مُنِيَتْ منـــه بليثٍ قائد بعْران الذل أســـاد العرين

زارها يزأر فى أشـــدوغَى تُبدل الأُسْد من الزأر الأنين

صوبجوا البيض بضربٍ نَثَر الْـ ـهامَ فى ساحاتها نثر الـكرين

يالَهاَهِمَـــةُ ثغرٍ أضحكت من بنى القلف ثغور الشّامتين

(١) المثبت هنا من ق ٣٣ ب ، وفى ك : فثأت .

(٢) ساقطة من ق ٣٣ ب .

(٣) فى ق ٣٣ با : تلاها .

(٤) هذا البيت ساقط من ق ٣٣ ب .

برنست رأس « برنس[١] » ذلة ... بعد ما جاست حوايا « جوسلين[٢] »
« وسروج » مُذْ وعت أسراجه ... فرقت جمّاعها عنها عِضِين
تلك أقفـــال رماها الله من ... عزمه الماضى بخير الفاتحين
شام منه الشـــام برْقًا ودقُه ... مؤمن الخوف مخيف الآمنين
(٣٦ ب) كم كنيس كنست (قد)[٣] رامها ... منه بعـــد الروح فى ظل السّفين
دنت الآجال من آجالها ... فأحلّتها القطا بعـــدَ القطين
ومنار يجتـــلى صلبانه ... بين بيض تتبارى فى « البرين »
قرعتـــه البيض حتى بدّلت ... قرعة النّاقوس تثويب الأذين
بالقسيميّات مقسومًا لها[٤] ... الدّ (م) هر فى علْك الجين أو لجين
سَلْ بها « حرّان[٥] » كم حرّى سقت ... بردًا من يوم ردّت « ماردين »[٦]
سمطت أمس « سُمَيْسَاط[٧] » بها ... نظم جيش مبهج للنّاظرين
وغدا يلقى على « القدس » لها ... كلكل يدرسها درس الدرين[٨]
همّةٌ تمسى وتضحى عزمـــةً ... ليس حصن إنْ نَحَتْهُ بِحَصين
قل لقــــوم غرهم إمهاله ... ستذوقون شَذَاه بعد حين

(١) هو أمير أنطاكية اللاتينية عندئذ Raymond of Poitou .
(٢) جوسلين الثانى أمير الرها Joscelin II .
(٣) ساقطة من ق ٣٣ ب .
(٤) فى ق ٣٤ أ : مقسوم .
(٥) قصبة ديار مضر ، على طريق الموصل والشام وبلاد الروم . معجم البلدان : ٣ : ٢٤١ — ٢٤٣ .
(٦) قلعة على قنة جبل الجزيرة ، وتطل على دارا ودنيسر ونصيبين . نفس المصدر : ٧ : ٣٦١ .
(٧) غربى الفرات على شاطئه فى طرف بلاد الروم ، ولها قلعة فى شق منها يسكنها الأرمن . نفس المصدر : ٥ : ١٣٨ — ١٣٩ .
(٨) فى هامش ق ٣٤ أ : الدرين حطام المرعى .

إنّه الموت الّذى يدرك من ... فرّ منه مُشفقا للغافلين

وهو يُحيى مُمسكى عروته ... إنّها حبلٌ لِمَنْ تاب متين

مَنْ يُطع ينجُ، ومنْ (يَعصِ[١]) يكن ... من غداةٍ عِبْرة للآخَرين

بك ياشمس المعالى رُدّت الرّ(م)وح ... فى المَيْتَيْن من دنيا ودين

أقسم الجدّ بأن تبقى لِكَىْ ... تملك الأرض يمينا لا يمين

وتُفيض العدل فى أقطارها ... مُنْسِيًا مُؤْلِمَ عسفِ الجائرين

لا تزَلْ دارُك كيف انتقلت ... كعبةً محفوفةً بالطائفين

كلّ يوم يتحلّى جِيدُها ... من نظيم المدح بالدّرّ الثّمين

كلّما أخلص فيها دعوة ... لك قالت ألسُنُ الخلق أمين

فصل

لما[٢] فرغ الشهيد من أخذ الرّها و إصلاح حالها والاستيلاء على ما وراءها من البلاد والولايات سار إلى قلعة البيرة، وهى حصن حصين مطلّ على الفرات، وهو لجوسلين أيضاً، فحصره، وضايقه. فأتاه الخبر بقتل نائبه بالموصل والبلاد الشّرقية، نصير الدين جقر[٣] بن يعقوب، فرحل عنها خوفا من أن يحدث بعده فى البلاد فتق يحتاج إلى المسير إليها. فلما رحل عنها سير إليها حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى صاحب ماردين عسكراً، فسلّمها الفرنج إليهم خوفا من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها. وكان قتل النّصير فى ذى القعدة سنة تسع (١٣٧) وثلاثين. وسببه أن الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد

(١) ساقطة من ق ٣٤ ا.

(٢) اقتباس حرفى من الأتابكة حذف منه أبو شامة بعض التفصيلات. الأتابكة: ١٢٦ — ١٢٩.

(٣) فى هامش ك: «حاشية: قال المؤلف: رأيته بخط من فهم هذه الأسماء الأعجمية جقر بفتح الجيم وكسر القاف المعجمة فى عدة مواضع. والله أعلم».

السلطان محمود[١] بن محمد كان عند الشهيد ، وهو أتابكه ومربيه ، وكان هو يظهر للخلفاء وللسلطان [وأصحاب الأطراف] أنّ البلاد التى بيده للملك ألب أرسلان وأنه نائبه فيها ؛ وكان إذا أرسل رسولا أو أجاب عن رسالة فإنما يقول قال الملك كذا وكذا . وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة ، فعاجلته المنية قبل ذلك . وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة[٢] ، وبها نصير الدين ، وهو ينزل إليه كل يوم يخدمه ويقف عنده ساعة ثم يعود . فحسن المفسدون للملك قتله ، وقالوا له : إنك إن قتلته ملكت الموصل وغيرها ، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ، ولا يجتمع معه فارسان عليك ؛ فوقع هذا فى نفسه وظنه صحيحاً . فلمّا دخل نصير الدين إليه على عادته وثب عليه جماعة فى خدمة الملك فقتلوه وألقَوْا رأسه إلى أصحابه ، ظنًّا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرقوا ، ويملك الملك البلاد . وكان الأمر بخلاف ما ظنوا ؛ فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لمّا رأوْا رأسه قاتلوا مَنْ بالدار مع الملك ، واجتمع معهم الخلق الكثير . وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوى الرأى والتجربة ، فلم يتغير عليه بهذا الفتق شئ . وكان فى جملة من حضر القاضى تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرَزَوْرِى ، أخو كمال الدين ، فدخل إلى السلطان وخدعه حتى أصعده إلى القلعة وهو يُحسّن له الصعود إليها ، وحينئذٍ يستقر له ملك البلاد . فلما صعد القلعة سجنوه بها ، وقُتل الغِلمان الذين قتلوا النّصير ، وأرسلوا إلى أتابك يعرفونه الحال ؛ فسكن جأشه ، واطمأن قلبه . وأرسل زين الدين على بن بكتكين والياً على قلعة الموصل ، وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه ، فسلك بالناس غير الطريق التى سلكها النصير ، وسهل الأمر ، فاطمأن الناس وأمنوا ، وازدادت البلاد معه عمارة . ولمّا رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار إلى حلب فجهز منها جيشا إلى قلعة شَيْزَر ، وبينها وبين حماة نحو أربعة فراسخ ، فحصرها .

(١) فى ق ١٢٤ ا : ولد السلطان وأصحاب الأطراف أن البلاد ... الخ . وفى الكامل لابن الأثير (ج ١١ : ٤١) : ولد السلطان محمود وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أن هذه البلاد . . . الخ . ومن هذا يتضح أنه سقط من ق نحو سطر ، وأن ك ينقصها كلمتا : وأصحاب الأطراف التى أثبتناها بين حاصرتين من ق ومن الكامل .

(٢) أى فى سنة ٥٣٩ .

قلت كذا وقع فى كتاب ابن الأثير . وقد وَهِمَ فى قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجى ، فالخفاجى غير ألب أرسلان على ما ذكره العماد الكاتب فى كتاب السلجوقية فإنه قال[١] : كان مع زنكى ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، أحدهما يسمى ألب أرسلان وهو فى مَعْقِلٍ من معاقل سنجار ، والآخر يسمّى فرّخشاه ويعرف بالخفاجى الملك[٢] ، وهو بالموصل ، وكان هذا الملك مُسَلَّماً (٣٧ ب) إلى الأمير دبيس بن صدقة ، فانتزعه منه زنكى فى حرب جرت ، فكانت زوجة زنكى ، خاتون الشكمانيّة ، تربيه حتى بلغ . وكان النّصير يقبض عنانه ، ويبسط فيه لسانه ، ويقول : إنْ عقَل وإلاّ عقّلتُه ، وإن ثقُل طبعه وإلاّ ثقلته . فدبّر فى قتله مع أصحابه ، فقطعوه فى دهليز داره لمّا دخل للسّلام على الملك . ثم أصعد القاضى تاج الدين الملك [إلى القلعة[٣]] فلم يُرَ له أثر ، والتقط مماليكه . ثم عطف زنكى على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله ، وعُنى بتفاصيل أمره وجُمَله ، وضرب له نوبتيّة[٤] ونوبا ، ورتّب له فى حالتىْ ركوبه وجلوسه رُتَباً ؛ وأغرى بتولّى إكرامه وتوخّيه ، وغرضُه خفاء ما جرى مِنْ هلاكِ أخيه . ثم ذكر قصّة موت زنكى على قلعة جعبر[٥] كما سيأتى .

وفى سنة أربعين وخمسمائة أرسل أتابك إلى زين الدين علىّ يأمره بإرسال عسكر إلى حصن فنك[٦] يحصره ، فسيّر خلقا كثيراً من الفرسان والرجّالة ؛ فأقاموا عليه يحصُرونه إلى أن أتاهم الخبر بقتل الشهيد أتابك . وهذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر ، وهو للأكراد البشنويّة ، وله معهم مدّة طويلة ، يقولون نحو ثلاثمائة سنة ؛ وهو من أمنع الحصون ، مُطلّ على دجلة ؛ وله سرب إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها .

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٨٧ — ١٨٨ .
(٢) فى ق ٣٤ ب : الملك بالخفاجى .
(٣) مابين الحاصرتين مثبت فى هامش ك ، وهو فى صميم المتن بنسخة ق ٣٤ ب .
(٤) هكذا وردت فى تاريخ دولة آل سلجوق أيضاً : ١٨٨ .
(٥) انظر تاريخ دولة آل سلجوق : ١٨٨ — ١٩١ .
(٦) يقدر ياقوت المسافة بينه وبين جزيرة ابن عمر بفرسخين ويقول : ولا يقدر عليها صاحب الجزيرة ولا غيره مع مخالطتهم للأكراد ؛ وعرف الأكراد البشنوية الذين يسكنونها بحمايتهم لمن يلتجىء ببلدهم معجم البلدان : ٦ : ٤٠٢ .

قلت وفى هذه السّنة أنشد ابن منير بالرّقّة عماد الدين زنكى ، يهنّئه بالعافية من مرض عرض له فى يده ورجله ، قصيدةً أوّلها :

يا بدر لا أفل ولا محـــاق ... ولا يرم مشرقك الإشراق
بالدين والدنيا الذى يشكو ، وهل ... يهتز فرع لم يُقِمه سـاق
لن تُورِق القُضْب و يجرى ماؤُها ... (إلاّ)(١) إذا ما التاثت الأعراق
إن الرعايا ما سَـلِمْت فى حمىً ... لِلخَطْب عن طروقه إطراق
غرسْتَ بالعـدل لهم خمائلاً ... ترتع فى حديقها الحـداق
يا هضبة الدين التى عاذَبهـا ... فمادَ لاَ بغْتٌ وَلاَ إرهاق
لولم تحطه راحـلاً وقافلاً ... أصبح لاَ شـامٌ ولاَ عراق
عمـاد دين قد أقام زيغَه ... حَىٌّ ومات الشِّرك والنِّفاق
يا محيى العـدل الذى فى ظله ... تسربَلَتْ زينتهـا الآفاق
يَفديك مَنْ لاَنَ مِهاد جنبه ... لمّا نَبا بجنبيـك الإقلاق
من بِشَبَا سيفك أنبَطَتْ لهُ الْـ ... ـعَـذْبَ وماءُ عِيشِه زُعاق
تجرّع السّمّ ولوْلَم تحمـه ... بجـدّه لَعزّهُ الدّرياق
ملوك أطرافٍ حمى أطرافها ... عزمُك هـذا اللاّحق السّبّاق
لوْلَم ترق ماء كرى العـين لمَا ... ساغت بأفواههم الأرْياق
شققتَ مِن دونهم مَوْج الردى ... وَشَـقّ أكبادهم الشّقاق
أُقسم : لو كلّفتهم أن يسمعوا ... حـديثَ أيّامك ما أطاقوا
(١٣٨) لمّا اشتكيت دبَّ فى أهوائهم ... توجّسٌ للسّمع واسـتِراق
تطاولوا ، لا عـدمت آمالُهم ... قصرا ولا جانبها الإخفاق

(١) ساقطة من ق ١٣٥ .

تَوَهَّمُوها غسقاً ثم انجلت والصَّفْوُ مِن مشربهم غساق

لئن ألمّ ألَمٌ بِقِـــــديمِ خــــدّ الشُّهْا لنعلها طراق

أو كانَ مدَّ يَدَهُ إلى يدٍ تجرى بهـا الآجال والأرزاق

فالنَّصْل يُعْلَى صَـــدَاً وتحته حـــدّ حسام وسناً رقراق

رمَى الصَّلِيبَ بصليب الرَّأْي عن زوراء أَوْهَى نَزْعها الإغراق

وَنَوْمُ مَنْ خلف الخليج سَهَرٌ والعيش فى فرنجــــة سِياق

ماتوا فلا همسٌ ولا إشارة خوف همـــوس زأره إزهاق

لا سَلَبَتْ منك الليالى ما كست ولا عرت جِــدّتك الإخلاق

فصـــــل

فى وفاة زنكى رحمه الله

قال ابن الأثير[١] : كانت قلعة جعبر قد سلّمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلى لما ملك [قسيم الدّولة[٢]] مدينة حلب ؛ فلم تزل بيده وبيد أولاده إلى سنة إحدى وأربعين . فسار الشّهيد إليها لحصرها ، (وكان الباعث له على حصرها[٣]) وحصر فنك ألا يبقى فى وسط بلاده ما هو لغيره وإن قلّ ، لِلْحَزْم الذى كان عنده والاحتياط ؛ وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع[٤] خمس ليال . فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه (غيلة[٥]) ولم يجهزوا عليه ، وهربوا من ليلتهم إلى القلعة ، ولم يشعر أصحابه بقتله . فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى

(١) اقتباس حرفى ، مع حذف بعض العبارات ، من الأتابكة : ١٣٠ — ١٣٥ .

(٢) ما بين الحاصرتين فى هامش ك ، وهو مثبت فى متن ق ٣٥ ب .

(٣) ساقطة من ق ٣٥ ب .

(٤) ربيع الثانى سنة ٥٤١ ، ويوافق الرابع عشر من سبتمبر سنة ١١٤٧ . انظر The Damascus Chronicle of The Crusades, p. 271.

(٥) ساقطة من ق ٣٥ ب .

العسكر يُعلمهم بقتله ، فبادر أصحابه إليه ، فأدركه أوائلهم وبه رمق . ثم ختم الله له بالشهادة أعماله :

لاقى الحِمام ولم أكن مُستيقناً أنّ الحِمام سيُبتلى بحِمام

فأضحى وقد خانه الأمل ، وأدركه الأجل ، وتخلى عنه العبيد والخول . فأىّ نجم للإسلام أفل ، وأىّ ناصر للإيمان رحل ؛ وأىّ بحر ندًى نضب ، وأىّ بدر مكارم غرب ؛ وأى أسدٍ افتُرس ، ولم يُنْجِه قُلّة حصن ولا صهوة فرس . فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته ، وكم أدَّبها فى حفظه وحراسته ؛ فأتاه مبيدُ الأمم ، ومُفْنيها فى الحَدَث والقدم ؛ فأصاره بعد القهر للخلائق مقهوراً ، وبعد وثير المضاجع فى التراب مُعفَراً مقبوراً ؛ رهينَ جدث لا ينفعه إلّا ما قدم ، قد طويت صحيفة عمله فهو موثوق فى صورة مستسلم . ثم دُفن بصفّين عند أصحاب (٣٨ ب) علىّ أمير المؤمنين رضى الله عنه .

قلت وذكر العماد الكاتب فى كتاب السلجوقية[1] ، قال : قصد زنكى حصار قلعة جعبر فنازلها ؛ وكان إذا نام ينام حوله عدّة من خُدّامه الصِّباح وهو يحبهم ويَحْبُوهم ولكنه مع الوفاء منهم يجفوهم ، وهم أبناء الفحول القروم ، من الترك (والأرمن[2]) والروم . وكان من دأبه أنّه إذا نقم على كبير أرْداه وأقصاه ، واستبقى ولده عنده وخصاه . فنام ليلة موته وهو سكران ؛ فشرع الخُدّام فى اللّعب فزجرهم ، وزبرهم وتوعدهم ، فخافوا من سطوته . فلما نام ركبه كبيرهم ، واسمه برتقش ، فذبحه ، وخرج ومعه خاتمه ، فركب فرس النَّوْبة مُوهِماً أنّه يَمضى فى مُهمّ ، وهو لا يُرتاب به لأنه خاصّ زنكى . فأتى الخادمُ أهل القلعة فأخبرهم ، وذكر الحديث . قلت : ثم نقل إلى الرّقّة فدفن بها ، وقبره الآن فيها .

قال ابن الأثير[3] : وكان حسن الصّورة مليح العينين ، قد وَخَطه الشيب ، طويلا وليس بالطويل البائن . وخلّف من الأولاد سيف الدين غازيا ، وهو الذى وَلِى بعده ، ونور الدّين محموداً الملك العادل ، وقطب الدّين مودوداً ، وهو أبو الملوك بالموصل ، ونُصرة الدين أمير

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٨٨ — ١٩١ .
(٢) ساقطة من ق ٣٥ ب .
(٣) فى الأتابكة ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .

أميران ، و بنتاً . فانقرض عقب سيف الدّين من الذكور والإناث ، ونور الدّين من الذكور ولم يبق الملكُ إلاّ في عقب قطب الدّين . ولقد أنجب رحمه الله ، فإن أولاده الملوك لم يكن مثلهم .

قلت ومن عجيب ما حكى أنه لما اشتد حصار قلعة جعبر جاء في الليل ابنُ حسّان المنبجى ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها ، فأجابه ؛ فقال له : هذا المولى أتابك صاحب البلاد ، وقد نزل عليك بعساكر الدنيا وأنت بلا وزير ولا معين ؛ وأنا أرى أن أدخل في قضيّتك وآخذ لك من المولى أتابك مكانا عوض هذا المكان ؛ وإن لم تفعل فأىّ شيء تنتظر ؟! فقال له صاحب القلعة : أنتظر الذى انتظر أبوك . وكان بلك بن بَهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشد حصار ، ونصب عليه عدة مجانيق ، وقال يوما لحسان ، وقد أحرقه بحجارة المنجنيق : أىّ شيء تنتظر ؛ أما تسلم الحصن ؟! فقال له حسّان : أنتظر سهما من سهام الله . فلما كان من الغد [بَيْنَا](١) بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غَرب ، وقع في لَبّته فخرّ ميتا ؛ ولم يكن [من](٢) جسده شيء ظاهر إلاّ ذلك المكان ، لأنه كان قد لبس الدّرع ولم يزرّها على صدره . فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه . وفي تلك الليلة قُتل أتابك ، فكان هذا من الاتّفاقات العجيبة والعِبَر الغَريبة . ذكر ذلك يحيى بنُ أبى طىّ في كتاب السّيرة الصلاحية .

فصــــل

في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكى

وكانت(٣) من أحسن سير الملوك (وأكثرها حزما وضبطا (١٣٩) للأمور ،(٤)) ، وكانت

(١) المثبت هنا من ق ١٣٦ ا ، وهو أولى مما جاء في ك إذ وردت هناك : بجاء .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ١٣٦ ا . وهى ساقطة من ك .

(٣) اقتباس من الأتابكة اختصره أبو شامة بحذف كثير من عباراته ولكنه احتفظ بحرفية ما أبقى عليه . الأتابكة : ١٣٦ — ١٥١ .

(٤) ما بين القوسين ساقط من ق ١٣٦ ا .

رعيته فى أمن شامل يعجز القوى عن التعدّى على الضعيف . قال ابنُ الأثير(١) : حدّثنى والدى قال : قدم الشهيد أتابك زنكى إلينا بجزيرة ابن عمر(٢) فى بعض السنين ، وكان زمن الشتاء ، ونزل بالقلعة ، ونزل العسكر فى الخيام . وكان فى جُملة أمرائه الأمير عزّ الدين أبو بكر الدبيسى ، وهو من أكابر أمرائه ومن ذوى الرأى عنده ، فدخل الدبيسى البلد ونزل بدار إنسان يهودى وأخرجه منها ؛ فاستغاث اليهودى إلى الشهيد وهو راكب فسأل عن حاله فأخبر به ؛ وكان الشهيد واقفاً والدبيسى إلى جانبه ليس فوقه أحد ؛ فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الدبيسى نظر مُغْضَب ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقرى ، ودخل البلد فأخرج خيامه وأمر بنصبها [خارج البلد](٣) ، ولم تكن الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطّين . قال : ولقد رأيت الفرّاشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ؛ فلما رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها ، ونصبوا الخيام ، وخرج إليها من ساعته .

قال : وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول : مهما كانت البلاد لنا فأىّ حاجة لكم إلى الأملاك ، فإن الاقطاعات تغنى عنها ؛ وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها ؛ ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدّوا عليهم وغصبوهم أملاكهم . ثم ذكر ما تجدّد فى أيامه من عمارة البلاد ، لا سيما بالموصل ، وذلك لحسن سيرته ، فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار إقامة . وهو الذى أمر ببناء دور المملكة بالموصل ، ولم يكن بها للسلطان غير الدّار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان . ثم رفع سورها وعمق خندقها . وهو الذى فتح الباب العمادىّ وإليه ينسب . قال : وكانت الموصل أقل بلاد الله فاكهةً ، وكان الذى يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلّته إذا أراد أن يزنه ؛ فلما عمّرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفى ولايتها .

قال : ومن أحسن آرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجرى لأصحابها حتى

(١) استمرار للاقتباس السابق ، وهو اقتباس طويل .

(٢) بلدة فوق الموصل تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة حفر فيها خندق فتمت إحاطة الماء بها . معجم البلدان : ٣ : ١٠٢ — ١٠٣ . وهى موطن بنى الأثير : مجد الدين المبارك وضياء الدين نصر الله ، وعز الدين أبى الحسن على صاحب كتابى الكامل والأتابكة .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من ك وكذلك من ق ٣٦ ا . والتكملة من الأتابكة .

فى خلواتهم ، ولا سيّما دركاة السلطان[١] ، وكان يغرم على ذلك المال الجزيل . فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان فى ليله ونهاره ، من حرب وسلم ، وهزل وجِدّ ، وغير ذلك . فكان يصل إليه كلّ يوم من عيونه عدّة كتب[٢] . وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار[٣] من أمور الدّولة لا يهمل الاطّلاع على الصّغير ؛ وكان يقول إذا لم يُعرف الصغيرُ ليُمنع صار كبيراً . وكان لا يُمكّن رسول ملك يعبر فى بلاده بغير أمره ؛ وإذا استأذنه رسولٌ فى العبور فى بلاده أذن له وأرسل إليه من يُسَيّره ، ولا يتركه (٣٩ ب) يجتمع بأحد من الرّعيّة ولا غيرهم ؛ فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئاً . وكان يتعهّد أصحابه ويمتحنهم . سلّم يوماً خشكنانكةً[٤] إلى طشت دار له[٥] وقال احفظ هذه ؛ فبقى نحو سنة لا تفارقه الخشكنانكة خوفاً أن يطلبها منه . فلما كان بعد ذلك قال له : أين الخشكنانكة ؟ فأخرجها فى منديل وقدمها بين يديه ، فاستحسن ذلك منه وقال : مثلك ينبغى أن يكون مستحفظاً لحصن . وأمر له بدُزْدَارِيّة[٦] قلعة كَوَاشَى[٧] ، فبقى فيها إلى أن قُتل أتابك . وكان لا يُمكّن أحداً من خدمه من مفارقة بلاده ويقول : إن البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هو خارج السّياج يهاب الدُّخول ، فإذا خرج منها من يدلّ على عورتها ويُطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرّق الخصوم إليها . قال[٨] : ومن صائب رأيه

---

(١) بلاط السلطان Dozy, Supp. Dict. Ar.

(٢) فى ق ٣٦ ب : عدة قاصدين .

(٣) المثبت هنا من ق ٣٦ ب ، وفى ك : الكبائر . والأول أولى .

(٤) نوع من الكعك (البسكويت) انظر Dozy, Supp. Dict. Ar.

(٥) كانت من الوظائف الصغرى وصاحبها يتبع الطشت خاناه وهى بيت الطشت لأنها يكون فيها طشت لغسيل الأيدى وآخر لغسيل القماش السلطانى . والطشت لفظ عامى ، وعربيه طست أو طس معربا من اللفظ الفارسى تست وهو إناء غسل اليد . صبح الأعشى : ٤ : ١٠ — ١١ ، ٥ : ٤٦٩ ؛ محيط المحيط .

(٦) الدزدار حافظ القلعة مركبة من كلمتين ، طبقاً لما جاء فى ابن خلكان ، هما : دز = قلعة ، دار = حافظ . انظر وفيات الأعيان : ٢ : ٣٧٧ .

(٧) قلعة حصينة فى الجبال الواقعة شرق الموصل ، ليس إليها طريق إلا لراجل واحد ، واسمها القديم اردمشت . معجم البلدان : ٧ : ٢٨٩ .

(٨) استمرار للاقتباس السابق من الأتابكة .

وجيّده أن سيّر طائفة من التركان الإيوانية مع الأمير اليارق إلى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملّكهم كلّ ما(١) استنقذوه من البلاد التى للفرنج وجعله ملكا لهم . فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم ؛ وأخذوا كثيراً من السواد وسدّوا ذلك الثغر العظيم . ولم يزل جميع ما فتحوه فى أيديهم إلى نحو سنة ستمائة . قال : ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل وبعضها بسنجار وبعضها بحلب ، وقال إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بينى وبينه استعنت على سد الخرق بالمال فى غيره .

قال : وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما ، وبه كانت تضرب الأمثال ، ويكفى فى معرفة ذلك جملة(٢) ، أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب : الخليفة المسترشد ، والسلطان مسعود ، وأصحاب أرمينية وأعمالها ، بيت سكمان ، وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا ، وابن عمه صاحب ماردين ، ثم الفرنج ، ثم دمشق . وكان ينتصف منهم ويغزو كُلاًّ منهم فى عقر داره ويفتح من بلادهم ، ماعدا السلطان مسعود فإنه كان لا يباشر قصده ، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه ، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه ، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته ، فيصير كالحاكم على الجميع ، وكلٌّ يداريه ويخضع له ، ويطلب ما تستقر القواعد على يده .

قال: وأمّا غَيْرَتُه فكانت شديدة ولا سيما على نساء الأجناد ، فإن التعرّض إليهن كان من الذنوب التى لا يغفرها ؛ وكان يقول إن جندى لا يفارقونى فى أسفارى وقلّما يقيمون عند أهلهم ، فإن نحن لم نمنع من التعرّض إلى حُرَمهم هلكن وفسدن . قلت : وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد (٤٠ ا) الخُدرى ، ، وذكر حديث رجم النبى صلى الله عليه وسلم ماعزاً ، قال : ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا قال : أوَ كُلّمَا انْطَلَقْنا

(١) فى ك وكذلك فى ق ٣٧ ا : كلما . وهو خطأ .

(٢) ما بين الفاصلتين من كلام أبى شامة يمهد به للاختصار الشديد الذى يعالج به اقتباسه من الأتابكة فى الفقرات التالية ، وهو استمرار للاقتباس " ابق .

غُزَاةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ تَخَلَّفَ رَجُلٌ فِي عِيالنا لَهُ نَبِيبٌ كَنَبِيبِ التَّيْسِ ! ! عَلَيَّ أَلاَّ أُوْتَى بِرَجُلٍ فَعَلَ ذَلِكَ إِلاَّ نَكَّلْتُ بِهِ . قال ابن الأثير[1] : وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دُزْدَاراً اسمه نور الدين حسن البربطىّ ، وكان من خواصّه وأقرب الناس إليه ، وكان غير مَرْضِىّ السّيرة ؛ فبلغه عنه أنه يتعرّض للحُرَم ؛ فأمر حاجبه صلاح الدين الياغبسانى أنه يسير مُجِدًّا ويدخل الجزيرة ، فإذا دخلها أخذ البربطىّ وقطع ذكره ، وقلع عينيه ، عقوبة لنظره بهما إلى الحُرَم ، ثم يصلبه . فسار الصّلاح مُجِدًّا ، فلم يشعر البربطىّ إلاّ وقد وصل إلى البلد ؛ فخرج إلى لقائه ، فأكرمه [الصّلاح[2]] ودخل معه البلد ، وقال له : المولى أتابك يسلّم عليك ويريد أن يُعلِىَ قدرك ، ويرفع منزلتك ، ويسلّمَ إليك قلعة حلب ويولّيك جميع البلاد الشّامية لتكون هناك مثل نصير الدين . فتجهّز وتحدّرْ مالك فى الماء إلى الموصل ونسير إلى خدمته . ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلا ولا كثيراً إلاّ نقله إلى السُّفن ليحدّرها إلى الموصل فى دجلة . فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصّلاح وأمضى فيه ما أُمِر به ، وأخذ جميع ماله . فلم يتجاسرْ بعده أحد على سلوك شىء من أفعاله .

قال :[3] وأمّا صدقاته ، فكان يتصدّق كلّ جُمُعة بمائة دينار أميرى ظاهراً ، ويتصدق فيما عَدَاهُ من الأيام سرًّا مع من يثق به . وركب يوماً فعثرت به دابّته فكاد يسقط عنها ، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه ، فعادَ عنه إلى بيته وودع أهله عازماً على الهرب ؛ فقالت له زوجته ما ذنبك وما حملك على هذا الهرب ؟ فذكر لها الحال ، فقالت له إنّ نصير الدّين له بك عناية ، فاذكر له قصّتك وافعل ما يأمرك به . فقال أخاف أنْ يمنعنى من الهرب فأهلك . فلم تزل زوجته تراجعه وتُقَوّى عزمه ، فعرّف النّصير حاله ، فضحك منه وقال : خذ هذه الصّرّة الدّنانير واحملها إليه فهى التى أراد . فقال : اللهَ اللهَ فى دمى ونفسى . فقال : لا بأس عليك فإنه ما أراد

(١) نفس المصدر .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ٣٧ ب .

(٣) اقتباس حرفى ، فيما عدا ما يحذفه أبو شامة ، من الأتابكة : ١٤٥ — ١٥٠ .

غير هذه الصرّة ؟ فحملها إليه . فحين رآه قال : أمعك شيء ؟ قال نعم ؛ فأمره أن يتصدّق به . فلمّا فرغ من الصّدقة قصد النّصير وشكره ، وقال : من أين علمت أنه أراد الصّرة ؟ فقال له : إنه يتصدق [في[1]] هذا اليوم بمثل هـذا القدْر ، يرسل إليّ (من[2]) يأخذه من الليل ، وفي يومنا هذا لم يأخذه . ثم بلغني أنّ دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض ، وأرسلك إليّ ، فعلمت أنه (٤٠ ب) ذكر الصدقة . قال : وحُكي لي من شدّة هيبته ماهو أشدُّ من هـذا . قال والدي خرج يوماً الشّهيد من قلعة الجزيرة[3] من باب السّر خلوة وملأّح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية[4] وقال له اقعد ؛ فحين رأى الشّهيد سقط إلى الأرض [فحركوه[5]] فوجدوه ميّتاً .

قال[6] : وكان الشهيد قليل التلوّن والتنقّل ، بطيء الملل والتغير ، شديد العزم ، لم يتغيّر على أحد من أصحابه مُذْ مَلَكَ إلى أن قُتل إلاّ بذنب يُوجب التغيّر ؛ والأمراء والمقدّمون الذين كانوا معه أوّلاً هُم الذين بقوا أخيراً ، منْ سلِم منهم من الموت ؛ فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له . وكان الإنسان إذا قدِم عسكره لم يكن غريباً : إنْ كان جندياً اشتمل عليه الأجنادُ وأضافوه ، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان ، وإن كان عالماً قصد القضاة بني الشّهرزوري فيُحسنون إليه ويؤْنسون غُربته فيعود كأنه أهل . وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرّجال ذوي الهمم العليّة ، والآراء الصائبة ، والأنفس الأبيّة ، ويوسع عليهم في الأرزاق ، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف .

قلت : وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة :

في ذرا مَلْك هو الدّهـــ ـــر عطاء واستـــلابا

---

(١) ما بين الحاصرتين من ق ٣٧ ب .
(٢) ساقطة من ق ٣٧ ب .
(٣) في ق ٣٧ ب : القلعة بالجزيرة . والمقصود جزيرة ابن عمر .
(٤) فئة من مماليك السلطان أو الأمير ، ومثلها الخاصكية . وهي فارسية الأصل وتتركب من كلمتين : جان بمعنى سلاح ودار بمعنى ممسك ؛ وواجب أمير جاندار السلطان أن يستأذن في دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم الديوان . صبح الأعشى : ٤ : ٢ ؛ ٥ : ٤٠٩ .
(٥) ما بين الحاصرتين من ق ٣٧ ب .
(٦) نفس المصدر ، وهو تتمة الاقتباس السابق .

مَن له كفٌّ تبزُّ الـ ـغيثَ سحًّا وانسكابا
(فاتح فى وجـه كل أمّـة للنصر بابا)[١]
ترجُف الدنيا إذا حرّ (م) كَ للسَّير[٢] الرّكابا
وتخِرُّ المشمخرّا تُ اختلالا واضطرابا
وترى الأعداء من هَيْـ ـبَتِهِ تأوِى الشِّعابا
وإذا ما لَفَحَتْهُم نارُه صاروا كبابا
يا عماد الدّين لا زِلْـ ـتَ على الدِّين سحابا
جاعلاً مِن دونه سَيْـ ـفَكَ ؛ إنْ رِيع حجابا
فالبس النّعماء فى الأمْـ ـنِ الذى طِبت وطابا
واصفُ عيشاً إنّ أعدا ءك قد صارُوا تُرابا

وقال العماد الكاتب[٣] : استولى زنكى على الشام [من][٤] سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتِل فى سنة إحدى وأربعين . وهو الّذى فتح الرها عنوة ، واحتلَّ بها من السّعادة ذروة ؛ فتسنّى بفتح الرها للمسلمين ، جوْسُ بلاد جوسلين ؛ وعادَ جميعُها إلى الإسلام فى عهْد ولدِ زنكى ، نور الدين . وصارت عقود الفرنج من ذلك الحين تنفسخ ، وأمورُها تنْتسخ ؛ ومعاقلها تفرع ، وعقائلُها تُفْترَع .

وقال الرئيس أبو يَعْلَى التميمى[٥] : كانت الأعمال بعد قتل زنكى قد اضطربت ، والمسالك قد اختلت ، بعد الهيبة المشهورة ، والأمنة المشكورة ؛ وانطلقت أيدى التركمان

(١) هذا البيت ساقط من متن ق ٣٨ ا ومثبت بها مشها .
(٢) فى ق ٣٨ ا : للسير . وهى تؤدى إلى اختلال وزن البيت .
(٣) فى تاريخ دولة آل سلجوق : ١٨٦ .
(٤) من ق ٣٨ ا ومن تاريخ دولة آل سلجوق : ١٨٦ ؛ وهى ساقطة من ك .
(٥) فى ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٦ — ٢٨٧ . وقد توفى أبو يعلى سنة ٥٥٥ بعد أن جاوز التسعين ، وهو يعرف أيضاً بابن القلانسى .

والحراميّة فى فساد الأطراف ، والعيْث فى سائر النّواحى والأكناف ؛ ونظمت[1] فى صفة هذه الحال أبياتاً من قصيدة :

(١٤١) كذاك عماد الدين زنكى تنافرت ... سعادته عنه وخرت دعائمه
وكم بيت مالٍ من نضارٍ وجوهر ... وأنواع ديباجٍ حوتْها مخاتِمُـه
وأضحت بأعلى كل حصنٍ مصونةً ... يُحامى عليها جنـدُه وخوادمه
ومِن صافنات الخيل كلّ مُطَهَّم ... يَرُوعُ الأعادى حَلْيُه وبَرَاجِمه
فلوْ رامت الكتّاب وصفَ شِياتها ... بأقْلامها مَا أدْرك الْوصفَ ناظمه
وكم معقلٍ قـد رامه بِسيُوفه ... وشامِخ حصْن لم تَفُتْه غنائمـه
ودانت[2] وُلاَةُ الأرض[3] فيها لأمره ... وقـد أمنتهم[4] كُتْبُه وخواتمـه
وأمَّن مَنْ فى كل قُطرٍ لِهَيْبَة ... يُراعُ بهـا أعرابُه وأعاجمـه
وظالم قـوم حين يذكر عدله ... فقد زال عنهم ظُلْمه وخصائمـه
وأصبح سلطانَ البـلادِ بسيفه ... وليس له فيها نظـيرٌ يُزاحمه
وزاد على الأملاكِ بأساً وسطوةً ... ولم يَبْق فى الأملاك ملْكٌ يقاومه[5]
فلمـا تناهى مُلْكهُ وجلالُه ... وراعتْ وُلاَةَ الأرض منه لوائمه
أتاهُ قضاءٌ لا تُردُّ سهامُـه ... فـلم تُنْجِه أمـوالُه ومَغانمه
وأدركه لِلْحيْن فيهـا حِمامُـه ... وحامت عليـه بالْمَنُون حوائمـه

(١) الناظم ابن القلانسى .
(٢) فى ق ٣٨ ب : وكانت ، وهو خطأ .
(٣) المثبت هنا من ق ٣٨ ب ومن ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٦ . وفى ك : الأمر .
(٤) المثبت هنا من ق ٣٨ ب ومن ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٦ . وفى ك : أمنته .
(٥) قبل هذا البيت بيتان حذفهما أبو شامة وهما :
وكم قد بنى دارا تباهى بحسنها ... جنان خلود أحكمتها عزائمه
فمن حزمه بالتبر من كل جانب ... وأغصان نقش قد تحلت حمائمه
انظر ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٦ .

وأضحى على ظهر الفراش مُجـدَّلاً ... صريعاً تولّى ذبحَه فيه خادمه
وقد كان فى الجيْش اللُّهام مَبيتُه ... ومِنْ حوله أبطالُه وصوارمه
وسُمْرُ العوالى حوله بأكُفِّهم ... تذُود الرَّدى عنه وقد نام نائمه
ومِنْ دونِ هـذا عصبة قد ترتَّبَتْ ... بأسْهُمِها يُرْدَى مِن الطّير حائمه
وكمْ رامَ فى الأيّام راحـةَ سِرّه ... وهِمّته تعلو وتقوى شكائمه
وكم مَسْلكٍ للسَّفْر أمّن سُـبْلَه ... ومسرحِ حىٍّ أن تُراعَ سوائمه[(1)]
وكم ثغرِ إسـلامٍ حواهُ بسيفه ... من الرُّوم لمّا أدركته مراحمه[(2)]
فمن ذا الذى يأتى بهيْبة مثـلِه ... وتنفذ فى أقصى البـلاد مراسمه
فلَوْرَقيتْ فى كل مصرٍ بذكره ... أراقمُه ذلّت هناك أراقمـه
فمن ذا الذى ينجو من الدهر سالما ... إذا ما أتاه الأمر ، والله حاتمـه
ومَن رام صَفْواً فى الحياة فما يُرَى ... له صفْوُ عيشٍ والحِمـام يُحاومه
فإيّاك لا تغبطْ مليكاً بمُلكه ... ودعْه فإنّ الدهر لا شك قاصمه[(3)]
وقل للّذى يَبْنى الحصـون لحِفظه ... رُوَيْدك ما تَبْنى فدهرُك هادمُـه

---

(١) قبل هذا بيتان هما :

فأودى ولم ينفعه مال وقـدرة ... ولا عنه رامت للقضاء مخاذمه
وأضحت بيوت المال نهبى لغيره ... يمزقها أبنـاؤه ومظالمه

انظر ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٧ .

(٢) وبعد هذا خمسة أبيات حذفها أبو شامة هى :

فلمـا تولى قام كل مخالف ... وشام حسا ما لم يجد وهو شائمه
وأطلق من فى أسره وحبوسـه ... وفكت عن الأقدام منه أداهمه
وعاد إلى أوطانه بعـد خوفه ... وطابت له بعـد السغوب مطاعمه
وفرت وحوش الأرض حين تمزقت ... كواسره عنها وقلت سـوائمه
ولم يبق جان بعده يحذر الردى ... ولا واعد يخشى عليـه مناقمه

من نفس المصدر والصفحة .

(٣) وبعد هذا بيت حذفه أبو شامة هو :

لإن كان ذا عدل وأمن لخائف ... فلا شك أن الله بالعدل راحمه

نفس المصدر والصفحة .

وفى مثلِ هـــذا عِبرةٌ ومواعظٌ   بها يَتَناسى المرء ما هو عازمه(١)

قال(٢) : وفى ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وصل الخادم برتقش القاتل لعماد الدين زنكى وانفصل من قلعة جعبر لخوف صاحبها من طلبه منه ، فوصل دمشق متيقناً أنه قد أمِن بها ، ومدلاًّ بما فعله ، وظنّاً منه أنّ الحال على ما توهمه . فقبض عليه وأُنفِذ إلى حلب صُحبةَ من حفظه وأوصله [إليها(٣)] ، فأقام بها أيّاما ثم حُمل إلى الموصل ، (٤١ ب) وذكر أنه قتل بها .

قلت وللحكيم أبى الحكم المغربى قصيدة فى مرثية الشهيد عماد الدّين زنكى رحمه الله ، منها :

عينُ لا تذخرى الدموع وبَكّى   واستهِلّى دماً على فقـــد زنكى
لم يَهَبْ شخصَه الرّدى بعد أنْ كا   نتْ له هيبةٌ على كلّ تُركى
خيرُ مَلْك ذى هيبـــةٍ وبهاء   وعظـــيم بين الأنـام بُزُرْك
يهب المـال والجياد لمن يمّـ(م) مَهُ مادحا بغـــير تلكّى
إنّ داراً تمـــدّنا بالرّزايا   هى عنـــدى أحقّ دارٍ بتَرْك
فاسـكبوا فوق قبره ماء وَرْدٍ   وانضحوه بزعفرانٍ ومســك
أىّ فتك جرى له فى الأعادى   بعد ما استفتح الرُّها ، أىّ فتك
كلّ خطْب أتتْ به نُوَب الدّهْـ   ـرِ يسيرٌ فى جَنْب مصرع زَنكى
بعـد ما كاد أنْ تدينَ له الرّو   مُ ويحْوى البلاد من غير شـــكّ

---

(١) قبل هذا بيتان أهملهما أبو شامة هما :

فكم ملك قدشاد قصرا مزخرفا   وفارق ما قد شاده وهو عادمه
وأصبح ذاك القصر من بعد بهجة   وقد درست آثاره ومعالمه

من ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٧ .

(٢) ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٨ .

(٣) ما بين الحاصرتين من ق ٣٨ ب ، ومن ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٨ .

فصـــل

فيما جرى بعد قتل زنكى من تفرّق أصحابه وتملّك ولديه غازى ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى[١] : توجّه الملك[٢] ولد السلطان ، المقيم كان معه ، فيمن صحبه وانضمّ إليه إلى ناحيـة الموصل ، ومعه سيف الدّين غازى بن عماد الدّين أتابك ؛ وامتنع عليهم الوالى بالموصل ، على كوجك ، أيّاما إلى حين تقررت الحال بينهم . ثم فتِح الباب ودخل ولده واستقام له الأمر ، وانتصب منصبه . وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين ، يعنى محمد بن أيوب الياغيسانى ، فى تلك الحال إلى ناحية حلب ، ومعهما الأمير نور الدّين محمود ابن زنـكى ، وحصل بهـا . وشرع فى جمع العساكر و إنفاق المال فيها ، واستقام له الأمر وسكنت الدّهماء . وفصل عنه الأمير صلاح الدّين وحصل بحماة ولا يته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمر يُدبّر عليه .

وقال الحافظ أبو القاسم : لما راهق نور الدين لزم خدمةَ والده إلى أن انتهت مدّته على قلعة جعبر . وسيّر فى صبيحة الأحد الملك ألب أرســلان بن السلطان محمود إلى الموصل مع جماعةٍ من أكابر دولة أبيه ، وقال لهم إنْ وصل أخى سيف الدّين غازى إلى الموصل فهى له وأنتم فى خدمته ، و إنْ تأخر فأنا أقرّر أمور الشّام وأتوجه إليكم . ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ، ورتب النُّوّاب فى القلعة والمدينة .

وقال ابن أبى طىّ الحلبى : لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين وقال له : اعلم أنّ الوزير جمال الدين قد (٤٢ ا) أخذ عسكر الموصل وعزم[٣] على تقديم أخيك سيف الدين وقصده إلى الموصل ، وقد انضوى إليه جُلّ

(١) رسمت فى ك بالألف (يعلا) خطأ . والاقتباس حرفى من ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٥ — ٢٨٦ .

(٢) ألب أرسلان بن السلطان محمود ، وكان فى رعاية زنكى ، وباسمه جمع زنكى كلمة أمراء البلاد القريبة منه ، كما استمد من مركزه هذا قوة فى حروبه ضد الأمراء المحليين .

(٣) فى ق ٣٩ ا : وعوّل . وكلٌّ يناسب المعنى .

العسكر . وقد أنفذ إليّ جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أعرّج إليه[١] . وقد رأيت أنْ أصيّرك إلى حلب وتجعلها كرسي مُلكك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام ؛ وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعُه إليك لأن ملك الشام بحلب ، ومَن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق . فركب وأمر أن يُنادَى في الليل في عساكر الشّام بالاجتماع ، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب ، ودخلوها سابع ربيع الأوّل . ولمّا دخلوا حلب جاء أسدُ الدين إلى تحت القلعة ونادى وَاليها ، وأصعد نورالدين إليها وقرر أمره ومشّى أحواله ، فكان نور الدين يرى له ذلك وأسد الدين يمنُّ[٢] بأنه كان السّبب في توليته . .

قال ابن الأثير[٣] . لمّا قُتل أتابك الشّهيد ركب الملك ألب أرسلان بن السّلطان محمود ، وكان مع الشهيد ، واجتمعت العساكر عليه وخدموه . فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصلاح يقول له : المصْلحة أن نَترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ، ونسلكَ طريقاً يبقى به الملك في أولادِ صاحبنا ، ونُعمر بيته جزاء لإحسانه إلينا ؛ فإن الملك قد طمع في البلاد واجتمعت عليه العساكر ؛ ولئن لم نَتلافَ هذا الأمر في أوله ونتداركْه في بدايته لَيَتّسِعَنّ الخرق ولا يمكن رقعُه . فأجابه الصلاح إلى ذلك وحلف كل واحد منهما لصاحبه . فركب الجمال إلى الملك فخدمه وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها ، ومعه الصلاح ، وقالا له : إنّ أتابك كان نائباً عنك في البلاد ، وَبِاسمك كنّا نُطيعُه . فقبل قولهما ، وظنه حقاً ، وقرّبهما ، طمعاً أنْ يكونا عوناً له على تحصيل غرضه . وأرسلا إلى زيْن الدّين بالموصل يُعرفانه قتل الشّهيد ويأمُرانِه بالإرسال إلى سيف الدّين غازي ، وهو ولد عماد الدين زنكي الأكبر ، وإحضاره إلى الموصل ، وكان بشَهْرَزَوْر ، وهي إقطاعُه من أبيه ؛ ففعل زيْن الدين ذلك . وكان نُور الدين محمود بن الشّهيد قد سار لمّا قُتل والده إلى حلب فملكها ، وذلك بإشارة

(٢) في ق ٣٩ ا : عليه .

(٢) في ق ٣٩ ب : يمت . وهى لا تناسب المعنى .

(٣) اقتباس حرفي من الأتابكة : ١٥٢ — ١٥٥

أسد الدّين شيركوه عليه بذلك ، وقال الجمال للملك : إنّ منَ الرّأى أن يسير الصّلاح إلى مملوكك نور الدين بحلب يدبّر أمره ، وكانت حماة إقطاعَ الصّلاح ، فأمره فسار[١] ، و بقى الجمال وحده مع الملك فأخذه وقصد الرّقّة . فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنساء ، وأراد أن يُعطى الأمراء شيئاً فمنعه خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه ، وقال : لهم الإقطاع الجزيل والنّعم الوافرةُ . وشرع الجمال يستميل العسكر ويُحلّف الأمراء لسيف الدّين بن أتابك الشّهيد واحداً بعد واحد ؛ وكلٌّ من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك . وأقام بالملك فى الرّقّة عدّة أيّام ، (ثم سار به إلى مَا كِسين[٢] (٤٢ ب) فتركه بها عدّة أيام أيضاً ، قد اشتغل بلذته عن طلب الملك[٣]) ثم سار [به][٤] نحو سنجار ، وكان سيفُ الدين غازى قد دخل الموصل واستقرّ بها ، فقوى حينئذ جَنانُ جمال الدّين ، ووصل هو والملك إلى سنجار ، فأرسل إلى دُزْدَارها وقال له : لا تُسلم البلد ولا تُمكّن أحداً من دخوله ، ولكن أرسل إلى الملك وقل له إنّا نتبع الموصل ، فمتى دخلتَ الموصل سلّمت إليك . ففعل الدُّزدار ذلك . فقال الجمال للملك : المصلحة أننا نسير إلى الموصل ، فإنّ مملوكك غازى إذا سمع بقُربنا منه خرج إلى الخدمة ، فحينئذ تَقْبض عليه وتتسلّمُ البلاد . فساروا عن سنجار ، وكثُر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك ؛ فبقى فى قلّة من العسكر ، فساروا إلى مدينة بَلَد[٥] وعبر الملك دجلة من هُناك . فلمّا عبرها دخل الجمال الموصل وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدبيسى إلى الملك فى عسكر ، وهو فى نفر يَسير ، فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخرَ العهد به . واستقر أمر سيف الدين ، وأقرّ زيْن الدين على ما كان عليه من ولاية الموصل ، وجعل الجمال وزيره . وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه

(١) المثبت هنا من ق ٣٩ ب . وفى ك : وسار .

(٢) بلد بالخابور قرب رحبة مالك بن طوق من ديار ربيعة . : معجم البلدان : ٧ : ٣٦٦ — ٣٦٧ . والخابور ولاية واسعة من أرض الجزيرة يجرى بها نهر الخابور بين رأس عين والفرات وثبت اسم النهر على الولاية فسميت به : معجم البلدان : ٣ : ٣٨٣ — ٣٨٤ .

(٣) هذه العبارة ساقطة من ق ٣٩ ب .

(٤) ما بين الحاصرتين من ق ٣٩ ب .

(٥) مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل وبينهما سبعة فراسخ ، وقد يقال لها بلط ، واسمها الفارسى القديم شهرا باذ . معجم البلدان : ٢ : ٢٦٥ — ٢٦٧ .

لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد ، وأرسل له الخلع . وكان سيفُ الدين هذا قد لازم خدمة السلطان مسعود فى أيام أبيه سفراً وحضراً ، وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه . فلما خُوطب فى اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف . قال ابن الأثير : فانظروا إلى جمال الدين وحُسْن عهده وكمال مروءته ورعايته لحقوق مخدومه !! وهـذا المقامُ الذى ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس . ولقد قال من قال النّاس ألفٌ منهم كواحد[1] ؛ وهو معذور لأنه لم يرمثل جمال الدين . قال[2] : ولمّا استقر سيفُ الدين فى الملك أطاعه جميع البلاد ما عدا مَا كان بِديار بكر كالمعدن وحِيزَان وإسْعَرد وغير ذلك ، فإن المجاورين لها تغلّبوا عليها .

قال[3] : ولمّا فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد عَبَر إلى الشام لينظر فى تلك النّواحى ، ويُقرّر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين ، وهو بحلب ، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه ؛ فلم يزَلْ يُراسله ويستميله ، فكلما طلب نورُ الدين شيئاً أجابه إليـه استمالةً لقلبه . واستقرّت الحالُ بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السيفى ، ومع كل واحد خمسمائة فارس . فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب فى خمسمائة فارس ، وسار سيف الدين من معسكره فى خمسة فوارس ؛ فلم يعرف نور الدّين أخاه سيف الدين حتى قرب منه ، فحينَ رآه عرفه ؛ فترجل له وقبّل الأرض بين يديه ، وأمر أصحابه بالعَوْد عنه (١٤٣) فعادوا . وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا ، فقال له سيف الدين : لِمَ امتنعْتَ من المَجىء إلىّ ، أكنت تخافنى على نفسك ؟ والله ما خطر ببالى ما تكرَهُ ، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش ، وبمن أعتضد إذا فعلت السوء مع أخى وأحب الناس إلىّ !! فاطمأنّ نور الدين وسكن روعه ، وعاد إلى حلب فتجهز وعاد [بعسكره[4]] إلى خدمة أخيه سيف الدين ، فأمرهُ سيف الدين بالعَوْد وترك عسكره عنده ، وقال : لاغرض لى فى مُقامِك عندى ، وإنّما غرضى أنْ يَعلم الملوك

(١) هكذا فى الأصل وكذلك فى ق ، ولعلها : الناس واحد منهم كألف .

(٢) فى الأتابكة : ١٥٥ .

(٣) اقتباس حرفى . الأتابكة : ١٥٧ — ١٥٩ .

(٤) ما بين الحاصرتين مثبت بهامش المخطوطة ك ، وهو فى صميم متن ق ١٤٠ .

والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه . فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه ، وعاد كل واحد منهما إلى بلده .

قلت : ومن قصيدة لابن منير فى نور الدين :

أيا خير الملوك أبا وجدا وأنفعهم حيا لغليل صادى
علوا وغلوا وقال الناس فيهم شوارد من ثناء أو أحاد
وما اقتسموا ولا عمدوا[1] بناهم بمنصبك القسيمى العادى
وهل حلب سوى نفس شعاع تقسمها التمادى والتمادى
نفى ابن عماد دين الله عنها الشـ (م) كاة فأصبحت ذات العماد[2]
تبختر فى كسا عدل وبذل مدبجة التهائم والنجاد
وفى محرابها داود منه بهذب حكمة آيات صاد
تجاوزت النجوم ، فأين تبغى ترق ، فلا خلوت من ازدياد

فصل

فيما جرى بعد وفاة زنكى من صاحب دمشق والإفرنج المخذولين

قال ابن أبى طى : فى سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند[3]، فخرج ليومه فى عساكر[4] أنطاكية وقسم عسكره قسمين :

(١) فى ك : وما عمروا . والمثبت من ق ٤٠ ب .
(٢) فى ك وكذلك فى ق ٤٠ ب :
نفى ابن عماد الدين عنها الشـ كاة فأصبحت ذات العماد
ووزن البيت على هذا غير مستقيم . والمثبت هنا من مخطوطة أكسفورد : Brucé, 63
(٣) صاحب أنطاكية عندئذ البرنس ريموند Raymond ، لا البرنس بوهيمند Bohemond : وبهذا يكون ابن أبى طى مخطئا ، وتبعه فى الخطأ أبو شامة بنقله عنه من غير أن يصحح ، على خلاف عادته ، راجع : The Crusaders in the East, .p. 166 .
(٤) فى ق ٤١ ب : فخرج فى يومه بعساكر .

قسما أنفذه(١) إلى جهة حماة ، وقسما أغار به على جهة حلب وعاث فى بلادها ، وكان الناس آمنين فقتل وسبى عالماً عظيما ، وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها . ووصل الخبر إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر وجدَّ فى السير ، ففاتَهُ الفرنج وأدرك جماعة من الرَّجَّالة يسوقون الأسرى فقتلهم وَاستنقذ كثيراً مما كانت الفرنج أخذته ؛ وسار مُجتنبا عن طريق الفرنج إلى أن شنَّ الغارة على بلد أَرْتاح(٢) ، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه ، وعاد إلى حلب مظفّراً .

وقال ابن الأثير(٣) : لمّا قُتل الشّهيد سار مجير الدين صاحب دمشق فى عسكر إلى بعلبك وحاصرها ، وبها نجم الدّين أيوب والد السلطان (٤٣ ب) صلاح الدّين ، فسلّمها إليه وأخذ منه مالاً ، وملّكه قرايا من أعمال دمشق ؛ وانتقل أيوب إلى دمشق فأقام بها .

وقال ابن أبى طى : اشتد صاحب دمشق فى القتال ، وصبرَ نجم الدين أيوب أحسن صبرٍ . فاتفق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتّى لم يبق منه شيء ، وأهل القلعه يستمدون من البلد . فلمّا ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة ، فاشتد الأمر فطلبوا الأمان والمصالحة . فاستخلف صاحب دمشق نجم الدين ، وأقر له الثّلث الذى كان أتابك قد جعله له فيها ، وأقره فيها . ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يَفْسُد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول أخيه نجم الدين عنده ، ومال نور الدين إلى مجد الدين أبى بكر ابن الداية حتى ولاَّهُ جميع أموره وجميع مملكته ، فشق ذلك على أسد الدين .

قال الرئيس أبو يعلى(٤) : لمّا اتصل خبر موت زنكى بمعين الدين أنر(٥) شرع فى التأهّب والاستعداد لقصْد بعلبك وانتهاز الفرصة فيها بآلات الحرب والمنجنيقات . فنزل

(١) فى ك وكذلك فى ق ٤٠ ب وفى مخطوطة أكسفورد (Bodle. Bruce, 63.) : نفذه ، والمثبت هنا أولى .

(٢) حصن من أعمال حلب كان يعد من العواصم . معجم البلدان : ١٧٦ — ١٧٧ .

(٣) استمرار للاقتباس السابق من الأتابكة .

(٤) اقتباس من ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٧ — ٢٨٨ ، اختصر أبو شامة بعض عباراته ، وتصرف تصرفاً بسيطا فى بعض ما اقتبسه ، مع التزامه لحرفية ألفاظه قدر الإمكان .

(٥) تقدم شيء من التعريف به فى هذا الكتاب . انظر ص : ١١ حاشية : ٤

عليها وضايقها ، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيها قلة دعتهم إلى النّزول على حكمه . وكان الوالى بها ذا حَزْمٍ وعقل ومعرفة بالأمور ؛ فاشترط ما قام له به من إقطاع وغيره ، وسلّم البلد والقلعة إليه ، ووفى له بما قرر الأمر عليه ، وتسلم ما فيه من غلّة وآلة فى أيام من جمادى الأولى من السنة . وأرسل معين الدين [إلى[1]] الوالى بحمص ، وتقررت بينه و بينه مُهادنة ومُوادعة يعودان بصلاح الأحوال وعمارة الأعمال . ووقعت المراسلة فيما بينه و بين صلاح الدين بحماة ، وتقرر بينهما مثل ذلك . ثم انكفأ بعد ذلك إلى البلد عقيب فراغه من بعلبك وترتيب من رتبه لحفظها والإقامة فيها .

قال[2] : ووردت الأخبار فى أيام من جمادى الآخرة من السنة بأن ابن جوسلين[3] جمع الإفرنج من [كل[4]] ناحية وقصد مدينة الرها ، على غفلة ، بموافقة من النصارى المقيمين فيها ، فدخلها واستولى عليها ، وقَتل من فيها من المسلمين . فنهض نور الدين صاحب حلب فى عسكره ومن انضَافَ إليه من التركمان وغيرهم فى زهاء عشرة آلاف فارس ، ووقعت الدواب فى الطرقات من شدة السير ، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه ، فهجموا عليهم ووقع السيف فيهم . وقُتِل من أرمن الرُّها والنّصارى من قُتل ، وانهزم إلى برج يقال له برج الماء ، فحصل فيه ابن جوسلين فى تقدير عشرين فارسا من وجوه أصحابه ، وأحدق بهم المسلمون وشرعوا فى النّقب عليهم حتى تَعَرْقَب البرج ؛ فانهزم ابن جوسلين فى الخفية من أصحابه ، وأخذ الباقون ، ومُحِق بالسيف كل من ظُفر به من نصارى الرّها ، واستُخلص من كان فيه أسيراً من المسلمين ، ونُهب (١٤٤) منها شىء كثير من المال والأثاث والسبى ، وانكفأ المسلمون بالغنائم إلى حلب وسائر الأطراف .

قال ابن الأثير[5] : لما قتل زنكى كان جوسلين الفرنجى الذى كان صاحب الرُّها

---

(١) غير موجودة فى ك أو فى ق ، والسياق يستدعيها .

(٢) ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٣) واسمه أيضا جوسلين (Joscelin II) تولى الإمارة بعد وفاة أبيه جوسلين الأول سنة ٥٢٥ (١١٣١م) .

(٤) ما بين الحاصرتين من ق ١٤١ ا .

(٥) اقتباس حرفى من الأتابكة : ١٥٦ — ١٥٧ .

فى ولايته غرب الفرات فى تل باشر[١] وما جاورها ، فراسل أهل الرُّها ، وكان عامَّتهم من الأرمن ، وواعدهم يوما يصل إليهم فيه ، فأجابوه إلى ذلك ، فسار فى عساكره إليها وملكها وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، فقاتلهم وجد فى قتالهم . فبلغ الخبر نور الدين ، وهو يومئذ بحلب ، فسار إليها بعسكره ؛ فهرب جوسلين ودخل نور الدين مدينة الرّها ونهبها وسبى أهلها . وفى هذه الدفعة نهبت وخربت وخلت من أهلها ، ولم يبق منهم بها إلا القليل . ووصل خبر الفرنج إلى سيف الدين غازى بالموصل فجهّز العساكر إلى الرُّها ، فوصلت [العساكر[٢]] وقد ملكها نور الدين ، فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين . قال : ومن عجيب ما جرى أن نور الدين أرسل من غنائمها إلى الأمراء ، وأرسل إلى زيْن الدّين علىّ جملة من الجوارى ، فحملن إلى داره ودخل لينظر إليهنّ ، فخرج وقد اغتسل وهو يضحك ، فسُئل عن ذلك فقال : لمّا فتحنا الرها مع الشهيد كان فى جملة [ما غنمت[٣]] جاريةٌ مالت نفسى إليها ، فعزمت على أن أبيت معها ، فسمعت منادى الشهيد وهو يأمر بإعادة السبى والغنائم ، وكان مهيبا مخوفا ، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها . فلما كان الآن أرسل إلى نور الدين سهمى من الغنيمة وفيه تلك الجارية ، فوطئتها خوفا من العود .

قلت : وللقيسرانى قصيدة مدح بها جمال الدين وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها ؛ أولها :

أمَا آنَ أن يَزْهق الباطـل وأنْ ينجز العِـدَة الْماطلُ
إلى كم يغب ملوكِ الضلا لِ سيف بأعناقها كافل
فلا تحفلن بصول الذئاب وقد زأر الأسد الباسل
وهل يمنع الدين إلاّ فتى يَصُول انتقاما فيستاصل[٤]

(١) قلعة وكورة واسعة شمالى حلب ، ويقدر ياقوت المسافة بينهما بيومين . معجم البلدان : ٢ : ٢ ، ٤ .
(٢) من ق ٤١ ا . وهى ساقطة من ك مع تأنيث الفعل قبلها .
(٣) من ق ٤١ ب . وهى ساقطة من متن ك ومثبتة فى هامشها .
(٤) بتسهيل الهمزة .

أبا جعفرٍ أشرقت دولةٌ أضاء لهـا بدرُك الكامل
فإما نصبت لرفع اسمها فإنكما الفعلُ والفاعل
ليَهْنك ما أفرج النصر عنـه وما ناله الملك العادل
فقل للحقاق الطّريقَ الطّريقَ فقـد دلف المقرم البازل
وجاهَد فى الله حقَّ الجها دِمُحتسِبٌ بالعلا قافل
وهل يُمنَع السور من طالعٍ يُشايِعُه القَـدرُ النازل
فإن يكُ فتحُ الرها لُجّةً فساحِلُها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الدّيا رِ أنّ المقيمَ بها راحل
أرى «القمص» يأمُل فَوْتَ الرّماح ولا بُدّ أنْ يضرب الشّائل
(٤٤ ب) يقوى معاقلَه جاهـداً وهلْ عاقلٌ بعدها عاقل
وكيف يضَبْط بواقى الجهات لمن فات حسبته الحاصل

ولابن منير من قصيدة فى نور الدّين :

مَلِكٌ ما أذلّ بالفتح أرضا قطّ إلا أعزّها إغلاقه
والوهَى فى الرّهاء أزجى إليها عارضًا شيب الدُّجى إبْراقه
جارت جارةً إليـه فحلى عطلاً من إعناقها إعناقه
تلك بكر الفتوح فالشّام منها شامُهُ والعراق بعدُ عراقه
أين كان الملوك عن وجهها الطّلْـقِ يُرينا إضاءة اطلاقه
سـنّة سنّها أبوه بكلب الرّ (م) وم لمّا أظلّه إرهاقه
خافقا قلبُه إلى أمـل عا جَـلَه دون نَيْله إخفاقه
قسمت راية المواضى القسيمى (م) ات وابتزّ من كُماةُ عراقه
وكذا أنت يا بنه ما عدا من خُلْقه فيك خَصْـلة خَلاّقه

وكفى البحر أنه ابنُ سحاب ... ما وَنَى سَحُّـــــه ولا إصْعَاقه
لم يمت من سددت ثلمته يا ... من على الدِّين كظّه إشفاقه
رهبة لم تدَع على الأرض قلباً ... خلْف صدر يَنْشَقّ عنه شقاقه
كلّما طنّ ذكْرُها منه فى السَّمْـ ... ـع يكمى فى النّافقاء نفاقه[1]
وجهادٍ عن حوزة الدين لم يأ ... لُ له ركضـــــه ولا إنفاقه

وله فيه من قصيدة أخرى :

بنور الدين روّض كلّ مَحْل ... من الدنيا وجدّد كلّ بال
أقام على ثَنِيّة كلّ خوف ... سُهادًا بات يكلأ كلّ كال
وصوَّبَ عدلُه فى كلّ أوب ... فعوّض عاطلاً منــــه بحال
ينكس رأيه رأى المحامى ... ويَقْتُلُ[2] خوفُه قبل القتال
لقد أحصدت للإسلام عزًّا ... يفوت سنامه يد كل قال
وأصبحت العواصم ملحفات ... عصاما غير منتكث[3] الحبال

فصـــل

وقفت على توقيع كُتب فى ذى القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذ ، وهو الملقب بالحافظ ، وعليه علامته : الحمد لله رب العالمين :

إلى القاضى الأشرف أبى المجد على بن الحسن بن الحسين (بن أحمد[4]) البيسانى

(١) كمى كرمى : كتم ، كأكمى وكمّى . والنافقاء إحدى جحرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها فإذا أتى ضرب النافقاء برأسه فانتفق أى دخل فى جحره . القاموس المحيط . وقد رسم الفعل فى ق ٤١ ا وكذلك فى ك : يكما .

(٢) فى ق ٤٢ ا : يقبل .

(٣) المثبت هنا من ق ٤٢ ا . وفى ك منتلث .

(٤) ساقطة من ق ٤٢ ا .

البَيْساني ، وهو والد القاضي الفاضل ، وكان يومئذ متولى القضاء والحكم بمدينة عسقلان ، (يقول)[١] فيه : انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوماً من أهل ثغر عسقلان ، حماه الله ، قد صاروا يؤدون توقيعات بقبول أقوالهم من غير تزكية من شهوده المعروفين بالتزكية لهم ، مع كونهم غير مستوجبين للشهادة ولا مستحقين لسماع القول . فأنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم ، وخرج عالى أمره بألا يُسمع قولُ شاهد ، وَلاَ مَنْ تقدّم لِخَطَابةٍ ولا لصلاة بالناس ، ولا لتلاوةٍ في موضع شريف ، إلا من زكّاه أعيان شهود الثغر المحروس ، وهم فلان وفلان ؛ وعدّ ثمانية أنفس : عبد الساتر بن عبد الرحمن ، عبد العزيز بن مفضل ، على ابن قريش ، أحمد بن حسن ، أحمد بن على ، عبد الرحمن بن محسن ، أسامة بن عبد الصمد ، على بن عبد الله . قلت : وهذا من أحسن ما يؤرخ عن إمام تلك الدولة المباينة للشريعة ، على ما سيأتى إن شاء الله تعالى .

(١٤٥) وقال الرئيس أبو يعلى[٢] : وفى شوال من سنة إحدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أنر إلى أن استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية . وانعقدت الوُصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين ، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما ؛ وكتب كتاب العقد فى دمشق بمحضر من رسل نور الدين فى الثالث والعشرين من شوال . وشُرع فى تحصيل الجهاز . وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب ، وفى صحبتهم ابنة معين الدين ومن فى جملتها من خواص الأصحاب ، فى النصف من ذى القعدة[٣] .

قال : وتوجه معين الدين إلى ناحية صرخد[٤] و بصرى[٥] بالخيل والرجل وآلات

(١) ساقطة من ق ٤٢ أ .

(٢) فى ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٩ — ٢٩٠ . وهو اقتباس اختصره أبو شامة اختصاراً شديداً .

(٣) وتزوج صلاح الدين هذه الخاتون ، ابنة معين الدين أنر وأرملة نور الدين محمود ، فى سنة ٥٧٢ ، وبقيت معه حتى ماتت سنة ٥٨١ ، وهو مريض عندئذ بحران ، فأخفى عنه خبر وفاتها حتى شفى . وسيأتى تفصيل ذلك فى حوادث سنتى ٥٧٢ ، ٥٨١ .

(٤) ولاية واسعة ملاصقة لحوران من أعمال دمشق وكان بها قلعة عظيمة . معجم البلدان : ٥ : ٣٤٩ — ٣٥٠ .

(٥) كانت من أعمال دمشق ، وهى قصبة كورة حوران . معجم البلدان : ٢ : ٢٠٨ — ٢١٠ .

الحرب ، ونزل على صرخد وبها المعروف بالتونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكى الذى كان واليها أولا . قلت هو الذى تنسب إليه المدرسة الأمينية قبلى الجامع بدمشق[1] .

قال : وكانت نفس ألتونتاش قد حدثته ، لجهله ، أنه يقاوم من يكون مستوليا على دمشق ، وأن الإفرنج يعينونه على مراده : وكان قد خرج من حصن صرخد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم وتقرير أحوال الفساد معهم ؛ فحال معين الدين بينه و بين العود إلى أحد الحصنين . وراسل[2] نور الدين فى إنجاده على الكفرة فأجابه ، وكان مبرزاً بظاهر حلب فى عسكره ، فثنى إليه الأعنة وأغذّ المسير ، فوصل إلى دمشق فى السابع والعشرين من ذى الحجة ، فأقام أياماً يسيرة .

ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجه نور الدين نحو صرخد ، ولم يُشاهَد أحسنُ من عسكره ، وهيئته وعُدّته ، ووفور عِدّته . واجتمع العسكران ، وأرسل من بصرخد إليهما يلتمسون الأمان ، والمهلة أياما وتسلم المكان ؛ وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم . وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم ، ونهوضهم فى فارسهم وراجلهم ، مجدّين السير إلى ناحية بُصرى ، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها . فنهض العسكر فى الحال إلى ناحية بصرى فسبقوا الفرنج إليها ، فحالوا بينهم و بينها . [ووقعت العين على العين فانهزم الكفار ، وولوا الأدبار ؛ وتسلم معين الدين بصرى ، وعاد إلى صرخد فتسلمها][3] ، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم . وفى هذا الوقت وصل ألتونتاش ، الذى خرج من صرخد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله ، إلى دمشق من

(١) قبلى باب الزيادة المعروف الآن بباب القوافين ، من أبواب الجامع الأموى ، ويقال إنها أول مدرسة بنيت للشافعية بدمشق . يقول كرد على : وهى الآن فى سوق الحرير ، جعلت كتاب صبيان واختلس الجيران بعضها . خطط الشام : ٦ : ٧٧ .

(٢) المثبت هنا من ق ٤٢ ب . وفى ك : وأرسل ، وهى غير مناسبة .

(٣) ما بين الحاصرتين مثبت بهامش ك . أما فى ق ٤٢ ب فثبت فى صميم المتن .

بلاد الإفرنج من غير أمان ، ولا تقرير واستئذان ، توهُّما منه أنه يُكرم ويُصطنع ، بعد الإساءة القبيحة والارتداد عن الإسلام . فاعتقل فى الحال ، وطالبه أخوه خطلخ بما جناه عليه من سَمْل عينيه ؛ وعُقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص . فَسُمِل كما سَمَل أخاه ، وأُطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها[١] .

قلت : (٤٥ ب) وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغيرها من الوقعات التى يأتى ذكرها فى قصيدة قد تقدم بعضها . منها :

أىّ شأن[٢] أدركت يا نور دين الله (م) .ه أعيا على الملوك لحاقه

نطق الحاسدون بالعجز عن ملـ ـك محلىٍّ بالنَّيِّرات نطاقه

غض أبصارهم لحاق جواد ليس إلاَّ إلى المعالى سباقه

سَلْ بصيراً : كمْ أعتقت يوم «بصرى» من أسار الموت الزؤام عتاقه

كم عرام على « العُرَيمة »[٣] شبت ضاقَ منه على الصليب خناقه

ولكم هبوة « بهاب »[٤] وأختيـ ـهَا لها صكت الأسارى رباقه

بسط الذل فوق بسطة « باسو طا »[٥] ولكن طواه عنه ارتفاقه

وفى هذه السنة ولد ببعلبك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيّوب ؛ وقيل فى سنة فتح زنكى الرّها .

قال : أبو يعلى[٦] : وفى ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأول توفى الفقيه شيخ الإسلام أبو

---

(١) إلى هنا ينتهى هذا الاقتباس من ذيل تاريخ دمشق .

(٢) فى ق ٤٢ ب وكذلك فى مخطوطة أكسفورد Bruce, 63 : شأو .

(٣) حصن قوى من الحصون التى دخلت فى نطاق نفوذ إمارة طرابلس اللاتينية . وكانت فى فترة الحرب الصليبية الثانية محل نزاع بين صاحب طرابلس وأحد الأمراء الصليبيين الذى رغب فى الاستيلاء عليها . The crusaders in the East; p. 164.

(٤) من قلاع العواصم حيث كان المرابطون يقومون على جهاد الروم . معجم البلدان : ٨ : ٤٣٨ .

(٥) من قلاع العواصم القريبة من أنطاكية. The crusaders in the East; p. 165.

(٦) اقتباس حرفى : ذيل تاريخ دمشق : ٢٩٥ — ٢٩٦ .

الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوى المصيصى بدمشق . كان بقية الأئمة للفقهاء المفتين على مذهب الإمام الشافعى ، ولم يخلف بعده مثله . قال وفى جمادى الآخرة تقررت ولاية حصن صرخد للأمير مجاهد الدين بُزان بن مامين على مبلغ من المال والغلة ، وشروط وأيمان ، دخل فيها وقام بها . واستبشر أهل تلك الناحية به ، لما هو عليه من حب الخير والصلاح ، والتدين والعفاف .

قال[1] : وفى الحادى والعشرين من شوال ، وهو مستهل نيسان[2] ، أظلم الجوّ ونزل غيث ساكن ، ثم أظلمت الأرض فى وقت العصر ظلاما شديداً بحيث كان ذلك كالغُدوة بين العشائين ؛ وبقيت السماء فى عين الناظرين إليها كصفرة الوَرْس ، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة[3] وكل ما ينظر إليه من حيوان ونبات وجماد . ثم جاء فى أثر ذلك من الرعد القاصف ، والبرق الخاطف ، والهدّات المزعجة ، والرجفات المفزعة ، ما ارتاع لها الشيب والشبان ، فكيف الولدان والنسوان ؛ وقلقت لذلك الخيول فى مرابطها . وبقى الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخرة ، ثم سكن بقدرة الله تعالى . وأصبح على الأرض والأشجار وسائر النبات غبار فى رقة الهواء ، بين البياض والغبرة .

قال ابن الأثير : وفى سنة اثنتين وأربعين فتح نور الدين ارتاح بالسيف ، وحصن بارة[4] ، وبصرفوت[5] ، وكفر لاثا[6] . وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنهم بعد قتل

---

(١) اقتباس حرفى : ذيل تاريخ دمشق : ٢٩٦ — ٢٩٧ .

(٣) أى إبريل .

(٣) هى الكورة التى منها دمشق ، تحيط بها جبال عالية من جميع الجهات ولا سيما من جهة الشمال ، ومياهها خارجة من تلك الجبال . والغوطة كلها أشجار وأنهار متصلة . معجم البلدان : ٦ : ٣١٤ — ٣١٥ .

(٤) بلدة وكورة من نواحى حلب ، وفيها حصن وبساتين ، وتسمى زاوية البارة . معجم البلدان : ٢ : ٣٤ .

(٥) حصن من الحصون الهامة فى الطريق الرئيسى بين أنطاكية والرها . The Crusaders in the East ; 77.

(٦) فى سفح جبل عال من نواحى حلب ، وبها بساتين ومياه جارية ، وأهلها إسماعيلية . معجم البلدان : ٧ : ٢٦٦ .

الشهيد يستردون ما أخذ منهم . فلما رأوا من نور الدين هذا الجِدّ (١٤٦) علموا أنّ ما أمّلوه بعيد .

فصــــل

فى نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله عنها[(١)]

قال الرئيس أبو يعلى[(٢)] : وفى هذه السنة تواصلت الأخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الفرنج والروم وما والاها بظهور ملوك الإفرنج من بلادهم ؛ منهم الألمانى[(٣)] والفنش[(٤)] ، وجماعة من كبارهم ، فى العدد الذى لا يحصر ، لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا فى سائر بلادهم ومعاقلهم : النّفيرَ النّفيرَ إليها ، والإسراع نحوها ؛ وخلّوا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حُماتها والحفظة لها . ثم استصحبوا (من[(٥)]) ذخائرهم وأموالهم وعُددهم الشىء الكثير الذى لا يحصى ، بحيث يقال إن عدتهم ألف ألف من الرّجالة والفرسان ، ويقال أكثر من ذلك . وغلبوا على أعمال قسطنطينية ، واحتاج ملكها إلى الدخول فى مُدَاراتهم ومسالمتهم ، والنّزول على أحكامهم . وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم ، شرعت ولاة الأعمال المصاقبة لهم ، والأطراف الإسلامية القريبة منهم ، فى التأهب للمدافعة لهم ، والاحتشاد على المجاهدة فيهم . وقصدوا منافذهم ، ودروب معابرهم ، لكى يمنعوهم من العُبور والنفوذ إلى بلاد الإسلام ، وواصلوا شن الغارات على أطرافهم ؛ واستحرّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير ، وحلّ بهم من عدم القوت والمألوفات والمِيَر وغلاء السعر ، إذا وجدوه ، ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض . ولم تزل أخبارهم تتواصل

(١) بدء الحديث عن الحرب الصليبية الثانية .

(٢) ذيل تاريخ دمشق : ٢٩٧ — ٢٩٨ . وهو اقتباس حرفى .

(٣) كلمة الألمانى هنا مستعملة علما على الأمبراطور كنراد الثالث .

(٤) هو فى الواقع ابن الفونس : ertrand, son of Alphonso Jourdain, and grandson of Raymond of Toulouse. (The Damascus Chronicle ; p. 280.)

(٥) ساقطة من ق ٣٤ ا .

بهلاكهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة اثنتين وأربعين ، بحيث سكنت النفوس بعض السكون .

ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

وتواترت[1] الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا ، واجتماعهم مع من بها من الفرنج . ويقال إنهم بعد ما فَنِيَ منهم بالقتل والمرض والجوع ، وصل تقديرهم مائة ألف ، وقصدوا البيت المقدّس فقضوا حجّهم وعاد مَن عاد منهم إلى بلادهم فى البحر ، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم ، وهلك من ملوكهم من هلك ، وبقى الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه . واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية ، إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق . وبلغ ذلك معين الدين فاستعدّ لحربهم ، فجاءوا فى تقدير خمسين ألفا ودنوا من البلاد ؛ ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا ؛ فقصدوا ناحية المِزّة[2] فخيموا عليها لقربهم من الماء . وزحفوا إلى البلد بخيلهم ورجلهم ، ووقف المسلمون بإزائهم ، فى يوم السبت سادس ربيع الأول . ونشبت الحرب بين (٤٦ ب) الفريقين ، واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والقُتّال وأحداث البلد والمطوّعة والغُزاة ، الجمّ الغفير ؛ واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد ، وغلبوا على الماء ، وانتشروا فى البساتين وخيّموا فيها ، وقرُبوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديما وحديثا منه . واستُشهد فى هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوى المالكى ، رحمه الله ، قريبَ الرَّبوة على الماء ، لوقوفه فى وجوههم ، وترك الرجوع عنهم ؛ اتّبع أوامر الله تعالى فى كتابه

(١) استمرار للاقتباس السابق من ذيل تاريخ دمشق .

(٢) قرية كبيرة غناء فى وسط بساتين دمشق ، وبينها وبين دمشق نفسها نصف فرسخ ؛ معجم البلدان : ٨ : ٤٧ .

الـكريم وقال بعنا واشترى[1] . وكذلك عبد الرحمن الحلحول الزاهد ، رحمه الله ، جرى أمره هذا المجرى .

قلت[2] : وذكر الأمير أسامة بن منقذ فى كتاب الاعتبار أنّ ملك الألمان الفرنجى لما وصل إلى الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الإفرنج ، وقصد دمشق فخرج عسكرها [وأهلها][3] لقتالهم ، وفى جملتهم الفقيه الفندلاوىّ المالكىّ ، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول ، رحمهما الله ، وكانا من خيار المسلمين . فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن : أما هؤلاء الروم ؟ قال : بلى : قال فإلى متى نحن وقوف ؟ قال : سر على اسم الله . فتقدّما فقاتلا حتى قُتلا فى مكان واحد ، رحمهما الله تعالى .

ثم قال أبو يعلى[4] : وشرعوا فى قطع الأشجار والتّحصّن بها ، وهدّوا القناطر ؛ وباتوا تلك الليلة على هذه الحال ، وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه ، والرّوع بما عاينوه ، ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور . وباكروا الظّهور إليهم غد ذلك اليوم ، وهو الأحد تاليه ، وزحفوا إليهم ، ووقع الطراد بينهم ؛ واستظهر المسلمون عليهم ، وأكثروا القتل والجراح فيهم ؛ وأبلى الأمير معين الدين فى حربهم بلاء حسناء ، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يُشاهد فى غيره ، بحيث [كان[5]] لا ينى فى جهادهم ، ولا ينثنى عن دمارهم . ولم تزل رحا الحرب دائرة بينهم ، وخيل الـكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم ، حتى تتهيأ الفرصة لهم ، إلى أن مالت الشمس إلى الغروب ، وأقبل الليل ، وطلبت النفوس الراحة ، وعاد كل منهم إلى مكانه . وبات الجند بإزائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط ، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم . وكانت المـكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد ، وجعلت خيل التركمان تتواصل ، ورجّالة الأطراف

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة التوبة :
« إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ .. » الآية .

(٢) هذه الفقرة مصدرة فى ق ٤٤ ا بعنوان : فصل .

(٣) ما بين الحاصرتين من ق ٤٤ ا .

(٤) فى ذيل تاريخ دمشق : ٢٩٨ — ٣٠٠ .

(٥) السياق يستدعيها وهى غير موجودة فى الأصل .

تتتابع ؛ وباكرهم المسلمون وقد قويت [شوكتهم][1] ونفوسهم ، وزال عنهم روعهم ، وثبتوا بإزائهم ؛ وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ[2] ، بحيث يقع فى مخيّمهم فى راجل أو فارس ، أو فرس أو جمل . ووصل فى هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجّالة كثيرة من الرُّماة ، فزادت بهم العِدّة[3] وتضاعفت العُدّة[3] . وانفصل (١٤٧ ا) كل فريق إلى مستقرّه فى هذا اليوم ، وباكروهم من غده يوم الثلاثاء وأحاطوا بهم فى مخيمهم ، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقاً بالنشاب ، وحذْفاً بالأحجار ؛ وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ، ولم يظهر منهم أحد ، وظُنّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبّرون حيلة . ولم يظهر منهم إلا النّفر اليسير من الخيل والرَّجل على سبيل المطاردة والمناوشة ، خوفاً من المهاجمة ، إلى أن يجدوا لحملتهم مجالا . وليس يدنو منهم أحد إلا صُرع برشْقة أو طعنة . وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضّياع ، وجعلوا يقصدونهم فى المسالك وقد أمنوا ، فيقتلون من ظفروا به ويُحضرون رءوسهم لطلب الجوائز عليها . وحصل من رءوسهم العدد الكثير . وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال شأفتهم ، فأيقنوا بالهلاك [والبوار[4]] ، وحُلول الدّمار ، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التى حصلوا بها[5] غير الرّحيل ، فرحلوا سَحَر يوم الأربعاء التالى مفلولين . وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم فى بكرة هذا اليوم ، وسارعوا فى آثارهم بالسهام ، بحيث قتلوا فى أعقابهم من الرجال والخيول والدّواب العدد الكثير . ووجدوا[6] فى آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم مالا عَدَدَ له ولا حصر يلحقه ؛ بحيث لها أراييح من جيفتهم تكاد تَصْرع فى الجو . وكانوا قد أحرقوا الرّبوة والقبة

---

(١) ما بين الحاصرتين من ق ١٤٤ ا .

(٢) الجرخ ، وجمعه الجروخ ، آلة حربية تستعمل لرمى السهام والحجارة والنفط المشتعل ، والقائم على تشغيلها يسمى جرخى Dozy, Supp. Dict. Ar.

(٣) الضبط من ق ٤٤ ا .

(٤) مثبتة فى هامش ك وهى فى صميم المتن فى ن .

(٥) فى ق ٤٤ ب : فيها .

(٦) فى ق ٤٤ ب : وجدُّوا ، وهو خطأ .

المدودية فى تلك الليلة . واستبشر الناس بهذه النعمة التى أسبغها الله عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذى واصلوه فى أيام هذه الشدة . فلله الحمد على ذلك والشكر . واتفق عقيب هذه الرحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قرية من دمشق للإنجاد لها .

وقال ابن الأثير[١] : خرج ملك الألمان من بلاد الإفرنج فى جيوش (كبيرة[٢]) عظيمة لا تحصى كثرة من الفرنج إلى بلاد الشام . فاتفق هو ومَنْ بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ، ولا يشكُّ ملك الألمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره . قال : وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عدداً وأوسعهم بلاداً ، وملكهم أكثر عَدَداً وعُدَدا ، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلا . فلما حاصروا دمشق ، وبها صاحبها مجير الدين آبُق بن محمد بن بورى بن طغتكين ، وليس له من الأمر شيء ، وإنما كان الأمر إلى مملوك جده طغتكين ، وهو معين الدين أنر ، فهو كان الحاكم والمدبّر للبلد والعسكر ، وكان عاقلا دينا خيّرا حسن السّيرة ؛ فجمع العسكر وحفظ البلد ؛ وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول ، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم . وكان فيمن خرج (٤٧ ب) الشيخ الفقيه حجة الدّين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربى الفندلاوى شيخ المالكية بدمشق ؛ وكان شيخا كبيراً ، زاهدا عابدا ؛ خرج راجلا ، فرأى معين الدين ، فقصده وسلم عليه وقال له : يا شيخ أنت معذور ، ونحن نكفيك ، وليس بك قوّة على القتال . فقال : قد بعت واشترى ، فلا نُقيلهُ ولا نستقيله . يعنى قول الله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . . » الآية[٣] .. وتقدم فقاتل (الفرنج[٤]) حتى قتل ، رحمه الله ، عند النيرب[٥] ، شهيداً . وقوى

(١) اقتباس حرفى : الأتابكة : ١٥٩ — ١٦١ ؛ ويبدو فى كثير من عباراته ضعف الأسلوب .

(٢) ساقطة من ق ٤٤ ب .

(٣) سورة التوبة : ١١١ .

(٤) ساقطة من ق ٤٥ ا .

(٥) قرية بدمشق على مسافة نصف فرسخ فى وسط البساتين . يقول ياقوت : « هى أنزه موضع رأيته » . معجم البلدان : ٨ : ٣٥٥ .

أمر الفرنج وتقدموا فنزلوا بالميدان الأخضر ، وضعف أهل البلد عن ردّهم عنه . وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين[١] يستغيث به ويستنجده ، ويسأله القدوم عليه ، ويُعلمه شدة الأمر . فجمع سيف الدين عساكره وسار مُجدًّا إلى مدينة حمص ، وأرسل إلى معين الدين يقول له : قد حضرت ومعى كلّ من يُطيق حمل السلاح من بلادى ، فإن أنا جئت إليك والقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوّابى وأصحابى وكانت الهزيمة والعياذ بالله علينا ، لا يسلم منّا أحدٌ لبعد بلادنا عنا ، وحينئذ تملك الفرنج دمشق وغيرها . فإن أردتم أنْ ألقاهم وأقاتلهم فتسلّم البلد إلى من أثق إليه ؛ وأنا أحلف لك ، إن كانت النُّصرة لنا على الفرنج ، أننى لا آخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدوّ عنها ، وأعود إلى بلادى . فماطله معين الدّين لينظر ما يكون من الفرنج . فأرسل سيف الدّين إلى الفرنج الغرباء يتهدّدهم ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا . وأرسل معين الدّين إليهم أيضاً يقول لهم قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر مالا طاقة لكم به ، فإن أنتم رحلتم عنّا وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ لا تطمعون فى السلامة منه . وأرسل إلى فرنج الشام يخوّفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ، ويقول لهم أنتم بين أمرين مذمومين : إنْ ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يُبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد ، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدّين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدّس . وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحّلوا ملك الألمان عن دمشق . فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه ، واجتمعوا بملك الألمان وخوّفوه من سيف الدّين وكثرة عساكره وتتابع أمداده ، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم مُقام بالساحل . فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق . فرحل ورحل فرنج الساحل ، وتسلموا حصن بانياس من معين الدّين وبقى معهم حتى فتحه نور الدين [محمود[٢]] ، رحمه الله ، كما سنذكره .

(١) سيف الدين غازى بن زنكى ، أخى نور الدين محمود . خلف أباه زنكى على الموصل والأجزاء الشرقية من ممتلكاته .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ١٤٥ .

قلت[١]: وذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر رحمه الله فى تاريخه أن الفقيه الفندلاوى رؤى فى المنام ، فقيل له أين أنت ؟ قال فى جنات (١٤٨) عدْن على سُرُرٍ متقابلين . وقبره الآن يُزار بمقابر الباب الصغير من ناحية حائط المصلّى ، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله . وأما عبد الرحمن الحلحول فقبره فى بستان الشعبانى فى جهة شرقه ، وهو البستان المحاذى لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت . وكان مُقامه فى حياته فى ذلك المكان ، رحمه الله . وقرأت قصيدة فى شعر أبى الحكم الأندلسى شرح فيها هذه القصة منها :

بشطّىْ نهر داريّا[٢] أمور ما تؤاتينا
وأقوام رأوا سفك الدّ(م) ما فى جِلّق[٣] دينا
أتانا مائتا ألف عديداً أو يزيدونا
فبعضهمُ مِنَ اندلس وبعضٌ[٤] من فلسطينا
ومن عكا ومن صورٍ[٥] ومن صَيْدَا[٦] وتِبْنِينا[٧]
إذا أبصرتهم أبصرْ ت أقواماً مجانينا
ولكن حرّقوا فى عا جل الحال البساتينا
وجازوا المرج والتعديـ ـل أيضا والميادينا

(١) اقتبس ابن الأثير بعض ما جاء فى هذه الفقرة من تاريخ دمشق لابن عساكر فرجع أبو شامة إلى الأصل واقتبس منه .

(٢) داريا : قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة : معجم البلدان : ٤ : ٢٤ .

(٣) يقول ياقوت : جلّق اسم لكورة الغوطة كلها ، وقيل بل دمشق ، وقيل موضع بقرية من قرى دمشق ، معجم البلدان : ٣ : ١٢٦ — ١٢٨ .

(٤) من ق ٤٥ ب . وفى ك : وبعضهم . وهو خطأ وزنا .

(٥) مشرفة على البحر داخلة فيه يحيط الماء بها إلا من الجهة الداخلية ، وهى على بعد ستة فراسخ من عكا إلى جهة الشرق منها . معجم البلدان : ٥ : ٣٩٧ — ٣٩٨ .

(٦) بالقصر أوالمد ، شرقى صور وعلى ستة فراسخ منها . سقطت فى يد الفرنج سنة ٥٠٤ وبقيت فى حوزتهم حتى استنقذها صلاح الدين سنة ٥٨٣ . معجم البلدان : ٥ : ٤٠٣ — ٤٠٥ .

(٧) بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بانياس ، بين دمشق وصور . معجم البلدان : ٢ : ٣٦٤ .

تخالُهمُ وقــــد ركبوا   فطـــائرها جراذينا
وبين خيامهم ضمّوا الـ   ـخنازر والقرابينــا
ورايات وصــلبانا   على مســجد خاتونا
وقلنا إذْ رأينـــاهم   لعـــل الله يكفينا
سَمَا لهم معـــينٌ قد   أعانَ الخلق والدّينا
وفتيــانٌ تخالهمُ   لدى الهيجا شــياطينا
فولّوْا يطلبــون المرْ   جَ من شرقى جِسْرِينا[1]
ولكن غادروا إليــا   سَ تحت التُّرب مدفونا
وشيخا فنــدلاويا   فقيها يعضُــد الدينا
وفتيانا تفانوْا من   دمشـــق نحو سَبْعينا
ومنهم فائتـــا علج   وخيـــل نحو تسعينا
وباقـــيهم إلى الآنَ   من القتــل يفرّونا

وللعرقلة حسان فى مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج ، أولها :

عرّجْ على نجد لعلّك منجدى   بنسيمها ، وبذكر سعدى مبعدى

[يقول فيها[2]] :

من قاتل الأفرنج دنيا غـــيرهُ   والخيل مثلُ السّيل عند المشهد
ردّ الأمان بكل نَدْبٍ باسل   ومن الجياد بكل نهـــد أجرد

(١) من قرى غوطة دمشق . معجم البلدان : ٣ : ١٠٦ . وقد أثبتناها كذلك نقلا عن ق ٤٥ ب وفى ك : حبرينا .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ٤٥ ب .

ومن السيوف بكل عضب أبيض   ومن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الإسلام تحت لوائه   وغدا بحمدٍ من شريعة أحمد

وقرأت فى ديوان محمد بن نصر القيسرانى قصيدة فى مدح تاج الملوك بورى جدّ مجير الدين ، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق فى أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ؛ وهى واقعة تشبه الواقعة فى زمن مجير الدين .

أول القصيدة :

الحق مبتهج ، والسيف مبتسم   ومال أعدا مجير الدين مُقْتَسَمُ

يقول فيها : (٤٨ ب)

قُدتَ الجياد ، وحصّنت البلاد ، وأمّـ (م) ـنت العباد ، فأنت الحـلّ والحَرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها   معاقد الحزم فى أوساطها الحُزُم
حتى إذا ما أحاط المشركون بنا   كالليل ، يلتهم الدُّنيا له ظُلَمَ
وأقبلوا ، لا من الإقبال ، فى عدد   يؤود حاسبَه الإعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذىّ معتكرا   أمواجه بأواسى اليأس تلتطم
وسُست جندك والرحمن يكلؤه   سياسة . ما يعقّى إثرها ندم
وقفت فى الجيش ، والأعلام خافقة   بالنّصر ، كلّ قناةٍ فوقها علم
يحوطك الله صونا عن عيونهم   والله يعصم من بالله يعتصم
حتى إذا بدت الآراء ضاحكة   وأقبلت أوجه الإقبال تبتسم
أتبعت جنّ سراياهم مُضمَّرة   فيها نجوم إذا جدّ الوغى رجموا
والنّصر دانٍ ، وخيل الله مقبلة   ترجو الشهادة فى الهيجا ، وتغتنم
صابَ الغمامُ عليهم والسهامُ معًا   فما دَرَوْا أيُّما الهطَّالة الدّيم
سَرَوْا لينتهبُوا الأعمار ، فانتُهِبوا   قتلاً ، ويَغْتنموا الأقوالَ فاغْتُنموا
وأقبلت خيلُنا تردى بخيلهم   مجنوبة ، وعلى أرماحنا القمم

وأدبر الملك الطاغى ، يزعزعه حرّ الأسـنّة ، وهو البارد الشبم
وافوا دمشق فظنوا أنها جِدَةٌ ففارقوها وفى أيديهم العـدم
وأيقنوا مع ضيـاء الصبح أنّهمُ إنْ لَمْ يزُولوا سِراعاً زالت الجيم
فغادروا أكثر القُربان وانجفلوا وخلّفوا أكبر الصُّلبان وانهزموا
وحاولوا المسجد الأدنى فما عبرت عن مسجد القدم[١] الأقصى لهم قدم[٢]
مُستَسْلِمين لأيدى المسلمين ، وقد أغرى القنـا بتمادى خطفهم نهم
لا يملكُ الجسمُ دفعـاً عن مَقاتله كأنّه حـين يغشاهُ الرّدى صنم

فصـل

قال ابن الأثير[٣] : لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدّين أنر إلى بعلبك ؛ وأرسل إلى نور الدّين ، وهو مع أخيه سيف الدّين ، يسأله أن يحضر عنده فاجتمعا . فوصل إليهما كتاب القمص صاحب طرابلس[٤] يشير عليهما بقصد حصن العُرَيْمة وأخذه ممّن فيه من الفرنج[٥] . وكان سبب ذلك أن ولد الفنش صاحب جزيرة صقلية خرج مع ملك الألمان إلى الشام وتغلّب على العُرَيْمة وأخذها (٤٩ ا) من القمص ، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضاً . وجدّ هذا الّذى ملك العُريمة هو الذى غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب . فلما استولى هـذا على العريمة كاتب القومص نور الدّين ومعين الدّين

(١) مسجد القدم جنوبى الحصا بدمشق ، وكان الملوك ونواب السلاطين ينزلون عنده زمن الأيوبيين والمماليك إذا جاءوا لحصار دمشق . خطط دمشق : ٦ : ٦٠ .

(٢) يجىء هذا البيت فى ق ٤٦ ا بعد بيتين .

(٣) اقتباس حرفى من الأتابكة : ١٦٢ — ١٦٣

(٤) Raymond II, the count of Tripolis انظر : The Crusaders in the East, P. 164.

(٥) وكان هذا الحصن تحت سيطرة برترام بن الفونسو وحفيد ريموند التولوزى . وهو أمير صليبى ادعى السيطرة على جميع إمارة طرابلس فى أثناء الحرب الصليبية الثانية . انظر The Crusaders in the East, P. 164.

فى قصده ، فسارا إليه مُجدَّيْن ، فصحباه ؛ وكتبا إلى سيف الدّين يستنجدانه ويطلبان منه المدد فأمدّهما . فحصروا الحصن ، وبه ابن الفنس ، ونقبوا السّور ؛ فأذعن الفرنج واستسلموا ، وألقوا بأيديهم . فملك المسلمون الحصن وأخذُوا كلّ مَنْ به من رجل وصبىّ وامرأة ؛ وفيهم ابن الفنس ؛ وأخربوا الحصن وعادوا إلى سيف الدين . وافتتح نور الدين أيضاً باسوطا وهاب .

وقال الرئيس أبو يعلى[١] : قُتل أكثر من كان فيه ، يعنى [فى[٢]] حصْن العُريمة ، وأخذوا ولد الملك وأمّه ، ونُهب ما فيه من العُدد والخيول والأثاث . وعاد[٢]] عسكر سيف الدّين إلى مُخيّمه بحمص ، ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولدُ الملك وأمّه ومن أسر معهما ، وانكفأ معين الدّين إلى دمشق .

قال[٣] : ووردت الأخبار فى رجب من ناحية حلب بأنّ نور الدّين صاحبها كان قد توجه فى عسكره إلى ناحية الأعمال الإفرنجية ، وقصد أفامية[٤] ، وظفر بعدّة من الحصون والمعاقل الإفرنجية ، وبعُدّة وافرة من الإفرنج ؛ وأنّ صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه ، فنال من عسكره وأثقاله وكُراعه ما أوجبتْه الأقدار النازلة ، وانهزم بنفسه وعسكره ، وعاد إلى حلب سالماً فى عسكره لم يفقد منه إلاّ النفر اليسير ، بعد قتل جماعةٍ وافرة من الإفرنج . وأقام بحلب أيّاماً بحيث جدّد ما ذهب له من اليزك[٥] وما يحتاج إليه من آلات العسكر ، وعاد إلى منزله ، وقيل لم يَعُد .

وذكر ابن أبى طى أنّ أسد الدّين لما كان فى نفسه على نور الدين من تقديم ابن الدّاية عليه لم ينصح يومئذ ، وهى وقعة يغرا[٦] ؛ ومرّ به نور الدّين فقال له : ما هذا الوقوف

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٠ — ٣٠١ : بتصرف كثير .

(٢) مابين الحاصرتين من ق ٤٦ ب .

(٣) اقتباس حرفى من ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٢ — ٣٠٣ .

(٤) مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص . وهى بالهمزة وبغيرها . معجم البلدان : ١ : ٢٩٨ .

(٥) لفظ فارسى معناه طلائع الجيش : السلوك : ١ : ١٠٥ : حاشية : ٣ ؛ Dozy, Supp. Dict. Ar.

(٦) هى يغرا ، وبغراس . مدينه فى لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد أنطاكية من حلب ، فى المنطقة المطلة على نواحى طرسوس . معجم البلدان : ٢ : ٢٤٥ ؛ الكامل : ١١ : ٥١ : The Crusaders in the East p. 165

والْغَفْلة فى مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا ؟ ! فقال : «ياخوند[١] إيش ننفع نحن ؟ إنما ينفع مجد الدين أبو بكر ، فهو صاحب الأمر » . فاستدرك نور الدّين بعد ذلك ، وألزم مجد الدّين أنْ يعرف لأسد الدّين حقه ، وأصلح بينهما .

قال : وقُتل فى هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب ، أخو الملك النّاصر ، وقيل فى كسرة البقيعة . قلت وهو والد عز الدين فرخشاه ، وتقى الدين عمر ، والست عذرا المنسوب إليها العذاروية[٢] داخل باب النصر بدمشق . وقبره الآن بالتّربة النّجميّة[٣] جوار المدرسة الحساميّة[٤] بمقبرة العونيّة ظاهر دمشق ، رحمهم الله تعالى .

قلت : ولابن منير من قصيدة تقدّمت اعتذاراً عما جرى فى هذه الغزاة قال :

(٤٩ ب) لم يشنه من ماء « يغراء » أن فرّ (م) الأشابات ذاد عنهـا انذلاقه[٥]

كان فيها ليث العرين ، حمى الأشْـ ـبالَ . منه غضبان ، كالنار ماقه[٦]

وشـبيه النبىّ يوم حُنَيْنٍ إذ تلافى أدواءهم درْيَاقـه

وهى الحرب ، فخلها يحسن الكرّ (م) ة إن عض بأسها ، لا نياقه

فصـل

وقال ابن الأثير : وفى سـنة ثلاث وأربعين أيضاً سار نور الدين إلى بصرى ، وقد

(١) لفظ تركى أو فارسى معناه السيد أو الأمير ، ويخاطب به الذكور والإناث على السواء . انظر السلوك : ١ : ٢٢٤ : حاشية : ٢ ؛ وكذلك Dozy, Supp. Cict. Ar.

(٢) قال السيد كرد على : أنشأتها عذراء ، بنت صلاح الدين ، فى رواية ، للشافعية والحنفية . خطط الشام : ٦ : ٨٦ . ومصدره فى هذا الدارس فى تاريخ المدارس . وبمراجعة هذا المصدر نجد أنه يذكر أن عذراء بنت أخى صلاح الدين لا بنت صلاح الدين . وهذا صحيح ويوافق ما جاء هنا . الدارس : ١ : ٣٧٣ — ٣٧٤ .

(٣) جوار المدرسة الشامية البرانية ، دفن فيها أفراد من أسرة أيوب فنسبت إليه . خطط دمشق .

(٤) لا ذكر لها فى الدارس ولا فى خطط الشام . وإنما جاء فى خطط الشام ذكر الحساميـة الشبلية بين خانقاهات دمشق ، ونسبت لأم حسام الدين عمرو بن لاجين ، وهى بنت ست الشام أخت صلاح الدين الأيوبى . خطط الشام : ٦ : ١٣٤ .

(٥) الأشابات الأخلاط . وذلق الضب خرج من خشونة الرمل إلى ليونة المـاء . القاموس المحيط .

(٦) الماقة شبه الفواق ، وهى نفس يتردد فى الصدر عند البكاء والنشيج . ومنه الحديث : « ما لم تضمر الإماق » أى الغيظ . القاموس المحيط .

اجتمع بها الفرنج فى قضّهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الإسلام . فالتقى بهم هنالك واقتتلوا أشد قتال ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين وانهزم الفرنج ، وكانوا بين قتيل وأسير. وفى هذه الوقعة يقول القيسرانى من قصيدة أوّلها :

يا ليت أنّ الصدّ مصدود أوْلاَ ، فليت النوم مردود
إلى متى تعرض عن مغرم فى خدّه للدّمع أخدود
قالوا عيون البيض بيض الظّبا قلت ولكن هذه سود
يُخاف منها وهْى فى جفنها والسّيفُ يُخشى وهْو مغمود

ثم خرج إلى المدح فقال :

وكيف لا نثنى على عيشنا الـ محمودِ والسلطان محمود
فليشكر الناس ظلال المنى إنّ رواق العدل ممدود
ونيّرات الملك وهّاجة وطالع الدّولة مسعود
وصارمُ الإسلام لا ينثنى إلا وشِلْوُ الكفر مقدود
مناقبٌ لم تك(١) موجودة إلاّ ونور الدّين موجود
مظفّر ، فى درعه ضيغم عليه تاج الملك معقود
نال المعالى حاكماً مالكاً فهو سليمانٌ وداود
ترتشف الأفواه أسيافه إنّ رُضاب العزّ مورود
وكم له من وقعة يومُها عند ملوك الشّرك مشهود
والقوم : إمّا مُرهَق صرعة أو مُوثَقٌ بالقدّ مشدود
حتى إذا عادوا إلى مثلها قالت لهم هيبته عودوا
طالِبُ ثأر ضمِنَتْه الظبا فكل(٢) ما يضمن مردود

(١) فى ك : لم تكن ، وبهذا يختل وزن البيت . والمثبت هنا من ق ٤٧ ا .
(٢) رسمت فى ك : فكلما .

والكرّ والفرّ سجال الوغى ... فطاردٌ طـــوراً ومطرود
وإنمـــا الإفرنج من بغيها ... عادوا ، وقد عادَ لهـــا هود
قد حصحص الحقّ ، فما جاحدٌ ... فى قلبه بأســـك مجحود
فكلّ مصرٍ بِكَ مُستفتح ... وكل ثغر بك مســـدود

وقال أيضاً قصيدة فى نور الدّين ، وأنشده إياها بظاهر حلب ، وقد كسر الإفرنج على يغرا وهزمهم إلى حصن حارم[1] ، وقد كانت الفرنج هزمت المسلمين أوّلاً بهـذا الموضع ، أوّلها :

(١٥٠ ا) تفى بضمانها البيض الحِداد ... وتقضى دَيْنَها الشمر الصِّعاد
وتدرك ثارها من كلّ باغ ... فوارسُ من عزائمها الجلاد
ويَغشى حومة الهيجا همام ... يُشَدُّ بضبعه السبعُ الشداد
أظنّوا أنّ نار الحرب تخبو ... ونور الدين فى يده الزّناد !
وجندٌ كالصقور على صقور ... إذا انقضوا علىَ الأبطال صادوا
إذا أخفوا مكيدتهم أخافوا ... وإن أبدوا عداوتهم أبادوا
ونصرة دولة حاميت عنها ... وهل يخشى وأنت لها عماد
وإنْ تَتلُ القوافى ماتلاته ... بإنِّب[2] ما يؤنبها ســـناد
جرت بالنّصر أقلامُ العوالى ... وليس سوى النّجيع لها مداد
وطالت أرؤُس الأعلاج خِصبًا ... فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبراً ... ولا طعنٌ هنـــاك ولا طِراد
وللإبرنز فوق الرمح رأس ... تَوَسّدُ ، وَالسّنان له وســـاد

(١) حصن وكورة تجاه أنطاكية ، صارت أيام ياقوت من أعمال حلب ، وفيها أشجار ومياه كثيرة راكدة تتوالد فيها الجرائيم . معجم البلدان : ٣ : ١٩٩ .

(٢) حصن من أعمال عزاز فى نواحى حلب . نفس المصدر : ١ : ٣٤٠٢ .

ترجّل للســــلام ففرّسوه وليس سوى القناة له جواد
غضيض المقلتين ولا نُعاس وغائرها وليْس به سهاد
فَسِرْ وَاسْتَوْعِب الدّنيا فتوحاً فلا هضبٌ هناك ولا وِهاد
وزُرْ بيتى الوغى مثوى حبيبٍ فما عن باب مسلمه ذياد
ولا فِي باب فارس غير ثُكلى بفارسها يضىء بهــا الحداد
لأنطاكيّة يحمى ذراهــــــا وقد دانت لسطوتك البلاد
وأذعنت الممالك واستجابت ملبّية لدعوتك العبــــاد

قلت : ووقعة إنّب هذه كانت عظيمة ، وقد أكثر كذلك الشعراء لها ؛ وسيأتى ذكرها قريبا [إن شاء الله تعالى(١)] .

فصــــل

قال أبو يعلى التّميمى(٢) : وفى رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين بن أتابك أمر بإبطال « حىّ على خير العمل » فى أواخر تأذين الغداة والتظاهر بسبّ الصحابة ، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً ، وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة بحلب . وعظم هذا الأمر على الإسماعيلية وأهل التشيّع وضاقت له صدورهم ، وهاجوا وماجوا ، ثم سكنوا وأحجموا ، للخوف من السطوة النوريّة المشهورة ، والهيبة المحذورة .

قلت وأنشده ابن منير فى شهر رمضان :

(٥٠ ب) فداك من صام ومن أفطرا ومن سعى سَعْيَك أو قصّرا
وما الورى أهلا فتفدى بهم وهل يوازى عَرَضٌ جوهرا

(١) ما بين الحاصرتين من ق ٤٧ ب .

(٢) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٠١ . والاقتباس حرفى ، تصرف أبو شامة تصرفا بسيطا فى بعض ألفاظه .

عدلٌ تساوَى تحت أكنافه مطافل العِين وأسدُ الشَّرى(1)
يا نورَ دين الله : كم حادثٍ دجا وأسفرت له فانشرى
وكم حِمًى للشِّرك لا يهتدى الـ ـوهم له غادرته مجزرا
يا مَلِكَ العصر الَّذى صدرُه أفسحُ من أقطارها مصدرا
وابْنَ الذى طاول أفلاكها فلم يجد من فوقه مظهرا
مناقب تكسر كسرى كما تقصر(2) عن إدراكها قيصرا
ما عام فى أوصافها شاعر إلا رأى أوصافها أشعرا
لِلّه أصلٌ أنت فرعٌ له ما أطيب الجنى وما أطهرا(3)
ما حلبُ البيضاء مُذْ صنتها إلاَّ حرامٌ مثل أمّ القرى
شيدت فى معمور أرجائها لكل باغى عُمرة مشعرا
فأصبح الشادى إذا ثوَّب الدّ (م) اعى له هلّل أو كبّرا
لا عَدِم الإسلامُ مَنْ كفُّه كهفٌ لِمَنْ أرهق أو أحصرا
كأنما ساحتُه جَنَّة أجرت بها راحتُه كوثرا
تصرّم الشهر الّذى كنتَ فى أوقاته مِن قدره أشهرا
جِهادُ ليلٍ فى نهارٍ ، فَفُزْ إذ كنت فيه الأصبرَ الأشكرا
أصدق ما يرشفه سامع ما هزّ من أوصافك المنبرا
أبقاك للدنيا وللدّين من خلالك فى ليلهما نيّرا

(١) المطافل : جمع مطفل ، وهى ذات الطفل من الوحش . والعِين : بقر الوحش . والشرى : الجبل ، والطريق ، وطريق فى سلمى كثيرة الأسد . القاموس المحيط . والشرى رسمت فى ك وكذلك فى ق ٤٧ ب : الشرا .

(٢) فى ك : يقصر بالياء والمثبت هنا من ق ٤٧ ب ، وهو أولى ، إذ أن كلمة قيصر ينبغى أن تكون مفعولا به بدليل القافية.

(٣) فوق هذه الكلمة فى ك : أنضر ؛ وهى موجودة كذلك فى هامش ق ٤٧ ب .

حتى ترى عيسى من القدس قد لجا[١] إلى سيفك مستنصرا[٢]

قال أبو يعلى[٣] : وفى رجب أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم فى الجامع المعمور بدمشق على جارى العادة والرّسم ، فبدا من اختلافهم فى أحوالهم وأغراضهم ، والخوض فى قضايا لا حاجة إليها من المذاهب ما أوجب صرفهم عن هـذه الحال و إبطال الوعظ ، لما يتوجه معه من الفساد ، وطمع سفهاء الأوغاد ؛ وذلك فى آخر شعبان منها .

قال[٤] : وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية فى الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق ؛ فأغار معين الدّين على أعمالهم ، وخيّم فى ناحية من حَوْرَان[٥] بالعسكر ، وكاتب العرب ، واستدعى جماعة وافرة من التركمان ، وأطلق أيديهم فى نهبهم (١٥١) والفتك بهم . فلم يزل على النّكاية فيهم والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة .

ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

تجدّدت المهادنة فى المحرم مدّة سنتين . وأنفذ[٦] نور الدين إلى معين الدين يعلمه أنّ صاحب أنطاكية قد جمع إفرنج بلاده وظهر يطلب بهم الإفساد فى الأعمال الحلبية ، وأنّه قد برز فى عسكره إلى ظاهر حلب للقائه ، والحاجة ماسّة إلى معاضدته . فندب معينُ الدّين مجاهدَ الدّين بُزان بن مامين[٧] فى فريق وافر من العسكر الدّمشقى للمصير إلى جهته ،

(١) أى لجأ بتسهيل الهمزة .

(٢) فى ك بالهامش ، وكذلك فى صميم متن ق ٤٧ ب داخل إطار صغير فى وضع مقلوب ، وردت العبارة الآتية : « حاشية : قال المؤلف: يعنى أتباع عيسى ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، نحو قوله تعالى واسأل القرية . والله أعلم » .

(٣) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٠١ . وهو اقتباس حرفى .

(٤) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٣ . بتصرف كثير .

(٥) كورة واسعة من أعمال دمشق تتبعها قرى كثيرة ومزارع وحرار ، سكنها كثير من العرب كما يظهر من النص وكما جاء فى معجم البلدان : ٣ : ٣٦٠ — ٣٦١ .

(٦) بدء اقتباس آخر من ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٤ — ٣٠٦ بحذف واختصار .

(٧) وهو الذى تولى صرخد من قبل ، سنة ٥٤٢ ..

و بذل المجهود فى طاعته ومناصحته ؛ و بقى معين الدين فى باقى العسكر بناحية حَوْرَان .

قال : وفى صفر من السّنة وردت البشائر من جهة نور الدّين بما أولاه الله تعالى ، وله الحمد ، على حشد الإفرنج المخذول ، ولم يُفلت منهم إلا من خبّر ببوارهم وتعجيل دمارهم . وذلك أنّ نور الدين اجتمع له من سائر العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الأتباع والسّواد ، فنهض بهم إلى الفرنج فى الموضع المعروف بإنّب ، وهم فى نحو أربعمائة فارس وألف راجل[1] ، فقتلوهم وغنموهم[2] ؛ ووُجد اللّعين البرنس[3] مقدّمهم صريعاً بين حُماته وأبطاله ، فعرف وقُطع رأسُه وحُمل إلى نور الدين . وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدّة البأس ، وقوة الحيل وعظم الخلقة ، مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة ، والتّناهى فى الشّر ؛ وذلك يوم الأربعاء الحادى والعشرين من صفر . ثم نزل نور الدين فى العسكر على باب أنطاكية ، وقدْ خلَت من حُماتها ، والذّابّين عنها ، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم . وتردّدت المرسلات بينه و بينهم فى طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم ، فوقع الاحتجاج منهم بأنّ هذا أمر لا يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع آمالهم من النّاصر لهم ، والمعين على من يقصدهم . وحملوا ما أمكنهم من التّحف والمال ، ثم استمهلوا فأُمهلوا . ثم رتّب نور الدّين بعض العسكر للإقامة عليها والمنع لمن يصل إليها ، ونهض فى باقية العسكر (إلى ناحية أفامية[4] ، وقد كان رتب الأمير صلاح الدين فى فريق وافر من العسكر[5]) لمنازلتها ومضايقتها ، فالتمسوا الأمان فأومنوا على أنفسهم ، وسلّموا البلد فى ثامن عشر ربيع الأول ، وانكفأ نور الدين فى

(١) هكذا وردت أيضاً فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٥ . وفى المقتبسات التى ترجمها الأستاذ جب بعنوان The Damascus Chronicle وردت : فى نحو أربعة آلاف فارس وألف راجل(P.291) .

(٢) أسقط أبو شامة هنا وصف المعركة الذى أورده أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٥ .

(٣) واسمه ريموند . انظر : The Crusaders in the East, p. 165 وكذلك The Damascus Chronicle, p. 292.

(٤) تقدم شىء من التعريف بها . انظر ص : ٦١ حاشية : ٤ .

(٥) ما بين القوسين ساقط من ق ٤٨ ب .

عسكره إلى ناحية أنطاكية(١) ، وقد انتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها . فاقتضت الحال مهادنة مَن فى أنطاكية وموادعتهم ، وتقرير أن يكون ما قرُب من الأعمال الحلبيّة له، وما قرُب من أنطاكية لهم . ورحل عنهم إلى جهة غيرهم ، بحيث كان قد ملك فى هـذه النوبة ممـا حول أنطاكية من الحصون والقلاع والمعاقل وغيرها المغانم الجمّة .

(٥١ ب) وفصّل عنه الأمير مجاهد الدّين بزان فى العسكر الدّمشقى ، وقد كان له فى هذه الوقعة ولمن فى جملته البلاء المشهور والذّكر المشكور ، لما هو موصوف به من الشّهامة والبسالة ، و إصابة الرأى ، والمعرفة بمواقف الحروب .

وقال ابن أبى طىّ : حمل أسد الدّين على حامل صليب الفرنج فقتله ، وقُتل البرنس صاحب أنطاكية وجماعةٌ من وجوه عسكره ، ولم يقتل من المسلمين من يقوم به(٢)، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى . وكان لأسد الدين فى هذه الحرب اليد البيضاء ومدحه بها بعض الشعراء الحلبيين [بقصيدة(٣)] يقول فيها .

إن كان آل فرنج أدركوا فلجا   فى يوم يغرا ، ونالوا منيـة الظفر
ففى الخطيم خطوت الكفر منصلتا   أبا المظفر بالصمصامـة الذكر
نالوا بيغرا نهابا ، وانتهبْت لنـا   على الخطيم نفوس المعشر الأشر
واستقودوا الخيل عريًا واستَقَدْتَ لنا   قوامص الكفر فى ذل وفى صغر

قال : وحصل لأسد الدّين من هذه الكسرة سلاح كثير ، وعدة أسارى وخيول كثيرة ، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئا . وفى هذه السنة عظم أمر أسد الدين .

(١) فى ذيل تاريخ دمشق الذى يقتبسه أبو شامة : واتكفأ نور الدين فى عسكره إلى ناحية الساحل صوب أنطاكية : انظر الذيل : ٣٠٥ .

(٢) فى ق ٤٨ ب : من يؤبه له .

(٣) ساقطة من ك ، وكذلك من ق ٤٨ ب ، والسياق يستدعيها .

وقال ابن الأثير[١] : سار نور الدين إلى حصن حارم ، وهو للفرنج ، لحصره وخرّب ربضه ، ونهب سواده ؛ ثم رحل عنه إلى حصن إنّب لحصره . فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليُرَحِّلُوه عن إنّب فلم يرحل ، بل لقيهم وتصافّ الفريقان ، واقتتلوا ، وصبروا . وظهر من نور الدّين من الشجاعة والصبر فى الحرب على حداثة سنّه ما تعجّب منه الناس . وانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج ؛ وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً ؛ وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية ، وكان عاتياً من عتاة الفرنج ، وذوى التقدم فيهم والمال . ولما قتل البرنس خلف ابنا صغيرا ، وهو بيمند ، فبقى مع أمّه بأنطاكية ؛ فتزوجت أمّه ببرنس آخر وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند[٢] . ثم إن نورالدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر ، وكان فى الأسرى البرنس الثانى زوج أمّ بيمند . فلما أسره تملك بيمند أنطاكية بلد أبيه وتمكن منه ، وبقى بها إلى أن أسره نورالدين بحارم ، سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس . وممّن قال فيه القيسرانى الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد ، الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية ، أولها[٣] :

* (٢٠١) هذى العزائم ، لا ما تدّعى القضب ... وذى المكارم ، لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللّاتى متى خَطبت ... تعثّرت خلفها الأشعار والخطب
صافحت يابْن عماد الدّين ذروتها ... براحةٍ ، للمساعى دونها تعب
ما زال جدك يبنى كل شاهقة ... حتى ابتنى قبّةً أوتادها الشهب
لله عزمك ما أمضى ، وهمّك ما ... أقضى اتساعا بما ضاقت به الحقب

(١) فى الأتابكة : ١٧٧ — ١٧٨ . وهو اقتباس حرفى .

(٢) اسم الأمير الصغير Bohemond III وأمه هى Constanca التى تزوجت عندئذ Rignald of Chatillon انظر : The Crusaders in the East, pp. 164, 165, 167 .

(٣) وردت بعض أبيات هذه القصيدة فى الأتابكة ، لكن أبا شامة رجع إلى الأصل واقتبسها منه وأكملها ، كما هى عادته فى الرجوع إلى المصادر الأصلية متى أمكن ذلك .

يا ساهد الطّرف والأجفان هاجمة ... وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة ... فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم[1] منها بقاصمة ... أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
قل للطّغاة وإن صمّت مسامعها ... قولاً لصمّ القنا فى ذكره أرب
ما يوم إنّب ، والأيام دائلة ... من يوم يغرا بعيدٌ ، لاَ وَلاَ كَثَب
أغركم خدعة الآمال ظنكم ... كم أسلم الجهل ظنا غرّةُ الكذب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى ... وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهّرت أرض الأعادى من دمائهم ... طهارة كلّ سيف عندها جنب
حتّى استطار شرار الزند قادحهُ ... فالحرْب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تقرّ لها ... قوائمٌ خانهنّ الركض والخبب
والنّقع فوق صقال البيض منعقد ... كما استقل دخان تحته لهب
والسّيف هام على هام بمعركة ... لا البيض ذو ذمّة فيها ولا اليَلَب[2]
والنّبل كالوبْل هطّال ، وليس له ... سوى القسىّ وأيدٍ فوقها سحب
وللظّبا ظفر حلوٌ مذاقته ... كأنما الضرْب فيما بينهم ضَرَب
ولِلأسنّة عمّا فى صدورهمُ ... مصادرٌ ، أقلوب تلك أم قُلُب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم ... فاستسلموا وهى لا نبع ولا غرب
كذاك من لم يوقّ الله مهجته ... لاقى العدا والقنا فى كفّه قصب
كانت سيوفهم أوحى حتوفهم ... يا رب حائنة منجاتها العطب

---

(١) الكبش آلة حربية متصلة بالدبابة لها رأس ضخم وقرنان ، تدفعها الجنود نحو الأسوار لتهدمها والجمع كباش وكبوش وأكبش . انظر السلوك : ج ١ : ٥٦ : حاشية ٨ ؛ وكذلك Dozy. Supp. Dict. Ar.

(٢) البيض جمع بيضة ، وهى الخوذة من الحديد تلبس على الرأس لوقايتها . واليلب محرّكة الترسة أو الدروع من الجلود ، أو جلود يخرز بعضها إلى بعض لتلبس على الرءوس خاصة .

حتى الطوارق كانت من طوارقهم … ثارت عليهم بهـا من تحتها النوب
أجسـادهم فى ثياب من دمائهمُ … مسلوبة ، وكأن القوم ما سُلبوا
أنباء ملحمةٍ لو أنهـا ذُكرت … فيما مضى نسيت أيامَهـا العرب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا … من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرّة ، ما سمتْ والليل معتكر … إلاّ تمزّقَ عن شمس الضحى الحجبُ
أنملُه كاسمه فى كلّ حادثةٍ … ووجهه نائب عن وصـفه اللّقب
فى كلّ يوم لفكرى من وقائعه … شغْلٌ ، فكلٌّ مديحى فيه مقتضب
من باتت الأُسْد أسرى فى سلاسله … هل يأسر الغُلْبَ إلاّ من له الغَلَب
فلكوا سلب « الإبرنز » قاتله … وهل له غـير أنطاكيّة سلب
مَنْ للشقى بما لاقت فوارسـه … وإن يسائرها من تحته قتب
(٥٢ ب) عجبت للصّعْدة السّمراء مثمرةً … برأسه ، إن أثمار القنـا عجب
سما عليها سموّ المـاء أرهـقهُ … أنبوبهُ فى صعـود أصلها صَبَب
ما فارقت عـذبات التّاج مفرقهُ … إلاّ وهامتهُ تاج ولا عـذب
إذا القنـاة ابتغت فى رأسه نفقاً … بدا لثعلبهـا من نحره سَرَب
كنا نمدّ حِمى أطرافنـا ظفراً … فلكتك الظبا ما ليس نحتسب
عمّت فتوحك بالعـدوى معاقلها … كأن تسليم هـذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق … كما التوى بعدَ رأس الحيّة الذّنب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب … يوليك أقصى المنى ، فالقدس مرتقب
وائذن لموجك فى تطهير ساحله … فإنمـا أنت بحرٌ لُجّه لجب
يا مَنْ أعاد ثغور الشـام ضاحكة … من الظبا عن ثغورٍ زانهـا الشّنب
ما زلتَ تُلحق عاصيها بطائعهـا … حتّى أقمت وأنطاكيـة حلب
حلت من عقلها أيدى معاقلها … فاستحلفت وإلى ميثاقك الهرب

وأيقنت أنهـــا تتلو مراكزها   وكيف يثبت بيتٌ مَا لَهُ طُنُب[1]
أجْرَيْت من ثُغَر الأعْنَاق أنفسها   جرى الجفون امتراها بارحٌ حصب
وما ركزْت القنـــا إلاّ ومنك على   جسْر الحديد هزبرٌ غيـــله أشب
فاسـعد بما نلته من كل صالحة   يأوى إلى جنة المأوى لها حسب
إلاّ تـكن أحد الأبْدال فى فلك التّـ[2] ـقْوى فـلا تمارى إنك القطب
فلو تناسب أفلاك السماء بهـــا   لـكان بينـكما من عفة نسب
هذا ، وهل كان فى الإسلام مكرمة   إلاّ شهِدْت وعبّادُ الهوى غُيُب

وله فيه من قصيدة أخرى :

ألاَ لله درّك ، أى درّ   صريح جاء بالـكرم الصريح
وعسكرك الذى استولى مسيحا   على ما بين « فامية » وسيح[3]
ووقعتك التى بنت العوالى   صوادر عن قتيل أو جريح
بإنّب يوم أبرزت المذاكى   من النّقع الغزالة فى مسوح
غداة كأنما « العاصى » احمراراً   من الدم عبرة الجفن القريح
وقد وافاك « بالإبرنز » حتف   أتيح له من القدر المتيح
قتلت أشحّهم بالنفس ، إذْ لاَ   يجودُ بنفسه غير الشّحيح
ملأت بهم ضرائحهم ، فأمسوا   وليس سوى القشاعم من ضريح
وعدت إلى ذرا حلب حميدا   سُموّ البدر من بعد الجنوح
فإن حَلِيَتْ بغرتك الليالى   فـكم لِسَنَاك من زمن مليح

---

(١) فى ق ٤٩ ب : وكيف يثبت لا جوق ولا طنب .

(٢) أشب الشجر كفرح التف ، كتأشب ؛ والأشب محركة النخيل الملتفة . القاموس المحيط .

(٣) سيح اسم ماء . وسيح الغمر ، وسيح النعامة ، وسيح البردان مواضع باليمامة . معجم البلدان :
٥ : ١٩٢ . أى أن ملـكه امتد واتسع وشمل مابين هاتين المنطقتين .

رويدك تسكن الهيجا فواقا بحيث تريح من تعب المريح
فأنت وإن أرحت الخيل وقتا فهمّـــك غيرُ همّ المستريح

وقال أحمد بن منير يمدحه ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه وحمل (١٥٣) رأسه إلى حلب[1]، وأنشده إياها أيضا بجسر الحديد[2]:

أقوى الضّلالُ وأقفرت عرصاته وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاشَ دينَ محمّد محمودُه من بعد ما غُلّت دما عبراته
ردّت على الإسلام عصر شبابه وَثَباتُه مِنْ دونه وثَباتُه
أرسى قواعده، ومدّعماده عُمُداً، وشيّد سورَهُ سوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا إصْلاَتُه، وصِلاَتُه، وصَلاَتُه
لمّا تواكل حزبه، وتخاذلت أنصاره، وتقاصرت خطواته
رفعت لنور الدّين نار عزيمة رجعت لها عن طبعها ظُلماته
ملك مجالسُ لهوه شدّاته ومُشُوقُهُ بين الصفوف شذاته[3]
يغْرى بحشحشة اليراع بنانه إنْ لذّ حشحشة الكئوس لداته
ويروقه ثغرُ العِدا قانٍ دما[4] لا الثغر يعبق فى لماهُ لثاته
فصبوحه خمر الطّلى، وغبوقه نطف النفوس تديرها نشواته
فتــــحٌ تعمّمت السماء بفخره وهفت على أغصانها عذباته
سبغتْ على الإسلام بيض حجوله واختال فى أوضاحها جبهاته

(١) اقتبس ابن الأثير بعض أبيات هذه القصيدة فى الأتابكة، لكنه لم ينسبها إلى صاحبها.

(٢) بلدة على نهر العاصى يمر بها النهر فى مجراه من حماة إلى شيزر ثم إلى بحيرة أفامية فجسر الحديد ومنها إلى انطاكية. السلوك: ج ١: ١٦٠.

(٣) المشوق جمع مشق وهو سرعة الطعن والضرب. والشذا: كسر العود الذى يتبخر به والواحدة شذاة: لسان العرب.

(٤) فى مخطوطة أكسفورد، Bruce 68، : ويروقه ثغر المداقاءت دما.

وانهلّ فوق الأبطحين غمائمُهُ وسرت إلى سكينها نفحاته
لله بلجة ليــــلة محصت به واليوم دَبّج وشيــــه ساعاته
حط القوامص فيه بعد قماصها ضرب يصلصل فى الطلى صعقاته[1]
نبذوا السلاح لضيغم ، عاداته فرس الفوارس ، والقنا غاباته
لمجرب عمريّة غضبــــاتُه لِله ، معتصميّــــة غزواته
تحيا لضيــــق صفاده أسراؤه وتغيض ماء شــــؤونها نقماته
بين الجبال خواضعا أعناقها كالذود نابت عن براه حداته
نشرت على حلب عقود بنُودهم حلل الربيع تناسقت زهراته
روض جناه .لها مكرّ جياده واستوأرت حمّالهُ حمــــلاته[2]
متساندين على الرّحال، كما انتشى شَرْب أمالت هامه قهواته
لم تُنْبت الآجام قبل رماحه شجراً أصولُ فروعه ثمراته
فليحمد الإسلام ماجدحت له شربات غرس هذه مجناته
وسقى صدى ذاك الحياصوب الحيا خير الثرى ما كنت أنت نباته
نصب السرير ومال عنه ، ومهّدت لمقرّ منصبــك السّرىّ سراته
ما ضر هذا البدر وهو محاق أن الــكواكب فى الذرا ضرّاته
فى كل يوم تستطيل قناته فوق السماء ، وتعتــلى درجاته
وتظل ترقم فى الضحى آثاره مجــــداً وألسنة الزمان رواته
أين الأولى ملأوا الطروس زخارفا عن نزف بحر هذه قطراته
غدقوا بأعناق العواطل ما له من جوهر فأتتهم فــــذاته
(٥٣ ب) لو فصّلوا سمطا ببعض فتوحه سخرت بما افتعلوا لهم فعلاته

(١) الطلى جمع طلية أوطلاة : الأعناق . لسان العرب .

(٦) استوأرت الإبل : تتابعت على نفار . لسان العرب .

يُمسى قنانيـــه بنات قيونه ... فوق القوانس والقنـــا قيناته
صلتان من دون الملوك تقرها ... حركاته وتنيمهـــــا يقظاته
قعدت بهم عن خطوه همّاتهم ... وسمت به عن قطوهم همّاته[(١)]
سكنوا مسجّفة الحجال، وأسكنت ... زحل الرحال مع السها عزماته[(٢)]
لوْ لاح للطائى غرة فتحـــه ... بآءت بمحمـــل تأوّه باءاته[(٣)]
أوهبّ للطبرى طيب نسيمـــه ... لا حتش من تاريخه حشواته
صدم الصليب على صلابة عوده ... فتفرقت أيدى ســباخَشَباتُه
وسقى البرنس ، وقد تبرنس ذلة ... بالروح ممقرما جنت غدراته[(٤)]
فانقاد فى خطم المنية أنفـــه ... يوم الحطيم ، وأقصرت نزواته
ومضى يؤنب تحت إتّب همة ... أمســـت زوافرَغيّها زفراته
أسدٌ تبـــوأ كالغرنف لجأته ... فتبوأت طرف السّنان شواته[(٥)]
دون النجوم مقمضا ، ولطالمـــا ... أعضت وقد كرّت لها لحظاته
فجلوته تبكى الأصادق تحتـــه ... بدم إذا ضحكت له شُمّاته[(٦)]
تمشى القناة برأسه ، وهو الذى ... نظمت مدار النيّرين قناته
لوعانق العيّوق يوم رماتـــه ... لأراك شاهد خفضـــه إخباته
ما انقاد قبلك أنفـــه بخزامه ... كلاّ ، ولا همت لها هدراته

---

(١) المثبت هنا من ق ٥٠ ب . وفى ك : وسمت بهم عن قطوه . والأول أولى حتى تتم المقابلة والمفاضلة ؛ ذلك أن القطو هو التثاقل فى المشية ، وقطا ثقل مشيه . راجع القاموس المحيط .

(٢) زحل عن مقامه كمنع : زال ؛ ورجل زحل ، كصرد : يزحل عن الأمور . القاموس المحيط .

(٣) الطائى هو أبو تمام حبيب بن أوس الشاعر ، وباءاته هى القصيدة التى تبدأ :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

(٤) الممقر : الحامض والمر . القاموس المحيط .

(٥) الغرنف : القصباء ، والحلفاء ، والشجر الكثير الملتف . والشواة جلدة الرأس . القاموس المحيط .

(٦) الأصادق : جمع الجمع لكلمة الصديق . والشمات : الشامتون . القاموس المحيط .

طليان خف السرح[1] طال زئيره ... نطقت سُطاك له فطال صُماته
لمـــا بدا مسودُّ رايك ، فوقه ... مبيض نصرك ، نكست راياته
ورأى سيوفك كالصوالج طاوحت ... مثل الكرين تقلصت كرّاته
ولى وقد شربت ظباك كماته ... تحت العجاج وأسلمتـه حماته
ترك الكنائس والكناس لناهب ... بالبيض ينهب ما حواه عفاته
غلاّب ، أروع ، لا يُميت عِداتِه ... داء المطال ، ولا تعيش عُـداته
للوحش ملقى بالعرا يقتـــاته ... ما كان قبل بصيـــده يقتاته
اليوم ملّكك القراع قلاعـــه ... متسـنّمًا ما استشرفت شرفاته
وغدا تحلّ لك الحلائل أسهم ... متوزعات بينهن بنـــاته
أوطأت أطراف السنابك هامه ... فتقاذفت بعتيقهـــا قذفاته[2]
لا زال هذا الملك يشمخ شـأنه ... أبدا ، ويكفت فى الحضيض شناته
ما أخطأتك يد الزمان فدونه ... من شاء فلتسرع إليه هنـــاته
أنت الذى تحلى الحياة حيـاتُه ... وتهبّ أرواح القصيد هبـــاته

فصـــل

قال ابن الأثير[3] : وفيها سار نور الدين إلى حصن أفامية ، وهو للفرنج أيضاً ، وبينه وبين حماة مرحلة ؛ وهو حصن منيع على تلّ مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها . وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشيزر وينهبونها ، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصّغار . فسار نور الدّين إليه وحصره وضيقّ عليه ، ومنع من به القرار ليلا ونهارا ، وتابع عليهم القتال ليمنعوا الاستراحة . فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها وساروا

(١) السرح : موضع بالشام عند بصرى . معجم البلدان : ٥ : ٦٤ .
(٢) العتيق : الفحل من النخل لا تنفض نخلته . القاموس المحيط .
(٣) اقتباس حرفى من الأتابكة : ١٨٠ — ١٨١ .

(١٥٤ ا) نحوه ليزحزحوه عنها ، فلم يصلوا إليه إلاّ وقد ملك الحصن وملأه ذخائر ، من طعام ومال ، وسلاح ورجال ، وجميع ما يحتاج إليه . فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم ؛ فحين رأوا جدّه فى لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم ، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذ .

ومدحه الشعراء وأكثروا ؛ منهم أبو الحسين أحمد بن منير . قال :

أسنى الممالك ما أطلتَ منارها ... وجعلت مرهفة الشفار دسارها
وأحقّ من ملك البلاد وأهلها ... رَؤُفٌ[1] تكنّف عدلُه أقطارها[2]
من عام سام الخافقين وحامها ... مننا ، وزاد هوًى لخصّ نزارها
مضرية طبعت مضاربه ، وإن ... عدته ذروة فارس أسوارها
آل الرعية وهى تجهل آلها ... وتعاف نطفتها وتكره دارها
فأقرّ ضجعتها وأنبت نبتها[3] ... وأساغ جرعتها وأثبت زارها
ملك أبوه سما لها ، فسما بها ... وأجارها ، فعلت سُهيلا جارها
نهج السبيل له فأوضح خلفه ... وشدا له يمن العلا فأنارها
أنشرت يا محمود ملة أحمد ... من بعد ما شمل البلى أبشارها
إن جانأت عدل السّنان قوامها ... أو نأنأت كان الحسام جبارها[4]
عقلت مع العصم العواصم مذغدت ... هذى العزائم أسرها وإسارها
وتكفلت لك ضُمّر أنضيتها ... فى صونها أن تستزد ضمارها
كلأت هواملها ورد مطارها ... ما أريشته ، وثقفت آطارها
كم حاولت من كفتيها غرّة ... غلب الأسود فقلمت أظفارها
أنّى ، وحامى سرحها من لو سمت ... للفلك بسطته أحال مدارها

(١) الرؤف بضم الهمزة وفتحها وسكونها بمعنى الرءوف . لسان العرب .
(٢) إلى هنا ينتهى هذا الاقتباس من الأتابكة .
(٣) فى هامش ق ١٥١ ا : الفىّ الشحم .
(٤) جانأ : أكب ؛ ونأنأ فى الرأى : ضعف ولم يبرمه ؛ ونأنأ عنه : قصر وعجز . القاموس المحيط .

فى كل يوم من فتوحك سورة   للدّين يحمل سفره أسفارها
ومطيلة قصر المنابر إن غدا الـ   خطباء تنثر فوقها تقصارها
همم تحجلت الملوك وراءها   بدم العشار ، وما اقتفت آثارها
وعزائم تستوفز(١) الآساد عن   نهش الفرائس إن أحس أوارها
أبدا تقصر طول مشرفة الذرا   بالمشرفية ، أو تطيل قصارها
فغرت « أفامية » فما فهتمته   كبوار أجناها الأران بوارها
أرهقت رائك فوق رائك تحتها   فخططت من شعفاتها أعفارها(٢)
أدركت ثأرك فى البغاة ، وكنت يا   مختار أمة أحمد مختارها(٣)
عارية الزمن المغير ، سمالها   منك المغير فاسترد معارها
زأر الهزبر فقيدت عاناتها   عصر الضلال وأسلمت أعيارها
ضاءت نجومك فوقها ، ولربما   باتت تنافثها النجوم سرارها
أمست مع الشعرى العبور وأصبحت   شعراء تستقلى الفحول شوارها
ولكم قرعت بمقرباتك مثلها   تلعا ، وقلدت الكماة عذارها
حتى إذا اشتملتك أشرق سورها   عزًّا ، وحلاها سناك سوارها
(٥٤ ب) خرّ الصليب وقد علت نغماتها   واستوبلت صلواته تكرارها
لما وعاها سمع « أنطاكية »   سرت الوقار وكشفت أستارها
فاليوم أضحت تستذم مجيرها   من جوره ، وغدت تذم جوارها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها   إن زرّ أطواق القباء وزارها
ماض ، إذا قرع الركاب لبلدة   ألقت له قبل القراع إزارها

---

(١) فى هامش ق ١٥١ ا : يستوفز : يفزع . انظر أيضاً القاموس المحيط .

(٢) الشعفات : جمع شعفة : رؤوس الجبال ؛ والأعفار : جمع عفر ، محركة وساكنة : ظاهر التراب . القاموس المحيط .

(٣) ورد هذا البيت والأربعة التى تليه فقط فى الأتابكة : ص : ١٨١ . واقتبس أبو شامة بقية القصيدة من مصدر آخر .

وإذا تجانفه ركن لصعبة الـ حلقاة أسجد كالجدير جدارها
ملأ البلاد مواهباً ومهـــــابة حتى استرقت آيه أحرارها
يذكى العيون إذا أقام لعونها أبداً ، ويفضى بالظبا أبكارها
أوما[1] إلى رمم الندى فأعاشها وهى لســـابقة المنى فأزارها
نبوىّ تشبيه الفتوح ، كأنمـــــا أنصاره رجعت له أنصـــارها
أحيا لصرح سلامها سـلمانها وأمات تحت عمارها عمّارها
إن سار سار وقد تقدّم جيشه رجفٌ يقصّع فى اللها دعارها
أو حل حـلّ حبا القروم بهيبة سَلَب البدور بدارها أبدارها
وإذا الملوك تنافسوا درج العلا أربى بنفس أفرعته خيارها
ونُهى إذا هيضت تدل بخيرها وسُطى تُذل إذا عنت جبارها
تهدى لمحمود السجايا كاسمه لو لزّ فاعـــــلةٌ بها لأبارها
الفاعل الفعلات ينظم فى الدجى بين النجوم حسودها أسمارها
ساع سعى والسابقات وراءه عنقا ، فمصفر متاه عثارها
كالمضرحىّ إذا يُصَرْصِرُ آيباً خرس البغاث وهاجرت أوكارها
عرفت لنور الدين نور وقائع يُغشى إذا اكتحلت به أبصارها
مشهورة سمطت وقد حاولتها الـ أقدار عجزاً أن تشق غبارها
لله وجهك والوجـــــوه كأنما حطت بها أوقار «هيت»[2] وقارها
والبيض تخنس فى الصدور صدورها هبرا ، وتكتحل الشعور شفارها
والخيل تدلج تحت أرشية القنا جذب المواتح غاورت آبارها
فبقيت تستجلى الفتوح عرائسا متمليا صدر العلا وصـــدارها

(١) بتسهيل الهمزة .
(٢) هيت : بلدة على الفرات فوق الأنبار تجاور البرّية ، وهى ذات نخل كثير وخيرات واسعة . وهناك قرية أخرى بهذا الاسم من قرى حَوْران من أعمال دمشق . معجم البلدان : ٨ : ٤٨٦ — ٤٨٧ .

في دولة للنصر فوق لوائها زبر تنمق في الطلى أسطارها
فالدين موماة رفعت بها الصوى وحديقة ضمنت يداك إيارها

وله فيه من قصيدة أخرى :

خنس الثعالب حين زمجر مصحر ملأ البـــلاد هماهماً وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق جعلت مخافته القصور قبورا
لربيب حرب ، لم تزل فعلاته كالراء يلزم لفظها التكريرا
أسد إذا ما عاد من ظفر بمف‍ـترس أحـــدّ لمثله أظفورا
يتناذر الأعداء منه ســـطوة ملء الزمان تغيّظاً وزفيرا
عرفوا لنور الدين وقع وقائع وفّى بها الإسلام أمس نذورا
(١٠٠) أبدا يظافرك القضاء على الذى تبغى ، فترجع ظافرا منصورا
قوّضت ، فانتقع الظّهائر ظلمة وقفلت ، فاشتعل الدياجر نورا
وعلى العواصم من دفاعك عاصم ينشى الرشيد وينشر المنصورا

فصـــل

فى وفاة معين الدين أنر بدمشق

وما كان من الرئيس ابن الصوفى فى هذه السنة

قال أبو يعلى التميمى[1] : فصّل معين الدّين من عسكره بحَوْرَان ووصل إلى دمشق فى أواخر ربيع الآخر ، لأمر أوجب ذلك ودعا إليه ، وأمعن فى الأكل ، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به ؛ وحمله اجتهاده فيما يدبره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق ، وقد زاد به وضعفت قوته ، وتولد معه مرض فى الكبد . فأوجب الحال عوده إلى دمشق فى محفة لمداواته ؛ فوصل وقضى نحبه فى ليلة الثالث والعشرين من

(١) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٦ . باختصار شديد لمعظمه والتزام لحرفيتهما بقى .

ربيع الآخر ، ودفن فى إيوان الدار الأتابكية التى كان يسكنها ، ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة التى عمرها[١] .

قلت : قبره فى قبة بمقابر العونية شمالى دار البطيخ[٢] الآن ، واسمه مكتوب على بابها ، فلعله نقل من ثمّ إليها .

وفيه يقول الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ ، وكتب بها إليه من مصر لمّا لقى الفرنج فى أرض بصرى وصرخد مع نور الدين ، وقد تقدم ذلك — كتب إليه قصيدة يقول فيها :

كلّ يوم فتح مبين ونصر   واعتلاء على الأعادى وقهر
صدق النّعت فيك ، أنت معين الدّ (م) ين ، إن النّعوت فأل وزجر
أنت سيف الإسلام حقًّا ، فلا كلّ (م) غراريك أيها السّيفُ دهر
لم تزل تُضمر الجهـاد مُسِرًّا   ثم أعلنتَ حين أمكن جهر
كلُّ ذخر الملوك يفنَى ، وذخرا   كَ هما الباقيان : أجرٌ وشكر

قال[٣] : وفى يوم الجمعة تاسع رجب قرئ المنشور المنشأ عن مجير الدّين بعد الصلاة على المنبر بإبطال القسة المستخرجة من الرّعية ، وإزالة حكمها وتعفية رسمها ، وإبطال دار الضرب ؛ فكثر دعاء الناس له وشكرهم .

قال : واستوحش الرئيس مؤيد الدولة[٤] من مجير الدين استيحاشاً أوجب جمع من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء ، وحمَلة السلاح من الجهلة والعوام ، وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة ، للاحتماء بهم من مكروه يتمّ عليهما ؛ وذلك فى ثالث عشر

(١) كانت بالطريق الآخذ إلى باب المدرسة العصرونية قريبا من بابى الفرج والنصر ، وهى الآن دارسة . خطط الشام : ٦ : ٩٦ .

(٢) عن دور البطيخ راجع خطط دمشق : ١٠٦ — ١٠٨ . وترد كلمة « البطيخ » بأداة التعريف وبغيرها كثيراً .

(٣) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٤) المسيب بن على وزير مجير الدين صاحب دمشق . توفى سنة ٥٤٩ . شذرات الذهب : ٤ : ١٥٤ .

رجب . ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يُسَكِّنهما و يطيِّب أنفسهما ، فما وثقا بذلك ، وجدّا فى الجمع والاحتشاد من العوامّ وبعض الأجناد ، وأثارا (٥٥ ب) الفتنة . فقصدوا[1] باب السجن وكسروا أغلاقه وأطلقوا من فيه . واستنفرُوا جماعةً من أهل الشاغور[2] وغيرهم ، وقصدوا الباب الشرقى وفعلوا مثل ذلك ، وحصلوا فى جميع كثير ، وامتلأت بهم الأزقّة والدّروب . فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا فى القلعة بالسلاح الشاكى ، وأخرج ما فى خزائنه من السلاح والعُدد ، وفُرِّقت على العسكرية ، وعزموا على الزحف على جميع الأوباش ، والإيقاع بهم ، والنكاية فيهم . فسأل جماعة من المقدمين التمهل فى هذا الأمر وترك العجلة ، بحيث تحقن الدماء و يسلم البلد من النهب والحريق ؛ وألحوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم .

ووقعت المراسلة والتلطف فى إصلاح ذات البين . فاشترط الرئيس وأخوه شروطاً أُجيبا إلى بعضها وأعرض عن بعض ، بحيث يكون ملازماً لداره ، و يكون ولده و ولد أخيه فى الخدمة فى الديوان ، ولا يركب إلى القلعة إلاّ مُستدعًى إليها ؛ وتقررت الحال على ذلك ، وسكنت الدهماء . ثم حدث بعد هذا التقرير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد ، وجمع الجمع الكثير من الأجناد والمقدّمين والرعاع والفلاحين ، واتفقوا على الزحف إلى القلعة وحصر من بها ، وطلب من عيّن من الأعداء الأعيان ، فى أواخر رجب . ونشبت الحرب بين الفريقين ، وجرح وقتل بينهم نفر يسير ، وعاد كل فريق منهم إلى مكانه . ووافق ذلك هروب السّلار زين الدّين إسماعيل الشّحنة وأخيه إلى ناحية بعلبك . ولم تزل الفتنة ثائرة والمحاربة متصلة ، إلى أن اقتضت الصّورة إبعاد من التمس إبعاده من خواص مجير الدين ، وسكنت الفتنة وأطلقت أيدى النهابة فى دار السلارين وأصحابهما ، وعمها النهب والخراب[3] . ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما ، و إعادة الرئيس

(١) الضمير يقصد به الثائرون من العوام وبعض الأجناد . . . الخ .

(٢) محلة بالباب الصغير من دمشق فى ظاهر المدينة . معجم البلدان : ٥ : ٢١٥ .

(٣) فى ق ٥٢ ب : والإخراب .

إلى الوزارة والرئاسة ، بحيث لا يكون له فى ذلك معترض ولا مشارك[١] .

قلت : وفى هذه الفتنة يقول العرقلة[٢] :

ذرِ الأتراكَ والعربا ... وكُنْ فى حزب من غلبا
بجلّق أصبحت فتنٌ ، ... تجرّ الويل والحربا
لئن تمّت فوا أسفا ... ولم تخرب فوا عجبا

وقال فى الرئيس لما زحف إلى القلعة :

زد علوًّا فى المجد يابن علىّ ... هكذا من أراد أن يتعالى
قد حوى الدين ، يا مؤيّدهُ ، منْ ... كَ ، هزبرًا ، وديمةً ، وهلالا
وغدت جلّق تناديك[٣] عجبا ... هكذا هكذا ، وإلاّ فلا . لا
جئتَها فى الظلام خيلًا ورَجْلا ... وحميت النفوس والأموالا
لن تبالى [من][٤] بعدها بعدوّ ... إنما ذاك كان قطعاً فزالا
قد بلغت المراد من كل ضد ... وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ

قال أبو يعلى التميمى[٥] : وفيها ورد الخبر من ناحية مصر بوفاة المستخلف[٦] بها الملقب بالحافظ ، واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر ، فى خامس جمادى الآخرة[٧] . وولى

(١) ينتهى هنا هذا الاقتباس من ذيل تاريخ دمشق .

(٢) أبوالندى حسان بن نمير الكلبى . شاعر مستطرف الهجاء لطيف النادرة ، اختص ببنى أيوب قبل تملكهم مصر . توفى سنة ٥٦٧ . فوات الوفيات : ١ : ١٤٤ ؛ شذرات الذهب : ٤ : ٢٢٠ .

(٣) ما هنا من ق ٥٢ ب . وفى ك : لناديك .

(٤) ما بين الحاصرتين من ق ٥٣ ا . وبدونها يختل وزن البيت .

(٥) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٨ .

(٦) ذكره أبو يعلى فى الأصل بلقب الإمام فغيره أبو شامة إلى المستخلف ، وذلك لأن شعور أبى شامة لم يكن فى جانب الفاطميين ، ويتبين هذا فى كتابه الذى كتبه عنهم بعنوان « كشف حال بنى عبيد » وهو مفقود ، ومن تعليقه على المرسوم الذى أصدره الخليفة الفاطمى بشأن تحديد أسماء العدول الذين تقبل شهادتهم فى مدينة عسقلان . (انظر ص : ١٢٩ من هذا الكتاب) ، إذ يقول : « وهذا من أحسن ما يؤرخ عن تلك الدولة المباينة للشريعة » .

(٧) كان تولى الخلافة فى سنة ٥٢٤ ، وبقى الظافر بعده فى الخلافة إلى سنة ٥٤٩ .

الأمر بعده ولده الأصغر أبو منصور إسماعيل ، ولقّب بالظافر ، وولى الوزارة له أمير الجيوش أبو الفتح ابن مصال المغربى[١]

فصل

فى وفاة سيف الدين غازى بن زنكى صاحب الموصل

وهو أخو نور الدين الأكبر

قال ابن الأثير[٢] : كان أتابك الشهيد ، يعنى زنكى ، ملك دارا[٣] و بقيت بيده إلى أن قتل ، فأخذها صاحب ماردين ، ثم سار إليها سيف الدين ابن الشهيد ، فى سنة أربع وأربعين ، فحاصرها وملكها ، واستولى على كثير من بلاد ماردين بسببها ، ثم حصر ماردين عازما على أن يدخل ديار بكر و يستعيد ما أخذ من البلاد بعد قتل والده . فتفرق العسكر فى بلادها ينهبون [و يخربون][٤] . فقال صاحب ماردين : كنا نشكو من أتابك وأين أيامه : فلقد كانت أعياداً ! ! قد حصرنا غير مرة فلم يتعدّ هو وعسكره حاصل السلطان ، ولا أخذوا كفًّا من التبن بغير ثمن :

رُبَّ دهرٍ بكيت منهُ ، فلما صِرْتُ فى غيرِه بكيت عليه

ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوّجه ابنته الخاتون ، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى الموصل ؛ وجُهِّزت الخاتون وسُيِّرت إليه ، فوصلت إلى الموصل وهو مريض ، فتوفى ولم يدخل بها ؛ وذلك[٥] فى أواخر جمادى الآخرة ، وكان عمره

(١) كان واليا على الصعيد ثم تولى الوزارة بعد طرد ابن السلار منها فى سنة سنة ٥٤٤ ولم يبق بها إلا خمسين يوما ، وذلك لأن ابن السلار استطاع أن يقود جيشاً كبيراً ضد ابن مصال فهرب إلى الصعيد ، وتتبعته جيوش ابن السلار الذى عاد إلى الوزارة . وفى الصعيد قتل ابن مصال وأرسلت رأسه إلى القاهرة .

(٢) فى الأتابكة : ١٦٣ — ١٦٤ . وهو اقتباس حرفى .

(٣) بلدة فى لحف جبل بين نصيبين وماردين ذات بساتين ومياه جارية . معجم البلدان : ٤ : ٥ — ٦ .

(٤) ما بين الحاصرتين من ق ٥٣ ا .

(٥) من هنا يقتبس أبو شامة من كتاب الأتابكة بتصرف شديد وبحذف ، حتى يمكن أن يقال إن ما يذكره هنا ليس إلا مجرد مقتطفات .

نحو أربعين سنة ؛ وكان من أحسن الناس صورة . ودفن بالمدرسة التى أنشأها بباطن الموصل وخلف ولداً ذكراً ، أخـذه نور الدين محمود عمه فرباه فأحسن تربيته ، وزوّجه ابنة عمه قطب الدين مودود ، فلم تطل أيامه ، وأدركه أجله فى عنفوان شبابه ، فتوفى ، وانقرض عقب سيف الدّين .

وكان كريما شجاعا ذا عزم وحَزم ؛ وهو أوّل من حُمِل على رأسه سنجق(١) من أصحاب الأطراف ، فإنه لم يكن فيهم من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية . وهو أوّل من أمر عسكره ألاّ يركب أحدهم إلاّ والسيف فى وسطه ، فلمّا أمر هو بذلك اقتدى به غيره من أصحاب الأطراف(٢) . وبنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة ، وهى من أحسن المدارس وأوسعها ، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشّافعية والحنفية نصفين . وبنى رباط الصوفية ، وهو الرباط المجاور لباب المشرعة ، ووقف عليهما الوقوف الـكثيرة ، وكان كريما . قصده شهاب الدين حيص بيص ، وامتدحه بقصيدته المشهورة ، (٥٦ ب) وهى من جيّد شعره ، فأجازه عنها ألف دينار أميرى سوى الإقامة والتعهّد مدّة مُقامه ، وسوى الخلع والثياب .

قلت أول تلك القصيدة :

* إلاَمَ يراكَ المجد فى زىّ شاعر *

ويقول فى آخرها :

أتأبكُ ، إن سُمّيتَ فى المهد غازيا ... فسابقةٌ معدودةٌ فى البشـائر

وَفَيتَ بها والدّين قد مال رَوْقُه ... وصدّقتها والـكفر بادى الشعائر

وعزّى أبو الحسن أحمدُ بن منير نورَ الدّين بأخيه بقصيدة تقدّم بعضها ، أوّلها :

* هو الجدّ بز التمام البدورا *

---

(١) لفظ تركى يطلق فى الأصل على الرمح ، ثم أريد به الراية التى تربط به ، والجمع سناجق ، والسنجقدار : حامل الراية . صبح الأعشى : ٤ : ٨ ؛ ٥ : ٤٥٦ ـ ٤٥٨ .

(٢) تعود نورالدّين أيضاً أن يربط السيف فى وسطه ، وبقى كذلك حتى سمع حديثاً من ابن عساكر عن النبيّ صلى الله علية وسلم أنه كان يتقلد السيف ، فرجع نور الدين عن عادته وأمر أتباعه يتقلد السيف ، وخرج فى اليوم التالى من القلعة فى جنده الخاص وهم جميعاً يتقلدون السيف . انظر ص : ٢٧ من هذا الـكتاب .

يقول فيها :

شـــوى كل ما جنت الحادثا ت ما كنت ظلا علينا قريرا
أسأن وأحسن كن الهلال وملأتنا منك بدرا منـــيرا
إذا ثبج البحر أخطـــــأنه فلا غرو أن ينشفن الغديرا
وأصغر بفقداننا الذاهبـــين ما عشت نأتيك ملـكا كبيرا
وما أغمد الدهر ذاك الحسا م ما سل حدّاك عضباً بتورا
قسيمُ عُــلاك ، ونعم القسيم أخٌ شاف نزراً وأعطى كثيرا
وكان نظـــــيرك ، غار الزما نُ من أن يرى لكَ فيه نظيرا
فدتك نفوسٌ بك استوطنت من الأمن نوراً ، وقد كنّ بُورا
بقيت مُعزّا من المالـكين توقّى الرّدى ونوقّى الأجورا(١)
وغيرك يمهد بســـط العزاء ويولى المُسلّين سمعاً وقورا
وما نقص الدهرُ أعـدادكم إذا شفّ قطراً وأبقى بحُورا
ولو أنصف المجـــد موتاكم لخطّ لهم فى السماء القبُورا
حياتك أحييت رميم الرّجاء وأمطرت من الجود ظهراً ظهيرا

وللقيسرانى قصيدة منها :

ما أطرق الجـــو حتى أشرق الأفق إن أغمـد السيف فالصّمصام يأتلق
دون الأسى منك ، نورَ الدين ، فى حلب مُلكٌ ينجلى عن وجهه الغسق
كُنتَ الشقيق الشفيق الغيب ، حين نوى أراق ماء الـكرى من جفنك الأرق
تلقى الأسى من لباس الصبر فى جُنن حصينة ، تحتها الأحشاء تحترق
ومدّةُ الأجل المحتوم إن خفيت فإن أيامنا من دونها طُرُق

---

(١) يرد هذا البيت فى ق ٥٣ ب فى نهاية القصيدة .

و إنما نحن في مضمار حلبتها   خيلٌ إلى غاية الأعمار تستبِق
شأوٌ إذا ابتــدر الأقوامُ غايته   كان المؤخر فيها من له السّبق
إن كان صِنوك هذا قد ثوى فذوى   ففي مغارسك الأثمــار والورق
أو أصبحت بعــده الأهواء نافرة   أيدي ســبا ، فعلى علياك تتّفق
(١٥٧) ما غاب من غاب عن آفاق مطلعه   إلاّ لِيفْــترّ عَنْ أنوارك الأفق
ما دام شمسك فينــا غــير آفلةٍ   فالدّين منتظمٌ والملك مُتّسق

فصــــل

قال ابن الأثير[١] : ولمــا توفي ســيف الدّين غازى كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل[٢] ؛ فاتفقت كلمة جمال الدين و زين الدين على توليته وتمليكه طلباً للسلامة منه ، فإنه كان لين الجانب ، حسن الأخلاق ، كثير الحلم ، كريم الطباع . فأحضروه من داره وحلّفوه لهم وحلّفوا له ، ونزل بدار المملــكة ، وحلف له الأمراء والأجناد ، واستقر في الملك وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين ، لأن المرجع كان في جميع المملكة إلى جمــال الدين و زين الدين . ولمــا ملك واستقر في الملك تزوج امرأة أخيه ، التي مات ولم يدخل بها ، الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين . فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملــكوا الموصل بعده ، على ما سنذكره ، ولم يملــكها من أولاد قطب الدّين أحد غير أولادها .

قال : وكانت هذه الخاتون يحلّ لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملــكا من آبائها ، وأجدادها ، و إخوتها ، و بني إخوتها ، وأزواجها ، وأولادها ، وأولاد أولادها . ثم[٣] ذكرهم ابن الأثير في كتابه وسمّاهم ، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبــد الملك ابن مروان ، زوج عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ؛ كان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة

(١) في كتاب الأتابكة : ١٦٨ — ١٦٩ .

(٢) وتولاها بعد وفاة سيف الدين غازى ، كما يتضح في هذا الفصل ، وبقي واليا عليها حتى توفى سنة ٥٦٠ عندما كان نور الدين يحاصر الفرنج عند حصن الــكرك .

(٣) بداية تعليق أبي شامة الذى يصحح به كلام ابن الأثير الذى جاء في كتاب الأتابكة : ١٦٩ — ١٧٠ .

عشر خليفة ، وهم : مِنْ معاوية رضى الله عنه إلى آخر خلفاء بنى أمية ، سوى آخرهم ، وهو مروان بن محمد ، فإنه ابن عم لها ليس بمحرم ، والباقون محارم لها . وما تم له ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية ؛ فمعاوية جدّها لأمها ، ومعاوية بن يزيد خالها ، ومروان جدّها لأبيها ، وعبد الملك أبوها ، والوليد وسليمان وهشام ويزيد إخوتها ، وعمر بن عبد العزيز زوجها ، والوليد بن يزيد (ويزيد)[1] بن الوليد (وإبراهيم بن الوليد[1]) أولاد أخويها ، وهؤلاء كلّهم خلفاء وعدّتهم ثلاثة عشر . قلت : وهذا كله مبنى على أصل فيه خلل ، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمُّها عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، بل أمها امرأة مخزوميّة ، على ما بيّناه فى ترجمتها فى تاريخ دمشق[2] . ولكن الصواب فى ذلك أن يقال : كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء ، وهم : مروان بن الحكم ونسله ، سوى مروان بن محمد ؛ وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن عبد العزيز ومروان ابن محمد ، بقى اثنا عشر خليفة كلهم محارم لها : معاوية جدّها ، ويزيد أبوها ، ومعاوية بن يزيد أخوها ، ومروان حموها ، وعبد الملك زوجها ، والوليد وسليمان وهشام أولاد (٥٧ ب) زوجها ، ويزيد بن عبد الملك ابنها ، والوليد بن يزيد ابن ابنها ، ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها . ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالإخوة والأعمام والأخوال وبنى الإخوة ، لتضاعف العدد ، كخالد بن يزيد بن معاوية أخى عاتكة ، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة ، ومسلمة وعبد الله ابنى عبد الملك ، وغيرهم . وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بنى أمية . وما ذكره ابن الأثير من أمر بنت حسام الدين ، فستُّ الشام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك ، يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكا من إخوتها الأربعة : المعظم ، وصلاح الدين ، والعادل ، وسيف الإسلام ، ومن أولادهم وأولاد أولادهم ، وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقى الدين ، وذريته أصحاب حماة ، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك .

---

(١) ما بين القوسين غير موجود فى ق ٤٥ ا .

(٢) وهو التهذيب الذى صنفه أبو شامة ملخصاً به كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر ومعلقا عليه .

فصـــل

قال ابن الأثير(١) : ولما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية كان أخوه نور الدين بحلب ، وهو أكبر من قطب الدين ، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم ؛ منهم المقدّم والد شمس الدّين ابن المقدّم (٢) ، وهو حينئذ دزدار سنجار(٣) . فسار نور الدين جريدة(٤) فى سبعين فارسا من أكابر دولته ، منهم أسد الدين شيركوه ، ومجد الدين أبو بكر ابن الداية(٥) ، وغيرهما . فوصلوا إلى ماكِسِين(٦) فى ستة أنفس فى يوم شديد المطر وعليهم اللبابيد ، فلم يعرفهم الذين بالباب ، وأرسلوا إلى الشِّحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد وكأنهم تركمان ؛ فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدّين . فحين رآه الشِّحنة قبّل يده وخرج عن الدّار ، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه . وسار مجد الدين إلى سنجار فوصلها وليس معه إلاّ نفر يسير ، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدّة تعبه ، وأرسل إلى المقدّم بالقلعة يعرّفه وصوله ، وكان المقدّم قد استُدعى من الموصل لأن خبره مع نور الدّين بلغ من بها ، فأرسلوا إليه فتوقّف عدة أيام ، فلم يصل نور الدين ، فسار إلى الموصل وترك

(١) فى كتاب الأتابكة : ١٧٠ — ١٧٤ . وهو اقتباس حرفى .

(٢) شمس الدين ابن المقدم أحد أمراء نور الدين . اختاره بقية الأمراء وصيا على الصالح إسماعيل بعد وفاة نور الدين ، واتفقوا حوله وتعاونوا على مقاومة صلاح الدين صاحب مصر عند ما تدخل فى شئون الشام والجزيرة بحجة حماية الصالح إسماعيل ورعاية شئونه . قتل ابن المقدم عند عرفات سنة ٥٨٣ بعد أن دقت الطبول له باعتباره أميراً للحاج الشامى .

(٣) بلدة فى لحف جبل عال من أعمال الجزيرة ، قدر ياقوت المسافة بينها وبين الموصل بثلاثة أيام . معجم البلدان : ٥ : ١٤٤ — ١٤٦ .

(٤) الجريدة : الفرقة من العساكر الخيالة لا راجل فيها . وخرج الجند جريدة أى مسرعين من غير أثقال . لسان العرب ؛ Dozy, Supp. Dict. Ar. .

(٥) من مقدمى رجال نور الدين الذين اعتمد عليهم فى شئون دولته ، وكان ينوب عنه فى حلب فى بعض المناسبات . توفى سنة ٥٦٥ ونور الدين يحاصر الكرك .

(٦) من ديار ربيعة بإقليم الخابور قريبا من رحبة مالك بن طوق . معجم البلدان : ٧ : ٣٦٦ — ٣٦٧ .

ابنه شمس الدين بسنجار ، وقال له : أنا أتأخر فى الطريق ، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمنى . فلما فارق سنجار وصل نور الدين ، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصدا إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين ، فخاف فوات الأمر . ووصل القاصد الذى سيره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتل يعفر(١) ، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نور الدين ، وكاتب فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن(٢) يستنجده ، وبذل له قلعة الهيثم ، فسار إليه بجنده . فلما سمع (١٥٨) قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن الموصل نحو سنجار ، ومعه الجمال والزين ، ونزلوا بتل يعفر ، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له ، وتهددوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختياراً . فأعاد الجواب : إننى أنا الأكبر ، وأنا أحق أن أدبر أمر أخى منكم . وما جئت إلا لما تتابعت إلىّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكم عليهم ، يعنى الجمال والزين ، فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا . فأما تهددكم إياى بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلا بجندكم ؛ وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم . فخافوا أن يلقوه لئلا يخامر عليهم باقى العسكر ، ودخل الأمراء فى الصلح ، وأشار به جمال الدين الوزير وقال : نحن نُظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين ، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويهددهم بنا . فإن كاشفناه وحاربناه فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان ، وإن ظفرنا به طمع فينا الفرنج . ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجار ، فهذه أنفع لنا من تلك ، وتلك أنفع له من هذه ؛ والرأى أن نسلم إليه حمص ونأخذ سنجار ؛ وهو فى ثغر بإزاء الفرنج ويتعين مساعدته . فاتفق الجماعة على هذا الرأى ، وسار جمال الدين إلى نور الدين وأبرم معه الأمر وتسلم حمص وسلم سنجار إلى أخيه ؛ وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسنجار من المال . ولما

---

(١) تل أعفر وتل يعفر وتليعفر : قلعة وربض بين سنجار والموصل وسط واد فيه نهر جار ؛ وهى على جبل منفرد ، حصينة محكمة . معجم البلدان : ٢ : ٤٠٢ ، ٤١٠ .

(٢) هو حصن كيفا : بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . نفس المصدر : ٣ : ٢٨٦ .

تسلم قطبُ الدين سنجار أقطعها لزين الدين ، لأن حمص كانت لأخيه ينال وهو مقيم بهـا . واتفقت كلمتهم واتحدت آراؤهم ، وكلّ واحد منهما لا يصدُر إلاّ عن أمر أخيه . وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده ، فقال له الجمال : أنت عنـدك من الـكفاية ما يستغنى به عن وزير ومُشير ، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك ، لأنّ عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة ، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم . وإذا كنتُ عند أخيك فالنّفع إليك عائد ؛ وأريد من بلادك مثل مالى من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجى . فأجابه إلى ذلك . فقال له جمال الدين أنت عليك خرج كثير لأجل الـكفار فيجب مساعدتك ، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة . فأمر له بها . فـكان نائب جمال الدّين يقبضها كل سنة ويشترى بها أسرى من الفرنج ويطلقهم[1] . قلت : وقرأت فى ديوان القيسرانى : وقال فى نور الدين عند قدومه ، وقد استولى على سنجار وأعمال الرّحبة[2] والفرات ، وذلك فى منتصف ذى القعدة سنة أربع وأربعين وخمسمائة :

هذا الذى ولدت له الأفـكار ... وتمخّضت فألاّ به الأشعار
وجرت له خيل النّهى فى حلبة ... وردت وصفو ضميرها المضمار
(٥٨ ب) وأتت به نذر القوافى برهة ... إنّ القوافى وحيها إنذار
حكمت لسيفك بالممالك عنوة ... حكما ، لَعمرى ، ما عليه غبار
يأيّها الملك المطيـــــل نجاده ... بَرٌّ يَدِينُ بِهَدْيِه الأبرار
يابْن السيوف ، وهل فخرت بنسبة ... إلاّ سمابك قائم وغرار
فارقت دار الملك غير مفارق ... لك من علاك بكل أرض دار
فى عسكر يخفى كواكب ليله ... نقعاً ، فيطلعها القنـا الخطّار

(١) إلى هنا ينتهى هذا الاقتباس من الأتابكة .

(٢) هى رحبة مالك بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات أسفل قرقيسيا . معجم البلدان : ٤ : ٢٣٦ — ٢٣٨ .

جرّارُ أذيال العجاج وراءه   وأمامه ، بل جحفلٌ جرّار
تدنى لك الغاياتِ أكبر همّة   نوريّة ، هم الملوك كبار
حتى ملأت الخافقين مهابة   دانت لعُظم نظامها الأقطار
وملكت سنجاراً ، وما من بلدة   إلاّ تَمَنَّى أنها سنجار
وبسطْت بالأموال كفًّا طالما   طالت بها الآمال وهْى قصار
وجرت بأمداد الجياد شعابها   جرْى السّيول ، وما عداك قرار(١)
وثنى الفراتُ إلى يديك عنانه   والبحر ما اتّصلت به الأنهار
وملكت رحبة مالك فتبرّجت   منها لِعَيْنِك كاعبٌ مِعطار
جاءتك في حُلل الرّبيع وحَلْيها   قبل الرّبيع شقائق وبهار
نثرت عليك هوى القلوب محبة   وتودّ لو أنّ النّجوم نثار
فأقمت كالشّمس المنيرة ، إنْ نأت   عن أفقها فلَهَا بِهِ أقمار
من كان نور الدين ثم أجنّه   ليلُ السُّرى حفّت به الأنوار
تدعو البلاد إليك ألسنة الظُّبا   فتجيبك الأنجاد والأغوار
حتى عمدت الدين يا بن عماده   بقنا أسنّتها عليه منار
وقفلت من أسفار جدّك قادما   كالصبح نمّ بثغره الإسفار
يغشي البصائرَ نور وجهك بعد ما   تركت على قسماته الأبصار
حتى عمرت بكل قلب صدره   حين الصدور من القلوب قفار
إن تُمسِ في «حلب» رياحك غضّة   فلها بأنطاكية إعصار
وغدت جيادك بالشآم مقيمة   ولها بأطراف الدروب مغار
همم سبقت بها إلى مهج العدا   صرف الردى ، ومسيره إحضار

(١) في ق ٥٥ ب : وما سواك قرار

وأرى صياح «القمص» كان خديعة فطغى وَجَارَ ، وليس ثَمّ وِجَار
سأل الصنيعة غير محقوق بها والخير يهدم ما بنى الختار
حتى إذا ما غبت أقدم عاثيا إقدام من لم يدْنُ منه قرار
أمضى السلاح على عدوك بغيهُ بالغدر يُطعن في الوغى الغدار
فاحسم عناد ذوي العناد بجحفل كالليل فيه من الصفيح نهار
جند على جُرد ، أمام صدورها صدر عليه من اليقين صِدَار
قد بايع الإخلاص بيعة نُصرة ولكلّ هادي أمّة أنصار
ملك له من عـــدله ووفائه جيش ، به تستفتح الأمصار
وإذا الملوك تثاقلت عن غاية وأرادها حَفّت به الأقدار
وإذا انتضته إلى الثغور عزيمة قامت مقام جنوده الأخبار

ولابن منير من قصيدة فيه :

(١٥٩ ا) ترنّح معطف الزوراء لمّا دعاك لِزَوْرِ « سنجار » لمام
وزلزلت الصّعيد وراء مصر غداة علتك في قطنا[1] الخيام
رجاءٌ هَزّ نِيلك ، وتلك خوفٌ ولو قد شئت ضمّهما قرام
بعيشك يا مبيد الخيل ركضا حَمامٌ هنّ تحتك أم حِمـــام

وقال ابن منير أيضاً يهنئه بتسلم قلعة حمص من بمال ، وأنشده في القلعة ، قصيدة[2] أولها :

أرحْها فهي أزلام المعالي لهنّ إلى الوغى تَوْقُ المغالي
أقاد مقيلهن بكل نقع يقوّض بالمدى عمر الضّلال
وأيّ سيوفك الجرد الحواشي منزلة متى دُعيت نَزَال
مَواضٍ ، إن سُللن سلكن جزما نفاه من الطّلى لفظ اعتلال

(١) من قرى دمشق : معجم البلدان : ٧ : ١٢٥ .
(٢) في ك : القصيدة ، والمثبت هنا من ق ٥٦ .

لقد غلت الصليب بحرّ حرْب يُشيب أُوارُها لِمَم الليالى
وشمت لنصر هـذا الدين بأسا تحرم منـه كل حمًى حلال

ومنها[1] :

وقائع أنزعت فى كل فجّ وقائع جوّها دامى العَزَال
تسائل «حمص» عن منسىّ دين تقاضاه لك الحِجج الخوالى
فواتَت وهى أخت النجم بُعدا ووعدا صيغ من مطل مطَال
تشامخ أنفها عزّا وشدت على أن لا تنال يدا «ينال»
فما زالت رقاك تجدّ نقضا لما تثنيه من مرر الجبال
إلى أن أطلق الحسناء كرها وآل إلى ملاوحة الآلِ
يصدّ الوجه عن شمّاء ألقت يداً لأشمّ ذى باع طوال
شغلت بها يمينك ، والمواضى تكفّلُ أنّ مصرا للشمال
إذا فتح القتال عليك أرضا أباحك أختها لا عَنْ قتال[2]

فصل

قال الرئيس أبو يعلى[3] : اتصل الخبر بنور الدّين بإفساد الفرنج فى الأعمال الحوْرَانيّة بالنّهب والسّبى ، فعزم على التأهّب لقصدهم ، وكتب إلى مَنْ بدمشق يُعلمهم بما عزم عليه من الجهاد ويستدعى المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مُقدّم يعول عليه . وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين ، فاحتُجّ عليه وغولط . فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يبوس[4] ، وبعض العسكرية

(١) هذه الكلمة موجودة بالهامش فى ك كأنها ليست من صميم المتن ؛ وهى كذلك بهامش مخطوطة أكسفورد Bruce, 63 . وهى ساقطة من ق ٥٦ ا .

(٢) ما هنا من ق ٥٦ ا . وفى ك : أباحك بر أختها لا عن قتال ، وفيه اختلال عروضى .

(٣) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٨ — ٣١٠ . وهو اقتباس حرفى .

(٤) جبل بالشام بوادى التيم من دمشق . معجم البلدان : ٨ : ٤٩٦ .

بيعفور . فلمّا قرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا أين قصده ، وقد كانوا راسلوا[1] الإفرنج بخبره ، قرّروا معهم الإنجاد عليه ، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزّة ، ووصلت أوائلهم إلى بانياس . وعرف نور الدّين خبرهم فلم يحفل بهم ، وقال لا أنحرف عن جهادهم ، وهو مع ذلك كافّ أيدى أصحابه عن العيث والإفساد فى الضّياع ، وأمر بإحسان الرّأى فى الفلاحين والتخفيف عنهم ، والدّعاء له مع ذلك متواصل (٥٩ ب) من أهل دمشق وأعمالها ، وسائر البلاد وأطرافها . وكان الغيث قد انحبس عن حَوْرَان والمرج[2] والغوطة[3] ، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمَحْل واشتداد الأمر . فلمّا وصل نور الدين إلى بعلبك اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذى الحجة ، وأقام إلى مثله ، فروّى الآكام والوهاد ، وجرت الأودية ، وزادت الأنهار ، وامتلأت برك حوران ودارت أرحيتها ، وعاد ما صوّح من النبات والزرع غضًّا طريا ، وجدّ الناس بالدعاء لنور الدّين وقالوا هذا ببركته وحُسْن مَعْدلته وسيرته . ثم رحل من منزله بالأعوج ، ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر[4] فى السادس والعشرين من ذى الحجة ، وأرسل إلى مجير الدّين والرئيس ، وقال : إننى ما قصدت بنزول هذا المنزل طلبا لحاربتكم ولا منازلتكم ، وإنما دعانى إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حَوْران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسُبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الأفرنج ، وعدم النّاصر لهم . ولا يسعنى ، مع ما أعطانى الله ، وله الحمد ، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجال ، أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم ، مع معرفتى بعجزكم عن حفظ

(١) ما هنا من ق ٥٦ ا ، وفى ك : أرسلوا .

(٢) هو مرج يبوس الذى تقدم ذكره ، أو مرج العذراء بغوطة دمشق ، أو مرج راهط أو مرج الصفر وهما من أعمال دمشق أيضاً . معجم البلدان : ٦ : ١٣٠ ، ٨ : ١٦ ، ٤٩ .

(٣) اسم للغوطة التى منها دمشق واستدارتها ثمانية عشر ميلا تحيط بها جبال عالية ولا سيما من جهة الشمال ، ومن هذه الجبال تنبع أنهار دمشق : معجم البلدان : ٦ : ٣١٤ — ٣١٥ .

(٤) وراء الجسر الخشى جنوبى مدينة دمشق : The Damascus Chronicle P. 283 نقلا عن : Topographie Historique, P. 315

أعمالكم والذبّ عنها ، والتقصير الذى دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتى ، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدّياً عليهم . وهذا ما لا يرضى الله تعالى ولا أحداً من المسلمين ؛ ولا بد من المعونة بألف فارس مُزاحِى العلّة ، تُجرّدُ مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين ، لتخليص ثغر عسقلان وغزّة . قال : فكان الجواب عن هذه الرسالة : ليس بيننا و بينك إلا السيف ، وسيُوافينا من الإفرنج ما يُعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت إلينا . فلما عاد الرسول بهذا الجواب ووقف عليه ، أكثر التعجب منه والإنكار له ، وعزم على الزحف إلى البلد ومحاربته فى غد ذلك اليوم . فأرسل الله من الأمطار وتدارُكها ودوامها ما منعه من ذلك .

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة

ففى[1] مستهل المحرم تقرر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق . والسبب فى ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها ، بعد ما اتصل به من أخبار دعته إلى ذلك . واتفق أنهم بذلوا له الطاعة وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان ، وكذا السكة ، ووقعت الأيمان على ذلك . وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق ، وأعاده مكرما محترماً ، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم . ثم استدعى الرئيس إلى المخيم [وخلع عليه خلعة كاملة أيضا وأعاده إلى البلد . وخرج إليه جماعة من الأجناد والخواص إلى المخيم[2]] واختلطوا به ووصل مَن استماحه من الطلاب والقراء والضعفاء ، بحيث ما خاب قاصدُه ، ولا أكدى سائله . ورحل عن مخيّمه عائداً إلى حلب بعد إحكام ما قرر وتكميل ما دبّر .

قلت : (١٦٠) وفى ذلك يقول القيسرانى :

(١) استمرار للاقتباس السابق من ذيل تاريخ دمشق ، من نفس الصفحات .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ٥٦ . وهو موجود فى ك بهامشها لا فى صميم المتن .

لك الله ! إن حاربت فالنصر والفتح ... وإن شئت صلحاً عُدّ من حزمك الصلح
وهل أنت إلا السيف فى كل حالة ... فطوراً له حدّ وطوراً له صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها ... ترنّحُ من سكر ، فخلّ القنا تصحو
وما كان كف العزم إلا إشارة ... إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح
وقد علم الأعداء مُذْ بِتَّ جانحاً ... إلى السلم ما تنوى بذاك وما تنحو
إذا ما « دمشق » ملكتك عنانها ... تيقّنَ مَنْ فى إيليا[1] أنه الذبح
متى التف نقع الجحفلين على الهدى ... فلا مهمهٌ يحوى الضلال ولا سفح
إذا سار نور الدين فى الجيش غازيا ... فقولا لليل الإفك قد طلع الصبح
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها ... فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح
صبرت فكان الصبر خير مغبة ... فسيق إليك الملك يسعى به النُّجح
كأن القنا تجلو له وجه أمره ... ولو أمهلت « بلقيس » ما غرها الصرح
بدولتك الغراء أصبح ضدها ... بهيا ، ولولا الحسن ما عرف القبح
وكم من قريح القلب لوبات وارداً ... موارد هذا العدل ما مسه قرح
سحائبك هذا الدهر جودا على الورى ... على أنه ما زال فى طبعه شح
وقد كان يمحو رسم كل فضيلة ... ونحن نراه اليوم يثبت ما يمحو
بك ابتهج الألباب ، وانتهج الحجا ... وأثمرت الآداب ، واطرد المدح
ولاذت بك ، التقوى وعاذت بك العلا ... ودانت لك الدنيا ، وعز بك السرح
فلا قلب إلا قد تملكته[2] هوى ... ولا صدر إلا قد جلاه لك النصح
وما الجود فى الأملاك إلا تجارة ... فمن فاته حمد الورى فاته الربح
ولم أختصر ما قلت إلا لأننى ... أعبر عما لا يقوم به الشرح

(١) هى بيت المقدس .

(٢) ما هنا من ق ٥٧ ا . وفى ك : تملكتم وهو صحيح لغة ومعنى ووزنا لكن الأول أولى لمناسبته طريقه التعبير فى بقية البيت وفى الأبيات السابقة له .

فصــــل فى فتح عزاز[1]

قال أبو يعلى[2]: وورد الخبر فى الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين[3] صاحب عزاز وأصحابه ، وحصلوا فى قبضة الأسر فى قلعة حلب . فسر هذا الفتح كافة الناس ، وتوجه نور الدين فى عسكره إلى عزاز ونزل عليها وضايقها وواظب قتالها ، إلى أن سهّل الله تعالى ملكها بالأمان ، وهى على غاية من المنعة والحصانة والرّفعة . فلما تسلمها رتّب فيها من ثقاته من وثق به ، ورحل عنها ظافراً مسروراً ، عائدا إلى حلب ، فى أيام من شهر ربيع الأول .

قلت : وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق فى قصيدة أولها :

فدتك القلوب بألبابهـــا ... وَساحُ[4] الملوك بأربابهـــا
كتائب ترمى جنود الصليـ ... ـب منها بتقطيع أصلابهـــا
إذا ما انثنت من قراع الكماة ... كست وقدها وشى أسلابهـــا
تبرنس منها البرنس الثيـــاب ... وحلته وقع أحلابهـــا
عشـــية غصت على إنّب ... نفوس النصارى بغصابهـــا
(٦٠ ب) وقام لأحمـــد محمودها ... بجـــذع موارن أحزابها
تجلى لهـــا حيدرى المصا ... ع أغلب مُودٍ بغـــلابها
مورث أركاسها من أب ... أكول الفوارس شرابهـــا
همامٌ إذا اغصَـــوْصَبَتْ نَبْوَة ... دهاها بهـــا شمّ أعصابها

---

(١) قال ياقوت : هى بليدة فيها قلعة تقع شمالى حلب قريبا منها . ثم ذكر أن هناك مدينة أخرى بهذا الاسم أيضا فى اليمن . معجم البلدان : ٦ : ١٦٨ — ١٦٩ .

(٢) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣١٠ . بضغط شديد وتصرف .

(٣) هو Joceline II الذى خلف أباه بعد وفاته على إمارة الرها وبقى فيها حتى أخذها زنكى منه سنة ٥٣٩ .

(٤) ساح جمع ساحة .

مضى وجنى لك حلوالشها … دِ ثمّا تمطّق من صابها
وأوصى بها لك من بعد ما … تجرع ممقر أوصـابها
وأقسم جدك ألاّ يليق(١) … بغيرك ملبس أثوابهـا
صبحت دمشق بمشق الجياد … زبور الوغى بين أحدابها
وأصْلَتّ رأيك قبلَ الحسام … لخمـد جمرة أجلابها
فأعطتك ما لم تنـله يدٌ … وفازت رقاك بأصحـابها
وأنت تعرّف فضـل الزّما … م من حمص تأخير ركابها
تخوّنها الجور فاستدركت … بعـدلك أغبار ظبظابها(٢)
وفاجأت قُورُس(٣) بالشائلات … تمج القنـا سمّ أذنابها
فما رمت حتّى رَمَت بيضها … إليكَ أزمّـة ضرّابها
وعَزّت عزاز فأذللتهـا … بمجرٍ مضـيق لأسهابها(٤)
بأشمخ من أنفها منكبا … وأكثر من عـدّ توراباها
دلفت لعيطاء أم النّجو … م فى الأمر إبطاء أترابها
وعذراء مذ عَمَرت ما اهتدت … ظنون الليـالى لإخرابها
تفرّعتهـا بفروع الوشيـ … ـج مثمرة هام أوشابهـا
وعوجٍ إذا أنبضت أغمضت … ذكاء لإرسال نشـابها
ومحدودبات تطـير الخطوب … ملافظ ألسُن خطابهـا
تصوّب عقبان ريب المنون … متى زَبَّنتهـا بأعقابها

(١) فى ك وكذلك فى ق ٥٧ ا : أن يليق . وهو خطأ معنوى وعروضى . والتصحيح من مخطوطة أكسفورد Bruce, 63 .

(٢) الظبظاب : الجلبة . القاموس المحيط .

(٣) قورس : مدينة وكورة من نواحى حلب . رأى ياقوت خرائبها وذكر أن بها آثارا قديمة . معجم البلدان : ٧ : ١٨١ — ١٨٢ .

(٤) المجر : الجيش العظيم . والأسهاب جمع سهب وهى الفلاة .

وما ركعت حول شم الهضا ب إلا سجدن لأنصابها
فلاذت بمعتصم بالكتاب وَهوبِ الممالك سلابها
بمعتصميّ الندى والهدى هموس السُّرى غير هيابها
محلّى المحل بوصف الفتوح ووصف التهانى وأربابها
وتعجز مدّاحه أن تحيط بآدابه فلك آدابها
بدائع ، لو رُدّ دهر رمين بنات حبيب بأحقابها
وأين ابن أوس وآياته من اللاء أودت بحسابها
من اللاء عاد عتيق لها ورد عليها ابن خطّابها
فأيامه من حبور تكاد يطير بها فرط إعجابها
لك الفضل إن راسلتك الجياد وقامت أدلّة أنجابها
إذا اعتسفت همم الجائرين أتيت السيادة من بابها
أبوك أبوها ، وأنت ابنها الْ معرق ، ودمية محرابها[1]
أقول لمؤجره بالغرور تمطت هواها فأهوى بها
حذار فعند ابتسام الغيو ث تخشى صواعق ألهابها[2]
ولا تخدعوا بافترار الليو ث فالنار فى برد أنيابها[3]

فصل
فى صفة أسر جوسلين

قال ابن الأثير[4] : سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهى القلاع التى شمالى حلب ،

(١) هذا البيت والذى قبله ساقطان من ق ٥٧ ب .
(٢) جمع لهب وهو اشتعال النار إذا خلص من الدخان والغبار . القاموس المحيط .
(٣) فى هامش ق ٥٧ ب بعد هذا البيت : وبقى أطول من هذا .
(٤) فى كتاب الأتابكة : ١٨١ — ١٨٤ . وهو اقتباس تصرف فيه أبو شامة بالحذف والاختصار ، والتزم فيما بقى حرفية الأصل .

منها تل باشر ، وعين تاب[١] ، وعزاز ، وغيرها من الحصون . فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم ، ولقوا نور الدين . وكانت بينهم حرب شديدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر (١٦١ ا) الفرنج ، وأخذ جوسلين سلاحداز[٢] كان لنورالدين أسيرا ، أخذ ما معه من السلاح فأنفذه إلى السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقى صاحب قونية وأقصرا وغيرهما من تلك الأعمال[٣] ، وكان نور الدين قد تزوج ابنته ، وأرسل مع السلاح إليه يقول : قد أنفذت لك بسلاح صهرك ، وسيأتيك بعد هذا غيره . فعظمت هذه الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين ، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع . فأحضر نور الدّين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال إنْ هم ظفروا بجوسلين ، إما قتلا وإما أسرا . فاتّفق أن جوسلين خرج فى عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى ، فاستحسن من السبى امرأة منهم خلا معها تحت شجرة ؛ فعاجله التركمان ، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيرا ، فصانعهم على مال بذله لهم ؛ فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك ، وأخفوا أمره عن نورالدين . فأرسل جوسلين فى إحضار المال ، فأتى بعض التركمان إلى نائب نورالدين بحلب فأعلمه الحال ، فسيّر معه عسكراً أخذوا جوسلين من التركمان قهرا ؛ وكان نور الدين حينئذ بحمص . وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين ، فإنه كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين . وكان هو يتقدم على الفرنج فى حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه ، وشدة عداوته الملة الإسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها . وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ؛ وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها ؛ وسهل أمرهم على المسلمين بعده . وكان

(١) قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية ؛ وكانت تعرف قبل أيام ياقوت باسم دلوك ، وصارت فى أيامه من أعمال حلب . معجم البلدان : ٦ : ٢٥٣ .

(٢) كلمة مركبة من كلمتين الأولى سلاح والثانية دار بمعنى حافظ ، وهو حامل سلاح السلطان أو الأمير ، وإليه الإشراف على السلاح خاناه . صبح الأعشى : ٥ : ٤٦٢ .

(٣) هو مسعود الأول بن قليج أرسلان . تولى السلطنة بإمارة قونية السلجوقية بين سنتى ٥١٠ — ٥٥١ . The Damascus Chronicle, P. 300.

كثير الغدر والمكر ، لا يقف على يمين ، ولا يفى بعهد . طالما صالحه نور الدين وهادنه ، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ؛ فلقيه غدره ، وحاق به مكره ، « وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلاَّ بِأَهْلِهِ(١) » . فلما أسر تيسّر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم . فمنها(٢) عين تاب ، وعزاز ، وقورس ، والراوندان(٣) ، وحصن البارة(٤) ، وتل خالد ، وكفر لاثا ، وكفر سود(٥) ، وحصن بَسرفوث(٦) بجبل بنى عليم ، ودلوك ، ومرعش(٧) ؛ ونهر الجوز ، وبرج الرصاص(٨) .

قال(٩) : وكان نور الدين ، رحمه الله ، إذا فتح حصنا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين ، خوفا من نصرةٍ تتجدّد للفرنج على المسلمين ، فتكون الحصون مستعدّة غير محتاجة إلى شيء . وقال الشعراء فى هذه الحادثة فأكثروا ؛ منهم القيسرانى ، قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها ، ويذكر قتل البرنز وأسر جوسلين وأخذ بلاده :

(٩١ ب) دعا ما ادعى مَن غره النهى والأمر فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدّنيا إليه عنانها تصرّف فيما شاء عن إذنه الدهر
ومن راهن الأقدار فى صهوة العلا فلن تدرك الشّعرى مداه ولا الشعر
إذا الجدّ أمسى دون غايته المنى فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر

(١) سورة فاطر : ٤٣ .
(٢) تقدم ذكر كثير من هذه الأماكن ، وسنعرف ببقيتها فى الحواشى التالية . على أنها جميعاً قريبة من حلب .
(٣) قلعة وكورة من أعمال حلب : معجم البلدان : ٤ : ٢١٤ .
(٤) بليدة وكورة وحصن وتسمى أيضا زاوية البارة . نفس المصدر : ٢ : ٣٤ .
(٥) وهو أيضا كفرسوت . معجم البلدان : ٧ : ٢٦٤ .
(٦) من أعمال حلب فى جبال بنى عليم بقى منه أطلال فى أيام ياقوت : ٢ : ١٧٩ .
(٧) فى الثغور بين الشام وبلاد الروم يحيط بها سوران وخندق ، وفى وسطها حصن يحيط به سور يعرف بالمروانى نسبة إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . معجم البلدان : ٨ : ٢٥ — ٢٦ .
(٨) قلعة ولها رساتيق من أعمال حلب قريبا من أنطاكية . معجم البلدان : ٢ : ١١١ — ١١٢ .
(٩) استمرار للاقتباس السابق من الأتابكة .

ولِمْ لا يلى أسنى الممالك مالكٌ ... زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقاً أن كرسىّ ملكها ... حبى منك صدراً ضاق عن همّة الصدر
وأنك، نور الدين، مُذْ زرت أرضها ... سمت بك حتى انحطّ عن نسرها النسر
خطبت، فلم يحجبك عنها وليها ... وخطب العلا بالسيف ما دونه ستر
جلاها لك الإقبال حورية السنا ... عليها من الفردوس أردية خضر
عروبٌ، أكنّت من هواك محبة ... نمت فانتمت جهرا، وسرّ الهوى جهر
فسقت إليها الأمن والعدل نحلة ... فأمست ولا أسر تخاف ولا إصر
فإن صافحت يمناك من بعد هجرها ... فأحلى التلاقى ما تقدّمه هجر
وهل هى إلاّ كالحصان تمنعت ... دلالاً، وإن عزّ الحيا وغلا المهر
ولكن إذا ما قستها بصداقها ... فليس له قدر وليس لها قدر
هى الثغر أمسى بالكراديس عابساً ... وأصبح عن باب الفراديس يفترّ
على أنها لو لم تجبك إنابة ... لأرهقها من بأسك الخوف والذعر
فإما وقفت الخيل ناقعة الصدى ... على بردى من فوقها الورق النضر
فمن بعد ما أوردتها حومة الوغى ... وأصدرتها والبيض من عَلَقٍ حُمْر
وجلّلتها نقعا أضـــاع شِيَاتها ... فلا شُهبها شُهبٌ ولا شُقْرها شُقر
علا النهر لما كاثر القصب القنا ... مكاثرةً فى كل نحرٍ لها نحر
وقد شرِقت أجرافه بدم العدا ... إلى أن جرى العاصى وضَحْضَاحُه غمر
صدعتهم صدع الزّجاجة لا يَدٌ ... لجابرها، ما كل كسر له جبر
فلا ينتحل من بعدها الفخر دائل ... فمن بارز الإبرنز كان له الفخر
ومن بز أنطاكية من مليكها ... أطاعتـــه ألحاظ المؤلّلة الخزرُ
أخو الليث لولا غدره، نزعت به ... إلى الذئب أن الذئب شيمته الغدر
أتى رأســه ركضا وغُودر شِلْوه ... وليس سوى عافى النّسـور له قبر

وقد كان فى استبقائه لك منة ... هى الفتك لولم تغضب البيض والسمر
كما أهدت الأقدار للقمص أسره ... وأسعد قِرْنٍ مَنْ حواه لك الأسر
طغى وبغى عـــدوا على غُلوائه ... فأوبقه الكفران عَدواه والكفر
وألقت بأيديها إليك حصـــونه ... ولو لم تُجب طوعاً لَجَاء بها القسر
وأمست عزاز كاسمها بك عزة ... تشق على النّسرين لو أنها الوكر
فسِرْ ، وَامْلأ الدّنيا ضياء وبهجة ... فبالأفق الدّاجي إلى ذا السّنا فقر
كأنى بهذا العزم ، لا فل حدّه ... وأقصاه بالأقصى وقد قُضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً ... وليس سوى جارى الدّماء له طُهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها ... فلا عهدةٌ فى عنق سيف ولا نذر
(٦٢ ا) وصَلّتْ بمعراج النبىّ صـــوْارم ... مساجدها شفع وساجـــدها وتر
وإن يتيمّم ساحلَ البحر مالكاً ... فلا عجب أن يملك السّاحلَ البحر
سللت سيوفا أثكلت كل بلدة ... بصاحبها ، حتى تخوّفك البــدر
إذا سار نور الدين فى عزماته ... فقولا لِلّيل الإفك : قد طلع الفجر
ولو لم يَسِرْ فى عسكر من جنوده ... لكان له من نفسه عسكر مَجْر
مَليك سمت شُم المنابر باسمـــه ... كما زُهيت تيهاً به الأنجم الزُّهر
فيا كعبةً ما زال فى عرصاتهـــا ... مواسم حج لا يروّعهـــا النّفر
خلعت على الأيّام من حلل العلا ... ملابس من أعلامها الحمـد والشكر
وتوّجت ثغر الشام منك جلالة ... تمنّت لها بغـــدادُ لو أنّها ثغر
فلا تفتخر مصر علينا بنيلهـــا ... فيُمناك نيلٌ ، كل مصر بها مصر
رددت الجهاد الصّعب سهلا سبيلهُ ... وياطالما أمسى ومسلكه وعر
وأطمعت فى الافرنج من كان بأسه ... تخوّف أن يعتاده منهم فكر
وأقحمت جُرد الخيل أعلى حصونها ... ولولاك لم يهجم على كافر كفر

ومن يدّعى فى قتالك الشرك شركة   إذا لم يكن عند القوافى له ذكر
هى القانتات الحافظات فروجها   نشاهدها عـــدل ورائقها سحر
ولو لم يكن فى فضلهـــا وكمالـها   سوى أنها من بعد عمر الفتى عمر

وله من قصيدة يصف فيها وقائعه أولها :

أمَا وخيالٍ زار ممن أحبـــه   لقد هاج من ذكراه ما لا أغبّه
إذا ما صبا قلب المحب إلى الصّبا   ذكرت نسـيما بالثغور . مهبُّهُ
فيا نفحات الشام ، رفقا بمهجة   يحامى عليها مدنف القلب صبّه
فلا تسألنّ الصب أين فؤاده   فإن فؤاد المرء معْ من يحبّه
وفى شُعب الأكوار مَن هو عالم   غداةَ استطار البرق مَن طار لبّه
يشيم ثغور المزن تهمى ، كأنها   سنا بِشرِ نور الدّين تنهل سُحبه
إذا ما سما فى مُبهم الخطب وجهه   تمزق عن بدر الدُّجُنّة حُجبه
تولّد بين الغيث والليث والتقى   مناقســـه أى الثلاثة تربه
يعدّ مضاء فى الظبا ، لا ، وضربه   بها نالَ الأعداء ما السيف ضربه
مكين الحجا ، أرضى الزمان بنفسه   إلى الآن ، حتى لان وانقاد صعبه
حمى قبّة الإسلام بالخيل ، فاغتدت   وأرتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها   فما انقشعت إلاّ وللذلّ جنبه
كيوم الرّها الورهاء والهام يانع   ملىّ برعى الهنـدُوَانىّ خصبه
وشهباء هاجتها وغّى صرخديّة   قناها وليل الحرب تنقضّ شهبه
وعارم يوما بالعُريمة فاغتدت   كوادى ثمودٍ إذ رغا فيه سَقْبُه (1)
وعاصى على العاصى بأرْعن خاطب   دم الإفك حتى أنكح النصل خطبه
بإنّب لما أكسب المال واثنى   يصاحب أنطاكية وهو كسبه

(١) السقب : ولد الناقة . القاموس المحيط .

غداة هوى شطرين : للسيف رأسه ... وللرمح حتى توّج الرأس قلبه
(٦٢ ب) على حين للخطّىّ فيه عوامل ... يعاقبه خفض الحسام ونصبه
وقائع محمودية النصر لم تزل ... غريباً بها عن موطن السّيف غربه
يقوم مقام الجيش فيها وعيده ... ويَفعل أفعال الكتائب كتبه
وحين انتضته عزمةٌ من قرابه ... مضى وهو نصل ، والممالك قربه
إلى أن دعته ربّها كلّ بلدة ... فليس من الأمصار ما لا يربّه
ولما نزا بالقمص عُجب ، هوى به ... على أمّ رأس البغى والغدر عُجبه
وأصبح فى الحجلين ينكر خطوه ... بعيد على الرّجلين فى المشى قربه
تعاتبه البشرى بأخذ حصونه ... فياعانياً ضرب البشائر ضربه
تناجى عزاز باسمه تلّ باشر ... فيلعنه لعن الصّريح وسبّه
فإن يكن المقهور مَن ثُلّ عرشه ... فهذا عمود الكفر قد طاح طُنبه
فقل لملوك الخافقين نصيحة ... كذا عن طريق اللّيث يزأر غلبه
وخلّوا عن الآفاق ، فالشرق شرقه ... بحكم الرّدينيّات ، والغرب غربه
ولا يعتصم بالدّرب طاغٍ على القنا ... فإنّ القنا فى ثغرة النّحر دربه
رحيب فضاء الحلم عن ذات قدره ... إذا ضاق من صدر الممالك رحبه
عفوٌّ عن الجانى ، يكاد الّذى جنى ... يكرّ به شوقا إلى العفو ذنبه
أمُتّخذ الإخلاص لله جُنّة ... ومن يعتصم بالله فالله حسبه
أبوك استرد الشام بالسيف عنوة ... وللرّوم بأس طالما غال خطبه
إذا ذب عن أضغاث دنياه مالك ... فأنت الذى عن حَوزة الدّين ذبه
رأيت اتّباع الحق خيراً مغبّة ... فأفرجت عن رأى يسرك غِبّه
وأوضحت ما بين الفريقين سنة ... بها عرف المربوب من هو ربه
وبينت ما قد كان من كان يبتغى ... دليلاً بأنّ الله مَن أنت حزبه

وقال ابن منير يمدح نور الدّين بظاهر حمص :

هيهات يعصم من أردت حِذارُ … أنّى ، ومن أوهاقك الأقدار(١)
طلعت عليك بجوسلين ذريعة … لا سحل أنشاها ,ولا إمرار(٢)
وسعادة مازلت تمرى خلفها … فيشف ، وهو النّاتق المــــدرار
فأرتك مايجنى الوفىّ وناؤه … وأرته كيف يُحيَّن الغــــدّار
عودٌ أمرّ على أبارك طَلْمُــــــه … فأحيل ذاك البرّ وهو بوار
مازلت تنعم وهو يكفر عاتيا … والله يهـــــدم ما بنى الــكفّار
حتى أتاح لقـــــومه ما جره … لثمود من عقر الفصيل قدار
أسرى فأصبح فى براثن آسرٍ … ما زال يُدمى ظفره الأظفار
سامٍ ، كقَرن الشّمس ، يُقبس نوره … وتُغض دون محلّه الأبصار(٣)
يهب التلادَ من البلاد وما حوت … إن السماحة للبحار بحـــــار
يقظان ، يخشى الله فى خلواته … لا مُترفٌ لاهٍ ، ولا جبّـــــار
نصب المراقب للعواقب ناظرا … فيها ، كذلك تربأ الأبرار
لا كالذين تعجلوا حســـــواتها … وتغلسوها بعـــــد وهى خسار
(٦٣ ا) درجوا وأدرج فى ملفة رفاتهم … سوءى تساء لذكرها الآثار
والمرء من يُطوى فيَنشر طيّه … ما أودعته صدورها الأخيار
قل للأولَى ناموا على نأمائه … ما كلُّ هبّة بارح إعصـــار
لا تأمنوا فى الله بطشـــة ثائر … لله ، ملء سريره أسرار

(١) الأوهاق جم وهق محركة : الحبل يرمى فى أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان : القاموس المحيط .
(٢) فى هامش ك مقابل هذا البيت : ومنها . والسحل : الثوب لايبرم غزله والحبل على قوة واحدة .
والإمرار : القوة والإحكام وطاقة الحبل .
(٣) هذا البيت غير موجود فى ق ٥٩ ب .

ضافٍ إذا كَدّر المعادنُ ، عادل   إن حاف حكّام الملوك وجاروا
أعْلى أبوه له النّجاد ، وشِيد فى   صهواتها ممـا ابتناه منـار
محمودٌ المحمـــود آثاراً إذا   نظمت على جيد الدجى الأسمار
دَانت له الأيام صاغرةً ، كما   دانت له فى ظله الأمصـــار

وله من أخرى أولها :

* ما الملك إلاّ ما حواهُ نجادُه(١) *

يقول فيها :

وتدين حُسَّـــدُه لحكم آيه   والفضل ما شهدت به حسّاده
شمسٌ إذا ما الحربُ زَرّ جيوبها   حلّ المعاقد كَرُّه وطِرادُه
ألوى ، ألدّ ، حمى الشريعة جهده   وأذلّ ناصية الضلال جهاده
صعق البرنس وقد تلألأ برقه   وأطار ساكن جأشه إرعاده
ولّى وقد سُلّت فسَلّت ضنه   زُبر تلقّى فودهن فؤاده
مستلئما مستسـلما ، لا عدّةٌ   ردّ المنى(٢) عنه ولا استعداده
والجوسلين اختشهن فأصبحت   نُهبَى لهنّ : بلاده وتلاده
جاءت به بعد الشماس عوابس   قودٌ يلين لمُدنهن قيـــاده
وتصيّدته لك السّعود ، وقلمّا   ينجو بخيرٍ من أردت مصاده
دانى له قيناه أدهم ، كلمـا   غناه طـــار شماتةً عوّاده
سلبت عزازِ عزاءه ، وبقُورس   محجوبة فرشت له أقتاده
وبتلّ خالد يوم تلّ جبينها   خلط الثرى بجبينه إخلاده

(١) فى ق ٥٩ ب : ما حواك نجاده .
(٢) المنى جمع منية . لسان العرب .

وغدا يباشر تلّ باشر قلبُـــه ... بأحرّ ما حمل القلوب عـداده

منّت أمانيه بشـــائرك التى ... عادت لمن مآتمًا أعيـــاده

وحبوت ملـكك من نظيم ثغوره ... حَلْيًا تَتَابَه تحتـه أجيادُه

لاَ يَخْدَعَنْك ، فإنما إصلاح مَنْ ... يُخشى انتشاط خناقه إفساده

أنزله حيث قضت له غدراته ... وأحـــلّه طُغيانه وعناده

فى حيث لا يأوى له سجّانه ... حنقا ويكشط جلده جلّاده

وَثَنٌ هدمت بنى الضّلال بهدمه ... وعدت عبادك عـــوة عباده

فتكت به آيات مَنْ لِمُحَمّدٍ ... ولِدِينـــــه إبداؤه وعواده

أو أنشط البلد الحرام تواءمت ... تُثْنى عليه تلاعـــه ووهاده

ولَو انّ منـــبره أطاق تكلّما ... نطقت بباهرِ فضـله أعواده

نام الخليفـــة ، واستطال لذّبّه ... عن سدّنيه واستطير رقاده

رجمت لك العزّ القديم سيوفه ... ما زان رونق مائها أغماده

(٦٣ ب) من بعد ما نعق الصليب لحزبه ... ورأيت زرع الملك حان حصاده

أنّى تُميل الحادثاتُ رِواقه ... بهبوبها ، وابنُ العماد عماده !

فصـــل

قال ابن الأثير[1] : لما سار نور الدّين إلى قلاع جوسلين ملك بعضا وأبقى بعضا[2] فاجتمعت الفرنج ، فالتقوا مع نور الدّين بدُلُوك[3] ، فهزمهم واستولى على دلوك وغيرها . ففيها يقول أحمد بن منير قصيدة منها[4] :

(١) فى الأتابكة : ١٨٥ — ١٨٦ . وهى مقتطفات اقتبسها أبو شامة بتصرف .

(٢) فى ك ، وكذلك فى ق ٦٠ ا : وبقى ، فعدلنا بها إلى ما ثبت هنا .

(٣) بلدة من نواحى حلب وتقع بإقليم العواصم . معجم البلدان : ٤ : ٦٨ .

(٤) وردت بعض أبيات هذه القصيدة فى الأتابكة منسوبة إلى أحد الشعراء الشاميين من غير تعيين .

هى الخيل خير عتاد الكريم | يحضر للهمّ إحضـارها
ضغنت فأذررت أفواهها | وسرت نقلت أظفارها
إلام ، ولم تبق مما غزوت | قـلوبا تكابد إذعارها
أما فى منصل آى القرا | ع أن تضع الحرب أوزارها
عسى أن يحم لهذا الحما | م أن يتوكّر أوكارها
وما يوم من غلته واحد | فتودعه الألسن أشعارها
وأين المقاول مما فعلت | ولو شفع القطر إكثارها
فكم أجلبت خلفك الجالخات | فصلصل فخرك فخارها(١)
أعدت بعصرك هذا الأنيق | فتوح النبى وأعصارها
وكان مهاجرها تابعيك | وأنصار رأيك أنصارها
فجدّدت إسلام سلمانها | وعمّر جدّك عمّارها
وما يوم إنب إلا كتيـ | ك ، بل طال بالبوع أشبارها
وأيامك الغرّ من بعده | تعيد إلى الطىّ أغرارها
ولما هبيت ببصرى سمكت | بأهباء خيلك أبصارها
ويوم على الجون جون السرا | ة عزّ فسقّطتها عارها
صدمت عريمتها صدمة | أذابت مع الماء أحجارها
وفى تل باشر باشرتهم | بزحف تسور أسوارها
وإن دالكتهم دلوك فقد | شددت فصدّقت أخبارها
وشب التدائر حتى طلعت | عليها فولتك أدبارها

(١) الجالخات : من جلخ : نخر وتكبر . القاموس المحيط .

مشاهد مشهورة نمنمت على صفحة الدهر أسطارها
يلذّ الأغانى ترجيعها وتستغفر السَّفْرُ أسفارها
بنيت لوفد المنى كعبة تُجير المعلّق أستارها
ملكت الأراضى مُغْبَرّة تكاد تُحَدِّثُ أخبارَها
فما زلت تدجن حتى محوت دجاها وشعشعت أنوارها
وَصَلْتَ فأعززت مسكينها وَصُلْتَ فأذللت جبارها
وصغت حلى من علاً أحكمت على عنق الدهر أزرارها

قال أبو يعلى[١] : وفى رجب وردت الأخبار من ناحية نور الدّين بظفره بعسكر الإفرنج النازلين بإزائه قريبا من تل باشر ، وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم ؛ وامتلأت الأيدى من غنائمهم وسبيهم . واستولى على حصن خلد الذى كان مضايقه ومنازله . قال[٢]: وفى أيام من المحرم وصل جماعة من حجّاج العراق وخراسان (٤٦١) المأخوذين فى طريق الحج عند عودهم بجماعة من كفار العربان ، وحكوا مصيبة ما نزل مثلها بأحد فى السنين الخالية ، ولا يكون أبشع منها . وذكر أنه كان فى هذا الحاج من وجوه خراسان وتُنّائها[٣] ، وفقهائها وعلمائها ، وقضاتها ، وخواتين أمراء العساكر السلطانية والحرم العدد الكثير ، والأموال الجمة ، والأمتعة الوافرة . فأخذ جميع ذلك وقتل الأكثر ، وسلم الأقل ؛ وهتكت النساء وسُلبن ، وهلك من هلك بالجوع والعطش ؛ فضاقت الصدور لهذه النازلة . فكسى العارى منهم وأطلق لهم ما استعانوا به على عودهم إلى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق . ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

فصل

قال[٤]: وكان مجاهد الدين بزان قد توجّه إلى حصنه صرخد ليتفقد أحواله ،

(١) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣١١ — ٣١٢ . وهو اقتباس حرفى .
(٢) نفس المصدر : ٣١٠ .
(٣) تنأ بالبلد وهو تانئ بلده ، وهو من تنّاء تلك الكورة إذا كان أصله منها . أساس البلاغة .
(٤) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣١١ ، وهو اقتباس حرفى .

فعرضت نُفرة بين مجير الدين والرئيس بسعايات أصحاب الأغراض والفساد ، واقتضت الحال استدعاء مجاهد الدين لإصلاح الحال ، فوصل وتم ذلك بوساطته على شرط إبعاد الحاجب يوسف ، صاحب مجير الدين، عن البلد مع أصحابه . وتوجهوا،ولم يعرض لشيء من أموالهم ؛ وقصد بعلبك فأ كرمه واليها .

قال[١] : ووردت الأخبار من مصر بالخُلف المستمرّ بين وزيرها ابن مصال و بين الأمير المظفر ابن السّلار[٢] ووقوع الحرب وسفك الدماء ، إلى أن أسفرت الحال عن قتل ابن مصال الوزير وانتصاب ابن السلار موضعه فى الوزارة .

قال[١] : وفيها فى سابع عشر رجب توفى القاضى بهاء الدين عبد الملك ابن الفقيه عبد الوهاب الحنبلى . وكان إماما فاضلا ، مناظرا مستقلاً ، مفتيا على مذهب الإمامين أحمد وأبى حنيفة ، بحكم ما كان عليه عند إقامته بخراسان لطلب العلم والتقدم . وكان يعرف اللسان الفارسىّ مع العربىّ ؛ وهو حسن الحديث فى الجدّ والهزل . وكان له يوم مشهود ، ودفن فى جوار أبيه وجدّه فى مقابر الشهداء . قال : وتوفى عقيب وفاته الشريف القاضى النقيب أبو الحسن فخر الدولة ابن أبى الجن ، وتفجع الناس لخيريته وشرف بيته[٣] .

ودخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة

ففيها حاصر نور الدين رحمه الله دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم . ومدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها عليهم ، وكتبها إليه من حماة وهو محاصر دمشق ، وقد تخلّف عن الخدمة لمرض عرض له . منها :

(١) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣١١ . وهو اقتباس حرفى .

(٢) كان يلقب بالملك العادل ، طرده الحافظ الخليفة الفاطمى ، من الوزارة ، سنة ٥٤٤ ، وولى مكانه نجم الدين ابن مصال الذى لم يستقر بها أ كثر من خمسين يوما هرب بعدها أمام جيوش ابن السلار التى تتبعته إلى الصعيد وأتت برأسه . واستخدم ابن السلار أسامة بن منقذ فى مراسلات مع نور الدين على أمل التعاون معه ضد الفرنج والصليبيين . وكان ابن السلار سنيا مغاليا رغم وزارته لخلافة شيعية . وسقط قتيلا بيد ربيبه نصر بن عباس سنة ٥٤٨ . وفيات الأعيان ١ : ٤٦٨ ؛ الفاطميون فى مصر : ٢٩٢ — ٢٩٦ .

(٣) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣١١ : وشرف نيته .

أخليفة الله الذى ضمنت له … تصديق واصفه سراة المنبر
لا المستطيل بمصر ظلّ قصوره … والمستطال إليه شقة جرجر
يا نور دين الله وابن عماده … والكوثر ابن الكوثر ابن الكوثر
(٦٤ب)صقر بحدّ السّيف دار أشائب … عقلوا جيادك عن بنات الأصفر
هم شيّدوا صرح النّفاق ، وأوقدوا … نارا تحش بهم غدًا فى المحشر
أذكوا بجأّنى حرّها ، واستشعرت … لفحاتها بين الصّفا والمشعر
شرّدتهم من خلفهم مستنجدا … ما ظاهر الكفّار من لم يكفر
لا تمف ، بل شق الهدى نفس الذى ادّ (م) رع الضّلال على أغرّ مشمّر
تلّله ما أهدى علىّ لمرحب … فلقد تهكم فى الخداع الخيبرى
ما الغش ممن أمّه نصرانة … لم تختتن كالغش من متنصر
أذكت لنا هذى العزائم ، لاخبت … ما غار من سنن الملوك الغبّر
إثقاب آراء « المعز » ، وخفق رايات … العزيز ، ويقظة المستنصر
شمّر ، فقد مدّت إليك رقابها … لا يدرك الغايات غير مشمّر
أوَلَسْتَ من ملأ البسيطة عدلُه … واجتبّ بالمعروف أنف المنكر
حدب الأب [البرّ][1] الكبير ، ورأفة الأ … م الحفيّة باليتيم الأصغر
يا هضبة الإسلام ، من يُعصم بها … يُؤمن ، ومن يتول عنها يكفر
كانوا على صلب الصليب سرادقا … أنبتّ بنيّته بكل مذكر
آثارهم نجّس أذال المسجد الـ … أقصى ، فصُنْ ما دنّسوه وطهّر
جار الخليل ومن بغزة هاشم … بلهامك المتدفّق المتمصّر
بعرمرم صلت وعاوِعُه عرى … [أسماع][1] جيحون وسيف البربر

(١) ما بين الحاصرتين من ق ٦١ ا ، وهى مستدركة فى هامش ك .

يفتر عن ملك الملوك منحّل الـ   أنواء ، بل سعد السّعود الأكبر
عن طاعن الفرسان غير مكذّب   ومتمّم الإحسان غير مكدّر
بدر الجحافل والمحافل ، فارس الآ   ساد فى غاب الوشيج الأسمر
ملك تساوى النّاس فى أوصافه   عُذر المقلّ وبان عجز المكثر
يأيها الملك المنادى جوده   فى سائر الآفاق : هل من مُعسر
إن القصائد أصبحت أبكارها   فى ظل ملكك غاليات الأمهر
إن كنت أحييت «ابن حمدانٍ» لها   فأنا الذى غبرت فى وجه السّرى
ولأنت أكرم من أناس نوّهوا   باسم ابن أوسٍ واستخصّوا البحترى
ذلّت لدولتك الرّقاب ، ولا تزل   إن تغزُ تغنمْ ، أوْ تقاتلْ تظفر

وكتب إليه من حماة أيضاً ، وهو محاصر دمشق ، قصيدة ينال فيها من صاحبها ، منها :

أبوك أب لو كان للنـــــاس كلّهم   أبًا ورضوا وطء النجوم لفنّدوا
وما مات حتى [سد[1]] ثلمة ملكه   بك الله ، ترمى ما رماه فتصمد
صدمت ابن ذى اللّغدين فانحل عقده   وكالسلك قد أمسى يحل ويعقـــــد
يقلب خلف السّجف عينا سخينة   ويبكى بأخرى ذات شتر ويسهد
ولا غرْوَ ، قد أبقى أبوه وجـــدّه   له كل يوم ثوب عجز يجـــدد
فيارا كبًا إمّا عرضــــت فبلّغنْ   بيوتا على جَيْرُون[2] بالذّلّ تعمد
وقل لمبير الدّين وهو مجـــيره   بزعم له وجـــــه الحقيقة أربد
(١٦٥)حملت الصّليب باغيا ، ونبــذته   وثغرك مطووس الثّنايات وأدْرد
وحاربت حزب الله ، والله ناصر   لناصره ، ودين أحمدَ أحمـــدُ
تنصرت حينا ، والبـــلاء موكل   ولا بُدّ من يوم به تتهـــــوّد

(١) ما بين الحاصرتين من ق ١٦١ ا .
(٢) حصن بدمشق ينسب إليه أحد أبوابها ، وقيل هو دمشق نفسها . معجم البلدان : ٣ : ١٩١ :

وأقسم ما ذاق اليهود ببابليا … وموضعها من بختنصر أســـود
كبعض الذى جرّعته فسرطته … وأيّد فيـــه من عماك المؤيّد
ولايته عزلٌ إليـــك موجه … وتصحيفه قتل عليك مؤبد
رماك بباقلاّ دمشق ، فلم تكن … سوى بقلة حمقاء ، بالحمق تحصد
وجالدت جلاّدًا وأنت مؤنث … تذكرت ، والجلاد أدهى وأجلد
تطاولت لا نفس تسمى ولا أب … وراءك زحفا ، إنما أنت مقعد
أمسعاةَ نور الدين تبغى ودونها الـ … أسنّة بُتر والعوامل تعضد ا
بمحمود المحمود سيفا وساعدا … حملت لقد ناجتك صما مؤيد
وهل يستوى سارٍ تأسّد طاويا … ونشوان يُغلّى معصما ويؤيد
تنصرت أمّا ، بل تمجّست والدًا … وعمًّا ، فعِرق الـكفر فيك مردّد
تخذت بنى الصّوفى أسرًا وأسرة … لـكى يصلحوا ما فى يديك فأفسدوا
لعمرى لَنِعم العبد أنت ، تجيبه الـ … ـموالى وتوليه هوانًا فيحمد
إليكم بنى العلاّت عن متشاوس … له الشّام صرفا والعراق صرفد
وما مصر إلا بعض أمصاره التى … إلى أمره تسمى قناه وتحفد
أنيبوا إليـــه فهو أرحم قادرٍ … له الصّفح دينٌ واقبلوا النصح ترْشُدوا[1]
ولا ترشـــغوا نفث المؤبد إنه … عن الخير يزوى أو إلى المَيْن يسند
وفرّوا إلى مولاكم والّذى له … عليكم أيادٍ وَسْمُها ليس يجحد
ولا تكفروه ، إنمـــا أنتم له … ومنه ، ويوم عند حوران يشهد
غداة على الجولان[2] جول ، وللظبا … رُعود ، فربص الموت منهنّ يرعد

(١) فى ق ٦٦ ب : تُسْرِشَدُ ، بهذا الضبط .

(٢) يقول ياقوت : الجولان قرية وقيل جبل من نواحى دمشق يدخل فى عمل حوران : معجم البلدان ٣: ١٧٦ .

ولما اكفهر اليوم واربد وجهه ... وعوّذ مرهون وفرّ مزيد
وأيقن من بين السُّدَيْر(١) وجاسم(٢) ... بأن الجرار السود بالجرد تجرد
رددتهم على بصرى وصرخدَ خيله ... وقد أبصرت بصرى رداها وصرخد
وطاروا تهزّ المرهفات طِلابهم(٣) ... كما انصاع من أسد نعام مشرد
وليلة ألقى الشرك بالمرج بركهُ ... ومارج نيران الوغى تتـــوقد
رمى وأخوه مغرب الشمس دونكم ... بمشرقها غضـــبان يغدو ويشتد
فمذ وردت ماء الأرنط(٤) مُغذّةً ... أثارت بثَوْرَا(٥) غلة ليس تبرد
أيا سيف شامته يد الملك صارما ... فيهمد إذ يسرى ، ويسرى فيهمد
دمشقَ دمشقَ : إنما القدس سرحة ... ومركزها صرح عليهـــــا ممرّد
حموها لكى يحموا وقد بلغ المدى ... بهم أجلٌ حتم وعمر محـــــدّد
متى أنارّاء طائر الفتح صـــادحا ... يرفرف فى أرجائها ويغرّد ؟!

(٦٥ ب) وله من قصيدة أخرى :

تذكرك بالغوطتـــين قد ضمنت ... ربوتها ربعـــه ومقراها
أطلـع لهـا الشمس ، من جبينك لم ... ترج ســـواها فى النوم جفناها
فالخيل صور إلى تسام سهمـ ... ـها وملهى فى بيت لهيـــاها

(١) السدير : قاع بين الكوفة والبصرة : معجم البلدان : ٥ : ٥٥ — ٥٦ .

(٢) جاسم : قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ على الطريق الرئيسى إلى طبرية . نفس المصدر : ٣ : ٣٧ — ٣٨ .

(٣) الطلاب جمع طلب وهو « بلغة الغز الأمير المقدم الذى له علم معقود وبوق مضروب وعدة من مائتى فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارسا » . خطط المقريزى : ٢ : ١٦ . نقلا عن رسالة من متجددات القاضى الفاضل .

(٤) الأرنط والأرند اسم لنهر أنطاكية وهو نهر العاصى عندما يمر بحماة فإذا انتهى إلى أنطاكية سمى بالأرند . معجم البلدان : ١ : ٢٠٦ .

(٥) ثورا : من أعظم أنهار دمشق متصل بنهر بردى فى بعض أجزائه . نفس المصدر : ٢ : ١١٨ — ١١٩ .

دولة من دانت البلاد له وعمّها ظلّه فأغناها
لا بسواها تليق بهجتها ولا سواه تبغى رعاياها

قال أبو يعلى(١) : وفى عاشر المحرم نزلت أوائل عسكر نور الدّين على أرض عذراء(٢) من عمل دمشق وما والاها . وفى الغد قصد فريق وافر منهم ناحية السهم والنّيرب(٣) ؛ وكمنوا عند الجبل لعسكر دمشق . فلما خرج(٤) منها إليهم أسرع النّذير إليهم فحذّرهم وقد ظهر الكمين ، فانهزموا إلى البلد . وفى الغد نزل نور الدّين بعسكره على عيون فاسريا بين عذراء ودومة(٥) ، وامتدوا إلى تلك الجهات ، ونزلوا من الغد فى أراضى حجيرا(٦) وراوية(٧) فى الخلق الكثير والجمّ الغفير ، وانبثّت أيدى المفسدين من العسكر الدمشقى والأوباش ، من أهل العيث والفساد ، فى زروع الناس ، فحصدوها ، وفى الثمار فأفنوها ، بلا مانع ولا دافع . وتحرّك السعر وانقطعت السابلة ، ووقع التأهّب للحصار . ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول : أنا ما أوثر إلّا صلاح أمر المسلمين ، وجهاد المشركين ، وخلاص من فى أيديهم من الأسارى . فإن ظهرتم معى فى عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد ، فذلك المراد . فلم يعد الجواب إليه بما يرضاه ، فنزل فى أرض مسجد القدم وما والاه من الشرق والغرب ، وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلى البلد . قلت : هو الذى يسمى فى زماننا بمقبرة المعتمد ، بين مسجد القدم ومسجد فلوس . قال : وهذا منزل ما نزله أحد من مقدّمى العساكر فيما سلف من السنين . وأهمل الزّحف إلى البلد إشفاقا من قتل النّفوس . ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق ، فضاقت صدور

(١) اقتباس حرفى فى مجموعه من ذيل تاريخ دمشق : ٣١٢ — ٣١٦ ؛ يختصره أبو شامة فى بعض المواضع .

(٢) بالغوطة من إقليم خولان ناحية الجبل . معجم البلدان : ٦ : ١٣٠ . وما يرد ذكره من الأماكن فى الأسطر القليلة التالية كله من منطقة الغوطة .

(٣) معجم البلدان : ٨ : ٣٥٥ .

(٤) ما هنا من ق ٦١ ب . وفى ك : خرجوا ، ثم رسم أعلاها بخط صغير حرف الجيم كتصحيح المتن.

(٥) معجم البلدان : ٤ : ١٠٦ : وهى غير دومة الجندل .

(٦) معجم البلدان : ٣ : ٢٢٨ .

(٧) معجم البلدان : ٤ : ٢١٦ .

أهل الصلاح ، وزاد إنكارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة ؛ والمناوشات فى كل يوم متصلة من غير مزاحفة ولا محاربة . فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر ؛ فرحل العسكر النورى من هذه المنزلة ونزل فى أراضى فذايا[١] وحلفبلتين[٢] والخامسين المصاقبة للبلد ، وما عرف فى قديم الزمان من أقدم على الدنوّ منها . ثم رحل فى العشرين من صفر إلى ناحية دَارَيّا[٣] لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الإفرنج من البلد لقوّة عزمه على لقائهم . وصار (١٦٦ ا) العسكر النورى فى عدد لا يحصى ، وفى كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان . ونور الدين مع هذه الحال لا يأذن لأحد من عسكره فى التسرع (إلى قتال أحد من المسلمين ؛ وكانوا ، يعنى أهل البلد ، يحملهم الجهل والغرور ، على التسرع[٤]) والظهور ، ولا يعودون إلا خاسرين مغلولين . وأقام على هذه الصورة ، ثم رحل إلى ناحية الأعوج لقرب عسكر الإفرنج وعزمهم على قصده . واقتضى رأيه الرحيل إلى جهة الزبدانى[٥] استجراراً لهم . وأفرق من عسكره فريقاً يناهز أربعة آلاف[٦] فارس مع جماعة من المقدّمين ، ليكونوا فى أعمال حَوْرَان مع العرب لقصد الإفرنج ولقائهم ، وترقباً لوصولهم ، وخروج العسكر الدمشقى إليهم ، واجتماعهم بهم ، ثم يقاطع عليهم . واتفق أن عسكر الفرنج رحل عقيب رحيله إلى الأعوج ، ونزل به فى ثالث ربيع الأول ، ودخل منهم خلق كثير إلى البلد لقضاء حوائجهم . وخرج مجير الدّين[٧] ومؤيد الدّين[٨] فى خواصهما وجماعة وافرة من الرعية ، واجتمعوا بملكهم وخواصه ، وما صادفا عنده شيئاً مما هجس فى النفوس من كثرة ولا قوة . وتقرّر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال

(١) معجم البلدان : ٦ : ٣٤٦ .
(٢) لعلها : حلفبلتا ، وهى من قرى دمشق . معجم البلدان : ٣ : ٣٢٢ .
(٣) من قرى غوطة دمشق . معجم البلدان : ٤ : ٢٤ .
(٤) مابين القوسين ساقط من ق ١٦٢ ا .
(٥) كورة بين دمشق وبعلبك منها يخرج نهر دمشق . معجم البلدان : ٤ : ٣٧٤ .
(٦) فى ذيل تاريخ دمشق : أربعة آلاف فارس ، كما ورد هنا . وفى ق ١٦٢ ا : أربعين ألف فارس .
(٧) هو مجير الدين آبق صاحب دمشق .
(٨) هو مؤيد الدين المسيب ابن الصوفى رئيس دمشق ووزيرها عندئذ .

أعماله . ثم رحل عسكر الإفرنج إلى رأس الماء ، ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقى إليهم ، لعجزهم واختلافهم . وقصد من كان بحوران من العسكر النّورى ، ومن انضاف إليهم من العرب فى خلق كثير ، ناحية الإفرنج للإيقاع بهم والنكاية فيهم . والتجأ عسكر الإفرنج إلى لجاة حوران للاعتصام بها ، ونمى الخبر إلى نور الدين فرحل ونزل على عين الجر من البقاع ، عائداً إلى دمشق ، وطالبا قصد الفرنج والعسكر الدمشقى . وكان الإفرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقى قد قصدوا بصرى لمضايقتها ومحاربتها فلم يتهيأ ذلك لهم ، وظهر إليهم سرخاك واليها فى رجاله ، وعادوا عنها خاسرين . وانكفأ عسكر الإفرنج إلى أعماله ، وراسلوا مجير الدين ومؤيده يلتمسون باقى القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق ، وقالوا لولا نحن ندفعه ما رحل عنكم .

قال أبو يعلى[1] : وفى هذه الأيام ورد الخبر بوصول الأسطول المصرى إلى ثغور الساحل فى غاية من القوّة ، وكثرة من العِدّة والعُدّة . وذكر أنّ عدة مراكبه سبعون مركبا حربية مشحنة بالرّجال ، ولم يخرج مثله فى السنين الخالية ؛ وقد أنفق عليه فيما حكى وقرب ثلثمائة ألف دينار . وقرب من يافا من ثغور الفرنج ، فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به ، واستولوا على عدّة وافرة من مراكب الروم والإفرنج . ثم قصدوا ثغر عكا ففعلوا فيه مثل ذلك ؛ وحصل فى أيديهم عدّة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية ؛ وقتلوا من (٦٦ ب) حجّاجهم وغيرهم خلقا عظيما . وقصدوا ثغر صيدا و بيروت وطرابلس ، وفعلوا فى الكل مثل ذلك . ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الأسطول المذكور لإعانته على تدويخ الفرنجية . فاتفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده إليها لمضايقتها . وحدّث نفسه بملكها ، لعلمه بضعفها ، وميل الأجناد والرعيّة إليه ، و إشارتهم لولايته وعدله .

قال[2] : وذكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كالى ثلاثين ألفاً مقاتلة . ثم رحل ونزل بالدلهمية من عمل البقاع ، ثم نزل بأرض كوكبا غربى داريّا ، ثم نزل بأرض داريّا

(١) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣١٥ . وهو اقتباس حرفى .

(٢) نفس المصدر .

إلى جسر الخشب ، ونودى فى البلد بخروج الأجناد والأحداث إليه ، فلم يظهر منهم إلاّ اليسير ممن كان يخرج أولا . ثم تقدم ونزل القطيعة وما والاها ودنا منها بحيث قرب من البلد ، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير زحف ولا شدّ فى محاربة ، تحرجا من قتل المسلمين ؛ وقال لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدى بعضهم بعضاً ، وأنا أرفِّهُهُم ليكونوا بذل نفوسهم فى مجاهدة المشركين .

قال[1] : وورد الخبر إلى نور الدين بتسلم نائبه الأمير حسن المنبجى مدينة تل باشر بالأمان فى الخامس والعشرين من ربيع الأول ، وورد مع المبشر جماعة من أعيان تل باشر لتقرير الأحوال . وتردّدت المرسلات فى عقد الصلح مع أهل دمشق على شروط واقتراحات ، وتردّد فيها الفقيه برهان الدّين على البلخى والأمير أسد الدين شيركوه ، وأخوه نجم الدّين أيوب . وتقارب الأمر فى ذلك إلى أن استقرت الحال على قبول الشروط المقترحة ووُثّقت الأيمان من الجهتين على ذلك والرّضا به فى عاشر ربيع الآخر . ثم رحل نور الدّين من الغد طالبا ناحية بصرى للنزول عليها ، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب ، لأنّ واليها سرخاك كان قد شاع خلافه وعصيانه ، ومال إلى الإفرنج فاعتضد بهم ؛ فأنكر نور الدّين ذلك عليه وأنهض إليه فريقا وافراً من عسكره .

قلت : ولابن منير فى نور الدّين يذكر وقعة الجولان وغيرها قصيدة أولها :

ما برقت بيضك فى غمامها ... إلاّ وغيث الدّين لابتسامها

يقول فيها :

محمود المحمود جداً وجداً ... أرخص جلد الأرض حكم عامها
مَلْكٌ أزال الرّوم عن صلبانها ... دفاعُه وكبَّ من أصنامها[2]
جال على الجولان أمس جولة ... صفّرت الأدحىّ من نعامها
والجون قد جرّعها أجونه ... وفَلّ مشحوذاً من اعتزامها

(١) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣١٥ .
(٢) هذا البيت من ق ٦٣ ا . وهو مستدرك فى ك بهامشها .

وشـــــدّ فى القِدّ له مليكها قود عتود القوط فى شبامها[1]
وفى الرّها صابت له سحابة صاروا جُفَاءً خف فى التطامها
وهب فى هاب له عواصف تجهمتها الهِفّ من جهامها[2]
وكفرٌ لأنّا لاث فى جبينها لثم ظبا أبت على أشامها
وقارئـع يرفضّ تحت وقعها نظم الثريا فى فضا مصامها
(٦٧ ا) فساعة البيض إذا عدّدها سوط عذاب صب فى أيامها
وَاعجبا لمُصب الشّرك التى لم يعصب الرشد على أحلامها
حكمة اســتواؤها فى غيّها فى نقص ما أحصد من إبرامها
مظفّر الرّايات والرأى إذا الحربُ مشت تعثُر فى خطامها
عدت به حــــدّ العلاءهم هن النجوم أو نواصى هِمَمْ
جلت له الدّنيا على زبرْجها عفوا فلم تلو على خطامها[3]
رأته وهو اللّيث يدمى ظفره أنفذ فى المشكل من حكامها
فتوّجتْه العزّ فى مرتبـــة تمنطق الجوزاء فى نظامها
غضبان للإسلام لا يغيظه اشـ تسلامها للقسر من إسـلامها
خط على مثل أب طاعت له الـ آفاقُ واستشرف لاغتشامها[4]
تصرف الدّنيا على إيثاره عراقها مُســتردفا بشامها
لولم يكن دون منى فات المنى واقعـــد الفائز من قوّامها
وامتك ماء مكة رواضـــع يقصر باع النّجر عن فطامها[5]

---

(١) القَـوْط : القطيع من الغنم أو مائة منها . والشّبام : نبت ، وبالكسر عود يعرّض فى فم الجدى لئلا يرتضع أمّه ؛ وبقرة شَبِمة : سمينة . القاموس المحيط .

(٢) الهِـف : الزرع يؤخر حصاده فينتثر حبه ؛ وهفت الريح : هبت فسمع صوت هبوبها . نفس المصدر .

(٣) الزبرج : الزينة والذهب والسحاب الرقيق . لسان العرب .

(٤) غشمه يغشمه : إذا احتطب ليلا فقطع كل مايقدر عليه بلا نظر وفكر . القاموس المحيط .

(٥) امتَكّه ، ومكّه ، وتمككه ، ومكمكه : مصه جميعه : القاموس المحيط .

وصار كالجزر الجسار وخلا ... من أهله الأشرف من مقامها
ودونها لا زلت ترقى في حمى ... من مؤلم الأرواء أو لمامها
تلبس بيت الله وشى يمن ... يقرأ آياتك من أعلامها
فإنما الدين رحى قطبتها ... وبازل مسكنت من زمامها
أمت بنا الآمال منك كعبة ... سلم الليالى آية استسلامها
وأرشفتنا بك ثغر نعمة ... لا نسأل الله سوى دوامها

وقال أيضاً يمدحه:

بجدك أصحب الجد الحزون ... وأطلع فجره الفتح المبين
وفى كنفيك سولت الليالى ... وفارق طبعه الزمن الخؤون
ومنك تعلم القطع المواضى ... وقد زينت بها الحرب الزبون
وأنت السيف لم تمسسه نار ... ولا شحذت مضاربه القيون
ترقرق فوق صفحته الأمانى ... ويقطر من غراريه المنون
وقبلك ما سمعت بذى فقار ... يبير الفقر كان ولا يكون
ولا غيث سماوته سرير ... ولا ليث وسادته عرين
ولا قمر له الهيجاء هال ... ولا تاج له الدنيا جبين
جبلت ندى وعفواً وانتقاما ... وملاكل مجبول وطين
وملكك عم الأقطار قطراً ... فأمرعت الأواعث والحزون[1]
تلألأ تحته غرز الليالى ... إذا الأيام عند سواك جون
وأنت أقمت للجدوى مناراً ... يبين لشائميه ولا يبين
وعندك مشرب النعمى زلال ... إذا عبقت مشاربها الأجون

---

(١) الوعث: المكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام؛ والحزن والحزنة: ماغلظ من الأرض وجمعه حزون. القاموس المحيط.

تحكّم فى عطائك كل عاط وقد شِيدت مِن المَنْع الحصون
لقد أشعرت دين الله عزًّا تتيه له المشـــــاعر والحجون
(٦٧ ب) وقام بنصره والناس فوضى قوىٌّ منك فى الجُلّى أمين
رجعت ملوكهم وهم خيوف أســـير فى صفادك أو كنين
فبرنست البرنس لقاع خسف وجُرّع مرّ جوسك جوسلين
إذا ما الفعل عُلّ تلاه حذف يتاح لمنتهاهُ أو ســــكون
غدوا حتى غزوتهم ففنى الصَّ (م) ـدى فى أرضهم حف القطين
وكم عبر الصليبُ بهم صليبا فردّته قناك وفيـــــه لين
وما خطرت بدار الشرك إلاّ هوى النّاموس وارتفع الأذين
ملأت عظام ساحِهم عظاما فكل ملاً لقوك به جرين[1]
بإنّب فى القنا تجرى نجيعا[2] كأن عيون أكعُبها عيون
وبين حِرار صرخد ذُبْنَ حَرًّا له فى كل حبحبة كمين
وفين من الغُرَيْمة فى عرام له فى جونها الأقصى وجون[3]
وكم حرمٍ لحارم غادرته ودارته لمنســـفها درين
وفى شعراء قُورُس صفن شعراً تدار على غراريه اللجون
وقائع صِرْن فى صنعاء طيرا يوقعها على عدن عدون
نماك أب إذا عدّ انتسابا تراقى مصعداً والناس دون
شمالاً كان أملاكُ البرايا وقد قيسوا به وهو اليمين

(١) الملا : الصحراء ؛ والملاة : فلاة ذات حرّ وسراب ، والجمع ملاً . والجرين : البَيدر ، وما طحنته من الحبّ . القاموس المحيط .

(٢) وفى ق ٦٣ ب : وبينهم القنا تجرى نجيعاً .

(٣) الجون : النبات يضرب إلى السواد من خضرته ؛ والوجون : مصدر وَجَنَ : رمى . القاموس المحيط .

قضى وقضاؤه فى الأرض حتم[1] … وطاعـــة أهلها لبنيه دين
لهذا اليوم تُنتخب القوافى … ويذخر نفسه الدرُّ المصون
ونحن أحق منك بأن نهنا[2] … إذا قرّت برؤيتك العيون
سلمت لنا ، فإنا كلّ صعب … نوازيه بأن تبقى يهـــون
ترابطنا بعقـــوتك التهانى … ويغبطنا بدولتك القرون[3]

فصـــل
فى باقى حوادث هذه السنة

قال أبو يعلى[4] : وورد الخبر من ناحية ديار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهد مثله فى حديث ولا قديم ، بحيث أحصى المفقود منهم فى سنة خمس وأربعين (فبلغ[5]) سبعة آلاف شخص ، وفى سنة ست وأربعين مثلهم ، فصار الجميع أربعة عشر ألفا . وخلت دور كثيرة من أهلها ، وبقيت مغلقة لا ساكن فيها ولا طالب لها .

قال[6] : وفيها فى ثانى جمادى الآخرة توفى القاضى السديد الخطيب أبو الحسين ابن أبى الحديد خطيب دمشق ، وكان خطيبا بليغا صيّتا عفيفا ، ولم يكن له من يقوم مقامه فى منصبه سوى أبى الحسن الفضل ، ولد ولده ، وهو حدث السن ، فنصب مكانه وخطب وصلى بالناس ، واستمر الأمر له ومضى فيه .

قال[6]: ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وافت الليلة الثالثة عشرة من جمادى الآخرة

(١) فى ق ٦٣ ب : فصار قضاؤه فى الأرض حتما .
(٢) بتسهيل الهمزة ، كما فى ق ٦٣ ب . وفى ك : نهنى .
(٣) العقوة كالعقاة : شجرة ، وما حول الدار ، والمحلة . والقرون : جمع قرن وهو السيد والرئيس . القاموس المحيط .
(٤) اقتباس حرفى من ذيل تاريخ دمشق : ٣١٧ .
(٥) ما بين القوسين ساقط من ق ٦٤ ا .
(٦) اقتباس حرفى من ذيل تاريخ دمشق : ٣١٧ .

اهتزت الأرض لها ثلاث رجفات فى أعمال بُصرى وحَوْران وما والاها من سائر الجهات ، وهدمت عدّة وافرة من حيطان المنازل ببصرى وغيرها ، ثم سكنت بقدرة من حركها سبحانه وتعالى .

قال[1] : وفى ثانى عشر رجب توجّه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب فى خواصه ووصل إليها ، ودخل على نور الدين صاحبها فأكرمه ، وبالغ فى الفعل الجميل فى حقه ، (٦٨ ا) وقرّر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه فى دمشق ، ورجع إلى دمشق مسروراً سادس شعبان .

قلت : وفى ذلك يقول القيسرانى :

وفت لك الدنيا بميعـادها   باذلة أفلاذ أكبـادها
وأوفدت غرّ سـلاطينها   عليك فى همة أنجـادها
تبغى سناء أقصدت قصـده   طائعة طاعة أجنـادها
خاضعة تعتـدّ أعمارها   يوم التلاقى يوم ميـلادها
شامت دمشق بك بَرْق العلا   فأرسلت أصـدق روّادها
رأتك نور الدّين نار الهـدى   قـد أشرق الأفق بإيقادها
فيممت منـك حيا مزنة   بيض الأيادى ورد ورّادها
فاسأل مجير الدين عن خُبره   أوردها محمـود إيرادها
تبوأت من عزها قبـة   سُمر القنا أطناب أوتادها
تنافس الناس على دولة   فتّ بها أعين حسادها
يغدو المُعادى كالموالى لها   فَوالِها إن شئت أو عادِها
يا ملكا تُزهى بأسمـائه   منابر تسـمو بأعوادها

(١) اقتباس حرفى من ذيل تاريخ دمشق : ٣١٧ .

وتأخذ الأسمــــاع أوصافه　　عن جُمع الدّنيـــا وأعيادها

كمْ المعالى فيك مِن رغبةٍ　　تفنى الأمانى دُون تعدادها

لك المساعى الغرّ ، ياجا معاً　　مِنْ طرفيها بين أضـدادها

يغشى الوغى[1] أفرس فرسانها　　وفى التّقى أزهد زُهّادها

فأنت نُسْكاً غيثُ أبْدَالهـــا　　وأنت فتكاً ليثُ آســـادها

فى أمّةٍ أنت حِمَى دِينهـــا　　حيناً ، وحيناً شمسُ عُبّـــادها

يطوى بك العمرُ إلى غايـةٍ　　حسبُك تقوى اللهِ مِن زادها

هذا ، وكم مِنْ ســـنّةٍ بِدْعةٍ　　أعدمْتَها من بعـــد إيجادها

مآثرٌ أوعـــدت أوراكَ　　تكفّل النّظم بإنشادهـــا

قال أبو يعلى[2] : وفى أواخر شعبان أغار بعض التّركمان على ظاهر بانياس ، فخرج إليهم واليها من الإفرنج فى أصحابه ، وظهر التّركمان عليهم فقتلوا وأسروا . وفى رمضان قصد بعض الفرنج ناحيةً من البقاع وأغاروا ، فأنهض إليهم والى بعلبك رجاله ، فلحقوهم وقد أرسل الله عليهم من الثّلوج المتداركة ما ثبطّهم ؛ فاستخلصوا منهم الغنيمة[3] .

قلت : والى بعلبكّ هذا هو نجم الدّين أيّوب ، والد صلاح الدّين يوسف .

قال ابن أبى طيّ : فى سنة ستّ وأربعين أغار التّركمان على بانياس ، فخرج أهل بانياس من الفرنج ، واستنقذوا ما أخذوه ؛ فعاد التّركمان عليهم فكسروهم . واتّصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعل التّركمان لِمكان الهُدنة المنعقدة بينه و بين الفرنج[4] ؛ فأنفذ عسكراً إلى التّركمان استعاد منهم ما أخذوه . واتّصل خبر التّركمان بالفرنج فجيشوا وخرجوا فى جيش عظيم ، وشنّوا الغارة على البقاع والنّاس غافلون ؛ فامتلأت أيديهم من الغنائم

(١) فى ق ٦٤ ا : الورى . وهى لاتناسب المعنى .

(٢ ، ٣) مابين هذين الرقمين اقتباس حرفى من ذيل تاريخ دمشق : ٣١٧ .

(٤) تم عقد هذه الهدنة بعد فشل الحملة الصليبية الثانية . وقد نقضها الفرنج سنة ٥٤٤ ثم نجحت دمشق فى حملهم على تجديدها فى نفس السنة . انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٤ .

والأسارى . واتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدّين أيّوب وهو فى بعلبك وعنده جماعةٌ من عسكر دمشق وأصحابه ، فقدم عليهم ولد شمس الدولة[1] ، فخرج وأوقع بالفرنج . (٦٨ ب) واتّفق أنه كان قد أصاب الفرنج ثلج عظيم فهلك أكثرهم ، وجاء شمس الدّولة وهم متورّطون فقتل فيهم مَقْتَلةً عظيمة ، وخلّص من كان عند الفرنج من الأسارى .

قال : وفى هــذه السنة فارق صلاح الدّين والدَه ، وصار إلى خدمة عمّه أسد الدّين بحلب ، فقدّمه بين يدىْ نور الدّين ، فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً .

قال أبو يَعْلى[2] : وفى ثانى شوّال ، وهو الثّانى من شباط[3] ، وافت قُبيل الظّهر زلزلةٌ اهتزّت لهـا الأرض ثلاث هزّات هائلة ، وتحركت الدّورُ والجُدران ، ثم سكنت .

قلت : وفى هذه السنة ، فى غُرّة جمادى الأولى ، كتب أحمد بنُ منير من حماة إلى نور الدّين قصيدةً يهنّئه بوصول الخلع إليه من بغداد من عند الخليفة ، على يد الشّيخ شرف الدّين ابن أبى عصرون ، ويصف الفرس الأصفر ، الأسود القوائم والمعارف ، والسّيف العربىّ . أوّلها :

لِعُلائك التّأييدُ والتأميـــــل ولمُلْـكك التّأييد والتّكميل
أبداً تَهُمّ وتقتنى ، فتنال ما عزّ الورى إدراكُه ، وتُنيل
إمّا كتابٌ يستقل به الـكتا ئب ، أو رسولٌ للنّجاح رسيل
لك من أبى سعد زعيم ســعادة فمن تفاءل فيـك ليس يفيل[4]
نعم الحســامُ ، جلوْته و بلوته يرضيك حين يصلُ ثم يصول

---

(١) هو المعظم شمس الدولة توران‌شاه ويلقب فخر الدين . وله نشاط حربى أيام سلطنة أخيه صلاح الدين الأيوبى إذ فتح اليمن سنة ٥٦٩ بعد أن اشترك فى إخماد ثورة السودانيين وفى التقدم نحو النوبة . وقد عاد إلى دمشق سنة ٥٧١ واستخلفه أخوه بها مدة قصيرة . توفى توران‌شاه بالاسكندرية سنة ٥٧٦ ثم نقل جثمانه إلى دمشق حيث دفن بها بمدرسة أخته ست الشام .

(٢) فى ذيل تاريخ دمشق . ٣١٨ . وهو اقتباس حرفى .

(٣) وهو شهر فبراير .

(٤) فين : سنّ ؛ وفال رأيه يفيل فيلة وفيولة : أخطأ وضعف . انظر القاموس المحيط ، وأساس البلاغة .

سهم تُعوّد فى الكنانة عودُه ويقصّر المطلوب وهو طويل
سدّدته فمضى وقرطس صادراً كالنّجم ، لا وَهَلٌ وَلاَ تهايل[1]
فثنا القلوب إلى ولائك حُوّلٌ منه بما يجنى رضاك كفيل[2]
وأقام ينشر فى العراق ودجلةٍ آياً تأوّلها لمصر النّيل
وكساك مِنْ رأى الخليفة جبةً لا النّقص يُوهيها ولا التقليل
كنت الشّريفَ ، أفضت فى تشريفه ماء عليه من سَنَاك دليل
أليُوسفٍ لما طلعت مقرطقا طمثت حصانٌ واستخف أبيل[3]
أم عنْ سليمان يفرج ضاحكاً سجف الرواق وضعضع الكيّول[4]
ويُملّكُ فى السرّج ، أمْ ملك سطت لبهائه عقلٌ وتاه عقول !
وبرزت فى لبس الخلافة كالهلا ل ، جلاه فى حلل الدجا التهليل
خِلَعٌ خَلَعْن على القلوب مسرّةً سدكاتها التعظيم والتّبجيل[5]
نثرت نُضاراً جامداً أعلامها وتكادُ تجرى رقّةً وتسيل
لقضى لها أنْ لاَ عديلَ لِفَخرها ربٌّ براك فما تلاك عديل
أنت المهنّد ، مُنذُ سلّتْهُ العُلا لم يخلُ مِن مُهج عليه تسيل
مُذْهَرٌّ قائمهُ الإمامُ تألقت غررٌ شُدخن لمُلكه وحجول

---

(١) قرطس : أصاب القرطاس ، وهو كل أديم ينصب للنضال . ووهل كفرح : ضعف وفزع . ووهل إلى الشيء كفتح ووعد : ذهب وهمه إليه . القاموس المحيط .

(٢) الثناء ، كالمثناة والثناية : حبل من صوف أو شعر أو غيره . وثناء البعير ، ككتاب ، عقاله . القاموس المحيط .

(٣) قرطقته فتقرطق : ألبسته إياه فلبسه . وهو معرب . والأبيل رئيس النصارى ، أو الراهب ، أو صاحب الناقوس ؛ من تأبل إذا ترك النكاح ولم يقرب النساء . وتقول : فلانة لو أبصرها الأبيل لضاق به السبيل . أساس البلاغة ؛ القاموس المحيط .

(٤) الضعضع : الضعيف من كل شيء والرجل بلا رأى وحزم . والكيول آخر صفوف الحرب . وفى الحديث : « فلعلك إن أعطيت سيفا أن تقوم فى الكيول . » أساس البلاغة ، ولسان العرب .

(٥) سدك به كفرح سدكا ، بسكون الدال وفتحها : لزمه . والسدك ، ككتف : المولع بالشيء أو الملازم له .

والَيْتَ دولتَــــه فتهتَ بِدَولةٍ مُتَكَلّلٍ بصعيــدها الإكليل
ونصرتَهُ ، فحَلاكَ أبيضَ ، دونه صَرْفُ الزّمان إذا استكلّ كليل
قُلِّدتَه ، وكِلَا كُمَا مُتَلَهْــذِمٌ عَضْبٌ ، فزَانَ الغمدَ المسلولُ
وحَبا رِكابك حين قرّ بزحفه الـ ـقرآنُ واستخْذَى لهُ الإنجيل
(١٦٩ ا) بأقبَّ أصفرمشرف الهادى ، له الـ (م) حُجيل لون واللّما تحجيل (١)
قسم الدجايِّين الغدائر والشّوى واغتام رونقَه الأصيلَ أصيل
وتقاسم الرّاؤُوه تحتك أنّه حيزوم يصرفُ عطفهُ جبريل
تختال فى حبك الحُلَى مخيّلا أن الشّوامخ للبدور خيول
مُرْخَى الذّوائب كالعروس، يزينُه طرْفٌ بأطراف الرّماح كحيل
تتصاعق النّعرات تحت لَبانه إن شبَّ زفْرٌ وَاسْتَجشَّ صهيل
لم يَحْبُ مثلَكَ مثلَه مُهد ، ولم يشلل على سرقى سواه شليل (٢)

وأنشده فى هذه السّنة أيضاً بحمص قصيدة منْها :

الدّهرُ أنت ، ودارُك الدُّنيا ، وَمَن فى العَدِّ بعدُ مؤمِّل وحَسُود
وأزمّةُ الأقدار طوعُ يديك ، والـ أيّامُ جندُك ، والأَنامُ عبيد
فُتَّ الْوَرَى ، وعقدتَ ناصية المدى بمذمّر الشّعرى ، فأين تريد ؟ !
تالِ أباكَ ، فهل سليمانٌ يُرى فى الدَّست مهّد مُلكه داود
جَلَّى وسُدْتَ مصلّيًا ، لا يُرفع الـ ـمَعْدُومُ مالم يَشْفع الموجود
لمْ يَختَرِم جدٌّ نماك ولا أبٌ إنّ النّباهة فى الخليف خلود
شمخت منارُك فى اليفاع ، وأمّها من لم يسُدْ ، فَأرَتْه كيف يسود

(١) أقب : عال مرتفع . القاموس المحيط .

(٢) الشليل : الثوب يلبس تحت الدرع ، ومسح من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير من وراء الرحل . والسرق : الحرير عامة ، أو شقق الحرير الأبيض ، أو أجود الحرير . لسان العرب .

وهَبَبْت للإسلام وهو مصوّح ... فاهْتزّ أعضابٌ[1] ورقّ نجود
وفثأت جمرة صاليه بصيْلم ... نَصَع الأجنةَ يومُها المشهود[2]
خطمْتهم فوق الخطيم لوافحٌ ... نفس الأرين لوأرهنّ برود[3]
ورُموا على الجولان منك بجولة ... توئيدها نسر الضلال وئيد[4]
وَلَحَا عظامهم بعَرْقَةَ عارقٌ ... ما زالتَ تمحض جوّه فتجود
وشلْتَ بالرّوح السّروج وفوقها ... زرعٌ تحصِّدُه الرّماح حصيد
وعلى عَزاز عَنَوْا وثلّ عروشهم ... ملكٌ مقيد من عصاه مقيد
وَ بِتَلٌّ باشِرَ باشُروك فمافسوا ... أهب الأساود حشوهنّ أسود[5]
أوْدَوْا كما أوْدى بعادٍ غَيُّها ... وعقوا كما استغوى الفصيل ثمود[6]
إنْ آلموا عقراً فإنّك صالح ... أو آلموا غدراً فإنك هود
وزّعتهم ، فبكلّ مهبط تلْعَةٍ ... خدٌّ به من وازع أخدود
وعصبتهم بعصائبٍ ملء الملا ... شتّى ، وإنْ خلّ البسالة عود
آثارها محمودةٌ ، وأثارها ... مشهودةٌ ، وشـــمارها محمود
لَبِستْ من اسمك في الكريهة ملبساً ... يَبْلَى جديدُ الدّهر وهو جديد
وقصيرة الآجال ، طوّل باعها ... بوع يســـامى هامها وقدود
مطْرورةُ الأسلاب مُذْ هزّعتها ... تاه المدى وتبخْتَرَ التّوحيد

---

(١) في ق ٦٥ أ : أعضاب .

(٢) الصيلم : السيف . وخرج القوم الى المناصع : الى أماكن المبارزة . ونصعوا اليها : برزوا . القاموس المحيط .

(٣) الأرين : النشيط ، وفعله أرن كفرح . واستوأرت الإبل : تتابعت على نفار . ووأره يئره : أفزعه . القاموس المحيط .

(٤) الوئيد : الصوت الشديد أو العالى . نفس المصدر .

(٥) العفس : شدة سوق الإبل ، ودلك الأديم ، والضرب على العجز بالرجل . نفس المصدر

(٦) عقا الأمر عقوا : كرهه .

أشْرَعْتَها ، فعلى شريعة أحمدٍ ... مِمّا جنته بوارقٌ وعقود
ولكم نثرت نظيمها فى موقف ... تغريد صالى حره التغريد
يجلو سناك ظلامَهُ ، ويحُلّ ما ... عقدت قناهُ لواؤك المعقود
فى هبوة زحم السماء رواقُها ... والأرض ترجُف تحته وتميد
ضربتْ مُخَيَّمَهَا ، فكان كُمَاتُها ... أو تادَهُ القُصوى وأنت عمود
فى كلّ يوم من فتوحك صادحٌ ... هزِجُ الغِناء ، وطائرٌ غِرّيد
(٦٩ ب) تهدى لمانة(١) كأسه فرغانة(٢) ... وتسيغ زبدة ما شداه زبيد(٣)
فغِرار سيفك للأحابش محبس ... ومُثار نقعك للصّعيد صعيد
لا تَعْدَمنْ هـذا المقلّد أمّة ... مُلقى إليـــه لرعْيها الإقليد
الوِرد قر ، والمسارح رَحبةٌ ... والرِّفْدُ مدٌّ ، والظّلال مديد
والعيش أبلجُ مشرق القَسَمات ، وال ... أشجار غرٌّ ، والأصائل غيــد
والمُلكُ ممدودُ الرّواق ، منوّر ال ... آفاق ، وضّاح المنى ، محسود
فى دولة مُذْ هَبَّ نشر رَبيعها ... نُشِر الرّفاتُ وأثمر الجلمود
محمودَة الآثار ، محمودِيَّة ... كلّ المواسم عنـــدها تعييد

وقال يهنئه بليلة الميلاد ويصف النّازلين فى الجبل من قلعة حلب قصيدة منها :

هُنّيت روزى فذاك صومك وال ... ميلاد جا والعيد فى نسق
فذاك أنحلت فيـــه كل يد ... وذاك أخملت فيه كل تقى
وجهٌ كصدر الحسام تصبُوله ال ... عَين وينقد(٤) القلب من فرَق

(١) بين الرقة وهيت من أعمال الجزيرة ، وتشرف على الفرات : معجم البلدان : ٦ : ١٠٢ .
(٢) مدينة وكورة واسعة ببلاد ماوراء النهر متاخمة لبلاد التركستان ، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخا . معجم البلدان : ٦ : ٣٦٤ — ٣٦٥ .
(٣) قرية باليمن من بلاد ساحل المندب كانت تسمى الحصيب ، ثم غلب عليها اسم ماء قريب منها يعرف بزبيد فأصبحت لاتعرف إلا به . معجم البلدان : ٤ : ٢٧٦ — ٢٧٧ .
(٤) نقد الطائر الفخ : نقره ، ونقد الصبي الجوزة بأصبعه : نقرها كذلك .

ومقلة شـــوقها ليَقْظتها شوقٌ لحسّادها إلى الأرق
ومُرتقى تَعجبُ السماء له إذا استطالت إليه : كيف رُقى ؟
توّجت شهباءها بشُرقة مُشرفة شُهْبُها على الأفُق
جو تهاوى مِنـــه كوكبه طرفه طرف رجوم مُســترق
فَوارسٌ تذهلُ الفوارس أن تهافتت من أرشاقها الرّشق
من راكضٍ في الهواء أهوى من الـ ـفتح مجرّ من تحته لبَق
شاو من الحصر لو تحاوله الـ ـخُضر لزلت عن موطئٍ زُلَق
يقول مَن دينه الفروسة : ما لاقك إلاّ ضرب من الإلق[1]
بَدائعٌ تغبِـطُ السماء بها الـ أرض وتُذكى الإشفاق فى الشفق
فى دولة جمت إيالتهـــــا من بدد الحسن كل مفترق
تَزَرَّرُ أطواقُهـــا على ملِك مكتفلٍ رزقَ كلّ مرتزق
محمودٌ اسماً وَمِيسماً ونَدًى واعتصب الدم كل مرتفق
طبّق طوفانُه ، فلست ترى إلاّ مغيثا مشفيٍ على غرق
يا بحرُ ، لاَ خلق تدّعى شبهاً فات المدى ما حَويتَ من خُلُق
ملكك هذا الّذى تمـــلاّه صباه يجرى والدهر فى طلق

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسائة

قال أبو يعلى[2] : وورد الخبر فى المحرّم بنزول نور الدين على حِصْن أنطرسوس[3] فى

(١) لاق به : لاذ . والإلق : الذئب . القاموس المحيط .
(٢) اقتباس حرفى من ذيل تاريخ دمشق : ٣١٨ .
(٣) أنطرسوس وأنطرطوس : من سواحل بلاد الشام ، يذكر ياقوت أنها كانت آخر أعمال دمشق وأول أعمال حمص ؛ ثم يقتبس الدمشقى قائلا إنها كانت من أعمال طرابلس ؟ وهى تطل على البحر قريبا من عرقة ، وبينهما ثمانية فراسخ . معجم البلدان : ١ : ٣٥٩ . ويوافق Stevenson الدمشق وأبا يعلى إذ يعتبرها من أعمال طرابلس . انظر The Crusaders in the East, P. 171:

عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الإفرنج . وطلب الباقون الأمان على النّفوس فأجيبوا إلى ذلك ؛ ورتّب فيه الحفظة ، وعاد عنه ، وملَك عدّةً من الحصون بالسّبْي والسّيف والإخراب والإحراق والأمان . قال : وورد أيضاً ظفر رجال عسقلان بالإفرنج المجاورين لهم بغزّة ، بحيث هلك منهم العدد الكثير وانْهزم الباقون .

قلت : وقرأت في ديوان ابن منير يمدح نور الدّين ويهنّئه (١٧٠) بفتح أنطرسوس ويحمور[1] وعوْده عنهما قصيدة منها :

أبداً تُباشر وجه غزوك ضاحكا ... وتؤوب منه مؤيّداً منصورا
تدنى لك الأمل البعيدَ سَـوَاهِمٌ ... بحمت أهلّتهــا وَكُنّ بدورا
مثل السّهام ، لو ابْتغى ذو أرْبعٍ ... في الجوّ مُطّلباً لـكُنّ طيورا
نبذت علائقها بحمصَ وأعلقت ... سـحراً بعرقَ عرقه الأظْفورا
وعَدوْن صافيثاء لاح شوارها[2] ... قد أتلعت عُنقاً إليك مشيرا
القلب أنت ، فإن تعامى عن هدًى ... عُضْوٌ أهَابَ بِهِ فعاد بصـيرا
عرفوا مكانك والظّهيرة بينهم ... يغْرى بياض أديمها الديجورا
أين الذّبالُ من الغزالةِ ، أشرقت ... وجهاً وطبّقت البسيطة نورا
غضبانُ أقسم لا يَشيم حسامه ... والأرض تحمل في الـكُفور كَفورا
غسل العواصم أمس من أدرانهم ... واليوم ردّ به السـواحل بورا
لم يُبْقِ بين الحولتَين[3] وآمِدٍ ... وِتراً لِمُضْطغنٍ ، ولاَ مَوتورا
إخلَى ديار الشّرك من أوثانها ... حتى غدا ثالوثُهن نـكيرا

(١) قريبة من أنطرسوس . انظر: The Crusaders in the East, P. 171

(٢) الشوار : الحسن والجمال والهيئة ، ومتاع البيت . القاموس المحيط .

(٣) هناك حولتان : الأولى بين حمص وطرابلس وكانت تتبع بارين مرة وحمص مرة أخرى ؛ والثانية من أعمال دمشق وتشمل قرى كثيرة . معجم البلدان : ٣ : ٣٦٨ — ٣٧١ .

رفع القُصور على نَضَائِدِ هامِهِم ، من بَعد ما جعل القصور قُبورا
بشواجنِ الأليباط تقطو في الظِّلا ، م قطًا ، وتهوى في الصّباح نشورا[1]
غادرت أنطرسوس كالطرس امَّحى ، رسمــــاً وحمّر درعها مجمورا
وهي الرّماد لفتنة كانت على الـ ، إسلام أحكم كسره إ كسيرا
هتمت طرابلسا فأصبح ثغرها الـ ، بَسّـــامُ من عزّ الثُّغور ثَغيرا
إقليدهـــا كانت وقد أنطيته ، واسأل به ممّن دهَتْـــه خبيرا
إن الأولى أمِنوا وقاعك بعدها ، غُرّوا وقد ركبوا الأغَرّ غرورا
ألقِ العصا فيمن أطاع ، ومن عصى ، منهم ، ودَمّرْ أرضهم تدميرا
لا يُلهِهِم أن قد مَنَنْتَ ، وشُنّها ، شعواء تُصلى الكافرين سعيرا
با كِرْ بركز قنًا تُنسَف أسّهـــا ، والخيل صوّرْ كي تزيرك صُورا
وتُريك لامعة التّريك بساحة الـ ، أقصى مُطهّرة لهـــا تطهيرا
أوَلَستَ من قوم إذا هزُّوا القنا ، فتلوا معاصمهم لهـــا تسويرا[2]
وإذا همُ خَطَبُــوا اليراع عَزِيزةً ، ساقوا الشّفار على المهـــار مهورا
ألقى قسيامم إليـــك أزمّةَ الـ ، مُلك المطلّ على النّهى تأثيرا
ضحكت لك الأيامُ ، واكتأب العدا ، قلقـــاً ، فجئت مبشّراً ونذيرا

(١) الليطة قشر القصبة ، والقوس ، والقناة جمعها ليط ، ولياط ، وألياط .. وقطا : إذا ثقل مشيه أو قارب فيه . القاموس المحيط .

(٢) وردت العبارة الآتية في هامش ق ٦٦ ا قبالة هذا البيت : « حاشية لم يذكرها المؤلف : ذكر الشيخ شمس الدين سبط ابن الجوزي في تاريخه الذي سماه مرآة الزمان في حوادث هذه السنة ، يعني سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، قال : وحكى جدي في المنتظم عن القاضي أبي العباس بن القيداني الواسطي قال : في تاسع المحرم منها باض ديك لرجل يعرف بابن عامر بيضـــة ، وباض بازي لعلي بن حماد بيضتين ، وباضت نعامة لا ذكر معها بيضـــة . قال الشيخ شمس الدين المذكور : بيض الديك والنعام معروف ، وأما البازي فغريب جداً » . ا هـ . وهي حاشية لا صلة لها بموضوع القصيدة ، ولا بما سجله أبو شامة من حوادث هذه السنة .

لا مُلكَ إلاّ ملكُ محمود الّذى   تَخِذَ الـكتابَ مُظاهراً ووزيرا
تمشى وراء حـــدوده أحكامُه   تأتمّهن فيحكم التّقـــديرا
يقظان ، ينشر عـــدله فى دولةٍ   جاءت لِمَطْوىّ السّماح نُشورا
خلف الخلائف قائماً عنهم بما   عَيُّوا به ، ألوى ، ألدّ ، غيورا
البَرّ ، والمعصوم ، والمهدىّ ، والْـ   ـمأمون ، والسفّاح ، والمنصورا
بشروا به فمهودهم وعهـــادهم   يَمْتَحِن تحت لوائه منشـــورا

وأنشده بحلب فى هذه السّنة قصيدة أوّلها :

(٧٠ ب) الجدُ ما ادّرعت ثراك هضابُه   وتنقّلت شعوبه وشـــعابه
ملك تـكنّفَ دين أحمد كنفه   فأضاء نيّرهُ وصاب شهـــابه
فالعدل حيث تصرّفتْ أحكامُه   والأمنُ حيث تصرّمَتْ أسرابه
متهلّل والموتُ فى نيرانـــه   يُرجى ويرهب خوفه وعقابه
عقد اللّواء وسار يَقدمه ، وما   حلّت عقـــودَ تميمها أترابه[1]
أسدٌ ، فرائسه الفوارس ، والظُبا   أظفاره ، والسَّـــمهريّة غابه
طبع الحديد فكان منه جنانه   وسِنانه ، وإهابه ، وثيـــابه
وتهش إن كشب الوجوهُ ، كأنما   أعداؤه تحت الوغى أحبــــابه
نُشرت بمحمودٍ شريعةُ أحمدٍ   وأرى الصّحابة ما احتــذاه صحابه
ما غاب أصلع هاشم فيها ، ولا الـ   ـفاروق باء بخطبه خطّابه
أبناء قَيـــلة قائمون بنصره   إن أجلبت من قاسط أحزابه
صَبّحوا مُحلّقة البرنس بحالق   حرش الضباب من القلوب ضبابه
ما زال يغلب من بغاه ضلاله   حتى أتيح من الهدى غلّابه

(١) هذا البيت مستدرك فى هامش ك ، وهو مثبت فى صميم المتن فى ق ٦٦ ب .

ملقى بوحش الأصرمين ، تزيّلت   آراؤه وتزايلت آلابه[1]
دون الأُرنط سخت به نجداته   ونجـــاده وقِرابه وقُرابه[2]
سلبته دُرّة تاجه يدُضيغم   لم تنجه من بأســه أسلابه
وأتته تجلب جُوسلين جنائبٌ   هبّت نقلّ إلى القتال هبابه
أسرته لا منعت سراه وعزّه   بالقاع إن رام الورود سرابه
يمشى فيسمعه وقائع قيـــده   هزجا تقىء دماً له أندابه[3]
لا «تل باشره» ولا «كيسونه»[4]   صدّت منّى عنه ولا «عنتابه»[5]
ضمنت شقاوته سعادة صافح   غطى على إعناته إعتابه
ما زال يغدر ثم يغدر قادراً   حتّى أتاه بجـــامح أصحابه
قصر الأمانى أن يملأ عصرك الـ   إسلامُ مضروبا عليه حجابه
مجر يجر إلى الفنائم قبّـــه   وحمىً يزار على الفتوح قبابه[6]

وأنشده بحلب أيضا فى شوال من هذه السنة قصيدة منها[7] :

لقــد أوطأت دين الله عزًّا   أديمُ الشّـــعريَيْن له رغام

(١) يقال : تركته بوحش الأصرمين : أى بمفازة ليس بها إلا الذئب والغراب . القاموس المحيط .

(٢) القراب بكسر القاف : غمد السيف أو جفن الغمد . وبضمها : الخاصرة أو من الشاكلة إلى مُرّاق البطن : وقرابة المؤمن وقرابه : فراسته . القاموس المحيط .

(٣) هذا البيت ساقط من ق ٦٦ ب .

(٤) لعلها كيسوم التى يذكر ياقوت أنها قرية كبيرة بها حصن على تلعة ، قرب سميساط . معجم البلدان : ٧ : ٣٠٦ .

(٥) هى عين تاب : بين حلب وأنطاكية ، وكانت أيام ياقوت من أعمال حلب . معجم البلدان : ٦ : ٢٥٣ . ويوجد قبالة هذا البيت بهامش ك : « حاشية : قال المؤلف : المنى القدر . والله أعلم » .

(٦) المجر : الجيش العظيم ، والكثير من كل شىء . والقب : الفحل من الناس والإبل . القاموس المحيط .

(٧) فى ك : أولها ، والمثبت هنا من ق ٦٧ ا .

دعاك وقــــد تناوشت الرزايا ... له أهبًا يوزعها العـــــذام[1]
فقمتَ بنصره والنّاس فوضى ... قيـــامٌ ذمّ ما اقترفت نيام
جذبت بضبعِه من قعرِ يمّ ... له من فوق مقســـمه التطام
صـــببت على الصليب صليب بأسٍ ... قواه تحت كلـكله حـــطام[2]
وملت على مــــعاقلهم فخرّت ... ولاءً مثـــل ما انتقض النّظام
« بصرخد » و « الخطيم » وفى « عزاز » ... وقائع هزّ مشهـــدها الأنام
ولو لم تغـــترف وتشم لأمسى ... وأصبح لا عــراق ولا شــآم[3]
ويوم « بالعُرَيْمـــة » كان حتفًا ... على الإشراك أمـــقره العرام
لقُوك كأن ما ســـلّوه سيح ... وما اعتقلوه من خور ثمـــام[4]
« وهاب[5] » و « قورس » و « بكفرلاثا[6] » ... ذممت وأنت للجـــلّى ذمام
صــــدمتهمُ بأرعنَ مُرجحِنّ ... كأنّ مطار أنسُره غمـــام
وأيّة ليـــلة لم تلف فيها ... لهم طيفًا يروع به منـــام
(١٧١) بنور الدين أشرق كل عـــدل ... تعفت فى الثرى منـــه الرمام
وعاد الحقّ بعـــد كلال حدّ ... حمى من أن تراع له سُــوام
تألقّ عدله وذكت ســـطاه ... فلا حيـــفٌ يخاف ولا اهتضام
بقاؤك خـــيرُ ما يرجوه راجٍ ... وأنفـــع ما يُبلّ به أوام

(١) عذم يعذِم : عض وأكل بجفاء . وفرس عذوم : عضوض . القاموس المحيط .
(٢) يجىء هذا البيت فى ق ٦٧ ا بعد الأبيات الثلاثة التالية .
(٣) هذا البيت ساقط من متن ك مستدرك بهامشها ، وهو فى ق ٦٧ ا فى صميم المتن .
(٤) السيح : الماء الجارى الظاهر . ويقال لما يعسر تناوله : هو على طرف الثمام .
(٥) قلعة من العواصم على الحدود الإسلامية الرومية . معجم البلدان : ٨ : ٤٣٨ .
(٦) بلدة فى سفح جبل عال من نواحى حلب أهلها اسماعيلية . نفس المصدر : ٧ : ٢٦٦ .

فصـــــل

وفى هذه السنة ولد بحمص لنور الدّين ابن سماه أحمد ، وهنأه به ابن منير فى بعض قصائده ، ثم توفى بدمشق ، وقبره خلف قبر معاوية رضى الله عنه إذا دخل الحظيرة فى مقابر الباب الصغير . وقصيدة ابن منير قد تقـدم بعضها فى أوّل الـكتاب[1] ، ومنها فى ذكر المولود :

توالت الأعيادُ ، لا زلت لها تُبلى دبابيـــج البقاء وتُجِد :
الفطر ، والميلاد ، والمولود لو قابله بدر التّمام لسجـــــــــد
ثلاثةٌ تُعــــــــرب عن ثلاثة لمثلها يذكر حمداً من حمــد :
فتح مبينٌ ، وطلابٌ مُدْرِك ودولة ما تنتهى إلى أمـــــد

وله من أخرى يقول :

وجئت بأحمدٍ فلأت حمــداً موارد كان معدنُها عــــذابا
تهلّل وجه ملـكك يوم أهدت قوابـــــلُه لك الملك اللّبابا
شبيهك ، لا يغادرُ منك شيئاً سَنًا ، وحَيًا ، و بذلاً ، واشتلابا
قسيم الحمــد ، إلاّ أنّ حرفاً من اسمـك زاد المعنى منابا
ألاَ لله يومٌ قرّ عَنـــــــه وركْبٌ نصّ بالبشرى الرّكابا

قال أبو يعلى[2] : فى أواخر صفر توجّه مجير الدّين فى العسكر ومعه مؤيدّ الدين الوزير إلى ناحية حصن بُصرى ، ونزل عليه محاصراً لسرخاك[3] واليه لمخالفته وجَوْره . وأراد مجير الدّين المصير إلى حصن صرخد لمشاهدته ، فاستأذن مجاهد الدّين واليه فى ذلك ، فقال له هذا

---

(١) انظر ص ٥٠ — ٥١ من هذا الـكتاب .
(٢) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣١٩ . وهو اقتباس حرفى مع اختصار قليل .
(٣) هكذا ورد فى ك ، وكذلك فى ق ٦٧ ا وفى ذيل تاريخ دمشق . ويذكره الأستاذ جب باللام بدلا من الكاف . انظر : .The Damascus Chronicle, pp. 301, 307, 310, 313

المكان بحكمك ، وأنا فيه والٍ من قِبَلِك . وأنفذ إلى ولده سيف الدّين محمّد النائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه ، وتَلَقّى مجير الدين بما يجب له . فخرج (إليه[1]) في أصحابه ومعه المفاتيح ، وأخلى الحصن من الرّجال ، ودخل إليه في خواصّه . وسرّ بذلك (مجير الدّين[1]) وتعجبّ ، وشكره على ذلك . وعاد إلى مُخَيَّمِهِ على بُصرى وحاربها عدّة أيام إلى أن استقرّ الصّلح والدّخول فيما أراد ، وعاد إلى دمشق .

قال[2] : وفي شوّال تُوفّى الأمير سعد الدّولة أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الملحى ودفن في مقابر الكهف ؛ وكان فيه أدبٌ وافر وكتابة حسنة ونَظْم جيّد . وتقدم والده في حلب في التدبير والسّياسة وعرض الأجناد .

قال ابن الأثير[3] : وفيها توفّى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان وعهد إلى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد وخطب له ببلاد الجبل . وكان الغالب على البلاد والعساكر أيّام السلطان مسعود خاصّبك[4] بن بلنكرى ، فقام بأمر ملكشاه ، ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه ، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود ، وهو بخوزستان ، يستدعيه إليه (٧١ ب) ليخطب له بالسّلطنة وكان غرض خاصّبك أن يقبض عليه أيضاً فيخلو وجهه من منازع من السّلجوقية ، وحينئذ يطلب السّلطنة لنفسه . فلما كاتب محمّداً أجابه إلى الحضور عنده ، وسار إليه ، وهو بهمذان ، واجتمع به وخدم خاصّبك خدمة عظيمة . فلما كان الغد دخل عليه خاصّبك فقتله محمّد وألقى رأسه إلى أصحابه ، فتفرّقوا ، واستقر محمّد وثبتت قدمه ، واستولى على بلاد الجبل جميعها .

وكان قتل خاصّبك سنة ثمان وأربعين ، وبقي مطروحاً حتى أكلته الكلاب . وكان ابتداء أمره أنّه كان من بعض أولاد التركمان ، فخدم السّلطان فمال إليه وقدّمه حتّى فاق

(١) ما بين القوسين ساقط من ق ٦٧ ا .
(٢) في ذيل تاريخ دمشق : ٣١٩ ، وهو التباس حرفي .
(٣) في الأتابكة : ١٨٧ — ١٨٨ . وهو اقتباس حرفي حذفت بعض عباراته .
(٤) ترسم في ك وكذلك في ق بصورتين : خاصبك ، خاص بك .

سائر الأمراء ، واستولى على أكثر البلاد . وهو كان السبب فى أكثر الحوادث الشّاغلة للسّلطان مسعود ، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من اتّباعه لما كان يُقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم .

وذكر الوزير يحيى بن هبيرة[١] فى كتاب الإفصاح ، أنه لما تطاول على الخليفة المقتفى أصحاب مسعود وأساءوا الأدب ، ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة ، اتفق الرّأى على الدّعاء على مسعود بن محمد شهراً ، كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلّم على رِعْل وذَكْوان[٢] شهرا . فابتدأ هو والخليفة سِرًّا ، كلّ واحد فى موضعه ، يدعو سَحَراً ، من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ؛ واستمر الأمر على ذلك كلّ ليلة . فلمّا كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة ، كان موت مسعود على سريره ، لم يَزِدْ عن الشّهر يوماً ولم[٣] ينقص يوماً . ووصل القُصّادُ بذلك من همذان إلى بغداد فى ستة أيام ؛ فأزال الله يده ويد أتباعه عن العراق ، وأورثنا أرضهم وديارهم . فتبارك الله رب العالمين ، مجيب دعوة الدّاعين . قال : وكان الشّيخ محمد بن يحيى يقول لا أدلّ على وجود موجود أعظم من أنْ يُدعى فيجيب .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ففيها[٤] أخذت الفرنج ، خذلهم الله ، عسقلان وبقيت فى أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدّين يوسف بن أيّوب ، رحمه الله سنة ثلاث وثمانين ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى[٥] .

---

(١) هو أبو الحسن أمين الدولة هبة الله بن صاعد البغدادى ، وبعد وزارته أصبح يعرف بأبى المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة وقد وضع له نسب خاص بعد وزارته . تفقه على مذهب ابن حنبل ، وسمع الحديث ، وقرأ القرآن برواياته المختلفة . وله كتب فى الحديث والنحو واللغة والمنطق والعبادات . وزر المقتفى حتى وفاته سنة ٥٥٥ ثم للمستنجد حتى سنة ٥٦٠ . انظر وفيات الأعيان : ٢ : ٣٢٦ — ٣٣٣ .

(٢) قبيلتان باليمن من بنى سليم ، دعا النبى صلى الله عليه وسلم على قومهما وذلك لأنهم قتلوا القراء عند بئر معونة . انظر : تاريخ الطبرى ، تاج العروس ، المصباح المنير .

(٣) فى ك ، وكذلك فى ق ٦٧ ب : ولا . والمثبت هنا أولى .

(٤ ، ٥) ما بين هذين الرقمين تقديم مختصر بألفاظ أبى شامة لما سيجىء تفصيله فيما بعد .

قال الرئيس أبو يعلى التميمي[1] : وتواصلت الأخبار من ناحية نور الدين بقوة عزمه على جمع العساكر والتركمان ، من سائر الأعمال والبلدان ، للغزو فى أحزاب الشرك والطغيان ، ولنصرة أهل عسقلان على الإفرنج النازلين عليها ، وقد ضايقوها بالزحف إليها بالبرج المخذول ، وهم فى الجمع الكثير . واقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين فى جمهور عسكره للتعاضد على الجهاد فى ثالث عشر محرم ، واجتمع معه فى ناحية الشمال ، وقد ملك نور الدين (٢٧١) الحصن المعروف بإفليس[2] بالسيف ، وهو فى غاية المنعة والحصانة ، وقتل من كان فيه من الإفرنج والأرمن وحصل العسكر من المال والسبي الشيء الكثير . ونهضوا طالبين ثغر بانياس ، ونزلوا عليه فى آخر صفر وقد خلا من حماته ، وتسهلت أسباب ملكته . وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور الدين ، فقضى الله تعالى بالخلف بينهم والقتل ، وهم فى تقدير عشرة آلاف فارس وراجل ، فأجفلوا عنها من غير طارق من الإفرنج طرقهم ، ولا عسكر رهقهم ، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج[3] ، وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذها ، ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب ، وتفرقوا . وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالما فى نفسه وجملته حادى عشر ربيع الأول ، وعاد نور الدين إلى حمص ونزل بها فى عسكره .

وردت[4] الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عسقلان فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال ، وظفروا بعدة وافرة من مراكب الفرنج فى البحر ، وهم على حالهم فى محاصرتها ومضايقتها ، والزحف بالبرج إليهم . واستمر ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم

(١) اقتباس حرفى من ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٠ — ٣٢٢ .

(٢) على الطريق من معرة النعمان إلى حلب ، ويبعد عن المعرة بنحو عشرين ميلا . The Damascus Chronicle, p. 315.

(٣) نهر ينبع من جبل هرمون ويتجه جنوبى المدينة المعروفة بنفس الاسم . The Damascus chronicle, p. 298

(٤) يقاطع أبو يعلى الحديث عن معركة عسقلان بحديث عن دمشق واضطراباتها . فيعمد أبو شامة إلى ما تحدث به أبو يعلى عن معركة عسقلان ويضمه هنا بعضه إلى بعض ويعزل عنه ما جاء عن دمشق ليذكره بعد الانتهاء من حديث عسقلان . قارن ذيل تاريخ دمشق : ٣٢١ — ٣٢٢ .

عليها من بعض جوانب سورها ، فهدموه ، وهجموا البلد ؛ وقتل من الفريقين الخلق الكثير ، وألجأت الضرورة والغلبة إلى طلب الأمان ، فأجيبوا إليه ، وخرج من أمكنه الخروج فى البرّ والبحر إلى ناحية مصر وغيرها . وقيل إن فى هذا الثغر المفتتح من العُدد الحربيّة والأموال والميرة والغلال ما لا يحصر فيذكر . ولمّا شاع هذا الخبر فى الأقطار ساء سماعه ، وضاقت الصّدور ، وتضاعفت الأفكار بحدوث مثله . فسبحان من لا يُردّ نافذ قضائه ، ولا يُدفع محتوم أمره عند نفوذه ومضائه .

قال[1] وعرض بين الرّئيس ابن الصّوفى و بين أخويه عزّ الدّولة وزينها مشاحنات ومشاجرات ، اقتضت المساعاة إلى مجير الدّين فى جمادى الأولى ، فأنفذ مجير الدّين إلى الرئيس يستدعيه للإصلاح بينهم فى القلعة ، فامتنع من ذلك وجلس فى داره ، وهمّ بالتّحصّن عنه بأحداث البلد والغوغاء . وآلت الحال إلى تمكّن زين الدّولة منه بمعاونة مجير الدّين عليه ، وتقرّر بينهما إخراج الرئيس من البلد وجماعة إلى حصن صرخد مع مجاهد الدّين بُزان واليه بعد أن قرّر له بقاء داره وبستانه وما يخصّه ويخصّ أصحابه . وتقلّد أخوه زين الدّولة مكانه ، وأمر ونهى ، ونفّذ الأشغال على عادته فى العجز والتّقصير ، وسوء الأفعال ، والتماس الرّشا على أقل الأعمال . ورأى مجير الدّين عقيب ذلك التّوصّل إلى بعلبك لتطييب نفس واليها عطاء الخادم واستصحابه معه إلى دمشق لينوب عنه فى تدبير الأمور ، وعاد وهو معه . واستشعر مجاهد الدّين بزان أن نيّة مجير الدّين قد تغيّرت فيه ، فاستوحش من عَوْده إلى البلد بغير يمين يحلف له بها على أمانه فى نفسه ، فوعد بالإجابة[2] ، فعاد (٧٢ ب) إلى داره بدمشق .

ثم[3] هجس فى خاطره من مجير الدّين وأصحابه ما أوحشه منهم ، فدعاه ذلك إلى الخروج من البلد سرًّا طالبا صرخد . فحين عرف خبره أنهض فى طلبه وقصّ أثره ، فأدرك

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٣٢١ . ويصدر هذا الاقتباس فى ق ٦٨ أ بعنوان : « فصل » .

(٢) يقطع أبو يعلى القصة هنا ليعود إلى حديث عسقلان . انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٢١ .

(٣) ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٤ . وهو اقتباس حرفى .

وقد قرُب من صرخد ، فقبض عليه وأعيد إلى القلعة بدمشق ، واعتُقل بها اعتقالا جميلا .

ثم تجدّد[١] من الرّئيس الوزير حيدرة المقدم ذكره أشياء ظهرت عنه ، مع ما فى نفس الملك مجير الدّين منه ومن أخيه المسيّب من المعرفة بالسّعى والفساد ، فاقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة عن القضاء النّازل به ، لسوء أفعاله ، وقبيح ظلمه ، وخُبثه . ثم عدل به الجانْدارِيّة[٢] إلى الحمّام بالقلعة ، مستهلّ ذى القعدة ، وضُربت عنقه صبراً ، وأُخرج رأسُه ونصب على حافة الخندق ، ثم طيف به ، والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه ، وتفنُّنه فى الفساد ، ومقاسمة اللّصوص وقطاع الطّريق على أموال الناس المستباحة ، بتقديره وتدبيره وحمايته ، وكثر السّرور بمصرعه ، وابتُهج به . ثم زحفت العامة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العَيْث إلى منازله وخزائنه ، ومخازن غلاته ، وأثاثه وذخائره ، فانتهبوا منها ما لا يحصى ، وغلبوا أعوان السّلطان وجنده عليها بالكثرة ، فلم يحصل للسلطان من ذلك إلاّ النّزر اليسير . ورُدّ أمر الرّئاسة والنّظر فى البلد إلى الرئيس رضىّ الدّين أبى غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد [بن على[٣]] التّميمى فى اليوم المقدم ذكره ، فطاف فى البلد مع أقاربه وأهله ، وسكنت الدّهماء ، وبولغ فى إخْراب منازل الظّالم ونقل أخشابها .

قال[٤] : وكان عطاء الخادم قد استبدّ بتدبير الأمور ، ومدّ يده فى الظلم ، وأطلق لسانه بالهجو ، وأفرط فى الاحتجاب ، وقصّر فى قضاء الأشغال ؛ فتقدّم مجير الدّين باعتقاله وتقييده ، والاستيلاء على ما فى داره ، ومطالبته بتسليم بعلبك وما فيها من مال وغلال . ثم ضربت عنقه ، ونهبت العوامّ والغوغاء بيوت أسبابه وأصحابه .

قال[٥] : وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السّلار ، الذى كانت

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٤ — ٣٢٥ .

(٢) الجاندارية فئة من المماليك المختصين بالسلطان أو الأمير . وهو تركيب من كلمتين : جان بمعنى سلاح ، ودار بمعنى ممسك . وأمير جاندار السلطان هو الذى يستأذن فى دخول الأمراء على السلطان للخدمة ويدخل أمامهم الديوان . صبح الأعشى : ٤ : ٢ ؛ ٥ : ٤٥٩ .

(٣) ما بين الحاصرتين من ق ٦٨ ب .

(٤) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٦ .

(٥) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣١٩ — ٣٢٠ .

رتبته قد علت ، ومنزلته فى الوزارة قد تمكنت ، كان لزوجته ولد يعرف بالأمير عبّاس[١] قد قدّمه واعتمد عليه فى الأعمال ؛ ولعبّاس هـذا[٢] ولد قدّمه الوزير وأنعم عليه ، وأذن له فى الدخول بغير إذن إليه . فدخل عليه وهو نائم [فى فراشه[٣]] ، فقطع رأسه ، وحصل عبّاس فى منصب العادل ، ثم كان من أمره ما سيأتى ذكره .

قلت : هو أبو الحسن على بن السّلار وزير خليفة مصر . وهو الذى بنى مدرسة الشّافعيّة بالاسكندريّة للحافظ أبى طاهر السّلفى[٤] ، رحمه الله . كان قتله فى سادس المحرم بمواطأة من الخليفة الملقب بالظّافر بن الحافظ .

قال[٥] : وفيها فى آخر شعبان (٥٤٨) توفى الفقيه برهان الدين أبو الحسن على البلخى رئيس الحنفية ، ودفن فى مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الشهداء . وكان من التفقه على مذهبه ما هو مشهور شائع ، مع الورع والدّين ، والعفاف والتّصوّف ، وحفظ ناموس العلم ، والتّواضع ، والتّودّد إلى الناس على طريقة مرضية ، وسجيّة محمودة .

قال[٦] : وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبى الحسين أحمد بن منير الشاعر فى جمادى الآخرة[٧] . ووصل فى ثانى عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشاعر أبو عبد الله

---

(١) هو أبو الفضل عباس بن أبى الفتوح . وجهه ابن السلار لحرب الصليبيين فى الشام فتآمر هناك على قتله ، وحضر ابنه نصر المؤامرة . ثم عاد عباس إلى القاهرة وأخذ فى تنفيذ خطته فنجحت ، وولى بعده وزارة مصر للفاطميين . انظر : الفاطميون فى مصر : ٢٩٦ .

(٢) فى ك : ولهذا عباس .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من متن ك ومستدرك بهامشها . وفى ق ٦٩ أ : فى فرشته .

(٤) شيخ الإسلام أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد الأصبهانى . وسلفة لقب جده ومعناه : الغليظ الشفة . تنقل بين أصبهان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة وغيرها ، واستغرقت رحلاته العلمية بضع عشرة سنة استقر بعدها فى الاسكندرية سنة ٥١١ ، ولم يخرج منها إلا إلى القاهرة لسماع الحديث ، ويقال إنه أقام بها خمسة وستين عاما . تذكرة الحفاظ : ٤ : ٩٠ .

(٥) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٣ . وهو اقتباس حرفى .

(٦) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٢ . وهو اقتباس حرفى .

(٧) انظر ص : ٤٤ حاشية : ٤ من هـذا الكتاب ، وانظر كذلك : شذرات الذهب ج ٤ ؛ معجم الأدباء : ج ٨ : ١٢٦ — ١٢٧ ؛ البداية والنهاية ج ١٢ : ٢٣١ .

محمد بن نصر بن صغير القيسرانى[1] ، من حلب ، باستدعاء مجير الدّين له ، ومات بعد عشرة أيام ، فى الثانى والعشرين من شعبان . قلت : هما شاعرا الشّام فى وقتهما . وقد شبّهُما العماد الكاتب فى كتاب الخريدة[2] بالفرزدق وجرير ، وكذلك كان . اتفق موتهما فى سنة واحدة ، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل . وقد سبق من شعرهما فى مدح نور الدّين رحمه الله قصائد حسنة ، وسيأتى غير ذلك فى موضعه لغرض سنذكره .

ومما قاله ابن منير من قصيدة له :

أيَا سيفاً أعزّ الدّينَ منـــه الـ　　غرارُ المضْبُ والنّـــوم الغرار
ملأت جوانح الأقطار رجفاً　　كأنّ الأرض خامرها دُوار
علاك حلًى على الدّنيا : فتاجٌ　　بِمَفْرِقها ، وفى يدها سِـــوار
أضاءت شمسُ عدلك فى دجاها　　فـكلُّ زمانِ ساكنِها نهـــار
تُحرّق مَنْ عَصَاك وأنت ماء　　وتُغرق مَنْ رَجاك وأنت نار
ألاَ لله وجهـــــك والمنايا　　مكحّـــــلة ، وللبيض افترار
هتكْت حجابه والنّصر غيب　　وللهبـــــوات طىٌّ وانتشار
بطعنٍ للقـــــلوب به انتظام　　وضربِ للرءوس به انتثار
تبـــــادره ، كأن الموت غنم　　وما من عادة البـــــدر البدار
أنخت على الصــليب مطاصليبا　　به من صـــلتٍ مبركه هدار[3]
بمشرفة المنــــاكب مقربات　　لهنّ بمتن كلّ وغًى حضـــار[4]

---

(١) انظر ص : ٤٤ حاشية : ٣ من هذا الكتاب ، وكذلك : معجم الادباء : ج ٨ : ١٢٧ ؛ ج ١٩ : ٦٤ ؛ خزانة الأدب : ١٧٥ ، البداية والنهاية : ج ١٢ : ٢٣١ .

(٢) انظر الخريدة : قسم شعراء الشام ج ١ : نشر وتحقيق الدكتور شكرى فيصل ، ص : ٧٩ .

(٣) هدر البعير يهدر هدرا وهديرا إذا صوت فى غير شقشقة ، وذلك إذا حبس فى الحظيرة ممنوعا من الضراب . القاموس المحيط .

(٤) البعير عظيم المشرف عالى السنام ، والفرس المقرب بفتح الراء والخيل المقربة التى يقرب مربطها ومعلفها لكرامتها . والحضر كالإحضار ارتفاع الفرس فى عدوه . القاموس المحيط .

جبين بإنّب أنب العناصى ... وإضن. وللقنا منها ثمار[١]

وفى هابٍ أهبْت بها ، فجاءت ... كما أجلى من الكسم الصوار[٢]

وكمْ فى فجّ حارمَ من حريمٍ ... عفته ، فلا جدير ولا جدار

وأنطاكيّـــةُ استْننّتْ إليها ... فأجفل خيطها وله عرار[٣]

وصبح فى عزاز بها عزاز ... فأمسى وهو وَعْثٌ أو خبار[٤]

يشق بها دُجا الغمرات عسفا ... جوادٌ لا يُشق له غبار[٥]

وله من أخرى :

وما يومُ الفرنجة منْك فذٌّ ... فتحصر عدّهُ خطط الحساب

أجاش الأربعاء لهم خميساً ... بعيد الغور ملتطم العباب

وأحكم بالحطيم لهم خطاما ... أمرّ بريه مرّ الضّراب

(٧٣ ب) مشوْا متساندين إلى صليب ... يبرقع هبوة الصمّ الصلاب

تلفُّهم المنايا فى الثّنايا ... وتفجؤُهم شعوبٌ من الشّعاب

أطاشت سهم كبشهم هناةٌ ... فكنت ذُباب طائشة الذّباب

حللت التّاج عنه وحلّ تاجا ... مكان العقد من عقد الكعاب

أناف على العقاب فكان أشهى ... وأبهى منه فى ظلّ العقاب

فأشرف وهو عن شرفٍ معوق ... وأصعد وهو غاية الانصباب

---

(١) الأنب بالفتح ثمر الباذنجان . والعناصى : القليل المتفرق من النبت والمال . القاموس المحيط .

(٢) الكسم : الحشيش الكثير . والصوار ، بفتح الصاد وضمها : القطيع من البقر . القاموس المحيط .

(٣) عر الظليم عرارا : صاح . والعرار بالفتح : المعجل عن الفطام . القاموس المحيط .

(٤) هو يمشى فى الوعث أو الوعوث : فى دهاس يشق فيه المشى . والخبار : ما لان من الأرض واسترخى . أساس البلاغة .

(٥) عسف الطريق واعتسفه إذا خبط على غير هداية . وبات يعسف الليل عسفا إذا خبطه فى ابتغاء طلبته . القاموس المحيط .

تكاشره الشّوامت وهو مغْض ... ثناه مناه عن رجع الجواب
بعيـــداً من قراع واقتراع ... يؤوب له إلى يوم المـــآب
وكم سوطٍ بمخيِّلك أقبلوه الصُّ (م) لدور فكان سوطا من عذاب
تركتهم بأرض الشّـــام شاما ... لِظُفْرٍ تتّقيـــه ، أو لِناب
هتكت حجابه والشمس وَشْىَ ... بشمس لا توارى بالحجـــاب
بأبيض من حَبِيك الهند صافٍ ... مَصُون المتن مبتـــذل الذّباب
له سمةُ الشيوخ صـــفاء شيب ... وفى خطراته نزق الشـــباب
ألاَ يا ناظر الدّنيـــا بعين ... أرته علابها خـــدع السراب[1]
تبطَّنَها فطلّقهـــا ثلاثاً ... على عزّ التّملق والخـــلاب
فلا يأوى إلى رأى شَـــعاعٍ ... ولا يثنى إلى أمـــل خراب
ترفّع عن مجـــاوزة الأمانى ... وحلّق عن محاضرة التّصابى
صلاة الله كلّ درور شمس ... على مثوى أبيك من التّراب
فقد ألقى إلى الإســـلام عضباً ... يطبّق فى النّوائب غـــيرنا بى
تجيش له رَوَاسٍ كالرّواسى ... تُمدّ لهـــا جِفان كالجوابى

وله من أخرى :

مُظفّر العزم ، ممدود الرّواق ، على ... معالم الدّين ، يرفيها ويبنيها
ردّ الكنائس كُنْساً للهُدى ، فخَبَت ... نار الضّلال وواراتهـــا أثافيها
وأورد العلم عـــدا من إيالته ... فاستن وافتَنّ عبًّا فى صوافيها[2]
وبثّ للشّرك أشراكاً فما درجت ... طريدة منـــه إلا استوهقت فيها[3]

(١) العلاب ، بكسر العين : جمع علبة بضمها . وهى النخلة الطويلة ، والقدح الضخم من جلود الإبل أو من الخشب يحلب فيها . القاموس المحيط .
(٢) الصوافى : ما يستصفيه الإمام من قرى من عصاه . القاموس المحيط .
(٣) الوهق ، محركة ، ويسكن : الحبل يرمى فى أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان . القاموس المحيط .

يا بدرُ مُذْ أشرقت فى الدّست غُرّته   غِيثَ الرّعيةُ واخْضلّت مراعيها
أقام أحمـــد من محمودها علماً   به استقام على البيضاء ساريها
محيى شريعته من بعدِ ما انْهدمت   واستعجمت بعد إفصاحٍ مغانيها
شابت مواهبه فيهـــا مهابته   حتى استقرّت على سَمْتٍ سواريها

وله من أخرى :

عزّتْ سيوفك ، فالعراق عراقها   والشّام غير مدافعات شامهـــا
إن أغمـــدت حلّ العزائم حلّها   أو جُرّدت حرم السكرى إحرامها
شخبت عداك بها ، فلا إشراقها   بمفازةٍ منها ، ولا إعتامهـــا(١)
سربت فصبّحها بهـــا يقظانُها   هدأت فبتّتها بها أحلامهـــا
كالماء ، إلا أن فى رشـــفاته   ناراً حشاشات النّفوس ضِرامها
خفّت على أيمـــانكم أوزانُها   يوم الوغى ، واستثقلتها هامُها
حتّى أحلْن الشّام شـــاماً صرصرت   فيه جنادبها وصدّح هامُـــــها
وَرَحَضْنَ أدْران الجزيرة بعـــد ما   غمرت بهـــا وهدانها وإكامها
شطرا أبَرّت ، ومثـــله أنظرته   وقع الخطوب تكرّها أيامها
(١٧٤) بالخابطات الغاب ، تزْأرُ أسدُه   والجفـــلى الحىّ اللّقاح صيامها
أوردتها أجماتِ أنطاكيّـــــة   عَنَقاً وقد شبّ الصّـــدا إجامها
تلقى المشـــافر فى مراشف ، كلّما   بردت بها الأكبادُ زاد هُيامهـــا
فغدت وقد عزّ السّراح سراحُها   وتوزّعت فى كنسها آرامهـــا
ومشى الضّلال القهقرى واستأصل الـ   آذان مِنْ رجع الأذان صـــلامها
وغدا يخلّلها الخليـــــل سواحباً   عذبا يمرّ لهـــا العذاب غمامها

(١) الشخب . الدم : وشخب اللبن ، كمنع ونصر ، فانشخب : حلبه . القاموس المحيط .

غضباً لدين الله خصّ جناحه ... بغيا وأدمى صفحتيه لدامها[1]
فالآن ردّ النور فيه نورُه ... وانجاب من تلك الهنات ظلامها
محمودٌ المحمود إقداما إذا ... خام الكماةُ وزلزلت أقدامها
الفارجُ الكُرَب العظام تضاجمت ... أشداقُها وفرى القلوب ضُغامها[2]

وله من أخرى :

أمّا الرّعايا فإنها رشفت ... لديك نُعمى عذباً ثناياها
سلكت نهج العدل القويم بها ... فأحمدت دينها ودنياها
وكم أمنيت خوفا فأمّنها ... متالف الخوف خوفُك اللهَ
لله أقطارك التى قطرت ... لها منداها إلى منايا ها
أنَبَ فى إنّب فوارسها ... تَرْدِى فتُردِى أولاك أخراها[3]
أشجت لهاة البرنس هبوتها ... وكم عتا عاتيا فأشجاها
وجوسلين استساغ نطفتها ... فاحتلب الذّل تحت مغداها
ردّته صِفراً من كلّ ما ملكت ... يداهُ أيدٍ ما ضلّ مسراها
جوسلين جاستك أوجه لا رأت ... بؤساً ، وجادَ الحيا محياها
سريّة[4] لو تكون فارسها ... يومئذ ما انبعث أشقاها
لا زال ظلّ النّعماء عن ملك ... ما الشمس كفئاً له إذا باهى
والله جازيه عن مقيّدة ... أعزّها الله مذ تولاّها
محمودٌ المعتلى إلى فلك الْ ... حمْد وثيراً له ولاياها

(١) اللدم : اللطم والضرب بشىء ثقيل يسمع وقعه . القاموس المحيط .
(٢) الضجم : عوج فى الفم والشدق والشفة والذقن والعنق . والتضاجم : الاختلاف . وضغمه ، وضغم به : عضه . أو هو دون النهش . والضغامة ، كثمامة : ماضغمته ولفظته . القاموس المحيط .
(٣) ردى الفرس كرمى ردْيا ورديانا : رجمت الأرض بحوافرها . أو هو بين العدو والمشى . وأردى : أهلك . القاموس المحيط .
(٤) فى ق ٧٠ ا : فى سرية .

أعطاكه جدّك المتوج بالجدّ (م) ونفس لله مغـــزاها
نفس عزوف عن الخنا طبعت نزّهها الله يوم ســوّاها
أنت الّذى ســلّم الأنام له يمنى طباق العـــلا و يسراها
وأنت مولى الملوك قاطـــبة من كان فنّا خسرو شاهنشاها
والشعر هـذا لا قول أحمده أوّه بديل من قولتى ثَراها

وله من أخرى :

يابن الذى لم يألُ فى نجدة الْـ إســلام إدلاجا وتهجيرا
تكنّف الشّام وقد شام بَرْ ق الخــوف إنجادا وتغويرا
وكفّ كلب الرّوم من بعد أن أنشـــبه نابًا وأظفورا
فأهـــله رقّك إن أنصفوا رقّا بحد السيف مســطورا
بدرٌ هوى واستخلف الشّمس فى دســتك إشراقا وتأثيرا

وله من أخرى :

ملك كسا الإسلام من ذبّه بُردًا بتـــدبيج الظّبا مُعلَمَا
مَن أصـــبح الشّامُ به شامة يقطر من قتل عِداه دما
(٧٤ ب) لوْ لَمْ يقم مُنْصـــلتا دونه لم نَلْق فى أقطارها مسلما

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماة واهتمامه بالعرس وعوده إلى حلب :

الدّهر ما رضته بالجود والباس(١) مقسم بين أغراس وأعراس
فتح تعاقبه فتح ، ومُطّلبٌ دانى المنال ، ومُلك ثابت راسى
نصرًا بُبُصرى ، وصفحًا عن حماة ، لقد أحسنت للدّاء حسما أيُّها الآسى

(١) بتسهيل الهمزة .

يا بن الذى غنَت الدّنيا لدولته   من فاطمىّ أعزّ به[1] وعباسى

وله فيه أيضا :

غدا الدّين باسمك سامى العلَمْ   أمين العماد ، مكينَ القدم
لذلك لُقِّبْت نوراً له   وقد أغطش الظّلمُ فيه الظّلَمْ
أضاءت بذلك آفاقه   وفضت عرى الدّين لمّا ادْلهم
ولم تمش رهواً لِتَنصر الرّها   ومثلك أدرك لمّا عزم
ويومَ « بسوطا » بسطت الحمام   على المضب من ركنها فانهدم
« و بُصرى » « وصرخد » لولم تثر   دراكاً لكانا رَديفَىْ إرم
ومُذ فضّ جيشك فى الغوطتيْـ   ـن فَضّ الصّليب له ما نظم
وفى « كفر لاثا » « وهابّ » حَلّلْـ   ـت عقد «البرنس» ببيض خذم
معوّدة أنها لا تسلّ (م) إلاّ مقمقمة للقمم
ويومَ « بَسَرْفُود »[2] جرّعتهم   أجاجا أغصّهم واصطلم[3]
وفوق « العُرَيمة » غشّاهم   عرامُ جيوشك سيلَ العرم
وأنت بكلبهم فى الكبول   مباح الحريم مذال الحُرَم
« وبارتهم » أذنت أنها   أبارتهم ، فليبُوءوا بذم
بنوْها وأعلوْا ، ولم يعلموا   بما خطّ فى اللّوح منك القلم

---

(١) هكذا وردت فى ق ٧٠ ب ، وفى ك أعزته ثم صححت فى الهامش بما ثبت هنا . وهذا البيت إشارة إلى جهود نور الدين فى مقاومة الفرنج ، وهى الجهود التى لم تقتصر على البلاد الخاضعة للعباسيين وإنما شملت مايدين بولائه منها للفاطميين . ومن مظاهر هذا ذلك التعاون ، الذى سيتحدث عنه أبو شامة فيما بعد ، بين جنود نور الدين والجنود المصرية التى يوجهها وزير مصر الصالح طلائع بن رزيك .

(٢) هى بسرفوت التى يذكر ياقوت أنها حصن من ؟ لب فى جبال بنى عليم ، وقد وجده ياقوت قرية خربة . معجم البلدان : ٢ : ١٧٩ .

(٣) فى ق ٧٠ ب : واضطلم :

وأنك خارم ما أحكموه ... ومن دِيننا راقِعٌ ما انخرم
فترفع من بعد خفضٍ هدى ... وتخفض من بعد رفع صنم
سمكت المدارس فوق النجوم ... فكم منجم تحتها قد نجم
وعاش الحنيفىّ والشافعىّ ... بما شِيدَت منهما وكانا رِمَمْ
وإن لم تكن هاشمىّ الأصول ... فإنك فرع المــزبْرِ الهشم
ومن يدّعى فى العلا ما ادّعيت ... وأنت ابن من عزّ لمّا احتكم
وأقسم ما غاب سيفٌ[1] سَقَتْ ... مغارسه عين هذى الشّيم

قلت : وقصائد ابن منير فى مدح نور الدّين كثيرة ، ونفسه فيها طويل . ولم يبق بعد موت القيسرانى وابن منير لخل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغى إلا ابن أسعد الموصلى[2] ، وسيأتى شىء من شعره ؛ إلى أن قدم العماد الكاتب الشام فى سنة اثنتين وستين ، فتسلم هذا الأمر ، وعبّر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات وأتمّها نظما ونثرا . وسيأتى كل ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قال ابن الأثير[3] : وفيها توفى صاحب مَارِدِين حسام الدّين تمرتاش ، ووليها بعده نجم الدين ألبى بن تمرتاش أرتق . قلت : وقد مدحه القيسرانى والعرقلة وغيرهما من الشعراء .

(١٧٠ ا) ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

قال ابن الأثير[4] : فقيها ملك نور الدين دمشق وأخذها من صاحبها مجيرالدين آبق بن

(١) فى ق ١٧١ ا : ميت .
(٢) أبو الفرج المهذب عبيد الله بن أسعد بن الدهان الموصلى الفقيه الشاعر نزيل بحمص والمدرس بها . انظر وفيات الأعيان : ١ : ٢٥٦ . وسيأتى ذكره كذلك فى حوادث سنة ٥٥٨ من هذا الكتاب .
(٣) اقتباس حرفى من الأتابكة : ١٨٨ .
(٤) اقتباس بحرفى من الأتابكة ١٨٨ — ١٩٠ .

محمد[١] . وكان الذى حمل نور الدّين على الجدّ فى ملــكها أن الفرنج ملــكوا فى السنة الخالية عسقلان ، وهى مدينة فلسطين حُسْناً وحصانة . ولما كانوا يحاصرونها كان نور الدّين يتلهف ولا يقدر على إزعاجهم عنها ؛ لأن دمشق فى طريقه وليس له على غيرها مَعْبَر ، لاعتراض بلاد الإفرنج فى الوسط . وقوى الفرنج بملــكها حتّى طمعوا فى دمشق ، واستضعفوا مجير الدين ، وتابعوا الغارة على أعماله وأكثروا الفتك بها والنهب والسبى . وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، وكان رسولهم يجىء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد . ثم اشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الّذين نُهِبوا من سائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم ، فمن أحبّ المقام تركوه ، ومن أحب وطنه سار إليه . وزالت طاعة مجير الدّين عن أهل البلد إلى أن حصروه فى القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مؤيد الدين ابن الصوفى[٢] . فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدو ، فلجأوا[٣] إلى الله تعالى ودعوه أن يكشف ما بهم من الخوف ، فاستجاب لهم وأذن فى خلاصهم مما هم فيه ، على يد أحبّ عباده إليه ، وأحسنهم طريقةً ، وأمثلهم سيرة ، وهو الملك العادل [حقاً][٤] نور الدّين محمود ؛ فحسّن له السّعى فى مِلك البلدة وألقاه فى روعه . فلمّا خطر له ذلك أفكر فيه ، فعلم أنّه إن رام ملــكه بالقوّة والحصار تعذّر عليه ، لأن صاحبه متى رأى شيئاً من

---

(١) فوضع بهذا نهاية لحــكم الأسرة البورية التى أسسها أتابك طغتكين ســنة ٤٩٧ فى دمشق بعد أن خلع دقاق بن تتش الأمير السلجوقى . وبهذا حقق نور الدين آمال والده عماد الدين زنكى الذى فشل فى الاستيلاء على دمشق وضمها إلى أملاكه ، عنــدما حاصرها فى سنتى ٥٢٩ ، ٥٣٤ . وتقدم نور الدين نحوها لتهــديدها أو لحصارها فى سنوات ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٨ وكان الحصار الأخير اقتصاديا أكثر منه حربياً .

(٢) هو المسيب بن على رئيس دمشق زمن صاحبها مجير الدين آبق آخر أمراء الأسرة البورية بها . توفى ابن الصوفى بها فى هذه السنة ، ٥٤٩ ، بعد أن قدم إليها من صرخد ، مع ابنه ، متظاهراً بأنه سيقيم فى داره مسالماً مبتعداً عن الأعمال الحــكومية ، ثم أصابه مرض شديد انتهى بوفاته . وسيتحدث أبو شامة عن ظروف عودته وعن مرضه ووفاته فيما بعد .

(٣) فى ق ١٧١ ا : تجأروا .

(٤) ما بين الحاصرتين من ق ١٧١ ا . وهى ساقطة من متن ك مستدركة بهامشها .

ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم . قلت : وقد كان سبق له بذلك سوابق قد تقدم ذكر شيء منها[١] . ولذلك قال العرقلة يمدح أتابكه معين الدين أنر من قصيدة :

يظن صلاح الدين[٢] فرسان جِلّق كفرسانه ، ما الأسد مثل الثعالب

رجالٌ إذا قام الصّليب تصلبت رماحهم فى كل ماشٍ وراكب

غدا يطلع الشام الفرنج بفيلق معوّدة أبطاله للمصائب[٣]

لهـا الليل نقع والأسنة أنجم فما غير أبطال وغير جنائب

وصلاح الدّين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور ، فإن ذلك لم يكن حينئذ ملكا يقود الجيوش ، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبسانى صاحب حماة ، أحد أصحاب زنكى ، وقد تقدم ذكره مرارا ، وكأنه كان فى مقدّمة الجيش النّورى لمّا قصد دمشق فى المرّتين الأوليين ، أو فى إحداهما ، أوفى زمن حصار زنكى لها ، والله أعلم .

قال ابن الأثير[٤] : وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدّين دمشق ، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق ، فكيف إذا (٧٠ ب) أخذها وقوى بها . وانضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين ، فإن الدّم كان عنده عظيماً ، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرّحمة والعدل . فلمّا رأى الحال هكذا عمد إلى إعمال الحيلة ، فراسل مجير الدّين صاحبها واستماله ، وواصله بالهدايا ، وأظهر له المودّة حتى وثق إليه . ثم صار يكاتبه فى بعض الأوقات ويقول له : إن فلانا ، ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدّين ، قد كاتبنى فى المخامرة عليك فاحذره . فتارة يأخذ إقطاع أحدهم ، وتارة يقبض عليه . فلما

(١) مثال هذا ما حدث سنة ٥٤٦ هـ عندما تقدم نور الدين لحصار دمشق فاستغاث صاحبها بالفرنج فجاءوا لنجدتها ، واضطر نور الدين إلى رفع الحصار ومواجهة الفرنج . انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣١٢ .

(٢) هو صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبسانى صاحب حماة وحمص ، من رجال زنكى ثم نور الدين .

(٣) هذا البيت ساقط من متن ك مستدرك بهامشها . وهو فى صميم متن ق ٧١ .

(٤) اقتباس حرفى من الأتابكة : ١٩٠ — ١٩١ . وهو متصل بالاقتباس السابق لكن أبا شامة قطعه بتعليقه على الحادثة السابقة وهو التعليق الذى شمل اقتباساً من شعر العرقلة .

خلت دمشق من الأمراء ، قدّم أميراً كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمى الخادم ، وكان شهما شجاعا ، وفوّض إليه أمر دولته ، وكان نور الدين لا يتمكّن من دمشق معه . فقبض عليه مجير الدّين وقتله ، فقال له عند قتله : إنّ الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلنى ، فإنه سيظهر لك ما أقول . فلم يصغ إلى قوله ، وقتله .

قلت : وفى بعض قصائد ابن منير ما يدل على أن عطاء هذا كان له مع نور الدّين فى دمشق حديث فإنه قال :

ودَمْشَقِى فى دِمشق رجال سلم ... لحُور نسائهم منهم نساء
هى الفردوس أصبح وهو عاف ... من العالى ومن خال خلاء
جنان تعرف الجنّات فيها ... ولا رأى هناك ولا رواء
لأسمح صعبها ودنت قصاها ... وأمكنك اقتياد وامتطاء
ويا نعم العطاء غطاء رب ... توسّطه فأنشطه عطاء
تفاءل باسمه فالفأل وعد ... يكون على ظباك به الوفاء
هو السّبب الذى شزرت قواه ... وهذّبه بخدمتك الصفاء
وسيف إن تَشِمه تَشِم حساما ... وإن يغمد فنارٌ بل ذكاء
جنَتْه لك السّعادة قطف رأى ... لتقب الخادِعِيك به هناء

ويجوز أنه لم يكن لعطاء فى ذلك حديث ، وإنما هذه الأبيات أو ما فى معناها كانت سبب قتله لمّا بلغ مجير الدين ذلك . وعطاء هذا هو الذى ينسب إليه مسجد عطاء خارج الباب الشرقى بدمشق ؛ وجورة عطاء ببيت أبيات ، وهى أرض فيها أخشاب كبار من الحور تربى أوتاراً لجامع دمشق ، وهى وقف عليه . وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء .

قال ابن الأثير[1] : فلمّا قتل عطاء قوى طمع نور الدين فى دمشق فراسل أحداث البلد

(١) اقتباس حرفى من الأتابكة : ١٩١ .

وزناطرته[1] واستمالهم ، فأجابوه إلى تسليم البلد ، فسار إليهم وحاصرهم عشرة أيام . فكاتب مجير الدين الفرنج و بذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحّلوا نور الدّين عنه. فإلى أن اجتمعوا وجاءوا بلغهم أخذ نور الدّين دمشق ، فعادوا بخفى حُنين . وأما نور الدّين (١٧٦) فإنه لمّا حاصرهم وضيّق على من به ، ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدّين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقى ، فدخله بالأمان عاشر صفر ، وحصر مجير الدّين فى القلعة ، وراسله و بذل له الإقطاع الكثير ، من جملته مدينة حمص . فأجاب إلى تسليم القلعة وسار إلى حمص .

وقال ابن أبى طى : أنفذ نور الدّين شيركوه رسولاً إلى صاحب دمشق ، فخرج فى تجمّل عظيم ومعه ألف فارس ، فعظُم على مجير الدين ذلك وقال : ماهذه رسالة ، هذه مكيدة ؛ ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحدٌ من أمراء دمشق . فاستوحش أسد الدّين ، ونزل بمرج القصب ، وأغلظ لصاحب دمشق فى المقال ، وأنفذ إلى نور الدين يعرّفه بماجرى عليه . فسار نور الدّين فى عساكره ، وزحف إلى البلد من شرقيه ، وكانت الحرب فى عاشر صفر ، وتولى أسد الدّين القتال ، وأبلى الجهد ، فكر عساكر دمشق إلى الأسوار من قبلىّ البلد ؛ ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب ، لأن نور الدّين كان من شرقها وجُلّ العسكر مقابلهُ . ورأى مَن كان مع نور الدّين من الجاندارية والحلبيين خُلوّ السور من المقاتلة ، فتسرّعوا إلى السور وتعلقوا به ، وحصلوا فى الحال على الأسوار . ويقال إنّ امرأة كانت على السور ، فدلت حبلاً فصعدوا فيه ، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم ، وصعد جماعة أخرى ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدّين . فوقع على أهل البلد الخذلان ، وكسر باب البلد ، ودخلت الخيالة منه وملك نور الدين دمشق . وكان لأسد الدين اليد الطولى فى فتحها ، فولاه نور الدّين أمرها ، وردّ إليه جميع أحوالها ؛ وفى هذه السنة أقطعه نور الدين الرّحبة .

---

(١) انظر ص : ٨٥ حاشية : ٤ عن الأحداث وحاشية : ٥ عن الزناطرة .

وقال الرّئيس أبو يعلى[١] : فى العشر الثانى من المحرم وصل الأمير أسد الدّين شيركوه رسولا من نور الدين إلى ظاهر دمشق ، وخيّم بناحية القصب من المرج فى عسكر يُناهز الألف . فأنكر ذلك ووقع الاستخوان منه ، وإهمال الخروج إليه لتلقّيه والاختلاط به ، وتكرّرت المراسلات فيما اقتضته الحال ، ولم تسفر عن سداد ولا نيل مراد ، وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغلّات . ووصل نور الدين فى عسكره إلى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفاسريا[٢] عند دُومَة[٣] ، ورحل فى الغد ونزل بيت الآبار[٤] من الغوطة ، وزحف إلى البلد من شرقيه وزحف إليه من عسكره وأحداثه الخلق الكثير ؛ ووقع الطّراد بينهم ، ثمّ عاد كل من الفريقين إلى مكانه . ثم زحف يوما بعد يوم ، وتأكد الزّحف يوم الأحد عاشر صفر ، وظهر العسكر الدمشقى فاندفع بين أيديهم حتّى قربوا من سور باب كيسان والدّباغة من قبلى البلد ، وليس على السور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الأمر ، (٧٦ ب) غير نفر يسير لا يُؤبه لهم . فتسرّع بعض الرّجالة إلى السور ، وعليه امرأة يهوديّة ، فأرسلت إليه حبلا فصعد فيه وحصل على السور ، ولم يشعر به أحد ؛ وتبعه من تبعه وأطلعوا علماً نصبوه على السور ، وصاحوا : نور الدين يا منصور ، وامتنع الأجناد والرعيّة من الممانعة لِمَاهُم عليه من المحبّة لنور الدين وعدله ، وحسن ذكره . وبادر بعض قطّاعى الخشب بفأسه إلى الباب الشرقى فكسر أغلاقه وفتحه ، فدخل منه العسكر وسعوا فى الطّرقات ، ولم يقف أحدٌ بين أيديهم . وفتح باب توما أيضا ودخل [النّاس][٥] منه . ثم دخل نور الدين وخواصّه ، وسُرّ كافّة النّاس من الأجناد والعسكرية ، لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار والخوف من منازلة الفرنج الكفار . وكان مجد الدين لما أحسّ

(١) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٦ — ٣٢٩ . وهو اقتباس حرفى .

(٢) بين عذرا ودومة The Damascus Chronicle, pp. 302, 318 .

(٣) دومة من قرى غوطة دمشق ، وهى غير دومة الجندل التى تقع قرب المدينة : معجم البلدان : ٤ : ١٠٦ .

(٤) قرية يلحق بها كورة من غوطة دمشق . معجم البلدان : ٢ : ٣١٩ .

(٥) ما بين الحاصرتين من ق ٧٢ ب .

بالغلبة والقهر قد انهزم فى خواصه إلى القلعة وأنفذ إليه ، فأومن على نفسه وماله ، وخرج إلى نور الدين ، فطيّب نفسه ووعده الجميل . ودخل نور الدين القلعة فى يوم الأحد المقدَّم ذكره ، وأمر بالمناداة بالأمان للرّعيّة ، والمنع من انتهاب شىء من دورهم . وتسرع قوم من الرعاع والأوباش إلى سوق علىّ وغيره ، فعاثوا ونهبوا ، وأنفذ نور الدين إلى أهل البلد بما طيب نفوسهم وأزال نفرتهم . وأخرج مجير الدين ما كان له فى دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدّار الأتابكية ، دار جدّه ، وأقام أياما . ثم تقدم إليه بالمسير إلى حمص فى خواصّه ومَن أراد السكون معه من أسبابه وأتباعه ، بعد أن كتب له المنشور بإقطاعه عدة ضياع بأعمال حمص ، برسمه ورسم جنده ؛ وتوجه إلى حمص على القضية المقررة . ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرّعيّة من القضاة والفقهاء والتجار ، وخوطبوا بما زاد فى إيناسهم وسرور نفوسهم ، وحُسن النّظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم ؛ فأكثروا الدعاء له ، والثّناء عليه ، والشكر لله تعالى على ما أصارهم إليه . ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطيخ[1] وسوق البقل ، وضمان الأنهار ، وأنشأ بذلك المنشور ، وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة . فاستبشر النّاس بصلاح الحال ، وأعلن النّاس برفع الدعاء إلى الله تعالى بدوام أيامه ، ونصرة أعلامه .

وقال ابن الأثير[2] : لمّا استقرّ[3] نور الدّين فى البلد عمل مع أهله مكرُمة عظيمة ، «وأظهر فيهم عدلاً عامّا . قلت : قد تقدم ذكره فى أول الكتاب[4] ، وسيأتى منه أشياء مفرّقة فيما بعد .

قال : وألقى الإسلام جرانه بدمشق ، وثبتت أوتاده ؛ وأيقن الكفّار بالبوار ، ووهنُوا واستكانوا ؛ وصار جميع ما بالشّام من البلاد الإسلامية بيد نور الدّين . وأما مجير الدّين فإنه أقام بحمص وراسل أهل دمشق فى إثارة الفتنة . فانتهى الأمر إلى نور الدين ، فخاف أن يحدث

(١) وردت فى ك من غير أداة التعريف . ودار البطيخ هى المكان الذى كان يباع فيه البطيخ ثم اتسع استعمال هذا التعبير حتى أصبح يطلق على المكان الذى تباع فيه الفواكه عامة . خطط دمشق : ١٠٦ .

(٢) اقتباس حرفى من الأتابكة : ١٩١ — ١٩٢ .

(٣) هكذا وردت فى الأتابكة . وفى ك وكذلك فى ق ٧٣ أ : استقل . والمثبت هنا أولى .

(٤) انظر ص ١٤ — ١٨ من هذا الكتاب .

ما يشقّ تلافيه ، بل ربما تعذّر ، لا سيّما مع مجاورة (١٧٧) الإفرنج . فأخذ حمص من مجير الدّين وعوضه عنها مدينة بالس[١] ، فلم يرضها ؛ وسار عن الشام إلى العراق ، فأقام ببغداد وابتنى داراً تجاور المدرسة النظامية ، وتوفى بها .

قال : ولمّا ملك نور الدّين دمشق خافه الفرنج كافّة ، وعلموا أنه لا يقعد [عنهم[٢]] وعن غزو بلادهم ، والمبادرة إلى قتالهم ؛ فراسله كل كند وقمص وتقرّبوا إليه . ثم إنّ مَن بتلّ باشر راسلوه وبذلوا له تسليمها فأرسل إلى الأمير حسّان المنبجى ، وهو من أكابر أمراء نور الدّين ، وإقطاعه منبج ، فأمره أن يتسلّمها منهم . فسار إليها ، وتسلّمها ، وحصّنها ، ورفع إليها ذخائر كثيرة .

فصــــل

قال الرئيس أبو يعلى[٣] : وقد كان مجاهد الدّين بُزان أُطلق يوم الفتح من الاعتقال[٤] وأُعيد إلى داره . ووصل الرئيس مؤيّد الدّين المسيّب إلى دمشق ، مع ولده النّائب عنه فى صرخد ، إلى داره ، معوّلاً على لزومها ، وترك التعرّض لشىء من التصرفات والأعمال . فبدا منه من الأسباب المُعْرِبة عن إضمار الفساد ، والعدول إلى خلاف مناهج السداد والرشاد ، ما كان داعيا إلى فساد النية فيه . وكان فى إحدى رجليه فتح قد طال به ونسيه ، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه ، وأسقط قوّته ، مع فواق متّصل وقُلاع فى فيه زائد . فقضى نحبه فى رابع ربيع الأوّل ، ودفن فى داره ، واستبشر الناس بهلاكه ، والرّاحة من سوء أفعاله .

---

(١) بين حلب والرقة . ذكر ياقوت أنها كانت على ضفة الفرات الغربية ، ولم يزل الفرات يتباعد عنها قليلا قليلا حتى أصبح بينهما ، فى زمنه ، أربعة أميال . معجم البلدان : ٢ : ٤٦ — ٤٧ .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ١٧٣ .

(٣) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٩ ، وهو اقتباس حرفى .

(٤) كان مجير الدين قد اعتقله سنة ٥٤٨ ، فى دمشق اعتقالا جميلا . وسبب ذلك أنه خاف على نفسه العود إلى دمشق لما أحسه من تغير مجير الدين عليه ، فرفض أن يدخلها إلا إذا أمنه مجير الدين على نفسه ، فوعده بذلك فدخلها ، ثم أحس مرة أخرى بالقلق فخرج عنها إلى صرخد فتتبعه رجال مجير الدين واعتقلوه بدمشق فى القلعة ، وبقى فى الاعتقال حتى أطلقه نور الدين يوم الفتح . وقد تقدم ذكر ذلك فى حوادث سنة ٥٤٨ .

قال[1] : ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظّافر بن الحافظ[2] ، وأقيم ولده عيسى مُقامه ، وهو صغير يناهز ثلاث سنين ، ولقّبوه بالفائز[3] ، وعبّاسُ الوزير[4] . ثم ورد الخبر بأن الأمير فارس الدّين طلائع بن رزيك[5] ، وهو من أكابر الأمراء المقدّمين ، والشجعان المذكورين لمّا انتهى إليه الخبر وهو غائب عن مصر قلق لذلك وامتعض ، وجمع واحتشد ، وقصد العود إلى مصر . فلمّا عرف عباس بما جمع خاف الغلبة ، فتأهّب للهرب في خواصه وأسبابه وحرمه ، وما تهيأ من ماله ، وسار مُغِذّاً . فلمّا قرب من أعمال عسقلان وغزّة خرج إليه جماعة من خيّالة الإفرنج ، فاغترّ بكثرة من معه وقلة مَن قصده . فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه ، وانهزم أقبح هزيمة ، هو وابنه الصغير ، وأسر ابنه الكبير ، الذى قتل العادل ابن السّلار ، مع ولده وحرمه ، وماله وكراعه ، وحصلوا فى أيدى الفرنج ؛ ومن هرب لقى من الجوع والعطش شدّة ؛ ومات العدد الكثير من النّاس والدّوابّ . ووصل فى أثر هروبهم فارس الدّين[6] فوضع السيف فيمن ظفر به من أصحاب عباس ، وانتصب فى الوزارة وتدبير الأمور موضعه . ووصل إلى دمشق منهم من أنجاه الهرب على أشنع صفة من العدم والعُرْى ، فى آخر ربيع الآخر .

---

(١) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٢٩ — ٣٣٠ . تصرف أبو شامة فى هذا الاقتباس بالضغط الشديد لعباراته وبحذف ما يتحدث به أبو يعلى من ذكر لمحاسن الفاطميين ، وذلك لأن أبا شامة لا يعترف بخلافتهم ولا بصحة نسبتهم إلى فاطمة ويسميهم دائماً العبيديين والمستخلفين بمصر .

(٢) تولى الظافر الخلافة سنة ٥٤٤ وسنه ست عشرة سنة ، وكان شاباً أرعن ؛ اشتد التنافس فى عهده بين الوزراء وأهمهم ابن السلار وابن مصال . وأراد الخليفة الاستعانة بنصر بن عباس على قتل ابن السلار الوزير السنى الشافعى ، فتم له ما أراد ، لكنه لم يلبث أن قتل أيضاً على يد نصر سنة ٥٤٩ .

(٣) وبقى فى الخلافة حتى سنة ٥٥٥ .

(٤) هو أبو الفضل عباس بن أبى الفتوح ، تآمر على قتل ابن السلار الذى كان أرسله لحرب الصليبيين بالشام ، ونفذ نصر ابنه المؤامرة وتولى عباس الوزارة حتى اضطر إلى الهرب أمام ابن رزيك . الفاطميون فى مصر : ٢٩٦ .

(٥) طلائع بن رزيك الأرمنى ، وزير مصر زمن الفائز وأول زمن العاضد . كان فى هذه المناسبة والياً بمنية خصيب بالصعيد . قتل سنة ٥٥٦ نتيجة مؤامرة دبرت ضده بسبب قطعه أرزاق الخاصة . ولقب الصالح أبو الغارات ، وذلك لكثرة غاراته ضد الصليبيين ، وهى الغارات التى أراد ، من أجلها ، أن يتحالف مع نور الدين ، كما سيتبين ذلك فيما يرد فى حوادث سنة ٥٥٣ . انظر وفيات الأعيان : ١ : ٢٣٧ ؛ النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية ؛ وخريدة القصر ; قسم شعراء مصر : ١٧٤ — ١٧٦ .

(٦) فى ق ٧٣ ب : ووصل فى أثرهم فارس الدين . وفارس الدين هو ابن رزيك .

قلت : وفى ذلك يقول عُمارة اليمنى[1] من قصيدة له :

لكم يابنى رزّيك ، لازال ظلكم ، مواطن ، سحب الموت فيها مواطر

(٧٧ ب) سللتم على عباس بيض صوارم قهرتم بها سلطانه وهو قاهر

وذكر الأمير أسامة بن مُنقذ فى كتاب الاعتبار أن[2] .نصر بن عباس لما قتل ابن السّلار وتوزّر أبوه عبّاس كان نصر يعاشر الخليفة الظّافر ويخالطه ، وعبّاس كاره لذلك مستوحش من ابنه ، لأنه بمذهب القوم وضرب بعض النّاس ببعض حتى يفنوهم[3] . وشرع[4] الظّافر مع ابن عباس فى حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة ؛ فتمادى فى ذلك فنهيته . فأطلع والده على الأمر ، فاستماله أبوه ولطف به ، وقرّر معه قتل الظّافر ، وكانا يخرجان متنكرين ، وهما تربان سنّهما واحد . فدعاه إلى داره ورتّب من أصحابه معه فى جانب الدّار نفراً ؛ ثم لما استقرّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه ؛ وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ورماه بجنب الدّار[5] . وأصبح[6] عباس جاء إلى القصر ضحوة نهار للسّلام ، فجلس فى مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظّافر . فلمّا تجاوز وقت جلوسه استدعى صاحب زمام القصر[7] وقال : ما لِمَوْلانا ما جلس للسّلام ؟ فتبلّد الأستاذ فى الجواب ؛ فصاح عليه وقال : مالك لا تجاوُبنى ؟ قال : يامولاى . مولانا ما ندرى أين هو . قال : مثلُ مولانا

---

(١) نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان الحكمى ، من مدينة مرطان بوادى وساع فى اليمن . تفقه على مذهب الشافعى ، ودخل مصر رسولا من قبل قاسم بن هاشم بن فليتة صاحب مكة سنة ٥٥٠ للإصلاح بينه وبين المصريين ، ثم قدمها مرة ثانية سنة ٥٥٢ وبقى بها مقربا إلى الفاطميين محتفظا بعقيدته السنية . اتهم أيام صلاح الدين بالتآمر ، مع جماعة ، لإعادة حكم الفاطميين ، وتم شنقه بالقاهرة نتيجة لهذا الاتهام ، سنة ٥٦٩ . انظر : وفيات الأعيان : ١ : ٣٧٦ ؛ النكت العصرية ؛ بغية الوعاة : ٣٥٩ ، وشذرات الذهب : ٤ : ٢٣٤ .

(٢،٣) ما بين هذين الرقمين اقتباس حرفى من كتاب الاعتبار : ١٤ .

(٤،٥) ما بين هذين الرقمين اقتباس ، تصرف فيه أبو شامة بالحذف والاختصار ، من كتاب الاعتبار ١٤ — ١٥ . وقد ورد آخر هذه العبارة فى ق ٧٣ ب كما يلى : ورماه فى جب الدار .

(٦) اقتباس من كتاب الاعتبار : ١٥ — ١٦ .

(٧) زمام القصر أو زمام دار هو من يتحدث على باب ستارة الأمير أو السلطان من الخدم والخصيان وأصلها : زنان دار ، مركبة من كلمتين : زنان بمعنى نساء ، دار بمعنى حافظ أو ممسك ، ثم قلبت النونان ميمين تحريفاً . صبح الأعشى : ٥ : ٤٥٩ .

يضيع ! ارجع وا كشف الحال . فمضى ورجع ؛ فقال : ما وجدنا مولانا . فقال يبقى النّاس بلا خليفة ! ادخل إلى الموالى إخوته يخرج منهم واحد انبايعه . فمضى وعاد ، وقال : الموالى يقولون لك مالنا فى الأمر شىء ، والدُنا[1] عزله عنا وجعله فى الظافر ، والأمر لولده بعده . قال : أخرجوه حتى نبايعه . قال : وعباس قد قتل الظّافر وعزم على أن يقول لإخوته أنتم قتلتموه ويقتلهم . فخرج ولد الظّافر ، ولعلّ عمره خمس سنين ، يحمله الأستاذ ؛ فأخذه عبّاس فحمله و بكى ، و بكى النّاس ، ثم دخل به إلى مجلس أبيه ، وهو حامله ، وفيه أولاد الحافظ . قال ابن منقذ : ونحن فى الرّواق جلوس وفى القصر أ كثر من ألف رجل من المصريّين ، فما راعنا إلاّ قومٌ قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة ، فإذا السيوف تختلف على إنسان ؛ فقلت لغُلامٍ لى أرْمَنِيّ : انظر من هذا المقتول . فمضى وعاد [وقال[2]] : ماهؤلاء مسلمين ! هذا مولاى أبو الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه ، وواحدٌ قد شقّ بطنه[3] يجذب مصارينه . ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفى رأسه ضربة سيف ، والدّم يفور منها ، وأبو البقاء ابن أخيهم[4] مع ابنه نصر . ثم أدخلوهما خزانة فى القصر فقتلوهما ، وفى الخزانة[5] ألف سيف مجرّد . قال : وكان ذلك اليوم من أشدّ الأيام التى جرت علىّ لأنّى رأيت من الفساد والبغى ما ينكره الله سبحانه وجميع خلقه .

وذكر الأمير أسامة بن منقذ فى ديوانه قال : كان (١٧٨) لعبّاس أربعمائة جمل تحمل أثقاله ، ومائتا بغل ، ومائتا جنيب[6] . فلمّا أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع [عشر[7]]

(١) فى الاعتبار ، لأسامة بن منقذ : والده . انظر الاعتبار ص : ١٥ .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ٧٤ ا . وهى موجودة أيضاً فى الاعتبار ، مصدر هذه الحادثة ص : ١٦ .

(٣) هكذا وردت فى ك ، وكذلك وردت فى الاعتبار ص : ١٦ . وفى ق ٧٤ ا : ثم إن واحداً شق بطنه .

(٤) هكذا وردت فى ك وكذلك فى ق ٧٤ ا . وفى الاعتبار ص : ١٦ : ابن أخته .

(٥) فى ق ٧٤ ا : وفى القصر .

(٦) والجمع جنائب . وهى فى الأصل الخيول التى كانت تسير وراء السلطان أو الأمير فى الحروب استمداداً لاحتمال الحاجة إليها : Dozy, Supp. Dict. Ar. .

(٧) ما بين الحاصرتين من ق ٧٤ ا . وورد فى التوفيقات الإلهامية أن أول ربيع الأول من هذه السنة ، ٥٤٩ ، وافق يوم الأحد ، وبهذا يوافق أول جمعة فيه السادس من الشهر ، وثانى جمعة يوافق الثالث عشر . وبهذا يترجح ما أثبتناه عن ق مع التجاوز عن يوم واحد هو مقدار الاختلاف بين الواقع والحساب .

ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائه ، وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها ، فارسهم وراجلهم ، تقدم بشدّ خيله و بغاله وجماله ليتحمل و يخرج . فلمّا صار الجميع على باب داره ، وقد ملأت ذلك الفضاء إلى قصر السلطان إلى الايوان ، خرج غلام يقال له عنبر كان على أشغاله ، وغلمانُه كلّهم تحت يده ، فقال للجمّالين والخَربَنْدية[1] والرّكابية[2] : روحوا إلى بيوتكم وسيّبوا الدّواب . ففعلوا ذلك ، وانحازهو إلى المصريّين يقاتله معهم . وكان ماجرى من تهميك[3] الدواب لطفًا من الله تعالى به ، فإنها سدّت الطريق بينه و بين المصريّين ، ومنعتهم من الوصول إليه ، وهم فى خلق كثير ، ونحن فى قلة ما نبلغ خمسين رجلا ؛ وغلمان عبّاس ومماليكه فى ألف ومائتى غلام بالخيول الجياد والسّلاح التّام ، وثمانمائة فارس من الأتراك ؛ خرجوا كلهم من باب النّصر ووقفوا فى الفضاء الذى بينه و بين رأس الطّابية فرارا من القتال . فشرع المصريّون فى نهب الخيل والجمال والبغال . فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عبّاس من باب القصر وجاءوُا فى أثره حتى أغلقوا الباب وعادوا إلى نهب دوره . وكان عبّاس قد أحضر من العرب نحواً من ثلاثة آلاف فارس يَتقوّى بهم على المصريين ، واستحلفهم ، ووهبهم هباتٍ عظيمة . فلمّا خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدّ قتال ستّة أيام ، يقاتلهم من الفجر إلى اللّيل ؛ فإذا نزل أمهلوه إلى نصف اللّيل ، ثم يركبون ويهدّون خيلهم على جانب النّاس ، ويصيحون صيحة واحدة ، فتجفل الخيل وتتقطع ، ويخرج إليهم منها ما فيه مُنّة وقوّة فيأخذونه ، فكان ذلك سبب هلاك خيله ، وتمكّن الإفرنج منه ، واشتغاله عن سلوك طريق لا يقصدُ الفرنج إليه .

قال : ودامت الحرب بينه و بينهم من يوم الجمعة ضُحى نهاره إلى آخر يوم الخميس ، ثم جاءوا إليه وأخذوا منه حسبا على أموالهم وأنفسهم و بيوتهم ظنا منهم أن له عودة إليهم ؛

(١) المكارية : Dozy, SupP. Dict. Ar. .

(٢) الركابية والركابدارية : الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان فى المواكب والأعياد ؛ وهم يتبعون الركاب خاناه ، وهو بيت الركاب الذى تكون به السروج واللجم ، وله موظف مختص ، يسمى بمهتار الركاب خانة . والغاشية سروج مذهبة تبدو كأنها كلها من الذهب . صبح الأعشى : ٤ : ٧ ، ١٢ .

(٣) المثبت هنا من ق ٧٤ . وفى ك : تمهيد . وفى القاموس المحيط . فرس مهموك القصّريين : مرسل دقّتى السرج .

وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس . ويوم الأحد صبحتهم الإفرنج وقد هلك النّاس من الجوع والعطش وماتت خيلهم ، فقتلوا عبّاسا وابنه الأوسط[١] ، وأسروا ابنه الأكبر[٢] وقتلوا خلقا كثيراً ؛ وأخذوا نساء عبّاس وخزائنه ، وأسروا أولاداً له صغاراً وانصرفوا[٣].

قلت : عبّاس هذا هو عباس ابن أبي الفتوح بن تميم بن المعزّ بن باديس الحميرى ، ويلقب بالأفضل ركن الدّين ، ويكنى بأبي الفضل . ورأيت علامته[٤] في الكتب أيام وزارته : « الحمدلله وبه أثق » . وفيه يقول أسامة بن منقذ :

لقدْ عمّ جود الأفضل السيّد الورى وأغنى غناه الغَيث حيث يصوّب

(٧٨ ب) ومن أبيات لابن أبي أسعد فيه لما قتل الظافر[٥] :

وأنفق من أنعامهم في هلاكهم وأظهر ما قد كان عنه يُنافق
ومدّ يداً هم طوّلوها إليهم وحلّت بأهل القصرِ منه البوائق
سقى ربّه كأسَ المنايا ، وما انقضى له الشهر إلاّ وهو للكأس ذائق

وكان عبّاس قد تخيّل من أسامة عند خروجه من مصر ، لما يعلمه بينه وبين الملك الصالح من المودّة والمصافاة ، فأحضره واستحلفهُ أنه لا ينفصل عنه . ثم لم يقنعه ذلك حتى أنفذ[٦] من أستاذى داره من يدخل على حرمه إلى داره ، فأخذ أهله وأولاده ، فتركهم عند أهله وأولاده ، وقال قد حملت ثقلهم عنك ، لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ، يعنى ولده ناصر الدين ، وبأخواته . فلما خرجوا ونهبت دورهم ودوابّهم عجز عن حمل من يخصه ، فأعادهم

---

(١) يلقب الابن في الاعتبار ص : ٢٠ : حسام الملك .

(٢) ناصر الدين . الاعتبار : ٢٠ .

(٣) في هذه الحادثة قارن كتاب الاعتبار أيضاً : ١٦ — ٢٠ .

(٤) أى توقيعه .

(٥) في هامش ك نجد العبارة الآتية : « حاشية : أبيات ابن أبي أسعد هذه من قصيدة مدح الصالح ابن رزيك وأولها : « .·. ارجم بمصر بالجزيرة واثق .·. » اهـ .

(٦) وردت في ك ، وكذلك في ق ٧٤ ب : نفذ ، ويتكرر ورودها بعد « والمثبت هنا أكثر قبولا .

أسامة من بلبيس ، وأنفذ إلى الملك الصالح يقول له : قد أنفذت أهلى وأولادى إليك ، وأنت ولىّ ما تراه فيهم . فأنزلهم فى دار ، وأجرى عليهم الجارى الواسع ، وأحسن إليهم غاية الإحسان . وكان يكاتبه فى الرّجوع إلى مصر وهو يلطّف الأمر منه قصداً لخلاص أهله وأولاده ؛ فلما عرف ذلك منه نسبه إلى وحشة قلبه من القصور ، ونفوره من المصريين . فأنفذ إليه يقول له : تصل إلى مكة فى الموسم ويلقاك رسولى إليها يسلم إليك مدينة أسوان ، وأنفذ إليك أهلك ، وأمدّك بالأموال ؛ وهى ، كما علمت ، الثغر بيننا وبين السّودان ، وما يسدّ الثغر مثلك . وأكثر من الوعد وذكر رغبته فى قربه ورعايته ، وما بينه وبينه من قديم الصحبة . فاستأذن أسامة فى ذلك الملك العادل نور الدّين ، وكان فى خدمته . فقال : يافلان ما تساوى الحياة الشّتات ، والرجوع إلى الأخطار ، والبُعد عن الأوطان . ومنعه من ذلك بإحسانه ووعده أن يستخلص أهله . فكتب أسامة إلى الملك الصالح يعتذر ويسأله تسيير أهله . وتردّدت بينهما مكاتبات ، وأشعار متصلات ، إلى أن سيرهم ، وهم نيِّف وخمسون نسمة ، فى الإكرام والاحترام إلى آخر ولايته . وذكر أن أهل القصور والأمراء أنكروا تسييرهم ، وقالوا تكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه . ووصله بعض أصحابه من دمشق ، وهو فى العسكر النُّورى بحلب ، فأخبره أنّ من كان له بمصر من الأهل والأولاد والأصحاب وصلوا ، وأن المراكب انكسرت بهم فى ساحل عكا ، ونهب الفرنج كل ما فيه ، ولم يصلوا إلى دمشق إلا بأنفسهم . وأن متملك الإفرنج أعطاهم خمسمائة دينار أصلحوا منها حالهم واكْتَرَوْا ظَهراً إلى دمشق ، فقال أسامة :

(١٧٩) إلى الله أشكو فرقة دميت لهـا جفونى ، وأذكت بالهموم ضميرى
تمادت إلى أنْ لاذت النّفس بالمنى وطارت بها الأشواق كلّ مَطير
فلما قضى الله اللقـاء تعرّضت مساءةُ دهرى فى طريق سرورى

فصـــل

قال أبو يعلى[1] : وفى آخر ربيع الأول وصـــل الأمير مجد الدين أبو بكر

(١) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٩ . وهو اقتباس حرفى .

[محمد][1] نائب نور الدين فى حلب إلى دمشق عقيب عوده من الحج ، وأقام أياما وعاد إلى منصبه فى حلب وتدبير أعمالها .

قلت مجد الدين هذا هو ابن الداية ؛ وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى إخوته ، وسيتكرر ذكرهم فى هذا الكتاب . ومجد الدين أكبر إخوته ، وقد مدحه الشعراء . قال القيسرانى من بعض ما قاله فيه :

دعوا ما مضى من قبل هذا لما بعد ... فأقسم لولا المجد ما عرف المجد
كريم سمت أوصافه لِعُفــــاته ... قرائن ، كل اثنين بينهما عقد :
محيّاه والبشرى ، ويُمناه والندى ... ونجواه والدنيا ، وتقواه والزهـد
ففى قربه الزلفى ، وفى وعده الغنى ... وفى نَيْله الحسنى ، وفى رأيه الرشد
إذا وجه نور الدين قابل مجده ... فقل فى كمال البدر قابله السعد

وفى موسم هذه السنة توفى[2] أمير الحرمين هاشم بن فليتة ، وولى الحرمين ولده قاسم ابن هاشم ، وهو الذى أرسل عُمارة اليمنى [الفقيه[3]] الشاعر إلى الديار المصرية ، وسيأتى ذكره[4] .

قال أبو يعلى[5] : وفى ثامن جمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مصر بأن عدة وافرة من مراكب الفرنج من صقلّية وصلت إلى مدينة تنّيس[6] على حين غفلة من أهلها ، فهجمت عليها وقتلت وأسرت ، وسبت ونهبت ، وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام ، وتركتها صفرا . وبعد ذلك عاد من كان هرب منها فى البحر بعد الحادثة ، ومن سلم واختفى ؛ وضاقت الصُّدور عند استماع هذا الخبر المكروه .

---

(١) ما بين الحاصرتين من ق ٧٥ ا . وفى ص ٤٨ من هذا الكتاب ، حاشية ٣ ، شىء من التعريف بابن الداية .
(٢) المثبت هنا من ق ٧٥ ا . وهو أولى مما جاء فى ك إذ وردت هناك : مات .
(٣) ما بين الحاصرتين من ق ٧٥ ا .
(٤) فى آخر الحديث عن حوادث السنة التالية .
(٥) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٣١ ، وهو اقتباس حرفى .
(٦) جزيرة قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط ، والفرما تقع شرقيها . معجم البلدان : ٢ : ٤١٩ — ٤٢٣ .

قال : وفى شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة القاضى فخر الدين أبى منصور محمد بن عبد الصمد بن الطرسوسى ؛ وكان ذاهمة ماضية ، ويقظة ومروءة ظاهرة فى داره وولده ، ومن يلم به من غريب ووافد ؛ وقد نفذ أمره وتصرفه فى أعمال حلب فى الأيام النورية ، وأثر فى الوقوف أثرا حسنا توفر به ارتفاعها(١) ، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال .

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

ففيها تسلم نور الدين بعلبك من واليها ضحاك . ذكر ابن الأثير أن ذلك كان فى سنة اثنتين وخمسين ، وقال : كان ضحاك البقاعى ينوب ببعلبك عن صاحب دمشق ؛ فلما ملك نور الدين دمشق امتنع بها ، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج ؛ فلطف الحال معه إلى ذلك الوقت ، فملكها ، واستولى عليها .

وقال (٧٩ ب) ابن أبى طىّ : لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب ، فكاتب نور الدين فى تسليم بعلبك ، فأنفذ إليه وتسلمها منه ، وألحقه بأصحابه . قال : ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة وجعله فى البلد ، وولى القلعة رجلا يقال له ضحاك . فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحاكا . وتوسط أسد الدين فى أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين ، فأقطعه اقطاعا وسيره إلى دمشق ، فأقام فيها ، ورد نظر دمشق إليه ، وولى ولده تورانشاه شحنكية دمشق(٢) فساسها أحسن سياسة ، ولم يزل بها إلى أن توفى ؛ [فولى](٣) صلاح الدين شحنكية دمشق .

قلت : هذا وهم . تورانشاه هو الملك المعظم شمس الدولة الذى فتح اليمن فى أيام

(١) أى دخلها وإيرادها .

(٢) انظر ص ١٥ : حاشية : ١ عن معنى الشحنكية .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من ك ومثبت فى هامش ق ٧٥ ب .

أخيه صلاح الدّين[1] . فكيف يقول إنه مات قبل أن يلى صلاح الدّين شحنكيّة دمشق ؟ وأما كونه ولى الشّحنكية بدمشق قبل صلاح الدّين فهذا قريب ، وقد رأيت مايؤكده . قرأت فى ديوان العرقلة : وقال يهنئه بالشحنكية بدمشق وهو فى دار عمه أسد الدين شيركوه ابن شاذى :

قلت لحسّادك : زيدوا فى الحسد   قد سكن الدّار ، وقد حاز البلد
لا تعجبوا إن حـلّ دار عمّه   أما تحِلُّ الشّمس فى برج الأسد ؟!

وقال فى صلاح الدّين لما ولى الشحنكية :

لُصوصَ الشّام تُوبوا من ذنوب   تكفّرها العقوبة والصّفاد
لئن كان الفسادُ لكم صلاحًا   فمولاى الصّلاح لكم فساد

وله فيه :

رويدكُمُ يالصوص الشّـآم   فإنى لكم ناصح فى مقالى
وإيّاكمُ وسمىّ النّبىّ (م) يوسف ربّ الحجا والجمال
فذاك مقطِّع أيدى النساء   وهذا مقطع أيدى الرّجال

قال ابن أبى طىّ : وولى صلاح الدّين شحنكيّة دمشق والدّيوان ، فأقام فيه أيامًا ، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعة جرت بينه و بين صاحب الدّيوان ، أبى سالم بن همّام . فأنفذ نور الدّين وأخذ ابن همّام وحلق لحيته ، وطيف به فى دمشق . قلت وابن همّام هذا هو الذى ذكره الشنْباشى فى قصيدته وأشار إلى حلق لحيته بقوله :

(١) وذلك سنة ٥٦٩ ، وأقطعه صلاح الدين قبل ذلك عيذاب وقوص بسنة ٥٦٥ ، وسيره لفتح النوبة سنة ٥٦٨ . وعاد تورا نشاه سنة ٥٧١ من اليمن إلى الشام غير راض عن حاله ، وبقى بها حتى أرسله صلاح الدين إلى الإسكندرية نائبا عنه بها سنة ٥٧٦ ، فلم يقنع بها كذلك وهناك مرض وتوفى فى نفس السنة ، ونقل بعد ذلك إلى دمشق حيث دفن بالتربة الحسامية بمقبرة العونية . انظر هذا الكتاب فى حوادث سنوات : ٥٦٥ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٦ . وانظر كذلك وفيات الأعيان : ١ : ٩٩ — ١٠٠ .

كأبى سـالم بن همّام لمّا قام للتّصـبح عاد يمشى ملثّم

ثم قال ابن أبى طىّ : واستخصّ نور الدّين صلاحَ الدين وألحقه بخواصّه ، فكان لا يفارقه فى سفر ولا حضر . وكان يفوق الناس جميعاً فى لعب الكرة ، وكان نور الدين يحب لعب الكرة .

قال أبو يعلى[١] : ونزل نور الدّين بعسكره بالأعمال المختصّة بالملك قليج أرسلان ابن الملك (٨٠ ا) مسعود بن سليمان بن قتلمش ملك قونية وما والاها[٢] ، فملك عدّة من قلاعها وحصونها بالسيف والأمان . وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات[٣] مشتغلين بمحاربة أولاد الدّانشمند[٤] ونُصروا عليهم فى وقعة كانت بأقصرا فى شعبان . فلما عاد قليج أرسلان وعرف ما كان من نور الدّين فى بلاده عظم عليه هذا الأمر واستبشعه ، مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصّهر . وراسله بالمعاتبة[٥] والإنكار ، والوعيد والتهديد ، فأجابه نور الدّين بحسن الاعتذار وجميل المقال . و بقى الأمر بينهما مستمرّا على هذه الحال ، وعاد نور الدّين من حلب إلى دمشق .

قال[٦] : ووَلِى الاسطول المصرى مقدّم شديد البأس ، بصير بأشغال البحر . فاختار جماعة من رجال البحر يتكلّمون بلسان الفرنج ، وألبسهم ثيابهم ، ونهض بهم فى عدّة من المراكب الأسطولية ، وأقلع فى البحر لكشف الأماكن والمكامن ، والمسالك المعروفة

---

(١) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٢ — ٣٣٣ ، وهو اقتباس حرفى .

(٢) يذكر Lane-Poole أن قليج أرسلان هذا تولى السلطنة سنة ٥٥١ وبقى بها حتى سنة ٥٨٤ ثم قسمها بين أولاده ، وتوفى سنة ٥٨٨ . ويذكر كذلك نسب قيج أرسلان هذا بصورة تخالف ما ورد هنا نقلا عن أبى يعلى ، فيقول إنه ابن ملكشاه الثانى بن ملكشاه الأول بن قليج أرسلان داود الأول بن سليمان بن قتلمش . وقد ولى قليج أرسلان المذكور هنا السلطنة بعد عمه مسعود الأول سنة ٥٥٠ . انظر : Muhammadan Dynasties.

(٣) ذكره الأستاذ جب بالهجاء الآتى Dūlāb ووضع بجانبه علامة استفهام ، وذلك لأن التاء وردت فى ذيل تاريخ دمشق (ص : ٣٣٣) غير معجمة . انظر : The Damascus Chronicle, p. 325

(٤) أصحاب قلعة سيواس وملطية فى سنوات : ٤٩٠ — ٥٦٠ (١٠٩٧ — ١١٦٥ م) . انظر : Muhammadan Dynasties, p.156 .

(٥) هكذا وردت فى ذيل تاريخ دمشق . وفى ك ، وكذلك فى ق ١٧٦ ا : بالمكاتبة ؟ والمثبت هنا أولى .

(٦) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٢ . وهو اقتباس حرفى .

بمراكب الروم وتعرف أحوالها . ثم قصد ميناء صور ، وقد ذُكر له أنّ فيه شختورة رومية كبيرة فيها رجال كثير، ومال وافر . فهجم عليها وملكها ، وقتل من فيها ، واستولى على ما حوته ، وأقام ثلاثة أيام ، ثم أحرقها وعاد عنها فى البحر ، فظفر بمراكب حجاج الفرنج ، فقتل وانتهب وأسر وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى .

قلت : وفى هذه السنة ورد أمر الخليفة ببغداد ، وهو المقتفى ، إلى أمير الحرمين ، قاسم ابن هاشم ، يأمره أن يركب على باب الكعبة المكرمة باب ساج جديدا قد ألبس جميع خشبه فضة وطلى بذهب ، وأن يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ، ويسير إليه خشب الباب القديم مجرّداً ليجعله تابوتا يدفن فيه عند موته . ذكر ذلك الفقيه عُمارة الشاعر وقال[1] : سألنى أمير الحرمين أن أبيع له الفضة التى أخذها من الباب فى اليمن ، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم ، فتوجهت إلى زبيد وعدن من مكة ، فى صفر سنة إحدى وخمسين ، وحججت فى الموسم منها ، فدفعت لأمير الحرمين ماله ، وألزمنى الترسل عنه إلى مصر ، يعنى مرة ثانية[2] ، بسبب جناية جناها خدمه على حاجّ مصر والشام .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير[3] : فيها حاصر نور الدّين قلعة حارم ، وهى حصن غربىّ حلب بالقرب من أنطاكيّة ، وضيّق على أهلها ؛ وهى من أمنع الحصون وأحصنها فى نحور المسلمين . فاجتمعت الفرنج ، مَن قرب منها ومن بَعُد ، وساروا نحوه لمنعه . وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه ، فأرسل إليهم يعرفهم قوتهم ، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذّبّ عنه ، بما عندهم من العَدد والعُدد ، وحصانة القلعة ، ويشير عليهم بالمطاولة

(١) فى كتاب النكت العصرية : ٤١ — ٤٢ .

(٢) أما الرسالة الأولى فكانت سنة ٥٥٠ لمحاولة الإصلاح بين قاسم صاحب مكة والصالح طلائع بن رزيك وزير مصر ، بعد أن منع الصالح المعونة التى كانت تقدمها مصر إلى الحجاز . ونجح عمارة فى هذه الرسالة نجاحا حمل قاسما على أن يرسله مرة أخرى ، هى المذكورة هنا ، فى أزمة مماثلة بين مصر والحجاز . وفى هذه المرة استقر عمارة بمصر وازدادت صلته بالفاطميين ووزرائهم وأعيان دولتهم .

(٣) اقتباس حرفى من الأتابكة : ١٩٤ .

وترك اللقاء ؛ وقال لهم إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها ، و إن حفظتم (٨٠ ب) أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه . ففعلوا ما أشار به عليهم ، وراسلوا نور الدين فى الصلح على أن يعطوه حصةً من حارم ، فأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية ، فأجابوه إلى ذلك ، فصالحهم وعاد . وفى ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة ؛ وذكر أبياتاً من قصيدة لابن منير . وقد سبق أن ابن منير توفى سنة ثمان وأربعين . فإما أن يكون ابن منير قال هذا الشعر فى غير هذه الغزاة ، و إما أن تكون هذه الغزاة فى غير هذه السنة .

وقد قرأت فى ديوان ابن منير : وقال يمدحه ويهنئه بالعود من غزاة حارم :

ما فوق شأوك فى العلا مزداد   فعلام يقلق عزمك الإجهاد
هِمَمٌ ضَرَبن على السماء سرادقا   فالشهب أطنابٌ لها وعماد
أنت الذى خطبت له حسّاده   والفضل ما اعترفت به الحساد
قام الدليل وسلم الخصم الألـ   ـدّ وانجلى للآثر الإسناد
زهَرت لدولتك البلاد ، فروحها   أرج المهبّ ، ودوحها ميّاد
أحيا ربيع العدل ميت ربوعها   فالبرض نجم والهشيم مراد
فالعيش إلا فى جنابك ميتة   والنوم إلا فى جنابك سُهاد
و إذا العِدا زرعوا النّفاق وأحصدوا   كيداً فعزمك ناقض حصّاد
بالمقرَبات كأنّ فوق متونها   جنّ الملا ، وكأنها أطواد
تدأى ومن وحى الكماة صفورها   فالزّجر قيد والندى قياد
سُحب إذا سَحبت بأرضٍ ذيلها   فالحزْن سهلٌ والهضاب وهاد
يهدى النواظر فى دُجُنّة نقعها   بدرٌ بسرجك نيّرٌ وقّاد
ألبست دينَ محمّد ، يا نوره   عِزًّا له فوق السّماء إساد[1]
مازلت تمسكه بِمَيّاد القنا   حتى تثقف عودُه الميّاد

(١) الأسادة بفتح الهمزة وضمها : الوسادة . القاموس المحيط .

لم يبق مُذ أرهفت عزمك دونه . عدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تكلُّما . حمدتك عن خطبائها الأعواد
ولئن حمت منك الأعادى مهلة . فلهم إلى المرعى الوبىّ معاد
وَلَكَمْ لَكُمْ فى أرضهم من مشهد . قامت به لِظُباكُمُ الأشهاد
مُلقٍ بأطراف الفرنجة كلكلا . طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا ، فلما عاينوا حوض الرّدى . حاموا برائش كيدهم أو كادوا
ورجا « البرنس » وقد تبرنس ذلة . حرما بحارم ، والمصاد مصاد
ضجت ثعالبُه فأخرس جرسها . بيضٌ تناسب فى الحديد حداد
وسواعد ضربت بهنّ وبالقنا . من دون ملة أحمد الأسداد
يركزن فى حلب ومن أفنانها . تجنى فواكه أمنها بغداد
يا من إذا عصفت زعازع بأسه . خمدت جحيم الشرك فهي رماد
عجبا لقوم حاولوك وحاولوا . عوداً فواتاهم إليه مراد
ورأوا لواء النّصر فوقك خافقا . فأقام منهم فى الضلوع فؤاد
من منكر أن ينسف السيل الربا . وأبوه ذاك العارض المدّاد
أو أن يعيد الشمس كاسفة السّنا . نارٌ لها ذاك الشهاب زناد
لا ينفع الآباء ما سمكوا من الـ . ـعلياء حتّى ترفعَ الأولاد
ملكٌ يقيّد خوفُه ورجاؤه . ولقلّما تتظافر الأضداد

وقال يهنئه بالنّصر يوم حارم قصيدة[1] أولُها :

* للملك ما نشاء من الدوام *

(٨١ أ)حظيت من المعالى بالمعانى . ولاذ الناس بعدك بالأسامى

(١) يختلف ترتيب بعض أبيات هذه القصيدة فى ق عما ورد هنا .

عزيز المنتمى عالى المراقى ... بعيدُ المرتمى غالى المسامى
فما أحدٌ إلى العلياء يدلى ... بمحتدك القسيمىّ القسامى
أبوك المعتلى قمم الأعادى ... إذا استعرت مذامرة القتام
زكا عرق العراق وقد تكنى ... به وأطال من شمم الشآم
وجدُّك جدّ حتى قال قوم ... على الفلك ابتنى عمد الخيام
فخرت فقُتَّ آباءً عظاما ... إذا فخر المنافرُ بالعظام
وقفنا والنواظر مسجدات ... وروح العز ذاريّ الختام
أساطر كالزّبور مفصلات ... كأنا مِن صلاةٍ فى نظام
لدى ملك سجاياه سجال ... تعاقب بين عفو وانتقام
فأهللنا لسالفتىْ هلالٍ ... وكفّرنا لضاحكتىْ حسام
ذهلنا والسماط يخال سمطا ... وقد سجد المقاول للسلام
هل الدّست استقل بليث غاب ... أم الفلك ارتدى بدر التمام
كريمٌ، أكثرت يده أيادى الـ ... ـعُفاة، وقلّت عدد الكرام(1)
وخيرُ سماعه ضربُ مدام ... إذا طرب الملوك إلى المُدام
تطير به إلى العُلياء نفسٌ ... عَروب عن ملاءمة الملام
سقى الله العوامل من جبال ... سقين النقع عن نقع الأوام
فكم أنتجت من أمل عقيم ... بها، وحسَمْت من داء عقام
بإنّب والرعال، كأن لولا ... تطاوح تحت عثير من أيام
وأيدى الخيل تذرع لج بحر ... من الدم مزبد الشّجّين طامى(2)
مقام كنت قطب رحاه، أرجى ... مقام بين زمزم والمقام

(١) يرد هذا البيت فى ق ٧٧ ا قبل البيت الذى يسبقه هنا .

(٢) يرد هذا البيت فى ق ٧٧ ب بعد ثلاثة أبيات .

أحلت الدين فيه ، وكان همًّا … عزيز القوم ، معتدل القوام[1]
رميتهمُ بأرعنَ مرجحنّ … أبارمُ ، وكنت أبرّ رامى
وفى شجرّاء حارمَ شاجرتهم … سواهمُ كالسهام بكالسهام[2]
فطائر حمّمت لهم حِماما … تطاير تحته ، مثل الحمام[3]
فلو قد مثل الإسلام شخصا … لرشف ما وطئت من السلام
حماه وقد تناعس كلّ راع … وقام وقد تقاعس كل حام[3]
فأكذب مدّعين هفوا وغرّوا … بأن الأرض تخلو من إمام[4]
أولى الأبصار كم هذا التعاشى … عن النور المبين بل التعامى
عن القمر الذى يجلوه ظل الـ … ـعواصم فى ضيا الليل التهامى
هو المهدى لا من ضل فيه … كثير واستخف سوى هشام
وقائم عصرنا لا ما يُعنى … به من صوغ أضغاث المنام
بنور الدّين أنشر كل حق … أطيل ثواؤه تحت الرجام
وطالت قبة الإسلام حتى اسـ … ـتوت بين الفوارس والنعام
تطابق لاسمه لفظ ومعنى … أحلاّه الطباق على الأنام
جرى قدّامه ابن سبكتكين … وقبل الوبل هينمة الرهام
وكان من النجوم بحيث تومى … إليه من غيابات التكامى
(٨١ ب) وجئت فصار أشمخ ما بناه … لما شيدت الطأ من رغام

---

(١) يرد هذه البيت فى ق ٧٧ ب بعد بيتين .

(٢) الساهمة : الناقة الضامرة والجمع سواهم . وساهم اسم فرس كان لكندة . انظر القاموس المحيط . والكاف فى كلة بكالسهام بمعنى مثل .

(٣) هذا البيت ساقط من ق ٧٧ ب .

(٤) يشير بهذا البيت والأبيات القليلة التى تليه إلى ما يعتقده الشيعة فى الإمام والقائم على الزمان والمهدى ، ويستخدم هذه الألفاظ الشيعية الاصطلاحية فى مدحه لنور الدين .

أطاعك إذ أطعت الله جدّ ركبت به الزمان بلا زمام
ألا يا ربّما اتفق الأسـامي وفاضل بينها درج التسامي
جنى شرفا من استغواه حتف إليك ، وكم حياة من حمام
ترشّفك الكماة وأنت موت كأنك من طعان فى طعام

فصـــل

قال الرئيس أبو يعلى(١) : توجه نور الدّين إلى ناحية حلب فى بعض عسكره فى الرّابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم فى أعمال حلب و إفسادهم . وصادفه فى طريقه المبشّر بظفر عسكره الحلبى بالإفرنج المفسدين على حارم ، وقتل جماعة منهم وأسرهم . ووصل مع المبشّر عدّة وافرة من رءوس الإفرنج المذكورين ، وطيف بها فى دمشق .

قال(٢) : وعاد نور الدّين إلى دمشق فى [بعض أيام(٣)] رمضان سالما بعد تهذيب حلب وأعمالها ، وتفقد أحوالها . واستقرّت الموادعة بينه و بين ولد السلطان مسعود صاحب قونية وزال ما كان حدث بينهما .

وفى شوال تقررت الموادعة والمهادنة بينه و بين ملك الإفرنج(٤) مدّة سنة كاملة ، أوّلها شعبان ، وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية(٥) ؛ وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشدّدة .

(١) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٣ . وهو اقتباس حرفى .
(٢) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٦ . وهو اقتباس حرفى .
(٣) ما بين الحاصرتين من ق ٧٧ ب .
(٤) وهو Baldwin III تولاها بين سنتى ٥٣٧ — ٥٥٧ (١١٤٣ — ١١٦٢ م) .
(٥) الدنانير الصورية أو الشخصية أو الإفرنتينية هى الدنانير الإفرنجية وتميزها عن الدنانير المصرية ، والإسلامية عامة ، أن صور الملوك كانت تنقش على وجوهها . صبح الأعشى : ٣ : ٤٤١ .

قال[1] : وفى العشر الآخر من ذى الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان استقرّ من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عُدّة وكفرة من الفرنج فى البحر ، وقوة شوكتهم بهم ؛ ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس ، وقد اجتمع فيها من جشارات[2] خيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحى الضياع ومواشى الحلابين والعرب والفلاحين الشىء الكثير الذى لا يحصى فيذكر ، للحاجة إلى الرعى بها والسكون إلى الهدنة المستقرة ووقع للمندوبين بحفظها تقصير ؛ فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه ، وأفقروا أهله منه ، مع من أسروه من تركمان وغيرهم ، وعادوا غانمين ظافرين آمنين . والله عادل فى حكمه ، يتولى المكافأة لهم ، والإدالة منهم . وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتى فى حوادث السنة الآتية[3] .

وفيها توفى القاضى أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس ، كاتب الإنشاء بالحضرة المصرية ، وأصله من دمياط ، ذكره العماد الكاتب فى الخريدة[4] وأثنى عليه . ومن شعره فى رجل كان يكثر التكبير فى آخر الصلاة[5] :

وفاتر النيـــة عنّينها مع كثرة الرّعدة والهزّه
مكبّر سبعين فى مرة كأنه صـــلى على حمزه

وله فى وصف كتاب[6] :

(١) اقتباس حرفى من ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٧ .

(٢) والمفرد جشار : مكان رعى الماشية من خيل وغيرها ، كما يقول دوزى الذى يوضح الكلمة بمثال جاء فيه « . . . وهجم على جشارهم فأخذ منهم من الخيل أربعمائة رأس ومائة من البقر » : Dozy, Supp. Dict. Ar.

(٣) هذه الجملة الأخيرة من كلام أبى شامة .

(٤) انظر : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر : ١ : ٢٢٦ . يقول العماد إنه من دمياط ويروى عن القاضى الفاضل أن ابن قادوس توفى سنة ٥٥١ ، ويذكر السيوطى فى حسن المحاضرة : ١ : ٣٢٤ ، أن الفاضل كان يسميه ذا البلاغتين .

(٥) الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٢٢٦ .

(٦) نفس المصدر : ٢٣٠ .

(٨٢ ا) مِدَادُه فى الطِّرس لما بدا قبّله الصَّبُّ ومن يزهد
كأنما قد حلّ فيـــه اللّمى أو ذاب فيه الحجر الأسود

وبلغنى أن القاضى الفاضل كان يعظمه كثيراً ويسميه ذا البلاغتين . وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه ، وكان لا يتمكّن من اقتباس فوائده غالباً إلا فى ركوبه من القصر إلى منزله بمصر ، ومن منزله إلى القصر ، فيسايره الفاضل ويجاريه فى فنون الكتابة والأدب والشعر .

قال : وفى يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأول من [هذه[(١)]] السنة توفى الفقيه الزّاهد أبو البيان نبأ بن محمد المعروف بابن الحَوْرانى ؛ وكان حسن الطريقة مذ نشأ صبيًّا إلى أن قضى ، متدينا نقيًا ، عفيفا سخيًا ، محبا للعلم والأدب ، والمطالعة للغة العرب . وكان له عند خروج سريره لقبره فى مقابر الباب الصغير[(٢)] المجاورة لقبور الصحابة من الشهداء ، رضى الله عنهم ، يوم مشهود ، من كثرة المتأسفين له والمثنين عليه .

قلت : وفى هذه السنة والتى بعدها كثرت الزّلازل بالشام .

قال أبو يعلى[(٣)] : فى ليلة الثانى والعشرين من ربيع الأول وافت زلزلة هائلة ، وجاءت قبلها وبعدها مثلها فى النهار وفى الليل ، ثم جاء بعد ذلك ثلاثٌ دونهنّ ، بحيث أحصين ست مرات . وفى ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع الناس منها فى أوّل النهار وآخره . وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماة بانهدام مواضع كثيرة وانهدام برج من أبراج أفامية بهذه الزلازل المباركة . وذكر [أن الذى أحصى عدده منها تقدير الأربعين[(٤)]] ؛ وما عُرف مثل ذلك فى السنين الماضية ، والأعصار الخالية . وفى التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار ، وبالليل ثانية فى آخره ؛ وفى

(١) ما بين الحاصرتين من ق ٧٨ ا .

(٢) فى الأصل ، وكذلك فى ق ، يرد بأداة التعريف وبغيرها كثيراً . وسمى الباب الصغير لأنه كان أصغر أبواب دمشق بالنسبة إلى غيره . انظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر : ج : ١ .

(٣) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٤ . ويتصرف أبو شامة فى هذا الاقتباس بالضغط الشديد .

(٤) ما بين الحاصرتين من ق ٧٨ ا — ب . ووردت فى ك : وذكر أنه أحصى عدده منها تقدير الأربعين .

أول شهر رمضان زلزلة مروّعة ، وثانية ، وثالثة ؛ وفى ثالث رمضان ثلاث زلازل ، وأخرى وقت الظهر ، وأخرى هائلة أيقظت النيام وروّعت القلوب انتصاف الليل . وفى ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق ؛ وعند الصّباح أخرى ، وفى الليلة التى تليها زلزلتان أوّلها وآخرها ، وفى اليوم الذى بعد يومها ، وفى ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة . وفى ثانى شوال زلزلة أعظم مما تقدّم ، وفى سابعه ، وسادس عشره ، وفى اليوم الذى جاء بعده ، أربع زلازل ، وليلة الثانى والعشرين منه . ودفع الله تعالى عنْ دمشق وضواحيها ما خافه أهلها من توالى ذلك وتتابعه ، برأفته بهم ، ورحمته لهم ؛ فله الحمد والشكر . لكن وردت الأخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها ، وانهدام مساكنها . وأما شيزر فإن الكثير من مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير . وأما كفرطاب فهرب أهلها منها خوفا على أرواحهم . وأمّا حماة فكانت كذلك . وأما باقى الأعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة .

(٨٢ ب) ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ففى[١] ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلة عظيمة ، وتلاها أخرى . وكذا فى ليلة العشرين واليوم بعدها . وتواصلت الأخبار من الشام بعظيم تأثير هذه الزلازل[٢] .

وفى[٣] ليلة الخامس والعشرين من جمادى الأولى وافت أربع زلازل ، وضجّ الناس بالتهليل والتسبيح والتقديس . وفى ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان . وتواصلت الأخبار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثرت فى حلب تأثيراً أزعج أهلها وأقلقهم ، وكذا فى حمص وهدمت مواضع فيها وفى حماة وكفر طاب وأفامية ، وهدمت ما كان بقى من مهدوم الزلازل الأولى . وحكى أن تيماء[٤] أثرت فيها هذه الزلازل تأثيراً مهولا .

(١، ٢) ما بين هذين الرقمين مقتبس من ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٧ ، بضغط شديد .

(٣) ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٢ — ٣٤٣ . بضغط شديد .

(٤) فى أطراف بلاد الشام ، بينها وبين وادى القرى على طريق الحج . وكان يقال لها تيماء اليهودى لأن حصن السموءل بن عاديا ، المسمى الأبلق الفرد ، كان يشرف عليها . معجم البلدان : ٢ : ٤٤٢ .

وفى[1] رابع رجب نهاراً وافت بدمشق زلزلة عظيمة لم يُرَ مثلُها فيما تقدم ، ودامت رجفاتها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم ، وهربوا من الدور والحوانيت والسقائف ، وانزعجوا ، وأثرت فى مواضع كثيرة ، ورمت من فص الجامع الشىء الكثير الذى يعجز عن إعادة مثله ؛ ثم وافت عقيبها زلزلة فى الحال ، ثم سكنتا بقدرة من حركهما . ثم تبع ذلك فى أول ليلة اليوم المذكور زلزلة ، وفى وسطه زلزلة ، وفى آخره زلزلة ، وفى ليلة الجمعة ثامن رجب زلزلة مهولة أزعجت الناس وتلاها فى النصف منها ثانية ، وعند انبلاج الصبح ثالثة ، وكذلك فى ليلة السبت ، وليلة الأحد ، وليلة الاثنين ؛ وتتابعت بعد ذلك بما يطول به الشرح . ووردت الأخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه ويرعب النفوس ذكره ، بحيث انهدمت حماة وقلعتها ، وسائر دورها ومنازلها ، على أهلها من الشيوخ والشبان ، والأطفال والنسوان ، وهم العدد الكثير والجم الغفير ، بحيث لم يسلم منهم إلا القليل اليسير . وأما شيزر فإن ربضها سلم إلا ما كان خرب أولا . وأما حصنها المشهور فإنه انهدم على واليها ، تاج الدولة بن أبى العساكر بن منقذ ومن تبعه ، إلا اليسير ممن كان خارجا . وأما حمص فإن أهلها كانوا قد اختلفوا منها إلى ظاهرها فسلموا وتلفت مساكنهم وتلفت قلعتها . وأما حلب فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد وكفر طاب وأفاميه وما والاها ودنا منها وبَعُد عنها من الحصون والمعاقل إلى جبلة[2] وجبيل[3] . وأتلفت سلمية[4] وما اتصل بها إلى ناحية الرّحبة وما جاورها . ولولم يدرك العباد والبلاد رحمة الله تعالى ولطفه ورأفته لكان الخطب أقطع .

وقد[5] نظم فى ذلك من قال :

روّعتنـــا زلازل حادثات بقضاء قضـــاهُ ربّ السماء

---

(١) من ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٤ — ٣٤٥ .

(٢) قلعة بساحل الشام قرب اللاذقية ، كانت أيام ياقوت من أعمال حلب . معجم البلدان : ٣ : ٥٣ .

(٣) بلدة شرقى بيروت على مسافة ثمانية فراسخ منها . معجم البلدان : ٣ : ٥٩ .

(٤) من أعمال حمص تارة وحماة تارة أخرى كما ذكر ياقوت . وسماها أهل الشام سَلَمِيَّة . وهى مقر الإسماعليين الفاطميين قبيل بدء دعوتهم السرية وفى أثنائها . معجم البلدان : ٥ : ١١٢ — ١١٣ .

(٥) اقتباس من ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٤ .

هدمت حصن «شيزر» و «حماة» أهلكت أهله بسوء القضاء
(١٨٣) وبلادًا كثيرة وحصونا وثغورا مُوَثَّقات البناء
فإذا ما رنت عيونٌ إليها أجرت الدمع عندها بالدماء
وإذا ما قضى من الله أمر سابق فى عباده بالمضاء
حار قلب اللبيب فيه ومن كا نَ له فطنة وحسن ذكاء
وتراه مسبِّحاً باكىَ العين مَرُوعاً من سخطة وبلاء
جلّ ربى فى ملكه ، وتعالى عن مقال الجهّال والسُّفهاء

قال[1] : وأمّا أهل دمشق ، فلما وافتهم الزّلزلة فى ليلة الاثنين التّاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها ، وأجفلوا من منازلهم والمسقف إلى الجامع والأماكن الخالية من البنيان خوفا على أنفسهم . ووافت بعد ذلك أخرى ، ففتح البلد وخرج النّاس إلى ظاهره والبساتين والصّحراء ، وأقاموا عدّة ليال وأيام على الخوف والجزع ، يسبحون ويهلّلون ، ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم فى اللّطف بهم والعفو عنهم .

قال[2] : وفى الرابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة عظيمة روّعت الناس وأزعجتهم ، لما وقع فى نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزّلازل فيها . ووافت الأخبار من ناحية حلب بأنّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير ؛ وأنها كانت بحماة أعظم مما كانت فى غيرها ، وأنها هدمت ما كان عمر فيها من بيوت يلتجأ إليها . وأنها دامت فيها أيّاما كثيرة فى كل يوم عدّة وافرة من الرّجفات الهائلة ، يتبعها صيحات مختلفات تُوفِى على أصوات الرّعود القاصفة المزعجة . فسبحان من له الحكم والأمر . وتلا ذلك ردفات متوالية أخف من غيرهنّ . فلما كان ليلة السبت العاشر من شوال وافت زلزلة هائلة بعد صلاة العشاء الآخرة ، أزعجت وأقلقت ، وتلاها فى

(١) نفس المصدر : ٣٤٥ .
(٢) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٦ . وهو التباس حرفى .

أثرها هزة خفيفة . وكذا[١] فى ليلة العاشر من ذى القعدة وفى غدها زلازل ، وليلة الثالث والعشرين ، والخامس والعشرين منه أيضاً زلازل ، نفر الناس من هولها إلى الجامع والأماكن المنكشفة ، وضجوا بالتكبير والتهليل ، والتسبيح والدعاء ، والتضرّع إلى الله تعالى . وفى يوم الجمعة ، انسلاخَ ذى القعدة ، وافت زلزلة رجفت لها الأرض وانزعج لها الناس .

وقال ابن الأثير[٢] : فى سنة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد ، وكان أشدّها بمدينة حماة وحصن شيزر ، فانهما خربا بمرّة[٣] وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعرّة ، وغيرهما من البلاد والقرايا . وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى ، وتهدّمت الأسوار (٨٣ ب) والدّور والقلاع . ولولا أنّ الله تعالى منّ على المسلمين بنور الدين ، جمع وحفظ البلاد ، وإلاّ كان دخلها الإفرنج بغير حصار ولا قتال . قال : ولقد بلغنى من كثرة الهلكى أنّ بعض المعلّمين بحماة ذكر أنّه فارقَ لِمُهِمّ ، فجاءت الزّلزلة فأخربت الدّور ، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم ؛ قال المعلّم فلم يأت أحد يسأل عن صبى كان له فى المكتب .

قلتُ : وقرأت فى ديوان الأمير الفاضل مؤيّد الدّولة أسامة بن مرشد بن منقذ : وقال فى الزّلازل التى أهلكت كثيراً من أهل الشام ، وكان ابتداؤها فى شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وهلك بها من هلك من الخلق ، وكان نحواً من عشرة آلاف نسمة ، قال : وكتب هذا المكتوب والزلازل إلى الآن تتعهد البلاد :

نعاءِ الموت والمعاد ، وأصبحـ ـنا نظنّ اليقين أحـــــلاما
فحركتنا هذى الزّلازل أىْ: تيقظوا ! كم ينام من ناما[٤] !

وقال أيضاً[٥] :

(١) الاقتباس هنا من ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٦ — ٣٤٧ على شكل مقتطفات مختصرة .
(٢) اقتباس حرفى من الأتابكة : ١٩٦ .
(٣) المثبت هنا من الأتابكة ، وهو يطابق ما ورد فى ق ٧٩ ب . وفى ك : مرة .
(٤) ديوان أسامة بن منقذ : ٢٩٠ .
(٥) ديوان أسامة بن منقذ : ٢٨٧ .

أيها الغافلون عن سكرة المو ت ، وإذْ لا يسوغ فى الحلق ريق
كم إلى كم هذا التشاغل والغفـ ـلة ا حار السارى وضل الطريق
إنما هزت الزلازل هــذى الـ ـأرض بالغافلين كى يستفيقوا

وقال فى الزلازل أيضاً ، وقد سكن الناس بعد الدور والنزهة فى أكواخ عملوها بالأخشاب لئلا تهدها الزلازل :

يا أرحم الراحمــين ارحم عبادك من هذى الزلازل فهى الهُلْك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهمُ ركاب بحر مع الأنفاس تضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ، ونصفهمُ لمصرع السلف الماضين يرتقب
تعوضوا من مشيدات المنازل بالـ ـأكواخ فهى ، قبور سقفها خشب
كأنهـا سـفن قد أقبلت وهم فيها ، فلا ملجأ منها ولا هرب

وقال[1] يرثى أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شيزر قصيدة منها :

ما استدرج الموت قومى فى هلاكهمُ ولا تخرمهم مثنى ووحــدانا
فكنت أصبر عنهم صبر محتسب وأحمــد الخطب فيهم عز أو هانا
وأقتدى بالورى قبلى ، فكم فقدوا أخاً ، وكم فارقوا أهــلاً وجيرانا
لكن سقيت المنايا وسط جمعهم رغّا ، فخروا على الأذقان إذعانا
وفاجأتهم من الأيام قارعــة سقتهم بكئوس الموت ذيفانا[2]

(١) فى هامش ك حاشية مكتوبة فى وضع مقلوب بالنسبة للمتن ، ونصها : « حاشية : هــذه القصيدة سبق منها فى أول الكتاب بيتان تمثل بهما المؤلف فى الخطبة عند ذكر نور الدين وصلاح الدين رحمهما الله تعالى » . اه . وهذه الحاشية موجودة أيضاً فى هامش ق ٨٠ ا . والبيتان هما :

وألبس الله هاتيك العظام ، وإن بلين تحت الثرى ، عفواً وغفرانا
سقى ثرى أودعوه رحمة ، ملأت مثوى قبورهم روحا وريحانا

انظر ص ٧ من هذا الكتاب .

(٢) الذيفان : بفتح الذال وكسرها وسكون الياء وتحريكها : السم القاتل . القاموس المحيط .

ماتوا جميعاً كرجع الطرف ، وانقرضوا ‌ ‌ ‌ هل ما ترى تاركٌ للعين إنسانا
أعزِزْ علىّ بهم من معشر صبروا[١] ‌ ‌ ‌ على الحفيظة إنْ ذو لُوثة لانا
لم يترك الدّهر لى من بعد فقدهم ‌ ‌ ‌ قلباً أجشّمه صبراً وسلوانا
(١٨٤) فلو رأونى لقالوا مات أسعدنا ‌ ‌ ‌ وعاش للهمّ والأحزان أشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبّرنى ‌ ‌ ‌ عنهم ، فيوضح ما قالوه تبيانا
بادوا جميعاً وما شادوا ، فواعجبا ‌ ‌ ‌ للخطب أهلك عُمّارا وعُمرانا
هذى قصورهم أمست قبورهم ‌ ‌ ‌ كذاك كانوا بها من قبل سكّانا
ويحَ الزّلازل ، أفنت معشرى ! فإذا ‌ ‌ ‌ ذكرتُهم خلتُنى فى القوم سكرانا
لا ألتقى الدّهر من بعد الزّلازل ، ما ‌ ‌ ‌ حييت ، إلا كسير القلب حيرانا
أخنت على معشرى الأدنيْن فاصطلمت ‌ ‌ ‌ منهم كهولا وشبّانا وولدانا
لم يحمهم حصنهم منها ، ولا رهبت ‌ ‌ ‌ بأسا تناذره الأقران أزمانا
إن أقفرت « شيزرٌ » منهم فهم جعلوا ‌ ‌ ‌ منيع أسوارها بيضا وخرصانا
همُ حموْها ، فلو شاهدتهم وهمُ ‌ ‌ ‌ بها ، لشاهدت آسادا وخفّانا[٢]
تراهمُ فى الورى أسداً ، ويومَ ندًى ‌ ‌ ‌ غيثاً مغيثاً ، وفى الظّلماء رهبانا
بنو أبى وبنو عمّى ، دمى دمهم ‌ ‌ ‌ وإن أرونى مناواةً وشنْآنا[٣]
يطيّب النفس عنهم أنهم رحلوا ‌ ‌ ‌ وخلّفونى على الآثار عجلانا

وكتب إليه الصالح بن رزيك قصيدة يعزّيه عن أهله منها :

بأبى شخصك الذى لا يغيب ‌ ‌ ‌ عن عيانى ، فهو البعيد القريب
يا أخلاىَ بالشآم لئن غبـ ‌ ‌ ‌ ـتُم فشوقى إليكمُ لا يغيب

(١) فى ق ١٨٠ ا : صبر بضمتين .
(٢) خفان ، كعفان مأسدة قرب الكوفة . القاموس المحيط .
(٣) بتخفيف همزة مناوأة ، وتسكين النون الأولى فى شنآنا حتى يستقيم وزن البيت .

غصبتنا الأيام قـــربكم مذ (م) ـا ولا بد أن تردّ الغصـــوب
كره الشام أهـــله ، فهو محقو قٌ بألاّ يقيم فيـــه لبيب
إن تجلّت عنه الحروب قليـــلا خلفتهـــا زلازلٌ وخطوب
رقصت أرضُه عشـيّة غنّى الرّ (م) عدُ فى الجوّ ، والـكريم طروب
وتشذّت حيطانـــه إذْ أمالتْـ ـها شمـــالٌ بزمرها وجنوب
لا هبوب لنـائم من أمانيـــه وللعاصفات فيهـــا هبوب
وأرى البرق شامتًا ضاحك السّنّ (م) وللجوّ بالغمام قطـــوب
ذكروا أنه تذوب به السُّحْـ ـبُ فما للصخور أيضاً تذوب ا
أبذنب أصـــابها قدر اللّـ ـه ا فللأرض ، كالأنام ، ذنوب
إنّ ظنّى ، والظّنّ مثل سهام الرّ (م) مى ، منها المخطى ومنها المصيب
أنّ هذا لأنْ غدت ساحة القُدْ سِ وما للإسلام فيها نصيب
منزل الوحى قبل بعث رسول اللّـ (م) ـه ، فهو المحجوج والمحجوج
نزلت وسطه الخنازير والخمـ ـرُ ، وبارى الناقوسَ فيه الصّليب
لو رآه المسيح لم يرض فعـــلا ذكروا أنه له منسـوب
أبعد الناس عن عبادة رب النّـ (م) ـاس قومٌ إلهُم مصـــلوب[(١)]
لهف نفسى على ديار من الشـكّـ (م) ـان أقوت ، فليس فيها عريب
فاحتسب ما أصاب قومك مجد الدّ (م) ين ، واصبر ، فالحادثات ضروب[(٢)]
إنْ تخصصْـكمُ نوائب مازا لت لـكم دون من سواكم تنوب[(٣)]

---

(١) يتأخر هذا البيت فى ق فيجىء بعد بيتين .

(٢) يتأخر هذا البيت فى ق فيجىء بعد بيتين كذلك .

(٣) يتقدم هذا البيت فى ق فيسبق البيت : أبعد الناس ... الخ .

فكذاك القناة ، يكسر يوم الرّ (م) وع منها صدر وتبقى الكعوب

(٨٤ب) وقرأت فى ديوان العرقلة : كان المولى صلاح الدّين يوسف بن أيوّب مع عبيدٍ غلامِ المولى ، وكان عبيد هذا موصوفا بالثّقل ، فى بيت بمدينة حماة يوم الزلزلة ؛ فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذى هُما فيه . فقال العرقلة :

قل لصلاح الدّين ربّ الندى   بلّغ عبيداً كلّ ما أمّله
بثقله لمـــــــا تصّا حيبتُما   سلّمك الله من الزلزلة

وقرأت فى بعض كتب أبى الحسين الرّازى عن شيوخه أنه وقع بدمشق فى ذى القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمة حُكى عنها نحوٌ مما مضى ذكره وأكثر ؛ نسأل الله تعالى تمام العافية .

فصـــــل

قال الرئيس أبو يعلى : فى[1] ثالث عشر ربيع الأول توجّه نور الدين إلى ناحية بعلبك لتفقّد أحوالها وتقرير أمر المستحفظين لها . وتواصلت الأخبار إليه من ناحية حمص وحماة بإغارة الفرنج الملاعين على تلك الأعمال[2] .

وفى[3] خامس عشر ربيع الأوّل ورد المبشّر من العسكر المنصور برأس الماء[4] بأنّ ناصر الدّين أمير أميران[5] لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سريّة وافرة العدد

(١ ، ٢) ما بين هذين الرقمين اقتباس حرفى من ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٨ .

(٣) اقتباس مختصر من ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٨ — ٣٤٢ .

(٤) ميدان فسيح للحرب فى حوران ، على بعد نحو عشرين ميلا شمالى درعا : The Damascus Chronicle, p. 306 .

(٥) ويلقب أيضاً نصرة الدين ، وهو أخو نور الدين ، ناب عنه فى حلب سنة ٥٥٢ عندما أصابه مرض كاد يودى به . وفى هذه المناسبة أيضاً أناب نور الدين فى دمشق أســد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبى . وتبين لنور الدين فى أثناء مرضه عدم إخلاص أخيه وطمعه فى أملاكه ، وذلك عندما انتشرت الشائعات بخطورة حال نور الدين ، ولهــذا لم ينبه عنه فى المرة الثانية عندما أصابه المرض سنة ٥٥٤ بل أوصى لأخيه قطب الدين صاحب الموصل . وسيأتى تفصيل هذا كله ، فى مناسباته ، فى صميم المتن .

إلى ناحية بانياس لتقويتها ، أسرع النهضة إليهم ، وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة ؛ فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها ، فأوقع بهم . وقد كان كمن لهم فى مواضع كمناء من شجعان الأتراك ، واندفع المسلمون بين أيديهم فى أول المجال ، وظهر عليهم الكمناء ، فأنزل الله نصره على المسلمين ، بحيث لم ينج منهم إلا القليل ؛ وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ، ومسلوب وأسير . وحصل فى أيدى المسلمين من خيولهم وسلاحهم ، وأموالهم وأسراهم ، ورءوس قتلاهم ، مَا لاَ يحُدّ كثرة . ومحقت السيوف عامة رجّالتهم من الإفرنج ومسلمى جبل عاملة[1] المضافين إليهم . ووصلت الأسرى ورءوس القتلى والعُدد إلى دمشق ، وطيف بهم ، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق ، وكان يوما مشهودا . وأنفذ إلى نور الدين إلى بعلبك جماعة من أسرى المشركين فأمر بضرب أعناقهم صبرا .

قال : وتبع هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين[2] باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان ، وأنه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ظهرت فى معاقلهم من ناحية الشمال ، فانهزمت ، وتخطف التركمان منهم من ظفروا به . قال : ووصل أسد الدين إلى بعلبك فى العسكر من مقدمى التركمان وأبطالهم للجهاد ، وهم فى العدد الكثير والجم الغفير ، واجتمعوا بنور الدين . وتقررت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها ، والابتداء بالنزول على بانياس . وقدم نور الدين دمشق فى إخراج آلات الحروب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياما يسيرة (١٨٥) ويتوجه . وأمر بالنداء بدمشق فى الغزاة والمجاهدين ؛ فتبعه من الأحداث والمطوعة ، والفقهاء والصوفية والمتدينين ، خلق كثير ؛ وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول .

وفى[3] سابع ربيع الآخر ، عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب ، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس ، يتضمن

(١) يقع عند ملتقى الطرق الموصلة بين صفد وتبنين وبانياس : The Damascus Chronicle, P. 334

(٢) هو أسد الدين شيركوه ، عم صلاح الدين يوسف بن أيوب .

(٣) اقتباس من ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٠ .

كتابة الإعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدّين بناحية هُونين[١] في التّركمان والعرب بأن الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، أنهضوا سرية من أعيان مُقدَّميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس ، سوى أتباعهم ، لكبس المذكورين ، ظنّاً منهم بأنهم فى قلّ ، ولم يعلموا أنهم فى ألوف . فلما دنَوْا منهم وثبوا إليهم كاللّيوث إلى فرائسها فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسّلب ، ولم يبق منهم إلا اليسير . ووصلت الأسرى ورءوس القتلى وعُددهم من الخيول المنتخبة ، والطوارق ، والقنطاريات[٢] ، إلى دمشق وطيف بهم فيه يوم الاثنين تالى اليوم المذكور .

قال[٣] : وتلا هذه الموهبة المتجدّدة سقوط الطّائر من المعسكر المحروس ببانياس ، فى يوم الثلاثاء تلو المذكور ، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسّيف قهراً ، على مضىّ أربع ساعات من يوم الثّلاثاء المذكور ، عند تناهى النّقب وإطلاق النار فيه ، وسقوط البرج المنقوب وهجوم الرّجال فيه ، وبذل السيف فى قتل من فيه ، ونهب ما حواه ، وانهزام من سلم إلى القلعة وانحصارهم بها ، وأنّ أخْذهم بمشيئة الله تعالى لا يبطئ ، والله يسهله ويعجله .

قال[٤] : واتّفق بعد ذلك أن الفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفرى صاحب بانياس[٥] ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس ، وقد أشرفوا على الهلاك

---

(١) بلدة فى جبال عاملة تطل على نواحى مصر القريبة منها : معجم البلدان : ٨ : ٤٨٦ . ويذكر الأستاذ Gibb أنها تقع عند ملتقى الطريق القادم من صفد بالطرق الموصلة من تبنين إلى بانياس : The Damascus Chronicle, P. 334

(٢) الطوارق جمع طارقة : وهى الدرقة أو الترس Buckler ؛ والقنطاريات جمع القنطارية أو القنطرية : وهى فى الأصل خشب الرمح أو الحربة ، ثم اتسع استعمالها فأطلقت على الرمح نفسه . ويذكر الأستاذ جب أن القنطاريات هى الـ Lances . انظر : Dozy, Supp. Dict. Ar. وكذلك : The Damascus Chronicle, p. 334

(٣) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٠ — ٣٤١ . وهو اقتباس حرفى .

(٤) نفس المصدر : ٣٤١ .

(٥) هو : Humphry, Lord of Banyas انظر : The Damascus chronicle, P. 335

وبادروا و بالغوا فى سؤال نور الدّين الأمان[١] ويسلّمون ما فى أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين ؛ فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوا فيه . فلما وصل ملك الفرنج فى جمعه من الفارس والرّاجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكريْن ، النّازل على بانياس لحصارها ، والنّازل على الطريق لمنع الواصل إليها ، اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستخلصوا من كان فيها . وحين شاهدوا ماعمّ بانياس ... ب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها .

قال[٢]: وفى تاسع جمادى الأولى سقطت الأطيار بالكتب من العسكر النّورى تتضمن الإعلام بأنّ الملك العادل نور الدّين ، أعز الله نصره ، لما عرف أنّ معسكر الكفرة الإفرنج على الملاّحة[٣] ، بين طبريّة و بانياس ، نهض فى عسكره المنصور من الأتراك والعرب وجدّ فى السير . فلما شارفهم وهم غارّون[٤]، وشاهدوا راياته قد أظلّتهم ، بادروا بلبس السّلاح والركوب وافترقوا أربع فرق ؛ وحملوا على (٨٠ ب) المسلمين . فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين ، فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسّهام وخرصان الرّماح ، حتى زلزلت بهم الأقدام ، ودهمهم البوار والحمام . فأنزل الله نصره على المسلمين ، وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسراً ، واستأصلت السّيوف الرّجّالة ، وهم العدد الكثير ، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر ، وقيل إن ملكهم[٥] لعنه الله فيهم ، وقيل إنه فى جملة القتلى ، ولم يعرف له خبر[٦] . ولم يفقد من عسكر الإسلام سوى رجلين أحدهما من

---

(١) فى ك ، وكذلك فى ق ٨٢ وردت هذه العبارة هكذا : وبالغوا فى السؤال لنور الدين الأمان. وفى ذيل تاريخ دمشق : ٣٤١ : وبالغوا فى السؤال للأمان للمولى نور الدين .

(٢) أبو يعلى : ذيل تاريخ دمشق : ٣٤١ .

(٣) قريبة جداً من الركن الشمالى الغربى لبحيرة الحولة .The Damascus Chronicle, P. 336

(٤) هكذا وردت فى ك وفى ذيل تاريخ دمشق : ٣٤١ . وفى ق ٨٢ أ : غيارون .

(٥) وهو Baldwin III صاحب القدس .

(٦) والواقع أنه هرب من المعركة بعد الهزيمة واحتمى بقلعة صغيرة نحو ثلاثة أيام متخفياً لا يعلم بمقره أحد ، ثم نجا بعد ذلك إلى عكا . ومن بين من وقع فى الأسر من كبار الفرنج فى هذه المعركة برتراند رئيس فرسان المعبد عندئذ .

الأبطال المذكورين قتل أربعة من شجعان الكفرة ، وقتل عند حضور أجله إلى رحمة الله والآخر غريب لا يعرف ؛ وكل منهما مضى شهيداً ، مثاباً مأجورا ، رحمهما الله . وامتلأت أيدى العساكر من خيولهم وعُددهم ، وكُراعهم وأثاث سوادهم ، وحصلت كنيستهم فى يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة ؛ وكان فتحا مبينا ، ونصرا عزيزاً . ووصلت الأسرى ورءوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالى يوم الفتح ، وقد رتّبوا على كلّ جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رءوسهم بشعرها عدّة . والمقدّمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كلّ واحد منهم على فرس ، وعليه الزردية والخوذة ، وفى يده راية . والرّجالة كل ثلاثة وأربعة ، وأقل وأكثر فى حبل . وخرج من أهل البلد الخلق الذى لا يحصى لهم عدد ، من الشيوخ والشبان ، والنساء والصبيان ، لمشاهدة ما منح الله ، تعالى ذكره ، كافّةَ المسلمين من هذا النصر المبين ، وأكثروا شكر الله تعالى ، والدعاء لنور الدّين المحامى عنهم ، والرامى دونهم ، والثّناء على مكارمه ، والوصف لمحاسنه .

ونظم[1] فى ذلك أبيات فى هذا المعنى :

ما رأينا فيما تقدّم يوما   كامل الحسن غاية فى البهاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم   ذلّةُ الأسر والبلا والفناء
وبراياتهم على العيس زُفّوا   بين ذلٍّ وحسرةٍ وعناء
بعد عزٍّ لهم وهيبة ذكر   فى مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الأعادى   عند شنّ الإغارة الشعواء
شؤم أخذ الجشار كان وَبالاً   عمّهم فى صباحهم والمساء
نقضوا هدنة الصلاح بجهل   بعد تأكيدها بحُسن الوفاء
فلقوا بغيهم بما كان منهم   من فساد بجهلهم واعتداء

(١) توجد هذه الأبيات أيضاً ، فيما عدا البيت الأول ، فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٢ .

لا حمى الله شملهم من شتات ... بمَواضٍ تفوق حدّ المضاء

فجزاء الكفور قتلٌ وأسر ... وجزاء الشّكور خير الجزاء

ولربّ العباد حمدٌ وشكر ... دائمٌ معْ تواصل النّعماء

قال[١] : وشرع نور الدين فى قصد أعمالهم لتملكها وتدويخها ، والله المعين والموفق .

وقال ابن أبى طى : فى سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حمص وحماة ، وأفسدوا ، وأكثروا العيث ؛ واتصل ذلك بنور الدّين فأنهد إليهم عسكراً كثيفاً ، فأوقع بهم وهزمهم إلى (١٨٦) أرض بانياس . وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشدّ حصار ، حتى افتتحها فى الثامن والعشرين من ربيع الأول ، وأخذ جميع ما كان للفرنج فيها ، وأنفذ الغنيمة والأسارى مع أسد الدّين إلى دمشق ، وأنفذ معه مقدار ألف رأس . واتصــل ذلك بالفرنج ، فأنهضت إلى معارضة أسد الدّين قطعة من خيّالتها ، واتّصل هذا بأسد الدين ، وقد دهمته الفرنج ، فلبس لأمته ، وتقدّم فى جماعة من مماليكه بين يدى العسكر ، وأمر الرجال بلقاء الفرنج ، وناجزهم الحرب ، فلم يتماسكوا بين يديه ، ورجعوا على أدبارهم ؛ وتبعهم مقدار فرسخين بقتل و يأسر ؛ وغنم منهم غنيمة حسنة ، وعاد إلى أصحابه ظافراً ، وتوجه فى وجهته مؤيدا .

فصـــل

قال الرّئيس أبو يعلى[٢] : وفى العشر الثانى من جمادى الآخرة تواصلت الأخبار بوصول ولد السلطان مسعود[٣] فى خلق كثير للنزول على أنطاكية . وأوجبت الصّورة تقرير المهادنة بين نور الدّين وملك الإفرنج ؛ وتكرّرت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات ، بحيث فسد الأمر ولم يستقرّ على مصلحة ووصل نور الدين إلى مقرّ عزه فى بعض عسكره ، وأقر باقيه ومقدميه مع العرب بإزاء أعمال المشركين .

(١) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٢ .

(٢) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٣ . وهو اقتباس حرفى .

(٣) قليج أرسلان الثانى صاحب مملكة قونية السلجوقية بآسيا الصغرى .

قال[١] : وفى ثالث رجب توجه نور الدين إلى ناحية حلب وأعمالها لتجديد مشاهدتها، وإمعان النظر فى حمايتها عندما غاث المشركون فيها ، وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها . قال بعد ذلك : وقد تقدم من ذكر نور الدين ونهوضه فى عساكره من دمشق إلى بلاد الشام عند انتهاء الخبر إليه بتجمع أحزاب الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، وقصدهم لها ، وطمعهم ، بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها ، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل فى أعمالها وثغورها — لحمايتها والذبّ عنها ، وإيناس من سلم من أهل حمص وشَيْزَر ، وكفر طاب ، وحماة ، وغيرها ، بحيث اجتمع إليهم العدد الكثير والجم الغفير ، من رجال المعاقل والأعمال والتركمان . وخيّم بهم بإزاء جَمْع الفرنج بالقرب من أنطاكية ، وحصرهم ، بحيث لم يقدر فارس منهم على الإقدام على الفساد . فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد ؛ فلما اشتد به ، وخاف منه على نفسه ، استدعى أخاه نصرة الدّين أمير أميران ، وأسد الدّين شيركوه ، وأعيان الأمراء والمقدّمين ، وأوصى إليهم ما اقتضاه رأيه واستصوبه ، وقرّر معهم كَوْنَ أخيه نصرة الدّين القائمَ فى منصبه من بعده ، والسّادَّ لِثُلمة فقده ، لاشتهاره بالشهامة وشدّة البأس ، ويكون مقيما بحلب ؛ ويكون أسد الدّين فى دمشق فى نيابة نصرة الدّين ؛ واستحلف الجماعة على هذه القاعدة . فلما تقرّرت اشتد به المرض ، فتوجّه فى محفّة إلى حلب وحصل فى قلعتها ، وتوجّه أسد الدّين إلى دمشق لحفظ أعمالها من فساد الإفرنج . وتواصلت (٨٦ ب) الأراجيف بنور الدّين فقلقت النّفوس ، وأزعجت القلوب ، فتفرّقت جموع المسلمين ، واضطربت الأعمال . وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهاجموها وحصلوا فيها ؛ فقتلوا ، وأسروا ، ونهبوا . وتجمّع من عدّة جهات خلقٌ كثير من رجال الاسماعيليّة وغيرهم ، وظهروا عليهم ، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر . واتّفق وصول نصرة الدّين إلى حلب فأغلق والى القلعة ، مجد الدّين[٢] ، فى وجهه الأبواب وعصى عليه . فثارت أحداث حلب ، وقالوا هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه . فزحفوا فى السّلاح إلى باب البلد ،

(١) اقتباس طويل من ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٨ — ٣٥٠ يتناوله أبو شامة بالحذف والاختصار .

(٢) هو مجد الدين ابن الداية . انظر ص : ٤٨ : حاشية : ٣ من هذا الكتاب .

وكسروا أغلاقه ؛ ودخل نصرة الدّين فى أصحابه وحصل فى البلد . وقامت الأحداث على والى القلعة باللوم والإنكار والوعيد ، واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها إعادة رسمهم فى التأذين بحىّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَل ، مُحَمَّدٌ وَعَلِىٌّ خَيْرُ الْبَشَر[١] . فأجابهم إلى ما رغبوا فيه ، وأحسن القول لهم والوعد ، ونزل فى داره . وأنفذ والى القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول : مولانا نور الدّين حَىٌّ فى نفسه وما كان إلى ما فُعل حاجة . فقيل الذّنب فى ذلك للوالى ؛ وصعد إلى القلعة من شاهد نور الدّين حيًّا يفهم ما يقول وما يقال له . فأنكر ما جرى وقال : [أنا[٢]] أصفح للأحداث عن هذا الخطل ، ولا أؤاخذهم [بالزّلل[٢]] ؛ وما طلبوا إلّا صَلاحَ حال أخى وولىّ عهدى من بعدى . وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر فى الأقطار بعافيته ، فأنست القلوب بعد الاستيحاش ، وابتهجت النّفوس بعد القلق والانزعاج ؛ وتزايدت العافية ، وصُرفت الهمم إلى مكاتبات المقدّمين ، بالعَوْد إلى جهاد الملاعين . وكان نصرة الدّين قد ولى مدينة حرّان وما أضيف إليها ، وتوجه نحوها ولمّا تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدّين واعتزامه على استدعاء العساكر الإسلامية للجهاد ، سارع بالنّهوض من دمشق إلى حلب ؛ ووصل إليها فى خيله ، فاجتمع بنور الدّين فأكرم لُقياه ، وشكر مسعاه ؛ وشرعوا فى حماية الأعمال ، من شرّ عُصَب الكفر والضّلال .

قال[٣] : ونظمت هذه الأبيات فى هذا المعنى :

لقد حسنت صفاتك يا زمانى وفزت بما رجوت من الأمانى

---

(١) يدل هذا على أن هذه الجماعة شيعية ، وحلب كانت منذ أمد طويل ، تميل إلى المذهب الشيعى وتتعصب له ، وكان أمراؤها من السنيين يضطرون إلى مجاراتهم أحياناً مراعاة لمصلحتهم ، ونصرة الدين هذا خير مثل ؛ وهناك مثل آخر فى رضوان بن تتش الذى أراد أن يغتصب دمشق من أخيه دقاق فتقرب إلى شيعة حلب وأجاب كثيراً من طلباتهم ، وبالغ فى هذا حتى دعا على منابرها للفاطميين ، وإن كان لم يستطع الاستمرار فى اتباع هذه السياسة بسبب غضب قواده من الأتراك السلاجقة : The Encyclopaedia of Islam

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ٨٣ ب .

(٣) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٠ .

فكم أصبحت مرتاعا لخوف ... فبدّلت المخافة بالأمان (١)
وجاءتنا أراجيفٌ بملك ... عظيم الشأن ، مسعود الزّمان
فروّعت القلوب من البرايا ... وصار شجاعُها مثل الجبان
وثارت فتنة يُخشى أذاها ... على الإسلام فى قاصٍ ودان
ووافى بعد ذاك بشيرُ صدق ... بِعَافيةِ المليك مع التّهانى
فولى الخوف منهدمَ المبانى ... وعاد الأمن معمورَ المغانى

(٨٧ ا) قال ابن أبى طىّ : وفى هذه السّنة كانت الزّلزلة التى هدمت شيزر ، فخرج نور الدّين وأخذها من بنى منقذ وسلّمها إلى مجد الدّين ابن الدّاية ، وسار إلى سَرْمِين (٢) ، لأنه بلغه حركة الفرنج ، فاعترضه هناك مرض أشفى منه ؛ فأحضر شيركوه ، وأوصاه بالعساكر ، وأن يكون الأمر بعده لأخيه نصرة الدين أمير أميران . فسار أسد الدين إلى دمشق وأقام ببرج الصُّفَّر خوفاً أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها ؛ ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين فعاد إلى خدمته ، مهنئا له بالعافية . وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب فى مدّة مرض نور الدين فلما أفاق نور الدين من مرضه سيّره إلى حرّان وجعل ولىّ عهدِه أخاه قطبَ الدين صاحب الموصل .

قال : وكان مجد الدين طمع فى الملك لنفسه ، فتحزم لأمره ، وتقرّب إلى الناس ، وجعل له أصحاب أخبار ، وشحَن الطّرقات والسّبل بالرّجال لتفتيش الخارجين من حلب وغيرها والداخلين إليها .

قلت : ولابن منير تهنئة لنور الدين بالعافية من مرض غير هذا :

يا شمس لا كسف ولا تكدار ... ولا خلت من نورك الأنوار

---

(١) بعد هذا البيت فى تاريخ دمشق : ٥ : ٣٥٠ :

فكم من وحشة دالت وزالت ... وهدمت الرفيع من المبانى

(٢) من أعمال حلب ، واسمها القديم سدوم ؛ وأهلها ، زمن ياقوت ، من الإسماعيلية : معجم البلدان : ٥ : ٧٥ .

البدرُ منقوصٌ وأنت كاملٌ ... لك السّرايا وله السّرار
برؤك للإسلام من أدوائه ... بُرْءٌ ، وفى أعدائه بَوار
ما أنت إلا السّيف صدّ صدأً ... عن متنه مضربه البتّار
لو كان محمولاً أذًى عن متنفس ... لحملته دونك الأبصار
ولو فدت أرضٌ سماء ، سافت الـ ... ـملوكَ فى فدائك الأمصار
أنت غياث نخاهم إن أجدبوا ... وخيرُهم إن ذُكر الخيار
وفى سرير الملك منها ملك ... لله فى سرائه أسرار
خير ملوك الأرض جدًّا وأبًا ... إن هزّ عِطفَى ما جدٍ نِجار
مدّ على الدّين رواق دولة ... تنازعت أسمارها السّمّار
علت بناء ، وحلّت فى يده ... فهى عليه السّور والسّوار
محمودٌ المحمودُ عصرُ ملكه ... فللحَيا من مُزنه اعتصار
يا نور دينٍ أظلمت آفاقه ... لو لم تبلّج هذه الآثار
لله أيّامك ، ما تخطّه ... بالمسك من إسفارها الأسفار
سلمت للإسلام ، ترعى سرحه ... إذا وَنَى رعاته وجاروا
شكوت فالدنيا على سكانها ... قرارةٌ جانبها القرار
كادت تموت الأرض من إشفاقها ... لولا شفاء ردّها تمار
زرّت عليك التُّرك جَيْبَ نسب ... يحسدها بزيّه نزار
لا عَدِمت منك الأمانى ربّها ... معطًى من الإقبال ما يختار
ما سمح الدّهر بأن تبقى لنا ... فكلّ جرح مسّنا جبار

وله من قصيدة أخرى :

(٨٧ب) لا نؤدى لأنعُم الله شكراً ... بك يا أعظم البريّة قدرا
زور عشر وافى لإقلاع ذا ... جملا الملة المنناة عشرا

أمْ مغنـــاك ضامنٌ أنّ أيّا   مَكَ تُفنى الأحقابَ عصراً فعصرا

فى محلٍّ له السِّماكانِ سمكٌ   وجدودٌ لها المجرّة مجرى

أيّها العادل المظفّر ، لا قصّـ (م) ـتْ شَبا الدّهر من شباتك ظُفرا

جعل الله ما استهلّ من الأشـ   ـهر ينهلُّ فى مغازيك نصرا

ـداً ينشر التّهـــانى على سا   حاتك الزّهر فى المواسم نشرا

أنت أسرى الملوك نفساً وفلساً   وإلى أسرهم من الطّيف أسرى

ملِكٌ عنده المشارب تُستمـ   ـرَى ، وأخلاف الجود تمرى فتمرى

فَلَكَ الله مِنْ مثمّرِ بَذْرٍ   يصطفى صالحاً ويحصد أجرا

عش لمُلك أصبحت فى الدّست منه   فوق كسرى عدلاً وشعباً وكسرا

تفطر الطّيّبات للفطر فطراً   وتمرّ الأعداء فى النّحر نحرا

يقتنى من كساك أنفس ملبو   س ويفنيك منه أطول عمرا

أنت تُملى ونحن ننظم ما تنـ   ـثرهُ الغرُّ مِنْ مساعيك نثرا

صرف الله عنك عين زمان   بك صارت بعد الإصابة عَبْرى

وتوالت لك الفتوح إلى أنْ   تملأ الخافقين نَهْياً وأمرا

كلّما أنهجت ملابس نُعمى   وتملّيتهن ، جدّدت أخرى

وقال القيسرانى من قصيدة :

أشرق البهو ياجبين الهلال   فجلاء لوجهك المتـــلالى

عن ليالٍ حجبن عنّا سناها   إنّما غيبة الهلال ليـــالى

لم يكن ما ألمّ بالجسم شكوى   فتُهنّا بوافد الإقبـــال[1]

لا ، ولا كان زائراً من سقام   إنما كان طائفاً من خيـــال

(١) فى ق ٨٤ ب : لم يكن ما ألم يا نجم . وتهنأ بتسهيل الهمزة .

وعكةٌ أقلعت وأنت صحيح ويصح النّسيم بالإعتلال(١)
أومّا هذه السّماء سرار الـ ـبَدْر فيها على طريق الـكمال
نعمة الله لا يخص بها الخا لق إلاّ من كان منه ببال
ولباس من المثوبة والغُفْـ ـران أُلبِسْت ضافِيَ الأذيال
فهنيئالك البقـــاء وإن كا ن هناء يخصّ فيه المعـــالى
والتقى ، والنّدى ، ومُعربة الخيْـ ـلِ ، و بيض الظّبا ، وسُمر العوالى
والخلال التى إذا ما تحلت صدرت منك عن كريم الخلال
إن وقتك النّفوس ما تتوقى فحقيق فدا الموالى الموالى
أوْ تحصّنت فى شعار من التّقْـ ـوى فمازلت منه فى سربال
فشفى الله مَنْ أجلُّ دوائيْـ ـه صريح الدعاء والإبتهال(٢)
مَلِكٌ أبدل المخافة بالأمْـ ـنِ وأضحى يُعَدُّ فى الأبدال
وهو تاج الملوك ، فالملك العا طل حالٍ به على كل حال
وإذا النّيّران غابا ، فنور الدّ (م) ين شمسٌ فجرية الآصال
قد أرت وجهك العلا ما يريها وهى مرآة صالح الأعمال
وقضى الله أن نجمك فى الأنْـ ـجُم سامٍ ، وأن جدّك عال
(١٨٨) كلّ يوم هــذا المحيّا محيّى بالتّهانى على يد الإقبـــال

فصـــل

فى ذكر حِصْن شَيْزَر وولاية بنى مُنْقذ

قال ابن الأثير(٣) : وهو حِصْن قريب من حماة ، بينهما نحو نصف نهار . وهو من

(١) بقطع الهمزة فى كلمة الاعتلال حتى يستقيم وزن البيت .
(٢) بقطع همزة الابتهال .
(٣) اقتباس حرفى من الأتابكة : ١٩٦ — ٢٠٠ . وهو اقتباس طويل .

أمنع القلاع وأحصنها ، على حجر عالٍ ، له طريق منقور فى طرف الجبل ، وقد قُطع الطريق فى وسطه وجُعل عليه جسر من خشب ؛ فإذا قُطع ذلك الجسر تعذّر الصّعود إليه . وكان لآل مُنْقِذ الـكنانيّين ، يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس[١] إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن على بن المقلّد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم ، بعد أبيه أبي الحسن على ، فبقى به مدّة طويلة إلى أن ماتٍ بشيزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة[٢] . وكان شجاعا كريما ، صوّامًا قوّاما . فلمّا حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن على ، وهو والد أسامة ، فقال والله لا وليتها ، ولأخرجنّ من الدنيا كما دخلتها . وكان عالما بالقرآن والأدب ، كثير الصّلاح ؛ فولاّها أخاه أبا العساكر سلطان بن على ، وكان أصغر منه ، فاصطحبا أجمل صحبة مدّة من الزمان . فولد أبو سلامة مرشد عدة أولاد ذكور ، فـكبروا وسادوا . منهم عزّ الدولة أبو الحسن على ، ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد ، وغيرهما ؛ ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر لجاءه أولاد ، فحسد أخاه على ذلك ؛ فـكان كلما رأى صِغَر أولاده وكِبَر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده . وسعى المفسدون بينهما ، فغيّروا كلاًّ منهما على أخيه . فـكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغته عنه ، فأجابه بأبيات جيّدة فى معْناها ؛ وكلهم كان أديبا شاعراً ، فمنها[٣] :

ظَلُومٌ أبتْ فى الظّلم إلاّ تماديا ... وفى الصّدّ والهجران إلاّ تناهيا
شكَتْ هجرنا فى ذاك ، والذّنب ذنْبها ... فياعجبًا من ظالمٍ جاء شاكيا
وطاوعَت الواشين فىّ ، وطالما ... عصيتُ عذُولاً فى هواها وواشيا

(١) هو أسد الدولة أبو على صالح بن مرداس من قبيلة بنى كلاب العربية . بدأ يهاجم حلب على رأس جماعة من البدو سنة ٤٠٣ (١٠١١ م) ، واستمر فى إغاراته عليها ، حتى ساعده الحظ بثورة أهلها ضد الفاطميين سنة ٤١٤ (١٠٢٣ م) ، وتسلمها صالح عندئذ من أهلها ، وبقى حاكما عليها حتى قتله الفاطميون فى معركة أشعلوها ضده سنة ٤٢٠ (١٠٢٩ م) ، بعد أن نجح فى تأسيس حكم الأسرة المرداسية التى بقيت تحكم حلب حتى سنة ٤٧٢ (١٠٧٩ م) . انظر : Muhammadan Dynasties .

(٢) عن آل منقذ وتطور تاريخهم : انظر كتاب الاعتبار ، لأسامة بن منقذ ؛ وفيات الأعيان ، فى مواضع مختلفة ؛ تهذيب تاريخ ابن عساكر ؛ مقدمة كتاب لباب الآداب .

(٣) هذه الأبيات موجودة أيضاً فى الأتابكة ، وهو المصدر الذى يقتبسه أبو شامة هنا .

ومال بهاتيهُ الجمال إلى القِلى … وهيهات أن أمسى لها الدّهرَ قاليا
ولا ناسياً ما أودعت من عهودها … وإن هى أبدت جفوةً وتناسيا
ولمّا أتانى من قريضك جوهر … جمعت المعالى فيه لى والمعانيا
وكنت هجرت الشّعر حيناً ، لأنه … تولّى برغمى حين ولّى شبابيا
وأين من السّتّين لفظ مفوّف … إذا رُمت أدنى القول منه عصانيا
وقلتُ أخى يرعى بنىّ وأسرتى … ويحفظ عهدى فيهم وذِماميا
ويجزيهمُ ما لمْ أكلّفه فعله … لنفسى ، فقد أعددته من ثُرائيا
فمالك لمّا أن جنى الدّهر صَعْدتى … وثلّم منى صارماً كان ماضيا
تنكّرت حتى صار برُّك قسوة … وقربك منّى جفوةً وتنائيا
فأصبحتُ صِفرَ الكفِّ مما رجوته … كذا اليأس قد عفّى سبيل رجائيا
على أنّى ما حُلت عما عهدته … ولا غيّرت هذى السّنونُ ودادِيا
فلا غَرْوَ عند الحادثات فإنّنى … أراك يمينى والأنام شِماليا
(٨٨ ب) تهنّ بها عذراء ، لو قُرنت بها … نجوم السّماء لم تُعَدّ دراريا
تحلّت بِدُرٍّ من صفاتك ، زانها … كما زان منظومُ اللآلى الغوانيا
وعشْ بانياً لِلْجُود ما كان واهنا … مُشيدا من الإحسان ما كان واهيا

قال[1] : وكان الأمر فيه فى حياة الأمير بعض الستر ، فلمّا مات ، سنة إحْدى وثلاثين وخمسمائة ، قلب أخوه لأولاده ظهر المِجنّ ، وبادأهم بما يسوءهم ؛ وتمادت الأيام بينهم إلى أنْ قوِى عليهم فأخرجهم من شَيْزر . وكان أعظم الأسباب فى إخراجهم ما حُدِّثت به عن مؤيد الدولة أسامة بنْ مرشد قال : كنت من الشّجاعة والإقدام على ما قد علمه النّاس . فبينا أنا بشيزر وإذا قد أتانى إنسان أخبرنى أن بدجلة ، يقاربها ، أسداً ضاريا فركبت فرسى وأخذت سيفى وسرت إليه لأقتله ، ولم أعلِم أحداً من النّاس لئلا أُمنع من ذلك . فلما

(١) ابن الأثير فى الأتابكة . وهو استمرار للاقتباس الذى بدأ ببداية هذا الفصل .

قربت من الأسد نزلت عن فرسى ور بطته ، ومشيت نحوه . فلما رآنى قصدنى ووثب ، فضربته بالسيف على رأسه فانفلق ، ثم أجهزت عليه ، وأخذت رأسه فى مخلاة فرسى وعدت إلى شيزر ؛ ودخلت على والدتى وألقيت الرأس بين يديها ، وحدثتها الحال . فقالت : يا بنى : تجهّز للخروج من شيزر ، فوالله لا يُمكّنك عمك من المقام ، ولا أحداً من إخوتك ، وأنتم على هذه الحال من الإقدام والجرأة . فلما كان الغدُ أمر عمى بإخراجنا من عنده ، وألزمنا به إلزاماً لا مُهلة فيه ، فتفرّقنا فى البلاد . فقصدوا الملك العادل نور الدين وشكوْا إليه ما لقوْا من عمهم ، فلم يمكنه قصده ولا الأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى أوطانهم ، لاشتغاله بجهاد الفرنج ، ولخوفه من أن تسلّم شَيْزر إلى الفرنج ؛ وبقى فى نفسه . وتوفى الأمير سلطان وولى بعده أولاده . فبلغ نور الدّين عنهم مراسلة الفرنج ، فاشتدّ ما فى نفسه وهو ينتظر الفرصة . فلمّا خربت القلعة بالزّلزلة ولم يسلم منها أحد كان بالحصن ، بادر إليها وملكها ، وأضافها إلى بلاده ، وعمرها وأسوارها ، وأعادها كأن لم تخرب . وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة ، وكلّ ما خرب بالشّام بهذه الزّلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت .

قلت : وسيأتى ذكر أسامة بن مرشد فى أخبار سنة اثنتين وسبعين ، وهى السنة التى قدم فيها دمشق من بلاد الشرق . وذلك أنه لمّا خرج من شَيْزر استوطن دمشق ثم فارقها إلى الديار المصرية ، وكتب إلى معين الدّين أنر ، أتابك صاحب دمشق ، يعاتبه فى أسباب المفارقة قصيدة أولها[1] :

(١٨٩) وَلَّوا ، فلمّا رجونا عدلهم ظلموا   فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مرّ يوماً بفكرى ما يَريبهُم   ولا سعت بى إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعتُ لهم عهداً ، ولا اطّلعت   على ودائعهم فى صدرىَ التّهم
فَلَيْتَ شِعْرى ! بم استوجبتُ هجرهمُ   ملّوا فصدّهم عن وصلىَ السّأم
حفظتُ ما ضيّعوا ، أغضيت حين جنوا   وفَيْتُ إذ غدروا ، واصلتُ إذ صرموا

(١) انظر ديوان أسامة بن منقذ : ٤٠ — ٤١.

حُرِمتُ ما كنتِ أرجو من ودادهم ما الرِّزق إلاّ الذى تجرى به القسم !(١)

وبعدُ ، لوْ قيل لى ماذا تحبّ ، وما تختار من زينة الدُّنيـــا ؟ لقلت هم(٢)

لهم مجال الـكرى من مقلتىّ ، ومن قلبى محلّ المنى ، جاروا أو اجترموا

تبـــدّلوا بى ، ولا أبغى بهم بدلاً حسبى همُ أنصفوا فى الحـكم أو ظلموا

بلغ أميرى معـــين الدّين مألُـكةً من نازح الدّار ، لـكن ودّه أمَم

وقل له : أنت خير التّرك فضّـلك الـ حياء والدّين ، والإقدام ، والـكرم(٣)

هلاَّ أنفت حيـــــاء أو محافظة من فعل ما أنـكرته العُربُ والعجم

أسلمتنا وسيوف الهنـــــد مغمدة ولم يرقّ سِـــنان السمهرىّ دم

وكنت أحسب من والاك فى حرم لا يعتريه به شـــــيب ولا هرم

وما « طُمانُ » بأولى من أسامة بالـ وفاء ، لـكن جرى بالـكائن القـــلم

هبنا جنينا ذنوباً لا يكفّرهـــــا عذرٌ ، فـاذا جنى الأطفال والحرم

ألقيتهم فى رضـــا الإفرنج(٤) متّبعاً رضا عِـداً يسخط الرّحمنُ فعلهم(٥)

جرّبتهمُ مثـــل تجريبى لتخبُرهم فللرّجال إذا ما جُرِّبوا قيم

وهى طويلة . وطمان المذكور خادم تركىّ كان لأتابك ملك الأمراء زنـكى بن آق سنقر ، هرب من خدمته إلى دمشق ، فطلبه ولجّ فيه ؛ فاشتمل عليه معين الدين للجنسيّة ، وحماه . فلمّا لجّ فيه سيّره إلى العرب وقام له بما يحتاج إلى أن ردّه لخدمته بدمشق .

وبقى أسامة بمصر إلى أن خرج منها مع عبّاس ، كما سبق ذكره ، وأسر الفرنج أخاه

(١) يرد بعد هذا البيت فى الديوان البيت الآتى :

محاسنى ، منذ ملونى ، بأعينهم قذى ، وذكرى فى آذانهم صمم

(٢) يرد هذا البيت فى الديوان برواية أخرى ، هى :

وبعد ، لو قيل لى ماذا تحب ، وما مناك من زينة الدنيا ؟ لقلت هم .

(٣) يزيد الديوان فى هذه القصيدة عشرة أبيات بين هذا البيت والذى بعده .

(٤) فى الديوان : ألقيتهم فى يد الإفرنج ...

(٥) بين هذا البيت وما بعده فى الديوان ثمانية أبيات .

نجم الدولة محمد بن مرشد ، وطلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان ، صاحب شيزر ، الإعانة فى فكاكه فلم يفعل . قال : وادّخر الله سبحانه أجر خلاصه وحسن ذكره الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، فوهبه فارساً من مقدّمى الدّاوية[1] يقال له المشطوب ، قد بذل الإفرنج فيه عشرة آلاف دينار ، فاستخلص به أخاه من الأسر .

وبلغ أسامة أن القاضى كمال الدين ابن الشّهرَزورى أنشد نور الدين :

ملكُ بنى منقــــــذ تولّى ... وكان فوق السِّماك سمكه
فاعتـــبروا ، وانظروا ، وقولوا : ... سبحان من لا يزول ملـــكه

والمعروف ملك بنى برمك ، فغيّره المنشد لمّا تمثل به فى غرضه . فأجازها أسامة بهذه الأبيات :

وكل مُلكٍ إلى زوال ... لا يعترى ذا اليقين شــكه
إن لم يزل بانتقال حال ... أزال ذا الملك عنه هلــكه
والله ربّ العبــــاد باق ... وهالك نــــدّه وشركه
فقل لمن يظــلم البرايا ... غرّك إمهـــالُه وتركه
(٨٩ ب) تنسى ذنوباً عليك تُحصى ... يحصرها نقــده وحكه
كم ناسكٍ نُسكه رياء ... أوبقه فى المعاد نُســـكه
فاحذر فما يختفى عليــه ... مِنْ عبده صدقه وإفــكه

(١) الداوية أو الديوية قوم من الفرنج حبسوا أنفسهم لجهاد المسلمين وامتنعوا من النكاح وغيره ، ولم تكن عليهم لأحد طاعة ؛ وكانوا ينسبون الى حصن حصين بنواحى الشام . وقد أطلق المسلمون هذا الاسم على فرسان المعبد : Templers ، وهم الجماعة التى أسسها Hugh de Payns سنة ١١١٩ ، لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا والقدس ، ثم تحولت إلى هيئة حربية دينية أصبح لها شأنها فى التاريخ الصليبي الإسلامى . وهناك جماعة أخرى من الفرسان لها كثير من خصائص الداوية ، هى جماعة الاسبتارية أو الهسبتاليين : Hospitallers ، تأسست سنة ١٠٩٩ بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، وإن كانت قد ظهرت بنشاطها قبل ذلك بكثير ، وهدفها الأول علاج المرضى وإيواء الحجاج ومساعدتهم . انظر النجوم الزاهرة : ٦ : ٣٣ : حاشية : ٢ ، ٣ ؛ السلوك : ١٠ : ٦٨ حاشية : ٤ .

وما أحسن ما قال أسامة فى كبره :

مع الثمانين عاث الضعف فى جَلَدى … وساءنى ضعف رجلى واضطراب يدى
إذا كتبت فخطى جِدُّ مضطرب … كخطّ مرتعش الكفّين مرتعد
فاعجب لضعف يدى عن حملها قلماً … من بعد حطم القنا فى لبّة الأسد
وإن مشيت وفى كفّى العصا ، ثقلت … رجلى ، كأنى أخوض الوحل فى الجلد
فقل لمن يتمنّى طول مدّته … هذى عواقب طول العمر والمُدَد

فصـــل

فى باقى حوادث سنة اثنتين وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى[1] : تناصرت الأخبار بظهور أمير المؤمنين المقتفى على عسكر السلطان المخالف لأمره ومن انضم إليه من عسكرى الموصل وغيره ، بحيث قتل منهم العدد الكثير ، ورحلوا عن بغداد مفرّقين مفلولين خاسرين ، بعد المضايقة والتّناهى فى المحاصرة والمصابرة .

قال[2] : ووردت الأخبار فى أوائل رجب بوفاة السلطان غياث الدّين أبى الحارث سنجر بن أبى الفتح بن ألب أرسلان ، سلطان خراسان ، عقيب خلاصه من الشّدة التى وقع فيها ، والأسر الذى حصل فيه[3] . وكان يحبّ العدل والإنصاف للرّعايا ، حسن السّيرة ، جميل الفعل ؛ وقد علت سنّه وطال عمره . وكان[4] قد ورد كتابه فى أواخر صفر من هذه

(١) فى ذيل تاريخ دمشق ، ٣٤٣ . وهو اقتباس حرفى .

(٢) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٥ . وهو اقتباس حرفى .

(٣) ذلك أن الغز ، وهم قوم من الأتراك المسلمين ، اضطروا للهجرة من ممتلكاتهم فى بلاد ماوراء النهر ، فانتقلوا ، فى عدد كبير ، إلى منطقة خراسان ، وهناك بدأ النزاع المسلح بينهم وبين السلاجقة الذين تزعمهم سلطانهم غياث الدين سنجر ، وتغلب الغز على السلاجقة واحتفظوا بسنجر سلطاناً عليهم من الناحية الاسمية . وبقى سنجر تحت سيطرتهم من جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة إلى رمضان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة . الكامل : ١١ : ٦٦ — ٧٩ .

(٤) اقتباس حرفى من ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٧ — ٣٣٨ .

السّنة إلى نور الدّين بالتّشوّق إليه والإحماد لخلاله ، ومايتنهى إليه من جميل أفعاله ، وإعلامه ما منّ الله عليه به من خلاصه من الشدة التى وقع فيها ، والأسر الذى بلى به فى أيدى الأعداء الكفرة ، من ملوك التّركان ، بحيلة دبّرها ، وسياسة أحكمها وقرّرها ، بحيث عاد إلى منصبه من السّلطنة المشهورة ، واجتماع العساكر المتفرّقة عنه إليه .

قال(١) : وفى شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلص الدّين أبى البركات عبد القاهر بن على بن أبى جرادة الحلبى ، وهو الأمين على خزائن مال نور الدين ؛ وكان كاتبا بليغا ، حسن البلاغة نظما ونثرا ، مستحسن الفنون من التّذهيب البديع ، وحسن الخطّ المحرّر على الأصول القديمة المستظرفة ، مع صفاء الذهن وتوقّد الفطنة والذّكاء .

وقال(٢) : وفيها رابع عشر شوّال ، ورد الخبر من ناحية بُصرى بأن واليها فخر الدّين سرخاك قتل غيلة بموافقة من أعيان خاصّته . وكان فيه إفراط فى التحرّز واستعمال التيقّظ ولكنّ القضاء لا يغالب ولا يدافع .

قال(٣) : وفى أوائل ذى القعدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقب بصلاح الدّين(٤) . (١٩٠) وكان فى أيام شبيبته قد حظى فى خدمة عماد الدّين زنكى ، وتقدم عنده بالمناصحة وسداد التّدبير ، وحسن السّفارة وصواب الرأى ؛ ولما علت سنه ضعف عن ركوب الخيل ، وألجأته الضرورة إلى الحمل فى المحفّة لتقرير الأحوال ، والنّظر فى الأعمال ؛ ولم ينقص من حسّه وفهمه ما ينكر عليه إلى حين وفاته . وخلفه من بعده أولاده فى منصبه وولايته .

قال(٥) : وورد إلى دمشق إمام من أئمة [فقهاء](٦) بلخ فى عنفوان شبابه وغضارة عوده ، ما رأيت أفصح من لسانه ببلاغتيه العربيّة والفارسيّة ، ولا أسرع منْ جوابه

---

(١) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٥ .

(٢) اقتباس حرفى من ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٦ .

(٣) اقتباس من ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٧ ؛ بشىء من التصرف .

(٤) هو صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبسانى . تولى حماة أيضاً ، وكان من قادة عماد الدين زنكى ثم ، من بعده ، من أمراء نور الدين ومقدمى جيوشه .

(٥) اقتباس من ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٧ — ٣٤٨ ؛ باختصار شديد .

(٦) ما بين الحاصرتين من ق ٨٦ ب .

ببراعته ، ولا أطيش منه قلما فى كتابته : أبو الحياة محمد بن أبى القاسم بن عمر السلمى[١] . ووعظ فى جامع دمشق عدّة أيام والنّاس يستحسنون وعظه ، ويستظرفون فنّه ، وسلاطة لسانه ، وسرعة جوابه ، وحدة خاطره ، وصفاء حسه .

قال ابن الأثير[٢] : وفيها فى ذى الحجة توفّى الأمير عز الدّين أبو بكر الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر ؛ وكان من أكابر الأمراء ، يأخذ نفسه مأخذ الملوك ؛ وكان عاقلا حازما ، ذا رأى وكيد ومكر . وملك الجزيرة قطب الدّين مودود بن زنكى ، صاحب الموصل ، أخو نور الدين .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى[٣] : فى أوائل المحرم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشام ، خذلهم الله تعالى ، بمضايقتهم لحصن حارم ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق إلى أن ضعف ومُلك بالسّيف . وتزايد طمعهم فى شن الغارات فى الأعمال الشاميّة وإطلاق الأيدى فى العيث والفساد فى معاقلها وضياعها ، بحكم تفرّق العسكر الإسلامية والخلف الواقع بينهم باشتغال نور الدّين بمقابيل المرض العارض له . ولله المشيئة التى لا تدافع والأقضية التى لا تمانع .

وقال[٤] : وفى صفر ورد الخبر والمبشر بنزول نور الدّين من حلب للتوجّه إلى دمشق .

(١) يذكر أبو يعلى أنه ما رأى مثله ولا شاهد شبيهه ، فقال : ما ينبغى أن يهمل إثبات اسم هذا الأمير الهمام فى هذا التاريخ . فالتمس نعوته التى بها يعرف ، فأنفذ إليه كتاباً عن السلطان غياث الدنيا والدين أبى شجاع محمود بن محمد بن محمود ، وآخر عن وزيره محمود بن سعد بن عبد الواحد ، وكلاهما إلى الملك العادل نور الدين محمود . وفى هذين الكتابين وجد أبو يعلى أن هذا الفقيه لقب بألقاب كثيرة ، عددها فى كتابه ، منها : عماد الإسلام ، بستان العالم ، أفصح العرب والعجم ، افتخار ماوراء النهر ، تاج العراقين ، سراج الحرمين ، رئيس الأصحاب شرقا وغربا ... انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٢) المصدر هنا كتاب الأتابكة : ٢٠١ . واللفظ لأبى شامة .

(٣) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٥١ — ٣٥٢ . وهو اقتباس حرفى .

(٤) نفس المصدر والصفحات .

وانفق للـكفرة الملاعين تواتر الطمع فى شن الغارات على أعمال حَوْران والإقليم[١] ، وإطلاق أيدى الفساد والعيث والإحراق والإخراب فى الضّياع ، والنّهب والسّبى والأسر ؛ وقصد داريّا والنّزول عليها فى انسلاخ صفر ، وإحراق منازلها وجوامعها ، والتّناهى فى إخرابها . وظهر إليهم العسكرية والأحداث ، وهموا بقصدهم والإسراع إلى لقائهم وكفّهم ؛ فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم . وحين شاهد الـكفار ، خذلهم الله تعالى ، كثرة العدد الظّاهر إليهم رحلوا فى آخر النهار المذكور إلى ناحية الإقليم . ووصل نور الدّين إلى دمشق وحصل فى قلعته ، سادس ربيع الأول ، سالما فى نفسه وجملته ولُقى بأحسن زىّ وترتيب وتجمل ، واستبشر العالم بمقدمه المسعود ، وابتهجوا ، وبالغوا فى شكر الله تعالى على سلامته وعافيته ، والدعاء (٩٠ ب) له بدوام أيامه . وشرع فى تدبير أمر الأجناد والتأهب للجهاد .

قال : وفى أوائل ربيع الأول ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غزة وعسقلان ، وأغاروا على أعمالها ، وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين ، فأظهر الله تعالى المسلمين عليهم قتلا وأسرا ، بحيث لم يفلت منهم إلا اليسير ، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين . وقيل إن مقدّم الغزاة فى البحر ظفر بعدّة من مراكب المشركين وهى مشحونة بالفرنج ، فقتل وأسر منهم العدد الـكثير ، وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى ، وعاد ظافرا غانما .

قلت[٢] : وأرسل إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من مصر وزيرها الملك الصّالح

---

(١) يذكر الأستاذ Gibb أن الإقليم الذى ورد ذكره هنا غير محدود ، ولـكنه يرجح أنه إقليم بالان الحالى من أقاليم دمشق ، إذ أنه أكثرها صلاحية لانسحاب الفرنج وتقهقرهم عند ظهور جنود نور الدين كما حدث عندئذ . ويحدد الأستاذ Gibb هذا الإقليم ذاكراً أنه يمتد على طول نهر الأعوج . انظر : The Damascus Chronicle, p. 345, N., 1.

(٢) يسوق أبو شامة فى هذه الصفحة وفى الصفحات التالية مجموعة من القصائد المتبادلة بين الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر ، وأسامة بن منقذ ، الذى كان عندئذ على صلة بنور الدين تيسر له القيام بمهمة إيجاد نوع من التحالف بين مصر الفاطمية الشيعية والشام السنية العباسية ، ضد الفرنج المقيمين بالشام والوافدين إليها فى شكل مجموعات من الحجاج المجاهدين لإنقاذ أراضى فلسطين المقدسة من « الـكفرة المتعصبين » ، كما كانوا يسمون المسلمين . وتدل هذه الأشعار ، وبخاصة ما كتبه الصالح بن رزيك منها ، على المحاولات المتكررة التى بذلها هذا الوزير فى محاولة تحسين علاقاته ، ممثلا لمصر ، بنور الدين سلطان الشام ، فى سبيل مقاومة العدو المشترك . فهذه الأشعار إذن ليست واردة هنا على أنها مجرد أثر أدبى فنى جميل أعجب به أبو شامة ، وإنما اقتبسها مؤرخنا لتصور مرحلة من مراحل التطورات السياسية فى علاقة مصر بالشام .

أبو الغارات طلائع بن رزّيك قصيدة يشرح فيها حال هذه الغزاة ، ويحرّض فيها نور الدّين على قتال المشركين ، ويذكّره بما منّ الله تعالى عليه من العافية والسّلامة من تلك المرْضَة المقدّم ذكرها . وكان كثيراً ما يكاتبُه طالباً منه إعلام نور الدّين بالغزاة لحثّه عليها . وأوّل هذه القصيدة :

ألا هكذا فى الله تمضى العزائم ... وتُنضى لدى الحرب السّيوف الصّوارم
ويُستنزل الأعداء من طَوْد عزّهم ... وليس سوى سُمْر الرماح سلالم
وتُغزى جيوش الكفر فى عُقْر دارها ... ويوطا(١) حماها والأنوف رواغم
ويوفى بالكرام النّاذرون بنذرهم ... وإن بذلت فيها النّفوس الكرائم
نذرنا مَسير الجيش فى صفرٍ ، فما ... مضى نصفه حتّى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعاً ... مفاوز وخد العيس فيهن دائم
فما هاله بُعْد الديار ، ولا ثنى ... عزيمتَه جهدُ الظّما والسّمائم
يهجّر والعُصفور فى قعر وكره ... ويسرى إلى الأعداء واللّيل نائم
يبارى خيولا ما تزال كأنها ... إذا مَا هى انقضّت نسورٌ قشاعم
يسير بها ضرغام فى كل مأزق ... وما يصحب الضّرغام إلاّ الضّراغم
ورفقته عين الزّمان ، وحاتم ... ويحيى ، وإن لاقى المنيّة حاتم
وواجههم جمع الفرنج بحملة ... يهون على الشّجعان فيها الهزائم
فلقوهم زرق الأسنّة ، وانطوَوْا ... عليهم ، فلم يرجع من الكفر ناجم
وما زالت الحرب العوان أشدّها ... إذا ما تلاقى العسكر المتضاجم
يشبّههم من لاح جمعهمُ له ... بلجّة بحْر موجُها متلاطم
وعادوا إلى سلّ السّيوف ، فقطّعت ... رءوسٌ ، وحزّت للفرنج غَلاصِم
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبّر ... ولا قيل هذا وحده اليومَ سالم

(١) بتسهيل الهمزة .

نقتّـــاهم بالرأى طوراً ، وتارة … تدوسهمُ منا المذاكى الصّـــلادم
فقولوا لنـــور الدّين ، لا فُلّ حَدُّه … ولا حكمت فيـــه اللّيـالى الغواشم
(١٩١) تجهّز إلى أرض العدوّ ، ولاتهِن … وتُظهرْ فتوراً إن مضت منك حازم
فما مثلها تُبـدى احتفالا به ، ولا … يعض عليهـــــا الملوك الأباهم
فعنـــدك من ألطاف ربّك ما به … علمنا يقينـــا أنّه بك راحم
أعادك حَيّا بعـــد أن زعم الورى … بأنك قـــد لاقيت ما الله حاتم
بوقتٍ أصاب الأرض ما قد أصابها … وحلّت بهـــا تلك الدّواهى العظائم
وخيّمَ جيش الكفر فى أرض شيزرٍ … فسيمت سبايا واسـتُحِلّت محارم
وقد كان تاريخ الشآم وهُلْـــكه … ومن يحتـــويه أنه لك عادم
فقم ، واشكر الله الكريم بنهضة … إليهم ، فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ما قد عهدت ، نَرُوعهم … ونحلف جَهداً أننا لا نســالم
وغاراتنــــا ليست تفتّر عنهمُ … وليس ينجى القوم منـــا الهزائم
فأسطولنا أضعاف ما كان سائرا … إليهم ، فلا حِصنٌ لهم منه عاصم
ونرجو بأن يُجتـــاح باقيهمُ به … وتُحوى الأسارى منهمُ والغنائم

وكتب إليه أيضاً :

يا سيّــداً يسمو بهمّـ … ته إلى الرتب العليـــه
فينال منهـــا حين يُحْـ … رم غـــيرُه أوْفَى مزيّه
أنت الصديق وإن بعد … ت ، وصاحب الشّيم الرضيه
ننبيك أنّ جيوشنا … فعلت فعال الجاهليه
سارت إلى الأعداء من … أبطالها مائتـــا سريّه
فتُغير هـــذى بُكْرة … وتعاود الأخرى عشيّه
فالويل منهـا للفـرنـ … ج ، فقدْ لقوا جَهد البليه

جاءت رءوسهـــم تلو ... ح على رءوس السمهريه
وقلائع قــد قسمت ... بين الجنود على السويّه
وخلائق كسرت من الـ ... أسرى تقاد إلى المنيّه
فانهض فقد أنبيت تجـ ... د الدّين بالحال الجليّه
والم بنــــور الدّين واعْـ ... لمه بهاتيك القضـــيّه[1]
فهو الذى ما زال يخـ ... لص منه أفعالاً ونيّه
ويبيدُ جمع الكفر بالـ ... بيض الرّقاق المشرفيّــه
فعساه ينهض نهضة ... يفنى بها تلك البقيّه
إمّا لنُصرة دينــــه ... أو مُلــكه ، أو للحميّه

وكتب إليه أيضاً :

أيها المقتدى ، لأنت على البُعـ ... ـد صديق لنا ، ونعم الصّديق[2]
ليس فيما تأتيـــه من بر أفعا ... لك للطالب الحقوق عقوق[3]
فلهذا نرى مواصـــلة الـكتـ ... ـب تباعاً إليك مما يليق[4]
ونناجيك بالمهمات ، إذْ أنـ ... ـت بالقائها إليك خليق
وأهمُّ المهمّ أمر جهاد الـ ... ـكفر ، فاسمع فعندنا التحقيق
واصلتهم منّــا السّرايا ، فأشجا ... هُم بُكورٌ منّا لهم وطروق
(٩١ ب) وأباحــت ديارهم ، فأباد الْـ ... ـقوم قتل ملازم وحريق
وانتظرنا زحفنا بُرء نور الدّ ... ين ، علماً منّا بأنْ سيُفيق

(١) يوصل الهمزة فى ألمم وفى أعلمه حتى يستقيم وزن البيت .
(٢) فى ق ٨٨ ا :
أيها المقتدى أنت على البعـ ... ـد صديق لنا ونعم الصديق
(٣) هذا البيت من ق ٨٨ ا . ويجىء فى ك فى آخر القصيدة ، ومكانه هنا أكثر مناسبة .
(٤) هذا البيت من ق ٨٨ ا وهو ساقط من ك .

وهو الآن فى أمان من اللّا (م) ـه ، وما يعتريه أمرٌ يعوق
ما لهذا المهم مثلك مجد الدّ (م) ين ، فانهض به فأنت حقيق
قل له ، لا عداه رأىٌ ، ولا زا   ل له بكلّ خــــير طريق
أنت فى حسم داء طاغية الـكفـ (م) ـار ذاك المرجوّ والمرموق
فاغتنم بالجهاد أجرك كىْ تبْـ   ـقى رفيقاً له ونعم الرفيـــق

فأجابه أسامة بقصيدة منها[1]:

يا أمير الجيوش ما زال للإسْـ   ـلام والدين منك ركنٌ وثيق
أسمعت دعوة الجهاد ، فلبّا   ها مليك بالمكرُمات خليق
ملك عادل أنار به الديـ   ـنُ ، فعمّ الإسلام منه الشروق
ما له عن جهاده الـكفرَ ، والعدْ   لِ ، وفعلِ الخيرات شغلٌ يعوق
هو مثل الحسام : صدرٌ صقيل   ليّن مسّه ، وحــــدٌّ ذليق
ذو أناةٍ يخـــــالها الغِرُّ إهما   لاً ، وفيها حتف الأعادى المحيق
فاسلما للإسلام كهفين ما طرّ (م) ز ثوبَ الظلام برقٌ خفوق

وكتب (الصالح[2]) إليه أيضا :

قل لابن منقـــذ الذى   (قد[2]) حاز فى الفضل الـكمالا
فلذاك قد أضحى الأنا   م على مكارمه عيالا
كم قـــد بعثنا نحوك الْـ   أشـــعار مسرعة عجالا
وصددت عنهـــا حين را   مَتْ من محاسنك الوصالا
هلّا بذلت لنــــا مقا   لاً ، حين لم تبذل فعالا

(١) وردت هذه القصيدة فى ديوان أسامة بن منقذ : ١٨٨ — ١٨٩ .
(٢) ما بين القوسين ساقط من ق ٨٨ ا .

مع أننا نوليـــــك صَبْـ ـراً فى المودة ، واحتمالا
وننبئك الأخبــــــار إن أضحت قصاراً أو طوالا
ســــارت سرايانا لِقَصْـ ـد الشام تعتسف الرمالا
تزجى إلى الأعداء جُرْ دَ الخيل أتباعاً تَوالى
تمضى خفــــافاً للمُغا رِ بها ، وتأتينا ثقالا
حتّى لقــــدْ رام الأعا دى منّ ديارهم ارتحالا
وعلى الوعــــيرة معشر لم يعهدوا فيهـــا القتالا
لمّا نأت عنّن يحــف (م) بهــــا يميناً أو شمالا
نهضت إليهــــا خيلنا من مصر تحتمل الرجالا
والبيض لامعة ، و بيـ ض الهند ، والأسل النهالا
فغدت كأن لم يعهــدوا فى أرضها حيّـــا حلالا
هــــذا ، وفى تل العجا ل ملأن بالقتـــلى التلالا
إذ مرّ « مُرّى[1] » ليس يلـ ـوى نحو رفقته اشـــتغالا
واســــتاق عسكرنا له أهــــلاً يحبهمُ ومالا
وسرية ابن فرنج الطــــا ئى طال بهــــا وصالا
(١٩٢) سارت إلى أرض الخليـــ ـل ، فلم تدع فيهـــا خلالا
فلوَ ان[2] نور الدّين يجْـ ـعل فعلنا فيهم مثالا

(١) هو Amalric I ، ويعرف فى المؤلفات العربية باسم أمورى أيضاً . تولى مملكة القدس الصليبية سنة ٥٥٧ (١١٦٢ م) بعد وفاة Baldwin III . وبقى على مملكته حتى توفى سنة ٥٦٩ (١١٧٤ م) . وكان فى السابعة والعشرين عند اعتلائه العرش . وفى عهده تقدمت جيوش الفرنج من الشام نحو مصر للاستيلاء عليها فى أواخر عهد الفاطميين فى مناسبة النزاع بين شاور وضرغام الوزيرين الفاطميين ، فسابقه فى هذه الجهود شيركوه ، عم صلاح الدين الأيوبى ، باسم نور الدين وانتهى السباق باستيلاء شيركوه على مصر ثم بقيام الأسرة الأيوبية .

(٢) بتسهيل الهمزة .

ويسيّر الأجناد جَهْـ ـرًا ، كَىْ ينازلهم نزالا -
ووفى لنا ، ولأهل دوْ لته ، بما قد كان قالا
لرأيت للإفرنج طرًّا (م) فى معاقلها اعتقالا
وتجهّزوا للسير نحـ ـوَ الغرب ، أو قصدوا الشّمالا
وإذا أبى إلاّ اطّرا حاً للنصيحة واعتزالا
عُدنا بتسليم الأمو رِ لحُكم خالقنا تعالى

فأجاب ابن منقذ بقصيدة منها(١) :

يا أشرف الوزراء أخـ ـلاقاً ، وأكرمهم فعالا
نبهت عبداً طالما نبهته قدراً وحالا
وعتبته ، فأنلته فخراً ، وحمداً ، لن ينالا
لكن ذاك العتب يشـ ـعل فى جوانبه اشتعالا
أسفا لجد مال عنـ ـه إلى مساءته ومالا
أما السرايا حين تر جع بعد خفّتها ثقالا
فكذاك عاد وفودُ با بِك مثقلين ثناً(٢) ومالا
ومسيرها فى كلّ أرْ ضٍ تبتغى فيها المجالا
فكذاك فضلك مثل عد لِك فى الدّنا سار وجالا
فاسلم لنا حتّى نرى لَك فى بنى الدّنيا مثالا
واشدد يديك بودّ نو رِ الدّين واتّق به الرّجالا
فهو المحامى عن بلا دِ الشّام جمعا أن تُذالا

(١) ديوان أسامة بن منقذ : ٢١٥ — ٢١٧ .

(٢) فى الديوان ، وكذلك فى ق ٨٨ ب : ثناً . والثنا ما أخبرت به عن الرجل ؛ وثنا الحديث حدث به . انظر لسان العرب .

ومُبيد أملاك الفرنـ ـج وجمعهم حالاً فحالا
ملك يتيه الدّهر والدّ (م) نيا بدولته اختيالا
جمع الخلال الصّالحا ت فلم يدع منها خلالا
فإذا بدا للناظريـ ـن رأت عيونهم الكمالا
فبقيتمُ للمسلميـ ـن حِمًى وللدنيا جمالا

وكتب إليه الصالح من قصيدة تقدم ذكرها فى الزلازل :

ولعمرى إن المناصح فى الديـ ـنِ على الله أجره محسوب
وجهاد العدوّ بالفعل والقوْ لِ على كل مُسلم مكتوب
ولك الرّتبة العليّة فى الأمـ ـرَيْن مُذْ كنت إذ تشب الحروب
أنت فيها الشّجاع ، مَالَكَ فى الطّعْـ ـنِ ولا فى الضّراب(1) يوما ضريب
وإذا ما حرّضت ، فالشّاعر المفـ ـلِق فيما يقوله ، والخطيب
وإذا ما أشرت فالحزم لا يُنـ ـكرُ أنّ التدبير منك نصيب
لك رأى يقظان إن ضعف الرّأ ىُ ، على حاملى الصّليبِ صليب
فانهض الآن مسرعاً ، فبأمثا لِكَ ما زال يُدرك المطلوب
ألقِ منّا رسالةً عند نور الد (م) ين ما فى إلقائها ما يريب
قل له ، دام ملكه ، وعليه مِنْ لباس الإقبال بُردٌ قشيب
أيها العادل الّذى هو للديـ ـنِ شبابٌ ، وللحروب شبيب
والذى لم يزل قديما عن الإسـ ـلام بالعزم منه تُجلى الكروب
وغداً منه للفرنج ، إذا لا قوه ، يومٌ من الزمان عصيب
إنْ يرم نزف حقدهم فلأشطا نِ قناهُ فى كلّ قلب قليب

(١) فى ق ٨٨ ب : الضرب . والطعن يكون بالرمح ، والضراب والضرب بالسيف .

غيرنا من يقول ما ليس يمضيـ ـه بفعلٍ ، وغيرك المكذوب
قد كتبنا إليك ما وضح الآ نَ ، بماذا عن الكتاب تجيب ؟
(٩٢ب) قصدنا أن يكون منا ومنكم أجلٌ فى مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ماضا ق بأدنام الفضاء الرّحيب
وعلينا أن يستهل على الشا مِ مكان الغيوث مالٌ صبيب
أو تراها مثل العروس ، تُراها كلّه من دم العدا مخضوب
لطَنين السّيوف فى فلق الصبـ ـح على هام أهلها تطريب
ولجم الحشود من كل حصنٍ سلبٌ مهمل لهم ونهوب
وبحول الإله ذاك ، ومن غا لَبَ ربى فإنه مغلوب

وكتب إليه أيضاً :

أيها السائر المجدُّ إلى الشـا مِ ، تبارَى ركابه والخيول
خُذْ على بلدة بها دارُ مجـ ـدِ الدين ، لا رَيع رَبْعها المأهول
وتعرّف أخباره ، وَاقْره منـ (م) ـا سلاماً فيـه العتاب يجول
قل له : أنت نعم ذخر الصّديق الـ ـيَوم ، لكنّك الصّديق الملول
ما ظنَنّا بأن حالك فى القُرْ ب ولا البُعد بالملال يَحُول
لا كتابٌ ، ولا جوابٌ ، ولا قوْ لٌ به لليقين منا حصول
غير أنا نواصل الكُتْب إذ أقْـ ـصر منك البر الكريم الوصول
ذاكرين الفتح الذى فتح اللّـ ـهُ علينا ، فالفضل منه جميل
جاءنا بعد ما ذكرناه فى كُتـْ ـبٍ أتاكم بهن منا رسول
أن بعض الأسطول نال من الإفـ ـرنج مالا ينـاله التأميل
سار فى قلقٍ ، وما زال بالله (م) وصدق النيات ينمى القليل

وبقايا الأسطول ليس له بعـ ـدُ إلى جانب الشآم وصول
غـوى من عكا وأنطرسوس عـدّة لم يحط بها التحصيل
جمع ديوية ، بهم كانت الإفـ ـرنج تسطو على الورى وتصول
قيد في وسطهم مقـدّمهم ، يُهْـ ـدَى إلينا ، وجيدُه مغلول
بعد مثوى جماعة هلكوا بالسّ (م) ـيف ، منها الغريق والمفلول
هـذه نعمة الإله ، وتمديـ ـدُ أيادى الإله شيء يطول
بلغوا قولنا إلى الملك العا دلِ ، فهو المرجوّ والمأمول
قل له : كم تماطل الدّين فى الكفّ (م) ـارِ ، فاحذر أن يغضب المطول
سِرْ إلى القدس ، واحتسب ذاك فى اللّـ ـهِ ، فبالسّير منك يشفى الغليل
وإذا ما أبطا[1] مسيرك ، فاللّـ ـهُ إذًا حسبنا ونعم الوكيل !

فأجابه أسامة بقصيدة منها[2] :

يا أمير الجيوش ، يا أعدل الحكّـ (م) ـام فى فعله وفى ما يقول
أنت حلّيت بالمكارم أهل العصـ ـرِ حتى تعـرّف المجهول
وقسمت الفرنج بالغزو شطريـ ـنِ : فهذا عانٍ ، وهـذا قتيل
بالغ العبد فى النّيابة والتّحـ ـريض ، وهو المفوّه المقبول
(١٩٣ أ) فرأى من عزيمة الغزو ما كا دت له الأرض والجبال تميل
وإذا عاقت المقادير فاللّـ ـهُ إذًا حسبنا ونعم الوكيل

وكتب الصّالح إليه جوابًا قصيدته الطائية التى أولها :

هى البدر ، لكن الثّريا لها قرط ومِنْ أنجُم الجوزاء فى نحرها سمط

(١) بتسهيل الهمزة .
(٢) ديوان أسامة بن منقذ : ١٩١ — ١٩٢ .

ثم قال بعد وصف السيوف[١] :

ذخرنا سطاها للفـــــرنج ، لأنها ... بهم دون أهل الأرض أجدر أن تسطو
وقد كاتبوا فى الصلح ، لـكن جوابهم ... بحضرتنا ما تكتب[٢] الخط لا الخط
ســطوز خيول لا تغبّ ديارهم ... لها بالمواضى والقنا الشّكل والنقط
إذا أرسلت فرعاً من النّقع فاحماً ... أثيثاً ، فأسنان الرماح لها مشط
رددنا به ابن الفنش عنا ، وإنما ... يثبّته فى سرجه الشّـد والرّبط
فقولوا لنور الدين : ليس لخائف الـ ... ـجراحات إلا الـكىّ فى الطب والبط
وحسم أصول الداء أولى بعاقل ... لبيب إذا استولى على المدنف الخلط
فَدَعْ عنك ميلاً للفرنج وهدنة ... بها أبداً يخطى سواهم ولم يخطوا
تأمّل ، فـكم شرطٍ شرطت عليهمُ ... قديماً ، وكم غدرٍ به نُقض الشرط
وشمِّر فإنا قــدْ أعنّا بكلّ ما ... سألت ، وجهزنا الجيوش ولن يبطوا

قال العماد فى كتاب الخريدة[٣] : الصالح أبو الغارات طلائع بن رزّيك سلطان مصر فى زمان الفائز[٤] وأول زمان العاضد[٥] . ملك مصر ، واستولى على أمر صاحب القصر ، ونفق فى زمانه النّظم والنثر ، وقرّب الفضلاء ، واتخذهم جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على القاصى والدّانى العطاء . وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام ، يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام ؛ وما يصدّق أحدٌ أن ذلك شعره ، لجودته ، وإحكام مبانى حكمته ،

---

(١) صدرت هذه العبارة فى ق ٨٩ ب بكلمة : حاشية ، ووضعت فى الهامش .

(٢) فى ق ٨٩ ب : ما تثبت .

(٣) انظر خريدة القصر ، قسم شعراء مصر : ١ : ١٧٣ — ١٧٤ .

(٤) عيسى أبو القاسم ؛ وامتدت خلافته خلال سنوات ٥٤٩ — ٥٥٥ (١١٥٤ — ١١٦٠م) .

(٥) أبو محمد عبد الله ؛ تولى الخلافة سنة ٥٥٥ (١١٦٠ م) ، وتوفى سنة ٥٦٧ (١١٧١ م) ؛ وبوفاته انتهى عهد الفاطميين ، وصارت مصر تابعة لسلطنة نور الدين محمود بالشام ، ثم استظلت تحت حكم الأيوبيين الذين نجحوا فى ضم الشام إلى أملاكهم .

وأنسام معانى بلاغته ؛ فيقال إن المهذّب ابن الزبير[١] كان ينظم له ، وأن الجليس ابن الحباب[٢] كان يعينه . وله ديوان كبير وإحسان كثير .

ولمّا جلس فى دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة[٣] :

أنظر إلى ذى الدار ، كم قد حـــل ساحتها وزير
ولــكم تبختر آمنا وسط الصفوف بهـا أمــير
ذهبوا ، فـــلا والله ما يبقى[٤] الصغير ولا الـكبير
ولمثـل ما صاروا إليـــ ـــهِ من الفناء غداً نصــير

فصـــل

قال أبو يعلى[٥] : ورد الخبر فى خامس عشر ربيع الأول من ناحية حلب (٩٣ ب) بحدوث زلزلة هائلة روّعت أهلها وأزعجتهم ، وزعزعت مواضع من مساكنها ، ثم سكنت بقدرة محركها سبحانه وتعالى . وفى ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأول وافت زلزلة فى دمشق روعت وأقلقت ، ثم سكنت .

وفى التاسع من ربيع الآخر برزنور الدّين من دمشق إلى جسر الخشب[٦] فى العسكر

(١) هو شاعر فاطمى من المجيـــدين اختص بالصالح طلائع بن رزيك . ألف كتاباً فى الأنساب فى عشرين مجلداً ، كما قال ياقوت ، وتفسيراً فى خمسين مجلداً كما قال الإدفوى ، وتوفى سنة ٥٤١ انظر معجم الأدباء : ٩ : ٤٧ ؛ فوات الوفيات : ١ : ١٢٤ ؛ النكت العصرية : ٣٥ .

(٢) هو القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبى المصرى التميمى ، من ذرية بنى الأغلب سلاطين إفريقية . تولى ديوان الإنشاء فى مصر ، مع الموفق بن الخلال ، للخليفة الفاطمى الفائز فى عهد الوزير طلائع بن رزيك ؛ وسمى الجليس لمجالسته خلفاء مصر من العبيديين . انظر فوات الوفيات : ١ : ٢٧٨ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٩٢ ، ٣٧١ .

(٣) انظر خريدة القصر : قسم شعراء مصر : ١٨٣ .

(٤) ورد هذا الفعل فى الخريدة بصيغة الماضى .

(٥) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٥١ — ٣٥٢ . وهو اقتباس حرفى .

(٦) جنوبى دمشق بظاهرها ، بينها وبين منازل العسكر . ومنازل العسكر منطقة فسيحة كانت تتجمع فيها الجيوش التى تريد مهاجمة دمشق ، وكان قريبا منها جسر خشبى أقيم على نهر الأردن أسفل بحيرة طبرية . انظر The Damascus chronicle, P. 283 وكذلك : The Crusaders in The Esat, p. 179.

المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفرة . وقد كان أسد الدّين قبل ذلك ، عند وصوله ، فيمن جمعه من فرسان التركمان ، أغار بهم على أعمال صيدا وما قرب منها ، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها ؛ وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها ، وقد كمنوا لهم ، فغنموهم ، وقتل أكثرهم ، وأسر الباقون ؛ وفيهم ولد المقدّم المتولى حصن حارم ، وعادوا سالمين بالأسرى ورءوس القتلى والغنيمة ، ولم يصب منهم غير فارس واحد .

قال : وفي أوائل شهر تموز[1] ، الموافق لأوّل جمادى الآخرة من السنة ، وافى البقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر كما جرت به العادة فى تنبوك الشتاء ، ووصل إلى بردى[2] ، ووصل إلى دمشق ؛ وكثر التعجب من آثار قدرة الله تعالى بحدوث مثل ذلك فى هذا الوقت .

قال : وفي ليلة الثالث والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة ، ثم أخرى فى الليلة بعدها وقت صلاة الغداة . وورد الخبر من العسكر بأن الفرنج تجمّعوا وزحفوا إلى العسكر المنصور ، وأن المولى نور الدّين نهض فى الحال فى العسكر ، والتقى الجمعان . واتّفق أن عسكر الإسلام حدث فيه فشل لبعض المقدّمين ، فاندفعوا وتفرّقوا بعد الاجتماع ، و بقى نور الدّين ثابتا مكانه ، فى عدّة يسيرة من شجعان غلمانه وأبطال خواصّه ، فى وجوه الفرنج ، وأطلقوا فيهم السّهام ، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير ، ثم ولّوا منهزمين خوفا من كمين يظهر عليهم من عسكر الإسلام . ونجّى الله ، وله الحمد ، نور الدّين من بأسهم بمعونة الله تعالى ، وشدّة بأسه ، وثبات جأشه ، ومشهور شجاعته ؛ وعاد إلى مخيّمه سالما فى جماعته ، ولام من كان السّبب فى اندفاعه بين يدى الفرنج . وتفرّق جمع الفرنج إلى أعمالهم ، وراسل ملكهم نور الدين[3] فى طلب الصلح والمهادنة ، وحرّض على ذلك . وترددت بين الفريقين مراسلات ، ولم يستقر بينهما حال ؛ وعاد نور الدّين إلى دمشق سالما .

(١) شهر يولية .

(٢) وهو أعظم أنهار دمشق ، يخرج من بلدة يقال لها قَنَوَا على خمسة فراسخ من دمشق مما يلى بعلبك ، ويصب ، بعد مروره بالغوطة ودمشق ، فى بحيرة المرج شرق دمشق . معجم البلدان : ٢ : ١١٨ — ١١٩ .

(٣) فى ك ، وكذلك فى ق ٩٠ ب : وراسل ملكهم لنور الدين ... الخ .

قلت : وذكر أبو الفتح بنجه بن أبي الحسن بن بنجه الأشترى ، المعيد كان بالمدرسة النظامية ، في سيرة مختصرة جمعها لنور الدين ، وقد تقدّم شيء منها[1] ، رحمهما الله . قال : وبلغنا أنّ نور الدين خرج إلى الجهاد ، في سنة ستّ وخمسين وخمسمائة ، فقضى الله بانهزام عسكر المسلمين ، وبقى الملك العادل ، مع شرذمة قليلة ، وطائفة يسيرة ، واقفا على تلّ يقال له تل حبيش ، وقد قرب عسكر (١٩٤) الكفّار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار . فوقف الملك العادل بحذائهم مولّيا وجهه إلى قبلة الدّعاء ، حاضرا بجميع قلبه ، مناجيا ربه (بسرّه[2]) يقول : يارب العباد ، أنا العبد الضعيف ، ملكتنى هذه الولاية وأعطيتنى هذه النيابة ؛ عمّرت بلادك ، ونصحت عبادك ، وأمرتهم بما أمرتنى به ، ونهيتهم عمانهيتنى عنه ؛ فرفعت المنكرات من بينهم ، وأظهرت شعار دينك فى بلادهم ؛ وقد انهزم المسلمون ، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفّار أعداء دينك ونبيّك محمد صلى الله عليه وسلّم ، ولا أملك إلاّ نفسى هذه ، وقد سلّمتها إليهم ذابًّا عن دينك وناصراً لنبيّك . فاستجاب الله تعالى دعاءه ، وأوقع فى قلوبهم الرعب ، وأرسل عليهم الخذلان ؛ فوقفوا مواضعهم وماجسروا على الإقدام عليه ، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة ، وأن عسكر المسلمين فى الكمين ، فإن أقدموا عليه يخرج عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد . فوقفوا وماأقدموا عليه . قال ولولا أنّ ذلك إلهام من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين وما كان ينفلت واحد من المسلمين . فوقف عسكر الكفّار وبرز اثنان منهم يجولان بين الصفّين يطلبان البراز من المسلمين ؛ فأمر الملك العادل لخطلخ الزاهد ، مولى الشهيد بالخروج إليهما ، فخرج ، وجال بينهما ساعة ، وحمل على واحد منهما فقتله ؛ ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعة ، ورجع إلى قريب صفّ الكفار ، وحمل على الآخر فقتله ، ورجع إلى الصف .

قال : وحدّثنا الشيخ داود المقدسى خادم قبر شعيب ، على نبينا وعليه السلام ، قال : كان أعطانى ملك القدس بغلة كنت راكبا عليها ، يعنى فى ذلك اليوم ، واقفا مع الملك العادل ؛ فلما وصل الكفّار وقربوا منا شمّت بغلتى رائحة خيل الكفار ، فصهلت تطلب

(١) فى ص ٣٣ من هذا الكتاب .

(٢) ما بين القوسين ساقط من ق ٩٠ ب .

خيامهم ، فسمعوا صهيل بغلتى ، فقالوا هذا داود راكب على البغلة مع نور الدّين واقف ، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشّرذمة القليلة ، والطائفة اليسيرة . فتحقق ذلك فى قلوبهم فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه . قال : فترجل كلّ من كان مع الملك العادل وتشفعوا إليه ، و باسوا الأرض بين يديه ، وقالوا : أيها الملك أنت بجميع المسلمين فى هذا الموضع وفى هذا الإقليم ؛ فإن جرى ، والعياذ بالله ، وهَنٌ وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذى يقدر على تداركه ؟! قال : وحلف هذا الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان فرسه كَرْها ورحلوا من ذلك الموضع ، وما كان فى عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع . فلما علم الكفار ذلك ، وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين ، ندموا على ذلك ندامة عظيمة . قال : وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسَر الملك العادل (٩٤ ب) الكفّار وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر منهم خلقا كثيرا ، على ما حكى عن صلاح الدين صاحب حمص أنه قال : قد جاز التركمان علينا ، فحصل فى الجريدة ألف أسير مع التركمان[1] . هذا ما جاز على بلد حمص وحده . وكان قد انفلت ملك القدس ودخل إلى قليعة ؛ فلما جنّ عليه الليل خرج من القلعة ومضى .

فصــــل

قال أبو يعلى[2] : وفى رجب تجمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على التحريض لنور الدين على إعادة ما كان أبطل وسامح به أهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعرصة البقل والأنهار ، وصانهم من إعنات شرار الضمان وحوالة الأجناد[3] . وكرروا لسخف عقولهم الخطاب ، وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بيض ؛ وكتبوا بذلك حتى أجيبوا إلى

(١) الجريدة الفرقة من العسكر الفرسان لا رجالة بينهم . وتستعمل فى حالات كثيرة فى الفرقة من الجند إذا أسرعت إلى الخروج من غير أثقال أو عدد كثيرة ، لمهمة تستدعى العجلة والإسراع فى الخروج . راجع لسان العرب وكذلك : Dozy, Supp. Dict. Ar. .

(٢) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٢ — ٣٥٣ . وهو اقتباس حرفى .

(٣) الحوالة نوع من الضرائب المؤقتة ، كانت تفرضه الحكومة فى مناسبات مختلفة ، ومن أمثلتها حوالة الأسواق ، وحوالة الأجناد . انظر : Dozy, Supp. Dict. Ar.

ما راموا . وشرعوا فى فرصها على أرباب الأملاك من المقدمين والأعيان والرّعايا ، فما اهتدوا إلى صواب ، ولا نجح لهم قصد فى خطاب ولا جواب . وعسفوا النّاس بجهلهم بحيث تألموا وأكثروا الضجيج والاستغاثة إلى نور الدين ؛ فصرف همّة إلى النّظر فى هذا الأمر ، فنتجت له السّعادةُ وإيثارُ العدل فى الرّعية الإعادةَ إلى ما كان عليه . فأمر فى عاشر رمضان بإعادة الرّسوم المعتادة إلى ما كانت عليه ، من إماتتها وتعفية أثر ضمانها ؛ وأضاف إلى ذلك ، تبرعا من نفسه ، إبطال ضمان الهريسة والجبن واللبن . ورسم بكتابة[1] منشور يقرأ على كافة الناس بإبطال هذه الرسوم جميعها وتعفية ذكرها . فبالغ العالم عند ذلك فى مواصلة الأدعية والثناء عليه ، والنشر لمحاسنه .

قال[2] : وفى الحادى والعشرين من رمضان وصل الحاجب محمود المسترشدى من ناحية مصر بجواب ما تحمّله من المراسلات من الملك الصالح متولى أمرها[3] ، ومعه رسول من مقدّمى أمرائها ، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة النّورية ، وأنواع الثّياب المصرية ، والجياد العربية . وكانت فرقة من الفرنج ، خذلهم الله ، قد ضربوا لهم فى المعابر ، فأظفر الله بهم ، فلم يفلت منهم إلا القليل النزر . ثم تلا ذلك ورود الخبر من العسكر المصرى بظفره بجملة وافرة من الفرنج تناهز أربعمائة فارس ، وتزيد على ذلك ، فى ناحية العريش من الجفار ، بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلب .

قال[4] : وقد كانت الأخبار تناصرت من ناحية القسطنطينية فى ذى الحجة ببروز ملك الروم[5] منها بالعدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الإسلامية ، ووصوله إلى مروج الديباج[6]

---

(١) فى ك ، وكذلك فى ق ٩١ : بكتب .

(٢) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٢ — ٣٥٣ .

(٣) أى المتولى وزارتها ، وذلك لأن الوزراء فى مصر عندئذ كانوا متغلبين على الخلافة الفاطمية المتداعية . والمقصود بالصالح هنا طلائع بن رزيك .

(٤) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٤ . وهو اقتباس حرفى .

(٥) هو الامبراطور Manuel وامتد عهده خلال السنوات ٥٣٧ — ٥٧٦ (١١٤٣ — ١١٨٠م) .

(٦) مروج الديباج أو مرج الديباج من المناطق الواقعة عند الحدود الرومية الإسلامية ؛ يقول ياقوت عنها إنها واد نزه عجيب المنظر بين الجبال ، بينه وبين المصيصة عشرة أميال . معجم البلدان : ٨ : ١٦ .

وتخييمه فيها ، وبث سراياه للإغارة على أعمال أنطاكية وما والاها . وأن قوما من التركمان ظفروا بجماعة منهم ، هذا بعد أن افتتح من أعمال لاوين[١] ، ملك الأرمن ، عدة من حصونه ومعاقله . ولما عرف نور الدين هـذا شرع فى مكاتبة الولاة بالأعمال والمعاقل بإعلامهم ماحدث من الروم ، وبعثهم على استعمال التيقظ ، (١٩٠) والتأهب للجهاد فيهم ، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم .

قال ابن الأثير[٢] : وفى سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود ، فحصر بغداد ، وبها الخليفة المقتفى لأمر الله ، ومعه وزيره عون الدين ابن هبيرة . فكاتب أصحاب الأطراف فتحركوا ؛ ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه ملكشاه قصد همدان ودخلها فى عسكر كبير ونهبها ، وأخذ نساء الأمراء الذين معه[٣] وأولادهم . فاختلط العسكر وتفرقوا ، وعاد محمد نحو همدان . وخرج أهل بغـداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين ، وشعثوا دار السلطان .

قلت : وفى هذه السنة توفى أبو الوقت عبد الأول المحدّث المنفرد بعلوّ رواية كتاب الجامع الصحيح للبخارى ، رحمه الله تعالى[٤] .

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة

قال أبو يعلى[٥] : فى أول يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهار ، وتلاها ثنتان دونها .

---

(١) يذكر الأستاذ Gibb أن الإمبراطور هاجم عندئذ أملاك ابن لاوين : Thoros, Son of King Leo of Armenia ، ويرجح أن بعض الألفاظ سقطت من أصل المتن فى ذيل تاريخ دمشق ، ويفترض أن أصل العبارة : « بعـد أن افتتح من الأعمال التى لابن لاوين ... الخ » . ويذكر الأستاذ Stevenson أيضاً أن الإمبراطور هاجم أملاك ابن لاوين . انظر The Damascus Chroicle, p. 849 وكذلك : The Crusaders In the East. P. 180

(٢) المصدر كتابه الأتابكة : ٢٠٢ — ٢٠٤ ، والألفاظ لأبى شامة الذى تصرف فى الأصل تصرفاً كثيراً ، وإن أبقى على القليل من ألفاظ ابن الأثير .

(٣) فى ك : الذين كان معه . و « كان » حشو . والمثبت هنا من ق ٩١ ب .

(٤) وهو أبو الوقت عبد الأول بن عيسى الهروى الصوفى الزاهد . توفى عن خمس وتسعين سنة . وكان عزم على الحج وهيأ ما يحتاج إليه فى رحلته فأصبح ميتاً فى سادس ذى القعـدة . شذرات الذهب : ٤ : ١٦٦ .

(٥) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٤ — ٣٠٦ . وهو اقتباس حرفى طويل .

وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث أضعف قوته ، ووقع الإرجاف به من حساد دولته ، والمفسدين من عوام رعيته . وارتاعت الرعايا وأعيان الأجناد ، وضاقت صدور قطّان الثغور والبلاد ، خوفا عليه ، وإشفاقا من سوء يصل إليه ، لا سيما مع أخبار الروم والفرنج . ولما أحس من نفسه بالضّعف تقدم إلى خواص أصحابه وقال لهم : إنى قد عزمت على وصيّة إليكم بما وقع فى نفسى ، فكونوا لها سامعين مطيعين ، وبشروطها عاملين . إنى مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدى من الولاة الجاهلين ، والظلمة الجائرين ؛ وإن أخى نصرة الدين[1] أعرف من أخلاقه وسوء أفعاله ما لا أرتضى معه توليته[2] أمراً من أمور المسلمين . وقد وقع اختيارى على أخى الأمير قطب الدين مودود ، متولى الموصل ، لما يرجع إليه من عقل وسداد ، ودين وصحة اعتقاد . فحلفوا له ، وأنفذ رسله إلى أخيه بإعلامه صورة الحال ليكون لها مستعداً . ثم تفضل الله تعالى بإبلاله من المرض وتزايد القوة فى النفس والحسّ ؛ وجلس للدخول إليه والسلام عليه . وكان الأمير مجد الدين النائب فى حلب[3] قد رتب فى الطرقات من يحفظ السالكين فيها ؛ فظفر المقيم فى منبج برجل جمال من أهل دمشق ومعه كتب ، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولى حلب . فلما وقف عليها أمر بصلب متحملها ، وأنفذها فى الحال إلى نور الدين ، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبى القاسم ، متولى ديوانه ، ومن عز الدين والى القلعة ، مملوكه ، ومن محمد بن جفرى ، أحد حجابه ، إلى أخيه نصرة الدين أمير أميران صاحب حران بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه ، ويحضونه على المبادرة والإسراع إلى دمشق لتسلّم إليه . فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها ، فأمر باعتقالهم ، وكان رابعهم سعد الدين عثمان ، وكان قد (٩٥ ب) خاف فهرب قبل ذلك بيومين . وورد فى الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصرة الدين الفرات مُجدًّا إلى دمشق ؛ فأنهض أسدَ الدين[4] فى العسكر المنصور لرده ومنعه من الوصول . فاتصل به خبر عوده إلى مقره عند معرفته بعافية أخيه ، فعاد أسد الدين إلى دمشق .

(١) هو نصرة الدين أمير أميران الذى أنابه نور الدين فى حلب عندما مرض فى المرة الأولى ؛ وقد تقدم شيء من التعريف به . انظر ص ٢٦٨ : حاشية ٥ .

(٢) فى ك ، وكذلك فى ق : بتوليته . والمثبت هنا أولى .

(٣) هو مجد الدين ابن الداية الذى تردد ذكره مرات عديدة من قبل فى هذا الكتاب .

(٤) هو أسد الدين شيركوه ، عم صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو عندئذ من كبار قواد نور الدين .

ووصلت رسل الملك العادل من ناحية الموصل بجواب ما تحملوه إلى أخيه قطب الدين ، وفارقوه وقد برز فى عسكره ، متوجهاً إلى ناحية دمشق . فلما فصل عن الموصل اتصل به خبر عافيته ، فأقام بحيث هو ، وأنفذ وزيره جمال الدين أبا جعفر محمد بن على لكشف الحال . فوصل إلى دمشق يوم السبت الثامن من صفر فى أحسن زى وأبهى تجمّل ، وخرج إلى لقائه الخلق الكثير .

قال[1] : وهذا الوزير قد ألهمه الله تعالى من جميل الأفعال وحميد الخلال ، وكرم النفس ، وإنفاق أمواله فى أبواب البر والصلات ، والصدقات ، ومستحسن الآثار فى مدينة الرسول عليه السلام ، ومكة ذات الحرم والبيت المعظّم ، شرفه الله تعالى ، ما قد شاع ذكره ، وتضاعف عليه حمده وشكره . واجتمع مع نور الدين وجرى بينهما من المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته ، بعد الإكرام له ، وتوفيته حقه من الاحترام ؛ وأصحبه برسم قطب الدين أخيه وخواصه من الملاطفة ما اقتضته الحال الحاضرة ؛ وتوجه معه الأمير أسد الدين .

وقال ابن أبى طىّ : لما وصل الوزير جمال الدين إلى حلب تلقاه موكب نور الدين ، وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة ، وأنزل فى دار ابن الصوفى ، وأكرم غاية الإكرام ؛ وأعيد إلى صاحبه شاكراً عن نور الدين ، وسُيّر معه الأمير أسد الدين شيركوه رسولا إلى قطب الدين بالشكر له والثناء عليه ؛ وأنفذت معه هدايا سنية . فسار وعاد إلى حلب مكرّماً ، فوجد نور الدين عازماً على الخروج إلى دمشق لما بلغه من إفساد الفرنج فى بلد حوران ، فسار فى صحابته . ووصل نور الدين إلى دمشق ، فأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج ، ثم أنهض أسد الدين فى قطعة من العسكر للإغارة على بلد صيدا ؛ فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده . ولم يشعر الفرنج إلا وهو قد عاث فى بلد صيدا وقتل وأسر عالما عظيما ، وغنم غنيمة جليلة ؛ وعاد فاجتمع بنور الدّين على جسر الخشب .

قلت : وهذا هو ما تقدّم ذكره بعد المرضة الأولى[2] وكأن ابنَ أبى طىّ جعل المرضتين

---

(١) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٦ . وهو اقتباس حرفى .

(٢) انظر ما تقدم عن مرضة نور الدين الأولى ، فى ص ٢٧٤ وما بعدها ، من هذا الكتاب .

واحدة بحلب ؛ وأبو يعلى ذكر أن الأولى بحلب والثانية بدمشق ، وهو الأصح . والله أعلم .

فصـــــل

قال أبو يعلى(١) : وكان قد وصل من ملك الرّوم رسول من معسكره ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثواب ديباج وغير ذلك ، وجميل (١٩٦) خطاب وفعال ؛ وقو بل بمثل ذلك . وحكى عن ملك الفرنج ، خذله الله ، أن المصالحة بينه و بين ملك الروم تقرّرت ، والمهادنة انعقدت ؛ والله يرد بأس كل واحد منهما إلى نحره ، و يذيقه عاقبة غدره ومكره(٢) .

قال(٣) : ووردت أخبار من ناحية ملك الرّوم باعتزامه على أنطاكية وقصد المعاقل الإسلامية ؛ فبادر نور الدين بالتوجه إلى البلاد الشامية لإيناس أهلها من استيحاشهم من شرّ الرّوم والإفرنج ، خذلهم الله تعالى ، فسار في العسكر صوب حمص وحماة وشيزر .

قال(٤) : وفي ثالث ربيع الأول(٥) وافت زلزلة هائلة ماجت أربع موجات وأيقظت النيام وأزعجت اليقظى ، وخاف كل ذى مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه .

---

(١) في ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٦ . وهو اقتباس حرفي .

(٢) واعتبر الفرنج بالشام هذه المهادنة كسباً عظيما ، ذلك أن المناطق الشمالية كانت محط أنظار كل من نور الدين والامبراطور الرومي مانويل ؛ وكان الامبراطور يتحالف أحياناً مع أمراء السلاجقة بآسيا الصغرى ، وأحياناً أخرى مع نور الدين ؛ فيتخوف الفرنج من هذه المحالفات التي كانت تهددهم تهديداً خطيراً وبخاصة في منطقة أنطاكية . ويلاحظ أن نور الدين كان يرى من جانبه عدم التدخل الجدى في شئون أنطاكية لأن هذا يهيء للروم فرصة التدخل ، وهو مالا يريده بأى حال من الأحوال ، لأن جوار الصليبيين في نظره أحب إليه من جوار ملك قسطنطينية ، كما يذكر ذلك ابن الأثير (الأتابكة : ٢٢٤) .

(٣) أبو يعلى في ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٦ — ٣٥٧ . وهو اقتباس حرفي .

(٤) اقتباس حرفي من ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٧ ، تناوله أبو شامة ببعض الاختصار .

(٥) في ذيل تاريخ دمشق يختلف التاريخ إذ يقول أبو يعلى : وفي ليلة الأحد الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول ، وبمقارنة التواريخ نجد أن أبا يعلى يحدد اليوم بأنه يوم أحد وبذلك يوافق أول ربيع الأول من هذه السنة يوم أحد ، بينما يذكر صاحب التوفيقات الإلهامية في حسابه أنه يوافق يوم اثنين ، وفي كلتا الحالتين لا يمكن أن يوافق الثالث من ربيع الأول يوم أحد ؛ فلا بد إذاً أن أبا شامة أخطأ في النقل من ذيل تاريخ دمشق الذى حدد فيه أبو يعلى اليوم والتاريخ معاً .

قال : وفى تاسع جمادى الأولى هبت ريح عاصفٌ شديدة أقامت يومها وليلتها ، فأتلفت أكثر الثمار ، صيفيتها وشتويها ، وأفسدت بعض الأشجار . ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت .

قال[1] وتجدّدت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم ، بعد تكرر المراسلات والاقتراحات فى التقريرات ؛ وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من اطلاق مقدّمى الإفرنج المقيمين فى حبس نور الدّين ، فأنفذهم بأسرهم[2] . وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه من الإتحاف بأثواب الدّيباج الفاخرة ، المختلفة الأجناس ، الوافرة العدد ؛ ومن الجوهر النفيس ، وخيمة من الدّيباج لها قيمة وافرة ، وما استحسن من الخيول الجبلية . ثم رحل عقيب ذلك فى عساكره من منزله عائدا إلى بلاده مشكوراً محمودا ، ولم يؤذ أحداً من المسلمين ، فى العشر الأوسط من جمادى الأولى ؛ فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها .

قال : وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدّين صنع لأخيه قطب الدّين ، والعسكر ، ولمن ورد معه من المقدّمين والولاة وأصحابهم ، الواردين لجهاد الروم والإفرنج ، سماطاً عظيماً هائلاً ، تناهى فيه ، وفرّق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير ؛ ومن الخلع من أنواع الديباج المختلف وغيره ، والتخوت الذّهب ، الشىء الكثير الزائد على الكثرة ؛ وكان يوما مشهوداً فى الحسن والتجمّل . واتفق أن جماعة من غرباء التركمان وجدوا من النّاس غفلة باشتغالهم بالسّماط وانتهابه ، فأغاروا على العزب من بنى أسامة وغيرهم ، واستاقوا مواشيهم . فلمّا ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين فى أثرهم فريقاً وافرا من العسكر ، فأدركوهم واستخلصوا منهم[3] جميع ما أخذوه ، وأعيد إلى أربابه .

قال : وتقررّ الرأى النّورى على التوجه إلى مدينة (٩٦ ب) حرّان لمنازلتها واستعادتها

(١) أبو يعلى فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٧ — ٣٥٨ .

(٢) وفيهم برترام الذى أسر عند العريمة قبل ذلك بنحو عشر سنوات ، وقائد فرسان المعبد الذى وقع أسيراً عند معركة بحيرة الحولة قبل عامين . انظر : The Crusaders in the East, p. *181.*

(٣) فى ق ٩٣ ب : ثم انهم استخلصوا منهم ... الخ .

من يد أخيه نصرة الدّين ، حسبما رآه فى ذلك من الصّلاح ؛ فرحل فى عسكره أوّل جمادى الآخرة . فلمّا نزل عليها وأحاط بها ، وقعت المراسلات ، إلى أن تقرر الحال على أمان من بها ؛ وسلّمت فى يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة ، وقرّرت أحوالها ، وأحسن النظر فى أحوال أهلها ، وسلّمها للأمير زين الدّين على سبيل الإقطاع ، وفوض إليه تدبير أمورها .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى[١] : فى صفر توفى الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدّمى أمراء الأكراد . وهو من ذوى الوجاهة فى الدّولة ، موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة ، مواظب على بث الصّلات والصّدقات ، فى المساكين والضّعفاء والفقراء مع الزمان ، فى كل عصر ينقضى وأوان ؛ جميل المحيّا ، حسن البشر فى اللّقاء . وحمل من داره بباب الفراديس إلى الجامع للصلاة [عليه[٢]] ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه[٣] ، فدفن فيها فى اليوم ، ولم يخل من باك عليه ، ومؤبّن له ، ومتأسف على فقده ؛ لجميل أفعاله وحميد خلاله .

قلت : وله أوقاف على أبواب[٤] البرّ منها المدرستان المنسوبتان إليه ، إحداها التى دفن فيها ، وهى لزيق باب الفراديس المجدّد ، والأخرى قبالة [باب[٢]] دار سيف الغربى ، فى صف مدرسة نور الدّين ، رحمه الله . وله وقف على من يقرأ السّبع كلّ يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق ؛ وغير ذلك . وقد مدحه العرقلة وغيره .

---

(١) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٩ .

(٢) ما بين الحاصرتين من ق ٩٣ ب .

(٣) وهى المدرسة المجاهدية . وهناك مدرستان بهذا الاسم : أولاهما المجاهدية الجوانية ، وعنها يقول الأستاذ كرد على : صاحبها الأمير مجاهد الدين أبو الفوارس الكردى أحد أمراء الدولة النورية ، وهى من مدارس الشافعية ؛ ثم يقتبس أبا شامة فى العبارات التى وردت هنا . انظر خطط الشام : ٦ : ٨٩ . والثانية المجاهدية البرانية الواقعة بين بابى الفراديس ، كما يقول النعيمى فى الدارس : ١ : ٤٥٥ .

(٤) فى ك وردت كلمة وجوه ، ثم كتب فوقها بخط صغير كلمة أبواب ، كأنها تصحيح لها . وفى ق ٩٣ ب : وردت كلمة ابواب .

قال أبو يعلى(١) : وفي مستهل صفر رفع القاضي زكيّ الدّين أبو الحسن عليّ بن محمد ابن يحيى بن على القرشيّ ، قاضي دمشق ، إلى الملك العادل نور الدّين ، رقعة يسأله فيها الإعفاء من القضاء ، والاستبدال به ، فأجاب سؤاله(٢) . وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري(٣) ، وهو المشهور بالتقدّم ووفور العلم ، وصفاء الفهم ، والمعرفة بقوانين الأحكام ، وشروط استعمال الإنصاف ، والعدل ، والنزاهة ، وتجنب الهوى والظلم . واستقام له الأمر على ما يهواه ، ويؤثره ويرضاه ، على أن القضاء من بعض أدواته . واستقر أن يكون النائب عنه ، عند اشتغاله ، ولده .

قلت : ولكمال الدّين رحمه الله تعالى الصّدقة الجارية بعده على الفقراء كل جمعة ؛ وإليه ينسب الشبّاك الكماليّ بجامع دمشق من الغرب ، وهو الذى حكمت فيه القضاة مدّة ، ويصلون فيه الجمعة فى زماننا .

وإلى ههنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي ، فإنه آخر كتابه . وفى هذه السّنة توفى رحمه الله .

وقال ابن الأثير(٤) : وفيها توفى أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله بن المستظهر بأمر الله ، ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة ؛ وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين(٥) . وبويع ولده أبو المظفر يوسف ، ولقب بالمستنجد (١٩٧) بالله(٦) . فأقرّ ابن هبيرة على وزارته .

---

(١) فى ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٩ — ٣٦٠ . وهو اقتباس حرفى .

(٢) وكان قد تولى قضاء دمشق وبقى فيه حتى استقال فى هذه السنة ، ودرس فى المدرسة المجاهدية الجوانية التى أنشأها مجاهد الدين مامين ؛ وتوفى القاضي زكى الدين سنة ٥٦٨ . الدارس فى تاريخ المدارس : ١ : ٤٥٣ — ٤٥٤ .

(٣) تقدم شيء من التعريف به . انظر ص ١٥ حاشية : ٦ من هذا الكتاب . وبيته مشهور بالعلم والقضاء والفتيا . راجع : طبقات الشافعية للسبكى ؛ وفيات الأعيان ؛ الوافى بالوفيات ؛ وغيرها ، فى مواضع مختلفة .

(٤) فى الأتابكة : ٢٠٤ . باختصار والتزام لحرفية المصدر .

(٥) من سنة ٥٣٠ (١١٣٦ م) إلى سنة ٥٥٥ (١١٦٠ م) .

(٦) وبقى فى الخلافة حتى سنة ٥٦٦ (١١٧٠ م) .

قال[1] : وفيها حج زين الدّين على وأحسن إلى النّاس فى طريق مكة ، وأكثر الصدقات . فلمّا وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله ؛ فلما لبس الخلعة كانت طويلة ، وكان قصيرا جدّا ، فمدّ يده إلى كراته وأخرج ما شدّ به ، وقصّر الجبّة . فنظر المستنجد إليه واستحسن ذلك منه ، وقال لمن عنده : مثل هذا يكون الأمير والجندى لا مثلكم .

قلت : وفيها توفى المستخلف بمصر ، الملقّب بالفائز بن الظافر بن الحافظ[2] ؛ وولى بعده ابن عمّه العاضد بن يوسف بن الحافظ ؛ وهو آخر خلفاء مصر . ووصل من الصالح بن رزّيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك ، فكتب إليه :

هناءً بنعمى قلّ عن قدرها الشكر ... وصبرا لرزء لا يقوم به الصبر
مضى الفائز الطّهر الإمام ، وقام بالـ ... إمامة فينا بعده العاضد الطهر
إماماً هُدًى لله ، فى نقل ذا إلى ... كرامته ، وفى إقامة ذا سِرّ
فعش أبدا ، واسلم لهم يا كفيلهم ... تدافعُ عنهم كل حادثة تعرو .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

قال ابن أبى طىّ : فى هذه السّنة حج أسد الدّين من الشّام وخرج فى محمل عظيم وشارة رائقة ؛ واستصحب معه من الأزواد والكسى أشياء عظيمة . ويقال إنه كان معه ألف نفس يجرى عليهم الطعام والشراب . وحج على كوچك المعروف بزين الدّين من العراق ؛ وحجّ ملهم أخو ضرغام وزير مصر ؛ فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير ، واستغنى بسببهم أهل الحجاز . وعاد أسد الدّين سالما وخرج نور الدين إلى لقائه ، وكان يوم وروده يوماً عظيما .

وقال أيضا : وفيها قتل الصّالح ابن رزّيك بمصر وكان سبب قتله أن عمة العاضد عملت على قتله ، وأنفذت الأموال إلى الأمراء . فبلغ ذلك الصالح ، فاستعاد الأموال ، واحتاط

(١) ابن الأثير فى كتاب الأتابكة : ٢٠٦ . وهو اقتباس حرفى مع شىء من الحذف .

(٢) كان تولى الخلافة سنة ٥٤٩ (١١٥٤ م) .

على عمّة العاضد . قال : وإنما كرهته عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة ، وحفظه للأموال . وقتل الصالح بسببها جماعة من الأمراء ونكبهم ، وتمكّن من الدّولة تمكناً حسنا . ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه ، وبذلت لقوم من السّودان مالاً جزيلاً حتى أوقعوا به الفعل : جلسوا له فى بيت فى دهليز القصر مختفين فيه . فلمّا كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر ودخله ، وسلّم على العاضد ، وخرج من عنده ، فخرج عليه الجماعة ، ووقعت الصّيحة . فعثر الصّالح بأذياله ، فطعنه أحدهم بالسّيف فى ظاهر رقبته ، فقطع أحد عمودى الرّقبة ، (٩٧ ب) وحمل إلى باب القصر ، وأصيب ولده رزّيك فى كتفه . ولما حصل الصّالح فى داره أوصى ولده رزيك[1] ، ومات بعد ساعة من ذلك اليوم .

قال العماد[2] : وانكسفت شمس الفضائل ، ورخص سعر الشعر ، وانخفض علم العلم ، وضاق فضاء الفضل ؛ وعمّ رزء ابن رزيك ، وملك صرف الدّهر ذلك المليك . فلم تزل مصر بعد منحوسة الحظّ ، منجوسة الجدّ ، منكوسة الراية ، معكوسة الآية ، إلى أن ملكها يوسفها الثانى ، وجملها بمثانى المعانى ، وأنشر رميمها ، وعطّر نسيمها ، وتسلم قصرها ، والتزم خصرها . قال زين الدين الواعظ[3] : عمل فارس المسلمين ، أخو الصالح ، دعوة فى شعبان من السنة التى قتل فيها فعمل هذه الأبيات وسلمها إلى :

أنست بكم دهرا ، فلما ظعنتم اشـ ... تفرت بقلبى وحشة للتفــــرق

ومنها :

وأعجب شيء أننى يوم بينكم ... بقيت ، وقلبى بين جنبى ما بقى

أرى البعد ما بينى و بين أحبتى ... كبعد المدى ما بين غرب ومشرق

ألا جدّدى يانفس وجداً وحسْرة ... فهذا فراق بعــــده ليس نلتقى

قال : فلم يبق بعدها لهم اجتماع فى مسرّة ، وقتل فى شهر رمضان .

(١) الذى تولى الوزارة بعده ولقب بالملك العادل .

(٢) فى خريدة القصر : قسم شعراء مصر : ١ : ١٧٤ — ١٧٥ . باختصار .

(٣) هوزين الدين أبو الحسن على بن إبراهيم بن نجا الفقيه الحنبلى الواعظ ، ويعرف بابن نُجية . أحب الوعظ واشتغل به فعرف به . أرسله نور الدين فى مهمة إلى بغداد سنة ٥٦٤ فكساه الخليفة خلعة فاحتفظ بها وكان يلبسها فى الأعياد . اقتنى ابن نجا أموالا عظيمة حتى قيل إنه كان فى داره عشرون جارية للفراش ، وكان يقدم فى داره من الأطعمة الكثيرة الجيدة ما لا يقدم فى دور الملوك ، ومات مع هذا فقيرا ، سنة ٥٩٩ ، فكفنه أصحابه . شذرات الذهب : ٤ : ٣٤٠ — ٣٤١ .

قلت : ولعمارة اليمنى ولغيره مدائح فى الصالح ومراثٍ جليلة ، وقد أثنى عليه كثيراً فى كتاب الوزراء المصريّة وقال[١] : لم يكن مجلس أنسه ينقطع إلا بالمذاكرة فى أنواع العلوم الشرعيّة والأدبية ، وفى مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته . قال : وكان مرتاضاً ، قد شم أطراف المعارف ، وتميز عن أجلاف الملوك . وكان شاعرا يحب الأدب وأهله ، يكرم جليسه ، ويبسط أنيسه ، ولكنه كان مفرط العصبية فى مذهب الإمامية . وكان مرتاضاً حصيفاً قد لقى فى ولايته فقهاء السّنة وسمع كلامهم .

قال[٢] : ودخلت عليه قبل أن يموت بثلاث ليال ، وفى يده قرطاس وقد كتب فيه بيتين من شعره عملهما فى تلك السّاعة :

نحن فى غفلة ونوم ، والموْ ... ت عيونٌ يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحِمام سنينا ... ليت شعرى ! متى يكون الحِمام ؟

قال :[٣] ومن عجيب الاتّفاق أنى أنشدت ابنه مجد الإسلام ، فى دار سعيد السعداء ، ليلة السّادس عشر من شهر رمضان ، أو السابع عشر ، قصيدة أقول فيها :

أبوك الذى تسطو الليالى بحدّه ... وأنت يمين ، إن سطا ، وشمال
(١٩٨ ا) لرتبته العظمى ، وإن طال عمره ... إليك مصير واجب ومآل
تخالسك اللّحظ المصون ، ودونها ... حجاب شريف ، لا انقضى ، وحجال

قال : فانتقل الملك بعد ثلاثٍ إليه :

قال : ومما رثيته به قولى :

أفى أهل ذا النادى عليم أسائله ... فإنى لما بى ذاهب اللّبّ ذاهله
سمعت حديثا أحسد الصّمّ عنده ... ويذهل واعيه ويخرس قائله
فقد رابنى من شاهد الحال أننى ... أرى الدّست منصوبا وما فيه كافله

---

(١) فى كتاب النكت العصرية : ٤٧ — ٤٨ .
(٢) نفس المصدر : ٤٨ — ٤٩ .
(٣) نفس المصدر : ٤٩ — ٥٠ .

وأنى أرى فوق الوجـــوه كآبة ... تدل على أن الوجوه ثواكله

دعونى ، فما هذا بوقت بكائه ... سيأتيكم طلُّ البكاء ووابله

ولِمْ لا نبكّيه ونندب فقـــده ... وأولادنا أيتـــــامه وأرامله

فياليت شعرى بعــــد حسن فعاله ... وقد غاب عنّا ، ما بنا الدّهر فاعله !

أيكرم مثوى ضـــيفكم وغريبكم ... فيسكن ، أم تُطوى ببين مراحله !

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه[1] :

طمع المرء فى الحيـــاة غرور ... وطويل الآمال فيها قصـــير

ولكم قــــدّر الفتى فأتته ... نُوَبٌ لم يحط بها التقـــدير

فمتى ختم الحياة عنك حِمـــام ... لا يراعى إذناً ولا يستشير

ما تخطّى إلى جلالك إلا ... قدَرٌ أمره علينـــا قدير

يا أمير الجيوش ، هل لك عـــلم ... أنّ حرَّ الأسى علينـــا أمير

إن قبرا حللتـــــه لغنىٌّ ... إن دهرا فارقتـــــه لفقير

انطوى ذلك البساط ، وعهدى ... وهو بالعلم والنّـــدى معمور

لا تظنّ الأيام أنك ميت ... لم يمت من ثناؤه منـــشور

إن مضى كافل فهـــذا كفيل ... أو وزيرٌ يغبْ فهـــذا وزير

دولة صالحيّـــة ، خلفتها ... دولة عادليّـــة لا تجور

ما شكونا كسر النوائب حتى ... قيل فى الحال كسْرُكم مجبور

نصر النّاصر العلا بالعوالى ... وانعم المولى ونعم النصـــير

وقال أيضاً يرثيه ، ويذكر الظفر بقاتليه ، ويصف نقل تابوته إلى مشهده بالقرافة ، قصيدة طويلة منها[2] :

(١) الأبيات الستة الأولى فى النكت العصرية : ٥٠ — ٥١ .

(٢) وردت بعض أبيات هذه القصيدة فى النكت العصرية : ٦٣ — ٦٥ .

قد كنت أشرَق من ثماد مدامعي أسفاً ، فكيف وقد طمى التيار

عمَّ الورى يوم الخميس ، وخصّني خطب بأنف الدهر منه صغار

ما أوحش الدّنيا غديّة فارقت قطبا رحى الدنيا عليه تدار

خربت ربوع المكرمات لواحد عمرت به الأحداث وهى قفار

نعش الجدود العاثرات مشيّع عشيت برؤية نعشه الأبصار

نعش يودّ بنات نعش لَوْ غدت ونظامها أسفا عليه نثار[(١)]

(٩٨ب) شخص الأنام إليه تحت جنازة خفضت لرفعة قدرها الأقدار

سار الإمام أمامها ، فعلمت أن قد شيعتها الحسنة الأبرار

ومشى الملوك بها حفاةً ، بعد ما حفّت ملائكة بهـا أطهار

فكأنها تابوت موسى أودعت فى جانبيه سكينة ووقار

لكنه ما ضمّ غير بقيّة الْ إسلام وهو الصالح المختار

أقطنته[(٢)] دار الوزارة ريثما بنيت لنُقلته الكريمة دار

وتغاير الهرمان والحرمان فى تابوته ، وعلى الكريم يُغار

آثرت مصراً منه بالشّرف الذى حسدت قرافتها له الأمصار

وجعلتها أمنـاً به ومثابة ترجو مثابة قصدها الزّوار

قد قلت إذ نقلوه نقلة ظاعن نزحت به دار وشطّ مزار

ما كان إلا السّيف جدّد غمده بسواه ، وهو الصّارم البتّار

والبدر فارق بُرجه متبدّلا برحابه تتشعشع الأنوار

والغيث روّى بلْدة ثم انتحى أخرى ، فنوء سحابه مدرار

---

(١) بنات نعش الكبرى سبعة كواكب ، أربعة منها نعش وثلاث بنات ، وكذلك بنات نعش الصغرى . وتنصرف نكرة لا معرفة ، وواحدها ابن نعش ، ويقال : هو أخفى من نعيش فى بنات نعش القاموس المحيط ؛ أساس البلاغة .

(٢) فى النكت العصرية ، ص ٦٤ : أوطنته .

يا مُسبل الأستار دون جلاله ... ماذا الذى رفعت له الأستار
مالى أرى الزوّار بعد مهابة ... فوضى ، ولا إذن ولا استئمار
غضب الإله على رجال أقدموا ... جهلاً عليك ، وآخرين أشاروا
لا تعجبا لقدار ناقة صالح ... فلكل دهر ناقة وقدار
واخجلتا للبيض : كيف تطاولت ... سفها بأيدى السّود وهى قصار !
واحسرتا : كيف انفردت لأَعْبدٍ ... وعبيدك السّادات والأحرار !
رصدوك فى ضيق المجال بحيث لاالْ ... خطّىّ متّسع ولا الخطّار
ما كان أقصر باعهم عن مثلها ... لو كنت متروكا وما تختار
ولقد ثبتّ ثبات مقتدر على ... خذلانهم لو ساعد المقدار
وتعثرت أقدامهم بك هيبة ... لو لم يكن لك بالذيول عثار
أحللت دار كرامة لا تنقضى ... أبداً ، وحلّ بقاتليك بوار
يا ليت عينك شاهدت أحوالهم ... من بعدها ، ورأت إلى ما صاروا
وقع القصاص بهم ، وليسوا مقنعاً ... يرضى ، وأين من السماء غبار
ضاقت بهم سعة الفجاج ، وربّما ... نام العدوّ ولا ينام الثار
وتوهّموا أن الفرار مطيّة ... تنجى ، وأين من القضاء فرار
طاروا فمدّ أبو الشجاع لصيدهم ... شرك الرّدى ، فكأنهم ما طاروا
فتهنّ بالأجر الجزيل وميتة ... درجت عليها قبلك الأخيار
مات الوصىّ بها ، وحمزة عمّه ... وابن البتول ، وجعفر الطّيّار
نلت السعادة والشهادة والعُلا ... حيّا وميتاً ، إنّ ذا لَفَخار
ولقد أقر العين بعدك أروعٌ ... لولاه لم يك للعلا استقرار
النّاصر الهادى ، الذى حسناته ... عن سيئات زماننا أعذار
لمّا استقام لحفظ أمة أحمد ... عمرت به الأوطان والأوطار

(١٩٩) ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير[١] : فيها جمع نور الدين العساكر وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجدّ فى قتالها ، فامتنعت عليه ، لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم . واجتمع الفرنج من سائر البلاد وساروا نحوه ليرحّلوه عنها ؛ فلما قاربوه طلب منهم المصافّ[٢] ، فلم يجيبوه إلى ذلك ، وراسلوه وتلطّفوا الحال معه[٣] ، فعاد إلى بلاده . وممّن كان معه فى هذه الغزاة الأمير مؤيد الدّولة أسامة بن مرشد بن منقذ ، وكان من الشّجاعة فى الغاية التى لا مزيد عليها . فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد سيرين ، وكان قد دخله فى العام الماضى سائراً إلى الحج ؛ فلمّا دخله عامئذ كتب على حائطه :

لك الحمد يا مولاى . كم لك منّـــة   علىّ ، وفضل لا يحيط به شكرى
نزلت بهــــذا المسجد العام قافلا   من الغزو ، موفورالنّصيب من الأجر
ومنـــه رحلتُ العيس فى عامى الذى   مضى نحو بيت الله ذى الرّكن والحجر
فأدّيت مفروضى ، وأسقطت ثقل ما   تحمّلت من وزر الشّبيبة عن ظهرى

قلت : أذكرنى هذا ما كتبه أسامة أيضا بمدينة صور وقد دخل دار ابن أبى عقيل فرآها وقد تهدّمت وتغيّرت زخرفتها ، فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات[٤] :

إحذر من الدّنيـــا ، ولا   تغترّ بالعمر القصـــــير
وانظـــر إلى آثار من   صرعتــــه منّا بالغرور
عمروا وشـــادوا ماترا   هُ من المنــازل والقصور
وتحولوا من بعــد سُكـ   ـناها إلى سكنى القبـــور

(١) فى الأتابكة ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٢) البروز للنّزال والحرب .

(٣) فى الأتابكة هنا : فلما رأى أنه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده ... الخ .

(٤) ديوان أسامة بن منقذ : ٢٨١ .

قلت : ابن أبى عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن أبى عقيل صاحب صور ، ويلقّب عينَ الدولة . مات سنة خمس وستين وأربعمائة ، واستولى على صور ابنه النّفيس . والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير[1] : فيها جمع نور الدّين عساكره ودخل بلاد الفرنج ، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد[2] ، وهو للفرنج ، عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس . فبينما النّاس فى بعض الأيام فى خيامهم فى وسط النّهار ، لم يرعهم إلاّ ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذى عليه الحصن فكبسوهم . فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا ، فانهزموا . ووضع الفرنج السّيف ، وأكثروا القتل والأسر ، وقصدوا خيمة الملك العادل ، فخرج عن ظهر خيمته مجلاً بغير قباء ، فركب فرسا هناك للنوبة[3] ، ولسرعته ركبه وفى رجليه شُبْحة[4] ، فنزل إنسان من الأكراد فقطعها ، فنجا نور الدّين وقتل الكردى ؛ فسأل نور الدين عن مخلّفى ذلك الكردى فأحسن إليهم ، جزاء (٩٩ ب) لفعله . وكان أكثر القتل فى السّوقة والغلمان وسار نور الدين إلى مدينة حمص ، فأقام بظاهرها ، وأحضر منها ما فيها من الخيام ، ونصبها

---

(١) اقتباس حرفى ، وببعض حذف ، من الأتابكة : ٢٠٨ — ٢١١ .

(٢) حصن منيع على جبل الجليل المتصل بجبل لبنان ، ويقابل هــذا الجبل حمص من جهة الغرب . وكان بعض أمراء الشام بنى فيه برجا وجعل فيه قوما من الأكراد طليعة بينه وبين الفرنج ، فاستقروا فيه بأهليهم ثم حصنوه حتى أصبح ذا منعة قوية فى طريق الفرنج المغيرين ، فاشتراه الفرنج من المقيمين به من الأكراد فرجعوا إلى بلادهم واحتله الفرنج . معجم البلدان : ٣ : ٢٨٤ .

(٣) فرس النوبة هى التى تربط قريبا من قصر السلطان أو خيمته ليركبها حين يريد الركوب . وللفظ النوبة معان اصطلاحية ، منها : فرق الخيل التى تتناوب الوقوف لحراسة السلطان ، وهى عادة خمس نوبات يكون تغييرها فى الصباح والظهر والعصر والعشاء وعند منتصف الليل . والنوبة أيضاً الوقعة الحربية . ويقال ضربت النوبة إذا صدر الأمر للعسكر بالتقهقر . السلوك : ١ : ٤٦١ : حاشية : ٢ .

(٤) والجمع شبح : سلسلة يربط بها قدم الحصان ، فى أحد طرفيها عروة تزر فى القدم ، وفى الآخر وزة أو وتد يدق فى الأرض : Dozy, Supp. Dict. Ar. .

على بحيرة قَدَس[1] على فرسخ من حمص ، و بينها و بين مكان الواقعة أربعة فراسخ ؛ وكان النّاس يظنون أنه لا يقف دون حلب ، وكان رحمه الله أشجع من ذلك وأقوى عزما . ولمّا نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل من نجا من المعركة ، فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأى أن نقيم ههنا ، فإن الفرنج ربما حملهم الطّمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال فوبّخه وأسكته ، وقال : إذا كان معى ألف فارس فلا أبالى بهم قلّوا أو كثروا ؛ وَوَالله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأرى . ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدّوابّ والأسلحة والخيام ، وسائر ما يحتاج إليه الجند ، فأكثر ، وفرّق ذلك جميعه على من سلم . وأما من قتل[2] فإنّه أقرّ إقطاعه على أولاده ، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله . فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد .

وأما الفرنج فكأنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة ، لأنها أقرب البلاد إليهم . فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوّة أن يمنعنا . وكان نور الدّين رحمه الله قد أكثر الخرج إلى أن قسّم فى يوم واحد مائتى ألف دينار ، سوى غيرها من الدّوابّ والخيام والسّلاح وغير ذلك . وتقدّم إلى ديوانه أن يحضروا الجند و يسألوا كل واحد منهم عن الذى أخذ منه ، فكل من ذكر شيئاً أعطوه عوضه ، فحضر بعض الجند وادّعى شيئاً كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادّعاه لمعرفتهم بحاله . فأرسلوا إلى نور الدّين يُنهون إليه القضية ، و يستأذنونه فى تحليف الجندى على ما ادّعاه . فأعاد الجواب : لا تكدّروا عطاءنا ، فإنى أرجو الثّواب والأجر على قليله وكثيره . وقال له أصحابه إن لك فى بلادك إدْرارتٍ كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصّوفيّة والقرّاء ، فلو استعنت بها

---

(١) قدس بلدة من أعمال حمص بالشام . وطول هذه البحيرة اثنا عشر ميلا ، وعرضها أربعة أميال ، وتمتد بين حمص وجبل لبنان بحيث تنصب فيها مياه الجبل ، ثم تخرج منها مكونة نهرا عظيما هو العاصى الذى تقع عليه حماة وشيزر ، ويصب النهر فى البحر قرب أنطاكية . معجم البلدان : ٢ : ٨٠ — ٨١ ؛ ٧ : ٣٥ .

(٢) فى الأتابكة زيادة كلمتى: أو أسر .

الآن لكان أمثلى . فغضب من هذا وقال : والله إنى لا أرجو النصر إلا بأولئك[1]، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى ، بسهام لا تخطئ ، وأصرفها إلى من يقاتل عنى إذا رآنى بسهام قد تخطىء وتصيب ؟ ! ثم هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال أصرفه إليهم ، كيف أعطيه غيرهم ؟ ! فسكتوا .

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين فى المهادنة فلم يجبهم إليها ؛ فتركوا عند الحصن من يحميه ، وعادوا إلى بلادهم وتفرّقوا .

قلت : وفى هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول أبوالفرج عبيد الله بن أسعد الموصلى نزيل حمص ، من جملة (١٠٠ ا) قصيدة فائقة يمدح بها نور الدّين رحمه الله تعالى أوّلها :

ظُبا المواضى وأطراف القنا الذّبل ... ضوامنٌ لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كاف ما تحاوله ... عزٌّ ، وعزم ، و بأس غير منتحل
وما يعيبك ما حازوه من سلب ... بالختل ، قد تؤسر الآساد بالحيل
وإنما أخلدوا جبْناً إلى خدع ... إذ لم يكن لهمُ بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد الله غفلتكم ... لينفذ القدر المحتوم فى الأزل
حتى أتوكم ولا المــاذىّ من أمم ... ولا الظبا كثب من مرهق عجل
قَنًا لِقًا ، وقسىّ غير موترة ... والخيل عازبة ترعى مع الهمل
ما يصنع اللّيث لا ناب ولا ظفر ... بما حواليه من عفر ومن وعل
هلاّ ، وقد ركب الأسد الصقور وقد ... سلّوا الظبا تحت غابات من الأسل
وإنّما هم أضاعوا حزمهم ثقة ... بجمعهم ، ولكم من واثق خجل

(١) فى مقابل هذا فى ك بالهامش حاشية نصها : « حاشية : قال المؤلف : هذا حديث حسن صحيح ، أورده الترمذى عن أبى الدرداء ، قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : القوى فى ضعفائكم ، فإنما ترزقون أو تنصرون بضعفائكم . وأخرج النسائى من حديث سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها : بدعوتهم ، وصلاتهم ، وإخلاصهم . وفى صحيح البخارى عن مصعب عن سعد ، قال : رأى سعد له فضلا على من دونه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ! والله أعلم » . اهـ .

بنى الأصـــافر ما نلتم بمكركم … والمكر فى كل إنسان أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى ، خاب سعيكم … غـير الأراذل والأتباع والسّفل
ســلبتم الجرد مُعراةً بلا لجم … والسّمر مركوزةً ، والبيضَ فى الخلل
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها … مثال آخذها فى الشّكل والطول
أم سالب الرمح مركوزًا ، كسالبه … والحرب دائرة من كف معتقل
جيش أصابتهمُ عين الكمال ، وما … يخلو من العين إلاّ غيرُ مكتمل
لهم بيوم حُنين أســـوة ، وهمُ … خير الأنام ، وفيهم خاتم الرسل
سيقتضيكم بضرب عنـد أهونه … البيض كالبيض ، والأدراع كالحلل
مَلْك بعيد من الأدناس ، ذو كلف … بالصدق فى القول والإخلاص فى العمل

ومنها :

فالسّمر ما أصبحت ، والشمس ما أفلت … والسّيف ما فلّ ، والأطواد لم تزل
كم قد تجلّت بنـور الدّين من ظُلَم … للظلم ، وانجاب للإضلال من ظلل (١)
قل للمُولّين : كفوا الطرف من جبن … عند اللقاء ، وغضوا الطرفَ من خجل
طلبتم السهل تبغـون النجاة ، ولو … لذتم بملكـكم لذتم إلى جبـل
أسلمتموه ووليتم ، فأســـلمكم … بثبتة لو بناهـا الطّود لم يمل
فقام فردًا وقـــد ولّت جحافله … فكان من نفسه فى جحفل زجل
فى مشهد ، لو ليوث الغيل تشهده … خرّت لأذقانها من شـدّة الوهل
وسط النّدى وحده ثبت الجنان ، وقد … طارت قلوبٌ على بعد من الوجل
يعـــود عنهم رويدًا غير مكترث … بهم ، وقد كرّ فيهم غـــير محتفل
يزداد قــدمًا إليهم من تيقّنه … أن التأخر لا يحمى من الأجـــل

(١) فى ق ٩٧ ا ورد الشطر الثانى هكذا :

* وانجاب للإضلال من ظلم *

وبهذا لا يستقيم وزن البيت

ما كان أقربهم من أسر أبعدكم   لو أنهم لم يكونوا منه فى شغل
ثباته فى صدور الخيل أنقذكم   لا تحسبوا وثبات الضمّر الذّلل
ما كلّ حين تصاب الأسد غافلة   ولا يصيب الشّديد البطش ذو الشلل
والله عونك فيما أنت مزمعه   كما أعانك فى أيامك الأول
كم قد ملكت لهم ملكا بلا عوض   وحُزْتَ من بلد منها بلا بدل
(١٠٠ ب) وكم سقيت العوالى من طلى ملك   وكم قريْت العوافى من قِرى بطل
لاَ نكّبت مهمك الأقدارُ عن غرض   ولا ثنت يدك الأيامُ عن أمل

قلت : حاول ابن أسعد فى هذه القصيدة ما حاوله المتنبى فى قوله :

* غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع * ... القصيدة

فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون ؛ وقد أحسنا معاً ، عفا الله عنهما .

وعبيد الله بن أسعد هذا فقيه فاضل وشاعر مفلق ، كان مدرسا بحمص يعرف بابن الدّهان ، وله ترجمة فى تاريخ دمشق . وقد ذكره العماد الكاتب فى خريدته ، فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره ؛ وسيأتى ذكره أيضاً فى هذا الكتاب فى أخبار سنة سبعين ، وست وسبعين ، وثمان وسبعين ، إن شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، توفى عبد المؤمن بن على ، خليفة المهدى محمد بن تومرت[1] ، صاحب المغرب ؛ وولى بعده ابنه يوسف .

---

(١) محمد بن تومرت بربرى من قبيلة مصمودة ، دعا إلى التوحيد فى أوائل القرن الخامس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) وتلقب بالمهدى وتوفى سنة ٥٢٢ (١١٢٨ م) ، تاركا زعامة قومه لقائد جيوشه وصديقه عبد المؤمن بن على ، الذى قاد الحركة بعده مؤسسا حكم أسرة الموحدين بعد أن واصل فتوحه فى الجزائر ومراكش ، وهى الفتوح التى توجت ، سنة ٥٤١ (١١٤٦ م) ، بفتح مراكش وإسقاط دولة المرابطين . وتوفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ (١١٦٣) ، كما ذكر أبو شامة هنا ، وخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف الأول الذى توفى سنة ٥٨٠ (١١٨٤) .

إلى هنا ينتهى القسم الأول من الجزء الأول من كتاب الروضتين ؛ ويليه ، بعون الله ، القسم الثانى وأوله :

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة .

EGYPTIAN NATIONAL LIBRARY AND ARCHIVES

Center of editing arabic texts

KITĀB
AL-RAWDATAYN FI AḪBĀR
AL-DAWLATAYN
AL-NŪRIYYA WAL-ṢALĀHIYYA

BY

ABŪ ŠĀMA

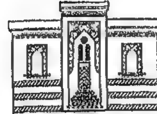
Šihāb al-Din Ar. b. Ism. al-Maqdisī

Vol. I- Part I

Edited by

Prof. Muh. Ḥilmī Muh. Ahmad

[2nd EDITION]



NATIONAL LIBRARY PRESS - CAIRO

1998

KITĀB AL-RAWDATAYN FI AḪBĀR AL-DAWLATAYN

AL-NŪRIYYA WAL-ṢALĀHIYYA

دار الكتب والوثائق القومية
مركز تحقيق التراث

كتاب الروضتين

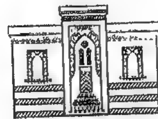
فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف
شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى
المعروف بأبى شامة

نشر وتحقيق
الدكتور محمد حلمى محمد أحمد

الجزء الأول ـ القسم الأول

الطبعة الثانية



مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٩٩٨

كتاب الروضتين

في أخبار الدولتين

النورية والصلاحية

الطبعة الأولى

بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٦م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب

١٩٩٨م

تصدير

اتجه المؤرخون السالفون ، من أهل القرن الماضى فى مصر ، إلى العمل فى إحياء أمهات التاريخ المصرى الإسلامى ، بنشر الكتب التاريخية الكبرى والصغرى ، تحدوهم روح من الحماسة الثقافية الحميدة ، أكثر من أن تحدوهم روح من التؤدة العلمية الناقدة . لذلك اكتفوا فى معظم ما نشروا من الكتب بنسخة مخطوطة واحدة ، دون أن تكون وحيدة ، واعتمدوا عليها كل الاعتماد ؛ وهرعوا بها إلى ناسخ ينسخها فى خط واضح تسهيلا و " تشهيلا " لعمال الصف بالمطبعة ، أو إلى المطبعة مباشرة لتقديمها للطبع ، أو إلى ما يقرب من هذا أو ذاك حباً فى إخراج مرجع من المراجع التاريخية من ظلمة المخطوطات إلى نور المطبوعات .

ولم يعرف أولئك السالفون ما اتخذه المستشرقون الأوربيون المعاصرون لهم من قواعد أساسية للنشر السليم المأمون ، فلم يبحثوا — أو لم يستطيعوا البحث — عما عساه يوجد من نسخ خطية قليلة أو كثيرة من كتاب واحد ، رغبة فى مقابلتها ومقارنتها بعضها إلى بعض ، لاختيار أحسنها وأصلحها للنشر ، كما لم يهتموا بالكشف عن المراجع الموازية التى يمكن الاستعانة بها فى تحقيق المتن أو تعديله أو تنويره ، بل لم يعنوا بالرجوع إلى المعاجم اللغوية إلا قليلا لشرح ما يغلق أحياناً من الألفاظ .

وتنطبق هذه الصفات السلبية كلها على الطبعة القاهرية القديمة لكتاب الروضتين لأبى شامة ، إذ تم طبعه سنة ١٨٧٠ م ، " من نسخة أصل باليد فريدة " ، كما جاء فى حرد الخاتمة . ثم إن ناشر تلك الطبعة القاهرية ، واسمه أبو السعود أفندى المترجم بقلم الترجمة بديوان عموم المدارس المصرية ، وهو من تلامذة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ، تقشف فى أعمال التصحيح والتوضيح والتحشية إلى درجة التحريم إلا من حاشية واحدة فريدة فى

الجزء الثانى (ص، ٧٣) ، وهى لا تعدو عبارة صماء بكماء فى سبعة ألفاظ ، فى نصف سطر ، وكلها لا تقـدم ولا تؤخر شيئاً . وأعقب الناشر تلك الخاتمة التقليدية بترجمة وجدها لأبى شامة فى ظهر مخطوطته ، وهى على أية حال منقولة أصلا من كتاب فوات الوفيات لابن شاكر الـكتبى ، وهـذه بالإضافة إلى فهرست يحتوى على "ما لا بد من التنبيه عليه من الخطأ والصواب" ، فى كل من الجزءين فى تلك الطبعة القاهرية المشكورة فى زمانها .

وأود أن يترك القارئ جانباً بقية هذا التصدير ، وأن ينتقل عنه إلى ما يليه من مقدمة الناشر هنا للطبعة الجديدة ، ليتتبع معه الطريقة التى سار عليها فى عمله ، والنسخ التى استخدمها قبل تقرير الاعتماد على إحداها لتكون أصلا للنشر ، والجهود التى بذلها فى ترتيب المتن وتـكميله ، والحواشى التى كتبها لتوضيح غوامضه ومغاليقه ، فضلا عن تنوع المراجع التى استمد منها حواشيه . والقارئ لا يستطيع بعد هذه المقدمة إلا أن يدرك الفرق الشاسع بين النشر قديماً وحديثاً ، وأن يهنئ الناشر على ما أوتى من مثابرة ودقة ، وصبر وإخلاص لوجه التاريخ ، وهو ما يشاركنى القارئ فى تقديمه فى هـذا التصدير ، ولا سيما بعد أن يقرأ المتن لنفسه ، كما قرأته لنفسى مراجعته قبل الطبع . على أنى لا أريد بهذا تهنئة تقليدية أو ثناء تشجيعياً ، بل أريد تنويهاً خاصاً إلى عمل علمى طيب سليم مضى الناشر فى إعداده منذ سنين ، دون أن يعلم به أحد سواى ولجنة التأليف والترجمة والنشر . وأحب هنا أن أشكر اللجنة على التوسع فى إحياء المخطوطات من التراث العربى القديم ، فى مستويات علمية جديرة بالعصر الحديث ، وأن أشكر القائمين على مطابع اللجنة حرصهم على إخراج هذه الـكتب فى إتقان جدير بالمـكتبة العربية الحديثة .

مصر الجديدة { ١ يناير سـنة ١٩٥٧
٣٠ جمادى الأولى سنة ١٣٧٦ }

محمد مصطفى زيادة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

فاتحة كل خير

وتمام كل نعمة